

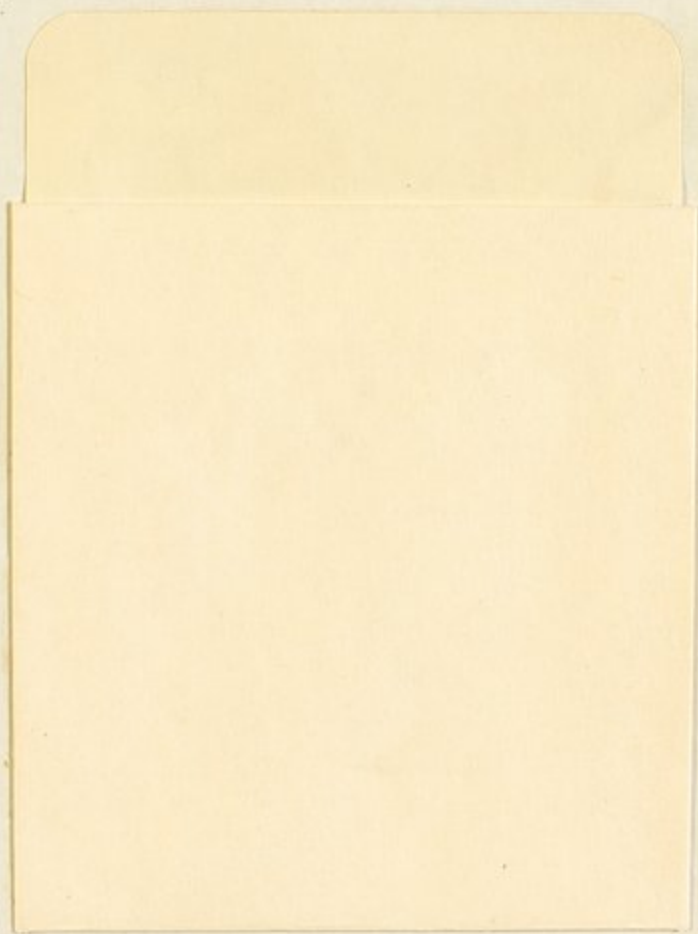
الميزان
في تفسير القرآن
لمؤلفه
الأستاذ العلامة
السيد محمد حسين الطباطبائي

دار المطبع والنشر
الشيخ محمد الأحمدي
بجدة
دار الكتب الإسلامية
طهران - سور الكائنات

2273

.9444

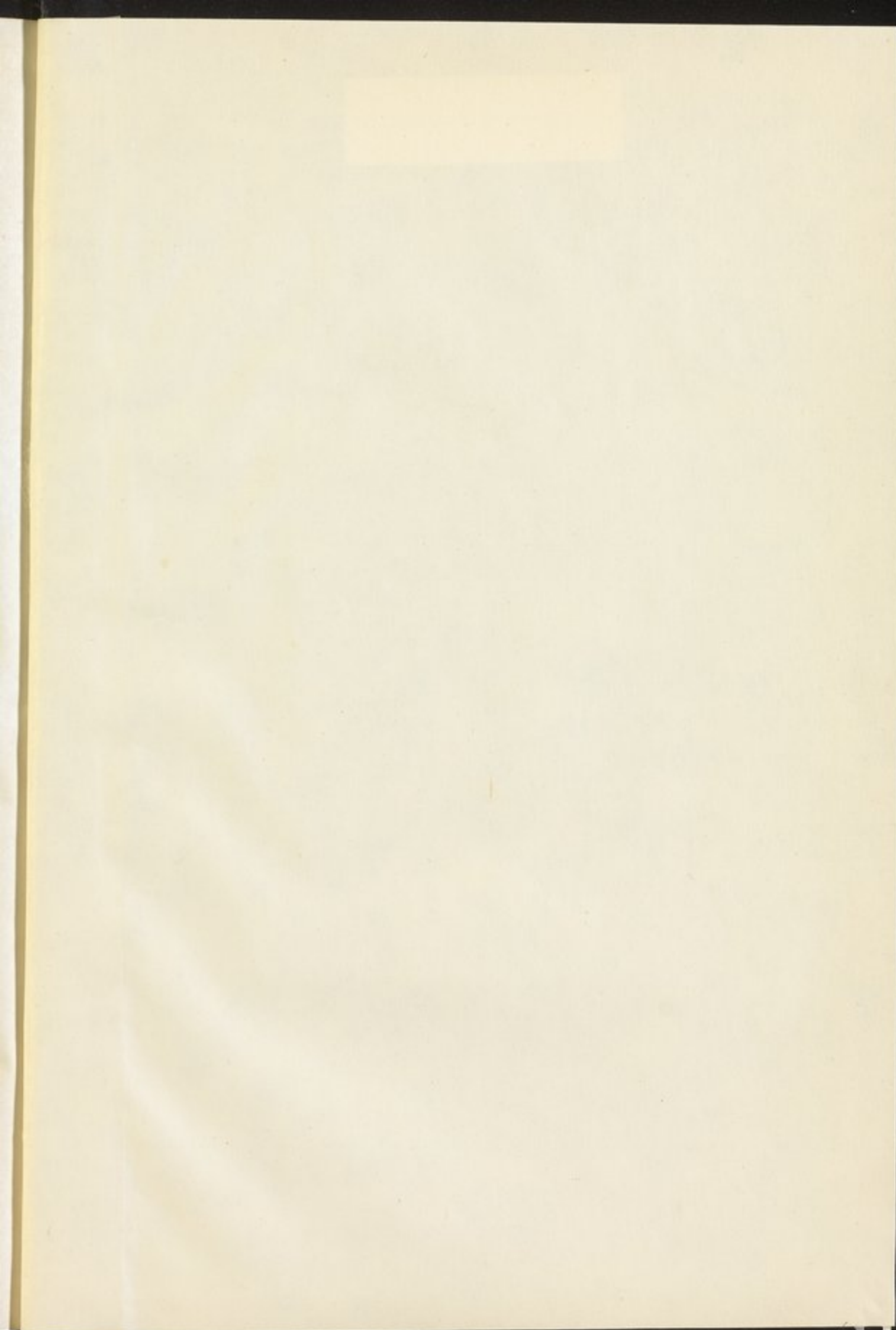
v.18



PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>



32101 019483260



al-Tabātabā'ī, Muḥammad Husayn.

الجزء الثامن عشر

فَرَكَابٍ

الميزان

في تفسير القرآن

لمؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

ملزم الطبع والنشر

الشيخ محمد الأخوندی
تهيئ

دار الكتب الإسلامية

طهران - سوق الشاهباني

١٣٩٠ ق

مطبعة العبيدي بطهران

2273

.9444

v. 18

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سورة الشورى مكية و هي ثلاث و خمسون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ
وَأَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ
وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِنَّ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا أَنْ اللَّهُ
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ
عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) .

﴿بيان﴾

تتكلم السورة حول الوحي الذي هو نوع تكليم من الله سبحانه لأتبيائه ورسله
كما يدل عليه ما في مفتحتها من قوله : « كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
اللَّهُ » الآية ، و ما في مختتمها من قوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا النخ »
الآيات ، ورجوع الكلام إليه مرة بعد أخرى في قوله : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا
عربيا » الآية ، وقوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » الآية ، وقوله : «اللَّهُ



الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان» الآية وما يتكرر في السورة من حديث الرزق على ماسيجيء .

فالوحي هو الموضوع الذي يجري عليه الكلام في السورة وما فيها من التعرض لآيات التوحيد وصفات المؤمنين والكفار وما يستقبل كلاً من الفريقين في معادهم ورجوعهم إلى الله سبحانه مقصود بالقصد الثاني وكلام جره كلام .

والسورة مكيّة وقد استثنى قوله: «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» إلى تمام ثلاث آيات، وقوله: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» إلى تمام أربع آيات وسيجيء الكلام فيها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: «حَمَّ عَسَق» من الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل عدّة من السور القرآنيّة، وذلك من مختصات القرآن الكريم لا يوجد في غيره من الكتب السماويّة .

وقد اختلف المفسرون من القدماء والمتأخرين في تفسيرها وقد نقل عنهم الطبرسي في مجمع البيان أحد عشر قولاً في معناها :

أحدها أنها من المتشابهات التي استأثر الله سبحانه بعلمها لا يعلم تأويلها إلا هو .
الثاني أن كلامها اسم للسورة التي وقعت في مقتتها .
الثالث أنها أسماء القرآن أي لمجموعه .

الرابع أن المراد بها الدلالة على أسماء الله تعالى فقوله: «الم» معناه أنا الله أعلم، وقوله: «المر» معناه أنا الله أعلم وأرى، وقوله: «المص» معناه أنا الله أعلم وأفضل وقوله: «كهيمص» الكاف من الكافي، والهاء من الهادي، والياء من الحكيم، والعين من العليم، والصاد من الصادق، وهو مروى عن ابن عباس، والحروف المأخوذة من الأسماء مختلفة في أخذها فمنها ما هو مأخوذ من أول الاسم كالكاف من الكافي، ومنها ما هو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم، ومنها ما هو مأخوذ من آخر الكلمة كالميم من أعلم .

الخامس أنها أسماء لله تعالى مقطّعة لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله

الأعظم تقول: الرَّحْمَ وَنَ يَكُونُ الرَّحْمَنُ وَكَذَلِكَ سَائِرُهَا إِلَّا أَنَّا لَنَقْدِرُ عَلَى تَأْلِيفِهَا وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ .

السادس أنها أقسام أقسم الله بها فكأنه هو أقسم بهذه الحروف على أن القرآن كلامه ، وهي شريفة لكونها مباني كتبه المنزلة ، وأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، أصول لغات الأمم على اختلافها .

السابع أنها إشارات إلى آلائه تعالى وبلائه ومدّة الأقسام وأعمارهم وآجالهم . الثامن أن المراد بها الإشارة إلى بقاء هذه الأمة على ما يدل عليه حساب الجمل .

التاسع أن المراد بها حروف المعجم وقد استغني بذكر ما ذكر منها عن ذكر الباقي كما يقال : اب ویراد به جميع الحروف .

العاشر أنها تسكيت للكفار لأن المشركين كانوا توأصوا فيما بينهم أن لا يسمعوا للقرآن وأن يلعنوا فيه كما حكاه القرآن عنهم بقوله : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » الآية فربما صفروا وربما صفقوا وربما لغطوا فيه ليغلطوا النبي ﷺ في تلاوته ، فأنزل الله تعالى هذه الحروف فكانوا إذا سمعواها استغربوها و استمعوا إليها وتفكروا فيها و اشتغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن في مسامعهم .

الحادي عشر أنها من قبيل تعداد حروف التهجي والمراد بها أن هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في خطبكم و كلامكم فإذا لم تقدروا عليه فاعلموا أنه من عند الله تعالى ، وإنما كررت الحروف في مواضع استظهارها في الحجّة ، وهو مروى عن قطرب و اختاره أبو مسلم الإصبهاني وإليه يميل جمع من المتأخرين .

فهذه أحد عشر قولاً و فيما نقل عنهم ما يمكن أن يجعل قولاً آخر كما نقل عن ابن عباس في « الم » أن الألف إشارة إلى الله واللام إلى جبريل والميم إلى محمد ﷺ ، و ما عن بعضهم أن الحروف المقطعة في أوائل السور المفتحة بها إشارة إلى الغرض المبيّن فيها كأن يقال : إن « ن » إشارة إلى ما تشتمل عليه السورة من النصر الموعود

للنبي ﷺ ، و «ق» إشارة إلى القرآن أو القهر الإلهي المذكور في السورة ، وما عن بعضهم أن هذه الحروف للإيقاظ .

والحق أن شيئاً من هذه الأقوال لا تطمئن إليه النفس :

أما القول الأول فقد تقدم في بحث المحكم والمتشابه في أوائل الجزء الثالث من الكتاب أنه أحد الأقوال في معنى المتشابه ، وعرفت أن الأحكام والتشابه من صفات الآيات التي لها دلالة لفظية على مدايلها ، وأن التأويل ليس من قبيل المدايل اللفظية بل التأويلات حقائق واقعية تنبعث منها مضامين البيانات القرآنية أعم من محكماتها ومتشابهاتها ، وعلى هذا فلا هذه الحروف المقطعة متشابهات ولا معانيها المراد بها تأويلات لها .

وأما الأقوال العشرة الأخر فإِنما هي تصورات لا تعدى حد الاحتمال ولا دليل يدل على شيء منها .

نعم في بعض الروايات المنسوبة إلى النبي ﷺ وأئمة أهل البيت ﷺ بعض التأييد للقول الرابع والسابع والثامن والعاشر وسيأتي نقلها والكلام في مفادها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى .

والذي لا ينبغي أن يغفل عنه أن هذه الحروف تكررت في سور شتى وهي تسع وعشرون سورة افتتح بعضها بحرف واحد وهي ص و ق و ن ، وبعضها بحرفين وهي سور طه و طس و يس و حم . وبعضها بثلاثة أحرف كما في سورتي «الم» و «الر» و طسم وبعضها بأربعة أحرف كما في سورتي «المص» و «المر» و بعضها بخمسة أحرف كما في سورتي «كهيعص» و «جمعسق» .

وتختلف هذه الحروف أيضاً من حيث إن بعضها لم يقع إلا في موضع واحد مثل «ن» و بعضها واقعة في مفتوح عدة من السور مثل «الم» و «الر» و «طس» و «حم» .

ثم إنك إن تدبرت بعض التدبير في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتوح بها مثل الميمات والآراء والطواسين والحواميم ، وجدت في السور المشتركة في

الحروف من تشابه المضامين و تناسب السياقات ما ليس بينها و بين غيرها من السور .
و يؤكّد ذلك ما في مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ كما في مفتتح الحواميم من
قوله : « تنزيل الكتاب من الله » أو ما هو في معناه ، و ما في مفتتح الآرآت من قوله :
« تلك آيات الكتاب » أو ما هو في معناه ، و نظير ذلك واقع في مفتتح الطواسين ، و ما في
مفتتح المآيمات من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه .

و يمكن أن يحدث من ذلك أن بين هذه الحروف المقطّعة و بين مضامين السور
المفتتحة بها ارتباطا خاصا ، و يؤيد ذلك ما نجد أن سورة الأعراف المصدّرة بالمصّ
في مضمونها كأنّها جامعة بين مضامين المآيمات و ص ، و كذا سورة الرعد المصدّرة بالمرّ
في مضمونها كأنّها جامعة بين المآيمات و الرآآت .

و يستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه و بين رسوله ﷺ
خفية عنّا لاسبيل لأفهامنا العادية إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها و بين المضامين
المودعة في السور ارتباطا خاصا .

و لعلّ المتدبّر لو تدبّر في مشتركات هذه الحروف و قايست مضامين السور التي
وقعت فيها بعضها إلى بعض تبين له الأمر أزيد من ذلك .
و لعلّ هذا معنى ما روته أهل السنة عن عليّ عليه السلام - على ما في المجمع - أن
لكلّ كتاب صفة و صفة هذا الكتاب حروف التهجي .

قوله تعالى : « كذلك يوحى إليك و إلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم
- إلى قوله - العليّ العظيم » مقتضى كون غرض السورة بيان الوحي بتعريف حقيقته
و الإشارة إلى غايته و آثاره أن تكون الإشارة بقوله : « كذلك » إلى شخص الوحي
بإلقاء هذه السورة إلى النبيّ ﷺ فيكون تعريفا مطلق الوحي بشبهه بفرد مشار
إليه مشهود للمخاطب فيكون كقولنا في تعريف الإنسان مثلا هو كزيد .

و عليه يكون قوله : « إليك و إلى الذين من قبلك » في معنى إليكم جميعا ، وإنما
عبّر بما عبّر للدلالة على أن الوحي سنة إلهية جارية غير مبتدعة ، و المعنى أن
الوحي الذي نوحيه إليكم معشر الأنبياء - نبيّا بعد نبيّ سنة جارية - هو كهذا الذي

تجدده و تشاهده في تلقى هذه السورة .

وقد أخذ جمهور المفسرين قوله : « كذلك » إشارة إلى الوحي لا من حيث نفسه بل من حيث ما يشتمل عليه من المفاد فيكون في الحقيقة إشارة إلى المعارف التي تشتمل عليها السورة و تتضمنها و استنتجوا من ذلك أن مضمون السورة مما أوحاه الله تعالى إلى جميع الأنبياء فهو من الوحي المشترك فيه ، وقد عرفت أنه لا يوافق غرض السورة و يأباه سياق آياتها .

وقوله : « العزيز الحكيم له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم » خمسة من أسمائه الحسنی ، و قوله : « له ما في السماوات و ما في الأرض » في معنى المالك ، وهي واقعة موقع التعليل لأصل الوحي و لكونه سنة إلهية جارية فالذي يعطيه الوحي شرع إلهي فيه هداية الناس إلى سعادة حياتهم في الدنيا والآخرة و ليس لمانع أن يمنع الله تعالى عن ذلك لأنه عزيز غير مغلوب فيما يريد ، و لا هو تعالى يهمل أمر هداية عباده لأنه حكيم متقن في أفعاله و من إتقان الفعل أن يساق إلى غايته .

و من حقه تعالى أن يتصرف فيهم و في أمورهم كيف يشاء ، لأنه مالكهم وله أن يعبدهم و يستعبدهم بالأمر و النهي لأنه عليّ عظيم فلذلك من الأسماء الخمسة حظّه من التعليل ، و ينتج مجموعها أنه وليهم من كل جهة لاولي غيره .

قوله تعالى : « تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن » الخ التفطر التشقق من

الفطر بمعنى الشق .

الذي يهدي إليه السياق و الكلام مسرود لبيان حقيقة الوحي و غايته و آثاره أن يكون المراد من تفطر السماوات من فوقهن تفطرها بسبب الوحي النازل من عند الله العلي العظيم المار بهن سماء سماء حتى ينزل على الأرض فإن مبدء الوحي هو الله سبحانه و السماوات طرائق إلى الأرض قال تعالى : « و لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق و ما كنا عن الخلق غافلين » المؤمنون : ١٧ .

و الوجه في تقييد « يتفطرن » بقوله : « من فوقهن » ظاهر فإن الوحي ينزل

عليهن من فوقهن من عند من له العلو المطلق والعظمة المطلقة فلو تفتطن كان ذلك من فوقهن .

على ما فيه من إعظام أمر الوحي وإعلانه فإنه كلام العلي العظيم فلكونه كلام ذي العظمة المطلقة تكاد السماوات يتفتطن بنزوله و لكونه كلاماً نازلاً من عند ذي العلو المطلق يتفتطن من فوقهن لوتفتطن .

فالآية في إعظام أمر كلام الله من حيث نزوله و مروره على السماوات نظيرة قوله : « حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » سبأ : ٢٣ في إعظامه من حيث تلقى ملائكة السماوات إياه ، و نظيرة قوله : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » الحشر : ٢١ في إعظامه على فرض نزوله على جبل و نظيرة قوله : « إنا سنلقي عليك قولا ثقيلاً » المزمل : ٥ في استنقاله و استصعاب حمله . هذا ما يعطيه السياق .

وقد حمل القوم الآية على أحد معنيين آخرين :

أحدهما أن المراد تفتطنهم من عظمة الله و جلاله جل جلاله كما يؤيده توصيفه تعالى قبله بالعلي العظيم .

و ثانيهما أن المراد تفتطنهم من شرك المشركين من أهل الأرض و قولهم : « اتخذ الرحمان ولدا » فقد قال تعالى فيه : « تكاد السماوات يتفتطن منه » مريم : ٩٠ فأدى ذلك إلى التكلف في توجيه تقييد التفتطن بقوله : « من فوقهن » و خاصة على المعنى الثاني ، و كذا في توجيه اتصال قوله : « والملائكة يستغفرون لمن في الأرض » الخ بما قبله كما لا يخفى على من راجع كتبهم .

و قوله : « و الملائكة يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن في الأرض » أي ينزهونه تعالى عما لا يليق بساحة قدسه و يثنون عليه بجميل فعله ، و مما لا يليق بساحة قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحي و هو منه فعل جميل ، و يسألونه تعالى أن يغفر لأهل الأرض ، و حصول المغفرة إنما هو بحصول سببها و هو سلوك سبيل العبودية بالاهتداء بهداية الله سبحانه فسؤالهم المغفرة لهم مرجعه إلى

سؤال أن يشرع لهم ديناً يغفر لمن تدين به منهم فاعلمنى والملائكة يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن في الأرض من طريق الوحي ديناً يدينون به فيغفر لهم بذلك .
و يشهد على هذا المعنى وقوع الجملة في سياق بيان صفة الوحي وكذا تعلق الاستغفار بمن في الأرض إن لامعنى لطلب المغفرة منهم لمطلق أهل الأرض حتى لمن قال : « اتخذنا لله ولداً » وقد حكى الله تعالى عنهم : « ويستغفرون للذين آمنوا » الآية المؤمن : ٧ . فالمتعین حمل سؤال المغفرة على سؤال سببها وهو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تدين به .

و قوله : « ألا إن الله هو الغفور الرحيم » أي إن الله سبحانه لا تصافه بصفتي المغفرة والرحمة وتسميته باسمي الغفور الرحيم يليق بساحة قدسه أن يفعل بأهل الأرض ما ينالون به المغفرة والرحمة من عنده وهو أن يشرع لهم ديناً يهتدون به إلى سعادتهم من طريق الوحي والتكليم .

قيل : و في قوله : « ألا إن الله » الخ إشارة إلى قبول استغفار الملائكة ، وأنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة .

قوله تعالى : « و الذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » لما استفيد من الآيات السابقة أن الله تعالى هو الولي لعباده لا ولي غيره وهو يتولى أمر من في الأرض منهم بتشريع دين لهم يرتضيه من طريق الوحي إلى أنبيائه على ما يقتضيه أسماؤه الحسنی وصفاته العلیا ، ولازم ذلك أن لا يتخذ عباده أولياء من دونه ، أشار في هذه الآية إلى حال من اتخذ من دونه أولياء باتخاذهم شركاء له في الربوبية والألوهية فذكر أنه ليس بغافل عما يعملون وأن أعمالهم محفوظة عليهم سيؤاخذون بها ، وليس على النبي ﷺ إلا البلاغ من غير أن يكون وكيلاً عليهم مسؤلاً عن أعمالهم .

فقوله : « الله حفيظ عليهم » أي يحفظ عليهم شركهم وما يتفرع عليه من الأعمال السيئة .

و قوله : « وما أنت عليهم بوكيل » أي مفوضاً إليك أعمالهم حتى تصلحها لهم

بهدايتهم إلى الحق ، والكلام لا يخلو من نوع من التسلية للنبي ﷺ .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن إسحاق و البخاري في تاريخه و ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رباب قال : مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة « ألم ذلك الكتاب » فأتاه أخوه حبي بن أخطب في رجال من اليهود فقال : تعلمون ؟ و الله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه « ألم ذلك الكتاب » فقالوا : أنت سمعته ؟ قال : نعم . فسئى أولئك نفر إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك « ألم ذلك الكتاب » ؟ قال : بلى . قالوا : قد جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال : نعم . قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين نبي لهم مامدة ملكه ؟ وما أجل أمته ؟ غيرك .

فقال حبي بن أخطب و أقبل على من كان معه : الألف واحدة و الالام ثلاثون و الميم أربعون فهذه إحدى و سبعون سنة أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه و أجل أمته إحدى و سبعون سنة .

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم . قال : ماذا ؟ قال : المص قال : هذه أثقل و أطول الألف واحدة ، و الالام ثلاثون و الميم أربعون و الصادتسون فهذه مائة و إحدى و ستون سنة هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال : نعم . قال : ماذا ؟ قال : الر . قال : هذه أثقل و أطول الألف واحدة و الالام ثلاثون و الراء مائتان فهذه إحدى و ثلاثون و مائتا سنة فهل مع هذا غيره ؟ قال : نعم المر قال : فهذه أثقل و أطول الألف واحدة و الالام ثلاثون و الميم أربعون و الراء مائتان فهذه إحدى و سبعون سنة و مائتان .

ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أ قليلا أعطيت أم كثيرا ؟ ثم قاموا فقال أبو ياسر لأخيه حبي و من معه من الأخبار : ما يدريكم ؟ لعله قد جمع

هذا لمحمد كلفه إحدى و سبعون و إحدى و ستون و مائة و إحدى و ثلاثون و مائتان و إحدى و سبعون و مائتان فذلك سبعمائة و أربع و ثلاثون فقالوا : لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » .

اقول : وروى قريبا منه عن ابن المنذر عن ابن جريح ، وروى مثله أيضاً القمي في تفسيره عن أبيه عن ابن رثاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام ، وليس في الرواية ما يدل على إمضاء النبي صلى الله عليه وآله لدعواهم ولا كانت لهم على ما ادّعوه حجة ، وقد تقدم أن الآيات المتشابهة غير الحروف المقطّعة في فواتح السور .

و في المعاني بإسناده عن جويرية عن سفيان الثوري قال : قلت لجعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام : يا بن رسول الله ما معنى قول الله عز وجل : الم و المص و الر و المر و كهيعص و طه و طس و طسم و يس و ص و حم و مسم و عسق و ق و ن ؟

قال عليه السلام : أما الم في أول البقرة فمعناه أنا الله الملك ، و أما الم في أول آل عمران فمعناه أنا الله المجيد ، و المص فمعناه أنا الله المقتدر الصادق ، و الر فمعناه أنا الله الرؤف ، و المر فمعناه أنا الله المحيي المميت الرازق ، و كهيعص معناه أنا الكافي الهادي الولي العالم الصادق الوعد ، فأما طه فاسم من أسماء النبي صلى الله عليه وآله و معناه يا طالب الحق الهادي إليه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد به .

و أما طس فمعناه أنا الطالب السميع ، و أما طسم فمعناه أنا الطالب السميع المبدئ المعيد ، و أما يس فاسم من أسماء النبي صلى الله عليه وآله و معناه يا أيها السامع للوحي و القرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم .

و أما ص فعين تنبع من تحت العرش وهي التي توضح منها النبي صلى الله عليه وآله لمناجرج به و يدخلها جبرئيل كل يوم دخلة فيغمس فيها ثم يخرج منها فينفض أجنحته فليس من فطرة تقطر من أجنحته إلا خلق الله تبارك و تعالى منها ملكا يسبح الله و يقدره و يكبره و يحمده إلى يوم القيامة .

وَأَمَّا حَمَّ فَمَعْنَاهُ الْحَمِيدُ الْمَجِيدُ ، وَأَمَّا حَمَسَقَ فَمَعْنَاهُ الْحَلِيمُ الْمُنِيبُ الْعَالِمُ السَّمِيعُ الْقَادِرُ الْقَوِيُّ ، وَأَمَّا قَفَهُو الْجِبَلَ الْمَحِيطَ بِالْأَرْضِ وَخَضِرَةَ السَّمَاءِ مِنْهُ وَبِهِ يُمْسِكُ اللَّهُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا ، وَأَمَّا نَفَهُو نَهْرًا فِي الْجَنَّةِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَجْمَدُ فَجَمَدٌ فَصَارَ مَدَادًا ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ لِلْقَلَمِ : اكْتُبْ فَسَطَرَ الْقَلَمُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَأَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَالْمَدَادُ مَدَادٌ مِنْ نُورٍ وَالْقَلَمُ قَلَمٌ مِنْ نُورٍ وَاللَّوْحُ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ .

قال سفيان : فقلت له : يا بن رسول الله بيّن لي أمر اللوح والقلم والمداد فضل بيان وعلمني ممّا علمك الله فقال : يا بن سعيد لولا أنّك أهل للجواب ما أحببتك فنون ملك يؤدّي إلى القلم وهو ملك ، والقلم يؤدّي إلى اللوح وهو ملك ، واللوح يؤدّي إلى إسرافيل ، وإسرافيل يؤدّي إلى ميكائيل ، وميكائيل يؤدّي إلى جبرئيل ، وجبرئيل يؤدّي إلى الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم . قال : ثمّ قال لي : قم يا سفيان فلا آمن عليك .

اقول : ظاهر ما في الرواية من تفسير غالب الحروف المقطّعة بأسماء الله الحسنى أنّها حروف مأخوذة من الأسماء إمّا من أولّها كالميم من الملك والمجيد والمقتدر ، وإمّا من بين سائر حروفها كاللام من الله والياء من الولي فتكون الحروف المقطّعة إشارات على سبيل الرمز إلى أسماء الله تعالى ، وقد روي هذا المعنى من طرق أهل السنة عن ابن عباس والربيع بن أنس وغيرهما لكن لا يخفى عليك أنّ الرمز في الكلام إنّما يصار إليه في الإفصاح عن الأمور التي لا يريد المتكلم أن يطلع عليه غير المخاطب بالخطاب فيرمز إليه بما لا يتعدّاه ومخاطبه ولا يقف عليه غيرهما وهذه الأسماء الحسنى قد أوردت وبيّنت في مواضع كثيرة من كلامه تعالى تصريحا وتلويحا وإجمالاً وتفصيلاً ولا يبقى مع ذلك فائدة في الإشارة إلى كلّ منها بحرف مأخوذ منه رمزاً إليه .

فالوجه - على تقدير صحّة الرواية - أن يحمل على كون هذه الأحرف دالة على هذه المعاني دلالة غير وضعيّة فتكون رموزاً إليها مستورة عنّا مجهولة لنا دالة على مراتب من هذه المعاني هي أدقّ وأرقى وأرفع من أفهامنا ، ويؤيد ذلك بعض

التأييد تفسيره الحرف الواحد كالميم في المواضع المختلفة بمعان مختلفة ، و كذا ما ورد أنها من حروف اسم الله الأعظم .

و قوله : « و أمّاق فهو الجبل المحيط بالأرض و خضرة السماء منه » الخ روى قريبا منه القمّي في تفسيره ، و هو مروى بعدة من طرق أهل السنة عن ابن عباس و غيره ، و لفظ بعضها جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنف (١) السماء ، و في بعضها أنه جبل محيط بالبحر المحيط بالأرض و السماء الدنيا مترفرة عليها و أن هناك سبع أرضين وسبعة أبحروسبعة أجبل و سبع سماوات .

و في بعض ما عن ابن عباس : خلق الله جبلا يقال له : ق محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فاذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها و يحركها فمن ثم تحرك القرية دون القرية . والروايات بظاهرها أشبه بالإسرائيليات ، ولولا قوله : « و به يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها » لأمكن حمل قوله : « و أمّاق فهو الجبل المحيط بالدنيا و خضرة السماء منه » على إرادة الهواء المحيط بالمحيط بالأرض بضرب من التأويل .

و أمّا قوله : إن طه و يس من أسماء النبي ﷺ بالمعنى الذي فسّر ا به فينبغي أن يحمل أيضاً على ما قدّمناه و به يفسّر الروايات الكثيرة الواردة من طرق العامة و الخاصة في أن طه و يس من أسماء النبي ﷺ .

و أمّا قوله في ن أنه نهر صيره الله مداداً كتب به القلم بأمره على اللوح ما كان و ما يكون إلى يوم القيامة ، و أن المداد و القلم و اللوح من النور ثم قوله : إن المداد ملك و القلم ملك و اللوح ملك فهو نعم الشاهد على أن ماورد في كلامه تعالى من العرش و الكرسي و اللوح و القلم و نظائر ذلك و فسّر بما فسّره في كلام النبي ﷺ و أئمة أهل البيت ﷺ من باب التمثيل أريد به تقريب معارف حقيقة هي أعلى و أرفع من سطح الأفهام العامة بتنزيلها منزلة المحسوس .

و في المعاني أيضاً باسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﷺ قال : « الم » هو حرف

(١) الكنف بفتح نين الجانب و كنف السماء جانبها .

من حروف اسم الله الأعظم المقطع في القرآن الذي يؤلفه النبي ﷺ والإمام فإذا دعا به أُجيب . الحديث .

اقول : كون هذه الحروف المقطعة من حروف اسم الله الأعظم المقطع في القرآن مروى بعدة من طرق أهل السنة عن ابن عباس وغيره ، وقد تبين في البحث عن الأسماء الحسنی في سورة الأعراف أن الاسم الأعظم الذي له أثره الخاص به ليس من قبيل الألفاظ ، وأن ماورد مما ظاهره أنه اسم مؤلف من حروف ملفوظة مصروف عن ظاهره بنوع من الصرف المناسب له .

وفيه بإسناده عن محمد بن زياد و محمد بن سيار عن العسكري ﷺ أنه قال : كذبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا : سحرمين تقوله فقال الله : « الم ذلك الكتاب » أي يا محمد ، هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك هو الحروف المقطعة التي منها الف لام ميم وهو بلغتمكم و حروف هجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين و استعينوا على ذلك بسائر شهدائكم . الحديث .

اقول : و الحديث من تفسير العسكري وهو ضعيف .

و في تفسير القمي و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ في قوله تعالى : « يتفطرون من فوقهن » أي يتصدعن .

و عن جوامع الجامع في قوله تعالى : « ويستغفرون لمن في الأرض » قال الصادق عليه السلام : لمن في الأرض من المؤمنين .

اقول : و روى ما في معناه في المجمع عنه ﷺ ورواه القمي مضمرا .





وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ
فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَالِهِمْ مِنْ وَلِيِّ وَ لَا نَصِيرَ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ
رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ
لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ
كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) .

﴿بيان﴾

فصل ثان من الآيات يعرف فيه الوحي من حيث الغاية المترتبة عليه كما عرفه في الفصل السابق بالإشارة إليه نفساً .

فبين في هذا الفصل أن الغرض من الوحي إنذار الناس وخاصة الإذناز المتعلق بيوم الجمع الذي يتفرق فيه الناس فريقين فريق في الجنة و فريق في السعير إذ لولا الإذناز بيوم الجمع الذي فيه الحساب و الجزاء لم تنجح دعوة دينية ولم ينفع تبليغ .

ثمَّ بيّن أن تفرّقهم فريقين هو الذي شاءه الله سبحانه فعقبه بتشريع الدين و إنذار الناس يوم الجمع من طريق الوحي لأنّه وليّهم الذي يحييهم بعد موتهم الحاكم بينهم فيما اختلفوا فيه .

ثمّ ساق الكلام فانتقل إلى توحيد الربوبية و أنّه تعالى هو الربّ لا ربّ غيره لاختصاصه بصفات الربوبية من غير شريك يشاركه في شيء منها .

قوله تعالى : « و كذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أمّ القرى و من حولها » الإشارة إلى الوحي المفهوم من سابق السياق ، و أمّ القرى هي مكّة المشرفة والمراد بإنذار أمّ القرى إنذار أهلها ، والمراد بمن حولها سائر أهل الجزيرة ممّن هو خارج مكّة كما يؤيّدّه توصيف القرآن بالعربية .

وذلك أن الدعوة النبوية كانت ذات مراتب في توسّعها فابتدأت الدعوة العلنية بدعوة العشيرة الأقرين كما قال : « و أنذر عشيرتک الأقرين » الشعراء : ٢١٤ ثمّ توسّعت فتعلّقت بالعرب عامّة كما قال : « قرآنا عربيا لقوم يعلمون » حم السجدة : ٣ ثمّ بجميع الناس كما قال : « و أنزل إلى هذا القرآن لئنذرکم به و من بلغ » .

و من الدليل على ما ذكرناه من الأمر بالتوسّع تدريجا قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر - إلى أن قال - إن هو إلاّ ذکر للعالمين » ص : ٨٧ فإنّ الخطاب على ما يعطيه سياق السورة لكفّار قريش يقول سبحانه إنّه ذکر للعالمين لا يختصّ ببعض دون بعض ، فإذا كان للجميع فلا معنى لأن يسأل بعضهم - كالنبيّ صلى الله عليه وآله - بعضا عليه أجرا .

على أن تعلّق الدعوة بأهل الكتاب و خاصّة باليهود والنصارى من ضروريات القرآن ، و كذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسيّ و بلال الحبشيّ و صهيب الروميّ من ضروريات التاريخ .

وقيل المراد بقوله : « من حولها » سائر الناس من أهل قرى الأرض كلّها و يؤيّدّه التعبير عن مكّة بأُمّ القرى .

و الآية - كما ترى - تعرف الوحي بغايته التي هي إنذار الناس من طريق

الإلقاء الإلهي وهو النبوة فالوحي إلقاء إلهي لغرض النبوة والإذار .

قوله تعالى : « وتذير يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير » عطف على « تذير » السابق وهو من عطف الخاص على العام لأهميته كأنه قيل : لتذير الناس وتخوفهم من الله وخاصة من سخطه يوم الجمع .

وقوله : « يوم الجمع » مفعول ثان لقوله : « تذير » وليس بظرف له وهو ظاهر ، و يوم الجمع هو يوم القيامة قال تعالى : « ذلك يوم مجموع له الناس - إلى أن قال - فريق في الجنة وفريق في السعير » هود : ١٠٥ .

وقوله : « فريق في الجنة وفريق في السعير » في مقام التعليل و دفع الدخل كأنه قيل : لما ذابندهم يوم الجمع ؟ فقيل : « فريق في الجنة وفريق في السعير » أي إنهم يتفرقون فريقين : سعيد مثاب و شقي معذب فليندروا حتى يحترزوا سبيل الشقاء والهبوط في مهبط الهلكة .

قوله تعالى : « ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة » إلى آخر الآية لما كانت الآيات مسوقة لبيان لزوم الإذار والنبوة من جهة تفرق الناس فريقين يوم القيامة كان الأسبق إلى الذهن من جعلهم أمة واحدة مطلق رفع التفرق والتمييز من بينهم بتسويتهم جميعا على صفة واحدة من غير فرق وميز ، ولم تقع عند ذلك حاجة إلى النبوة والإذار .

وقوله : « ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير » استدراك يبين فيه أن سنته تعالى جرت على التفريق ولم يشأ جعلهم أمة واحدة يدل على ذلك قوله : « يدخل من يشاء » الدال على الاستمرار ، ولم يقل : ولكن أدخل و نحوه .

و قد قبل في الآية قوله : « من يشاء » بقوله : « والظالمون » فالمراد بمن يشاء غير الظالمين و قد فسّر الظالمين يوم القيامة بقوله : « فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله و يبعونها عوجا وهم بالآخرة كافرون » الأعراف : ٤٥ فهم المعاندون المنكرون للمعاد .

وقبول أيضا بين الإدخال في الرحمة و بين نفي الولي والنصير فالمدخلون في رحمته هم الذين وليهم الله ، والذين مالهم من ولي ولا نصيرهم الذين لا يدخلهم الله في رحمته ، وأيضا الرحمة هي الجنة وانتفاء الولاية والنصرة يلازم السعير .

فمحصّل معنى الآية أن الله سبحانه إنما قدر النبوة والآنذار المتفرغ على الوحي لمكان ما سيُعترِبهم يوم القيامة من التفرّق فريقيّن ، ليتحرّزوا من الدخول في فريق السعير .

ولو أراد الله لجعلهم أمة واحدة فاستوت حالهم ولم يتفرّقوا يوم القيامة فريقيّن فلم يكن عند ذلك ما يقتضي النبوة والآنذار فلم يكن وحي لكنّه تعالى لم يرد ذلك بل جرت سنّته على أن يتولّى أمر قوم منهم وهم غير الظالمين فيدخلهم الجنة وفي رحمته، ولا يتولّى أمر آخرين وهم الظالمون فيكونوا لاوليّ لهم ولا نصير و يصيروا إلى السعير لا مخلص لهم من النار .

فقد تحصّل ممّا تقدّم أن المراد بجعلهم أمة واحدة هو التسوية بينهم بإدخال الجميع في الجنة أو إدخال الجميع في السعير أي إنّه تعالى ليس بملزم بإدخال السعداء في الجنة والأشقياء في النار فلوم يشأ لم يفعل لكنّه شاء أن يفرّق بين الفريقين وجرت سنّته على ذلك و وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد ومع ذلك فقد درته المطلقة باقية على حالها لم تنسلب ولم تتغيّر فقوله : « وتندريوم الجمع لاريب فيه » إلى تمام الآيتين في معنى قوله في سورة هود : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس » إلى تمام سبع آيات فراجع وتدبّر .

وقيل : المراد بجعلهم أمة واحدة جعلهم مؤمنين جميعا داخلين في الجنة قال في الكشف : والمعنى ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعا على الإيمان ولكنّه شاء مشيئة حكمة فكلفهم و بنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنون في رحمته وهم المرادون بمن يشاء ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ، و يترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه .

واستدلّ على ما اختاره من المعنى بقوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس

هداها « آلم السجدة : ١٣ » وقوله : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا »
يونس : ٩٩ والدليل على أن المعنى هو الالتجاء إلى الإيمان قوله : « أفأنت تكره
الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

وفيه أن الآيات - كما عرفت - مسوقة لتعريف الوحي من حيث غايته و أن
تفرق الناس يوم الجمع فريقين سبب يستدعي وجود النبوة والإنداز من طريق الوحي ،
وقوله : « ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة » مسوق لبيان أنه تعالى ليس بمجبر على ذلك
ولا ملزم به بل له أن لا يفعل ، وهذا المعنى يتم بمجرد أن لا يجعلهم متفرقين فريقين
بل أمة واحدة كيفما كانوا ، و أما كونهم فرقة واحدة مؤمنة بالخصوص فلا مقتضى له
هناك .

و أما ما استدل به من الآيتين فسياقهما غير سياق الآية المبحوث عنها ، والمراد
بهما غير الإيمان القسري الذي ذكره وقد تقدم البحث عنهما في الكتاب .

وقيل : إن الأنسب للسياق هو اتحادهم في الكفر بأن يراد جعلهم أمة واحدة
كافرة كما في قوله : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » البقرة : ٢١٣ فالمعنى :
ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولا ينذرهم
فبيقوا على ما هم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء في رحمته أي شأنه ذلك فيرسل
إلى الكل من ينذرهم فيتأثر به من تأثر فيوقفهم الله للإيمان والطاعات في الدنيا
ويدخلهم في رحمته في الآخرة ، ولا يتأثر به الآخرون وهم الظالمون فيعيشون في الدنيا
كافرين و يصيرون في الآخرة إلى السعير من غير ولي ولا نصير .

وفيه أو لا أن المراد من كون الناس أمة واحدة في الآية المقيس عليها ليس
هو اتفاقهم على الكفر بل عدم اختلافهم في الأمور الراجعة إلى المعاش كما تقدم في
تفسير الآية ، ولو سلم ذلك أدى إلى التناهي بين المقيسة والمقيس عليها لدلالة
المقيسة على التفرق وعدم الاتحاد و دلالة المقيس عليها على ثبوت الاتحاد وعدم
التفرق .

ولو أُجيب عنه بأن المقيس عليها تدل على كون الناس أمة واحدة بحسب

الطبع دون الفعلية فلا تنافي بين الآيتين . ردّ بمنافاته لمادل من الآيات على كون الإنسان مؤمناً بحسب الفطرة الأصلية كقوله تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ .

و ثانياً أن فيه إخراجاً لقوله : « ولكن يدخل من يشاء في رحمته » عن المقابلة مع قوله : « والظالمون » الخ من غير دليل ، ثم تكلف تقدير ما يفيد معناه ليحفظ به ما يفيد الكلام من المقابلة .

قوله تعالى : « أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي » - إلى قوله - فحكمه إلى الله » أم » تفيد الإنكار كما ذكره الزمخشري . ملماً أفاد في الآية السابقة أن الله سبحانه يتولى أمر المؤمنين خاصة فيدخلهم في رحمته وأن الظالمين وهم الكافرون المعاندون لوليّ لهم تعرض في هذه الآية لاتخاذهم أولياء يدينون لهم ويعبدونهم من دونه و كان يجب أن يتخذوا الله ولياً يدينون له ويعبدونه فأنكر عليهم ذلك واحتج على وجوب اتخاذه ولياً بالحجة بعد الحجّة و ذلك قوله : « فالله هو الولي » الخ . فقوله : « فالله هو الولي » تعليل للإنكار السابق لاتخاذهم من دونه أولياء فيكون حجّة لوجوب اتخاذه ولياً ، و الجملة - فالله هو الولي - تفيد حصر الولاية في الله وقد تبيّنت الحجّة على أصل ولايته وانحصارها فيه من قوله في الآيات السابقة : « العزيز الحكيم له ما في السماوات و ما في الأرض وهو العليّ العظيم » كما أشرنا إليه في تفسير الآيات .

و المعنى أنه تعالى وليّ ينحصر فيه الولاية فمن الواجب على من يتخذ ولياً أن يتخذ ولياً ولا يتعداه إلى غيره إن لوليّ غيره .

وقوله : « وهو يحيي الموتى » حجّة ثانية على وجوب اتخاذه تعالى وحده ولياً ، و محصله أن عمدة الغرض في اتخاذه الولي والتدين له بعبوديته التخلّص من عذاب السعير والفوز بالجنة يوم القيامة و الميثب و المعاقب يوم القيامة هو الله الذي يحيي الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم فهو الذي يجب أن يتخذوا ولياً دون أوليائهم الذين هم أموات غير أحياء ولا يشعرون أيّان يبعثون .

وقوله : « و هو على كل شيء قدير » حجة ثالثة على وجوب اتخاذه تعالى ولياً دون غيره ، و محصله أن من الواجب في باب الولاية أن يكون للولي قدرة على ما يتولاه من شؤون من يتولاه و أموره ، والله سبحانه على كل شيء قدير و لا قدرة لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه و هو المالك لما ملكه و القادر على ما عليه أقدره فهو الولي لا ولي غيره تعالى و تقدس .

و قوله : « و ما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » حجة رابعة على كونه تعالى ولياً لا ولي غيره ، و حكم الحاكم بين المختلفين هو إحكامه و تثبيتته الحق المضطرب بينهما بسبب تخالفهما بالإثبات و النفي ، و الاختلاف ربما كان في عقيدة كالاختلاف في أن الاله واحد أو كثير ، و ربما كان في عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف في أمور المعيشة و شؤون الحياة فهو أعني الحكم يساوق القضاء مصداقاً و إن اختلفا مفهوماً .

ثم الحكم و القضاء إنما يتم إذا ملكه الحاكم بنوع من الملك و الولاية و إن كان بتملك المختلفين له ذلك كالمتنازعين إذا رجعا إلى ثالث فأتخذه حكماً ليحكم بينهما و يتسلما ما يحكم به فقد ملكاه الحكم بما يرى و أعطياه من نفسهما القبول و التسليم فهو وليهما في ذلك .

والله سبحانه هو المالك لكل شيء لا مالك سواه لكون كل شيء بوجوده و آثار وجوده قائماً به تعالى فله الحكم و القضاء بالحق قال تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم و إليه ترجعون » القصص : ٨٨ ، و قال : « إن الله يحكم ما يريد » المائدة : ٢ و قال : « الحق من ربك » آل عمران : ١٤٧ .

و حكمه تعالى إما تكويني و هو تحقيقه و تثبيته المسببات قبل الأسباب المجتمعة عليها المتنازعة فيها بتقديم ما نسميه سبباً تاماً على غيره قال تعالى حاكياً عن يعقوب عليه السلام : « إن الحكم إلا لله عليه توكلت » يوسف : ٦٧ و إما تشريعي كالتكاليف الموضوعة في الدين الإلهي الراجعة إلى الاعتقاد و العمل قال تعالى : « إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم » يوسف : ٤٠ .

و هناك قسم ثالث من الحكم يمكن أن يعد من كل من القسمين السابقين بوجه وهو حكمه تعالى يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه وهو إعلانه وإظهاره الحق يوم القيامة لأهل الجمع يشاهدونه مشاهدة عيان وإيقان فيسعد به وبآثاره من كان مع الحق ويشقى بالاستكبار عليه وتبعات ذلك من استكبر عليه قال تعالى : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » البقرة ١١٣ .

ثم إن اختلاف الناس في عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعي لا يرفعه إلا الأحكام والقوانين التشريعية ولولا الاختلاف لم يوجد قانون كما يشير إليه قوله تعالى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأُنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه » البقرة : ٢١٣ ، وقد تبين أن الحكم التشريعي لله سبحانه فهو الولي في ذلك فيجب أن يتخذ وحده ولياً فيعبد ويدان بما أنزله من الدين .

وهذا معنى قوله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » ومحصل الحجّة أن الولي الذي يعبد ويدان له يجب أن يكون رافعاً لاختلافات من يتولونه مصلحاً لما فسد من شؤون مجتمعهم سائفاً لهم إلى سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم وهو الدين ، والحكم في ذلك إلى الله سبحانه ، فهو الولي الذي يجب أن يتخذ ولياً لا غير .

و للقوم في تفسير الآية أعني قوله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » تفاسير أخر فقيل : هو حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله وهو إثابة المحققين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ذكره صاحب الكشاف .

وقيل : معناه ما اختلفتم فيه و تنازعتم في شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى : « فان تنازعتم

في شيء فردوه إلى الله والرسول».

وقيل : المعنى وما اختلفتم فيه من تأويل آية و اشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى محكم كتاب الله وظاهر سنة رسول الله ﷺ .

وقيل : المعنى وما اختلفتم فيه من العلوم مما لا يتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا : الله أعلم كمعرفة الروح قال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » . والآية على جميع هذه الأقوال من كلام النبي ﷺ إنما بنحو الحكاية وإما بتقدير « قل » في أولها .

وأنت بالتدبر في سياق الآيات ثم الرجوع إلى ما تقدم لارتباب في سقوط هذه الأقوال .

قوله تعالى : « ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أُنيب » كلام محكي للنبي ﷺ صلى الله عليه وآله ، و الإشارة بذلك إلى من أقيمت الحجج في الآيتين على وجوب اتخاذه ولياً وهو الله سبحانه ، ولازم ولايته ربوبيته .

لما أقيمت الحجج على أنه تعالى هو الولي لاولي غيره أمر ﷺ باعلام أنه الله وأنه اتخذه ولياً بالاعتراف له بالربوبية التي هي ملك التدبير ثم عقب ذلك بالتصريح بما للاتخاذ المذكور من الآثار وهو قوله : « عليه توكلت وإليه أُنيب » .

وذلك أن ولاية الربوبية تتعلق بنظام التكوين بتدبير الأمور وتنظيم الأسباب والمسببات بحيث يتعين بها للمخلوق المدبر كالإنسان مثلاً ما قدر له من الوجود والبقاء ، و تتعلق بنظام التشريع وهو تدبير أعمال الإنسان بجعل قوانين وأحكام يراعيها الإنسان بتطبيق أعماله عليها في مسير حياته لتنتهي به إلى كمال سعادته .

ولازم اتخاذه تعالى رباً ولياً من جهة التكوين إرجاع أمر التدبير إليه بالانقطاع عن الأسباب الظاهرية و الركون إليه من حيث إنه سبب غير مغلوب ينتهي إليه كل سبب وهذا هو التوكل ، ومن جهة التشريع الرجوع إلى حكمه في كل واقعة يستقبله الإنسان في مسير حياته وهذا هو الإناة فقول : « عليه توكلت وإليه أُنيب » أي أرجع في جميع أموري ، تصريح بإرجاع الأمر إليه تكويناً وتشريعاً .

قوله تعالى : « فاطر السماوات والأرض » إلى آخر الآية لما صرح بأنه تعالى هو ربّه لقيام الحجج على أنه هو الولي وحده عقب ذلك بإقامة الحجّة في هذه الآية والتي بعدها على ربوبيّته تعالى وحده .

ومحصل الحجّة أنه تعالى موجود الأشياء وفاطرها بالإخراج من كتم العدم إلى الوجود وقد جعلكم أزواجاً فكثركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجاً فكثرها بذلك لتنتفعوا بها ، وهذا خلق وتديير ، وهو سميع لما يسأله خلقه من الجوائج فيقضي لكل ما يستحقّه من الحاجة بصير لما يعمله خلقه من الأعمال فيجازيهم بما عملوا وهو الذي يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض التي ادّخر فيها مالها من خواص وجودها وآثاره مما يتألف منها بظهورها النظام المشهود وهو الذي يرزق المرزوقين فيوسع في رزقهم و يضيق عن علم منه بذلك . وهذا كلّه من التديير فهو الرب المدبّر للأُمور .
فقوله : « فاطر السماوات والأرض » أي موجودها من كتم العدم على سبيل الإبداع .

وقوله : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً » وذلك بخلق الذكر والأنثى اللذين يتمّ بتزاوجهما أمر التوالد والتناسل و تكثّر الأفراد « ومن الأنعام أزواجاً » أي و جعل من الأنعام أزواجاً « يذروكم فيه » أي يكثركم في هذا الجعل ، و الخطاب في « يذروكم » للإنسان والأنعام بتغليب جانب العقلاء على غيرهم كما ذكره الزمخشري .
وقوله : « ليس كمثله شيء » أي ليس مثله شيء ، فالكاف زائدة للتأكيد وله نظائر كثيرة في كلام العرب .

وقوله : « وهو السميع البصير » أي السميع لما يرفع إليه من مسائل خلقه البصير لأعمال خلقه قال تعالى : « يسأله من في السماوات والأرض » الرحمن : ٢٩ ، وقال : « وآتاكم من كل ما سألتموه » إبراهيم : ٣٤ ، وقال « والله بما تعملون بصير » الحديد : ٤ .

قوله تعالى : « لمقاليد السماوات والأرض » إلى آخر الآية المقاليد المفاتيح وفي إثبات المقاليد للسماوات والأرض دلالة على أنها خزائن لما يظهر في الكون من

الحوادث والآثار الوجودية .

وقوله : « يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر » بسط الرزق توسعته و قدره تضيقه
والرزق كل ما يمد به البقاء و يرتفع به حاجة من حوائج الوجود في استمراره .
و تذييل الكلام بقوله : « إنه بكل شيء عليم » للإشارة إلى أن الرزق و
اختلافه في موارد البسط والقدر ليس على سبيل المجازفة جهلا بل عن علم منه تعالى
بكل شيء فرزق كل مرزوق على علم منه بما يستدعيه المرزوق بحسب حاله والرزق
بحسب حاله و ما يحف بهما من الأوضاع والأحوال الخارجية ، و هذا هو الحكمة
فهو يبسط و يقدر بالحكمة .





شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
 وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ
 كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ
 مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا
 كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّبَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ
 وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
 بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَاحِجَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
 اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ
 مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)

﴿بيان﴾

فصل ثالث من الآيات يعرف الوحي الإلهي بأثره الذي هو مفاده وما احتوى عليه من المضمون وهو الدين الإلهي الواحد الذي يجب على الناس أن يتخذوه سنة في الحياة وطريقة مسلوكة إلى سعادتهم .

وقد بين فيها بحسب مناسبة المقام أن الشريعة المحمدية أجمع الشرائع المنزلة وأن الاختلافات الواقعة في دين الله على وحدته ليست من ناحية الوحي السماوي وإنما هي من بغى الناس بعد علمهم ، وفي الآيات فوائد أخر أشير إليها في خلالها .

قوله تعالى: « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا وما أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » يقال: شرع الطريق شرعا أي سواه طريقا واضحا بيننا. قال الراغب: الوصية التقدم إلى الغير بما يعمل مقترنا بوعظ من قولهم: أرض وافية متصلة النبات ويقال: أوصاه ووصاه انتهى وفي معناه إشعار بالأهمية فما كل أمر يوصى به وإنما يختار لذلك ما يهتم به الموصى ويعتني بشأنه.

فقوله: « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » أي يسن وأضح لكم من الدين وهو سنة الحياة ما قدم وعهد إلى نوح مهتماً به، واللائح من السياق أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وأمه، وأن المراد مما وصى به نوحا شريعة نوح عليه السلام.

وقوله: « وما أوحينا إليك » ظاهر المقابلة بينه وبين نوح عليه السلام أن المراد بما أوحى إليه ما اختصت به شريعته من المعارف والأحكام، وإنما عبر عن ذلك بالإيحاء دون التوصية لأن التوصية كما تقدم إنما تتعلق من الأمور بما يهتم به ويعتني بشأنه خاصة وهو أهم العقائد والأعمال، وشريعته صلى الله عليه وآله جامعة لكل ما جل ودق محتوية على الأهم وغيره بخلاف شرائع غيره فقد كانت محدودة بما هو الأهم المناسب لحال أممهم والموافق لمبلغ استعدادهم.

والإلتفات في قوله: « وما أوحينا » من الغيبة إلى التكلم مع الغير للدلالة على العظمة فإن العظمة يتكلمون عنهم وعن خدمهم وأتباعهم.

وقوله: « وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » عطف على قوله: « وما وصى به » والمراد به ما شرع لكل واحد منهم صلى الله عليه وآله.

والترتيب الذي بينهم صلى الله عليه وآله في الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى صلى الله عليه وآله، وإنما قدم ذكر النبي صلى الله عليه وآله للتشريف والتفضيل كما في قوله تعالى: « وإن أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم » الأحزاب: ٧ وإنما قدم نوحا وبدء به للدلالة على قدم هذه الشريعة وطول عهدها.

و يستفاد من الآية أمور :

أحدها أن السياق بما أنه يفيد الامتنان وخاصة بالنظر إلى ذيل الآية والآية التالية يعطي أن الشريعة المحمدية جامعة للشرائع الماضية ولا ينافيه قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » المائة : ٤٨ لأن كون الشريعة شريعة خاصة لا ينافي جامعيتها .

الثاني أن الشرائع الإلهية المنتسبة إلى الوحي إنما هي شريعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى و محمد ﷺ إذ لو كان هناك لذكر قضاء لحق الجامعية المذكورة .

ولازم ذلك أو لأن لا شريعة قبل نوح ﷺ بمعنى القوانين الحاكمة في المجتمع الإنساني الرافعة للاختلافات الاجتماعية وقد تقدم نبذة من الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » الآية البقرة : ٢١٣ .

و ثانياً أن الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثة إبراهيم وبعدها على شريعته إبراهيم إلى بعثة موسى وهكذا .

الثالث أن الأنبياء أصحاب الشرائع وأولي العزم هم هؤلاء الخمسة المذكورون في الآية إذ لو كان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء سادة الأنبياء ويدل على تقدمهم أيضاً قوله : « و إن أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك و من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم الأحراب : ٧ .

وقوله : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا » أن تفسيرية ، وإقامة الدين حفظه بالاتباع والعمل ، واللام في الدين للعهد أي أقيموا هذا الدين المشروع لكم ، و عدم التفرق فيه حفظ وحدته بالاتفاق عليه وعدم الاختلاف فيه .

لما كان شرع الدين لهم في معنى أمرهم جميعاً باتباعه والعمل به من غير اختلاف فسرّه بالأمر بإقامة الدين و عدم التفرق فيه فكان محصله أن عليهم جميعاً إقامة الدين جميعاً و عدم التفرق والتشتت فيه بإقامة بعض و ترك بعض ، و إقامته إيمان بجميع ما أنزل الله والعمل بما يجب عليه العمل به .

فجميع الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته و عدم التفرق

فيه فأما الأحكام السماوية المشتركة فيها الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامة فيها ظاهر وأما الأحكام المشتركة في بعض هذه الشرائع المنسوخة في الشريعة اللاحقة فحقيقة الحكم المنسوخ أنه حكم ذو أمد خاص بطائفة من الناس في زمن خاص ومعنى نسخه تبين انتهاء أمده لظهور بطلانه قال تعالى: «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» الأحزاب: ٤ فالحكم المنسوخ حق دائماً غير أنه خاص بطائفة خاصة في زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به ويعملوا به ويجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل وهذا معنى إقامته وعدم التفرق فيه .

فتبين أن الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه في قوله: «أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه» مطلق شامل لجميع الناس في جميع الأزمان .

وبذلك يظهر فساد قول جمع إن الأمر بالإقامة وعدم التفرق إنما يشمل الأحكام المشتركة بين الشرائع دون المختصة فإنها أحكام متفاوتة مختلفة باختلاف الأمم من حيث أحوالها ومصالحها .

وذلك أنه لا موجب لتقييد إطلاق قوله: «أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه» ولو كان كما يقولون كان الأمر بالإقامة مختصاً بأصول الدين الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، وأما غيرها من الأحكام الفرعية فلا يكاد يوجد هناك حكم واحد مشترك فيه في جميع خصوصياته بين جميع الشرائع وهذا مما ياباه قطعاً سياق قوله: «شرع لكم من الدين ما وصى به الخ، ومثل قوله: «وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً» المؤمنون: ٥٣، وقوله: «إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم» آل عمران: ١٩ .

وقوله: «كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» المراد بقوله: «تدعوهم إليه» دين التوحيد الذي كان يدعوا إليه النبي ﷺ لا أصل التوحيد فحسب على ما تشهد به الآية التالية، والمراد بكبره على المشركين تحرجهم من قبوله .

وقوله: «الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب» الاجتباء هو الجمع

والاجتلاب ، و مقتضى اتساق الضمائر أن يكون ضمير « إليه » الثاني والثالث راجعاً إلى ما يرجع إليه الأول والمعنى الله يجمع ويجتلب إلى دين التوحيد - وهو ما تدعوهم إليه - من يشاء من عباده ويهدي إليه من يرجع إليه فيكون مجموع قوله : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء » في معنى قوله : هو اجتباكم و ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم » الحج : ٧٨ .

وقيل : الضميران لله تعالى ، ولا بأس به لكن ما تقدم هو الأنسب ، و على أي حال قوله : « الله يجتبي إليه » إلى آخر الآية موضوع موضع الاستغناء عن إيمان المشركين المستكبرين للإيمان نظير قوله تعالى : « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » حم السجدة : ٣٨ .

وقيل : المراد بما تدعوهم إليه ما تدعوهم إلى الإيمان به وهو الرسالة أي إن رسالتك كبرت عليهم ، وقوله : « الله يجتبي » الخ في معنى قوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » الانعام : ١٢٤ ، وهو خلاف الظاهر .

قوله تعالى : « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » إلى آخر الآية ضمير « تفرقوا » للناس المفهوم من السياق ، والبغي الظلم أو الحسد ، و تقييده بقوله « بينهم » للدلالة على تداوله ، والمعنى وما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعة باختلافهم و تركهم الاتفاق إلا حال كون تفرقهم آخذاً - أو ناشئاً - من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلماً أو حسداً تداولوه بينهم .

و هذا هو الاختلاف في الدين المؤدي إلى الانشعابات والتجزبات الذي ينسبه الله سبحانه في مواضع من كلامه إلى البغي ، وأما الاختلاف المؤدي إلى نزول الشريعة وهو الاختلاف في شؤون الحياة والتفرق في أمور المعاش فهو أمر عائد إلى اختلاف طبائع الناس في مقاصدهم وهو الذريعة إلى نزول الوحي و تشريع الشرع لرفعه كما يشير إليه قوله : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » البقرة : ٢١٣ كما تقدم في تفسير الآية .

وقوله : « و لو لا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم » المراد

بالكلمة مثل قوله حين إهباط آدم عليه السلام إلى الأرض : « و لكم في الأرض مستقر و متاع إلى حين » البقرة : ٣٦ .

والمعنى و لو لا أن الله قضى فيهم الاستقرار والتمتع في الأرض إلى أجل سماء و عينه لقضى بينهم إثر تفرقهم في دينه و انحرافهم عن سبيله فأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم .

و قول القائل : إن الله قد قضى و أهلك كما يقصه في قصص نوح و هود و صالح عليهم السلام و قد قال تعالى : « و لكل أمة رسول فإذ جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط » يونس : ٤٧ .

مدفوع بأن ما قصه تعالى من القضاء والإهلاك إنما هو في أمم الأنبياء في زمانهم من المكذبين الرادين عليهم و ما نحن فيه من قوله : « و لو لا كلمة سبقت من ربك » الآية في أممهم بعدهم وهو واضح من السياق .

و قوله : « و إن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » ضمير « من بعدهم » لأولئك الذين تفرقوا من بعد علم بغيا بينهم و هم الأسلاف ، و الذين أورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فمفاد الآية أن البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقة كانوا على علم من الحق و إنما أبدعوا ما أبدعوا ، بغيا بينهم ، و أخلافهم الذين أورثوا الكتاب من بعدهم في شك مريب - موقع في الريب - منه .

و ما أوردها في معنى الآية هو الذي يعطيه السياق ، و لهم في تفسيرها أقاويل كثيرة لاجدوى في استقصائها فليرجع في الوقوف عليها إلى كتبهم .

قوله تعالى : « فلذلك فادع و استقم كما أمرت و لا تتبع أهواءهم » إلى آخر الآية . تفریع علی ما ذکر من شرع دین واحد لجميع الأنبياء و أممهم ثم انقسام أممهم إلى أسلاف اختلفوا في الدين عن علم بغيا ، و إلى أخلاف شاكين مرتابين فيما أورثوه من الكتاب أي فلاجل أنه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم فادع و لاجل ما ذكر من تفرق بعضهم بغيا و ارتياب آخرين فاستقم كما أمرت و لا تتبع أهواءهم .

و اللام في قوله : « فلذلك » للتعليل وقيل : اللام بمعنى إلى أي إلى ما شرع

لكم من الدين فادع واستقم كما أمرت ، والاستقامة - كما ذكره الراغب - لزوم المنهاج المستقيم ، وقوله : « ولا تتبع أهواءهم » كالمفسر له .

وقوله : « وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب » تسوية بين الكتب السماوية من حيث تصديقها و الإيمان بها وهي الكتب المنزلة من عند الله المشتملة على الشرائع .
وقوله : « وأمرت لأعدل بينكم » قيل : اللام زائدة للتأكيد نظير قوله : « و أمرنا لنسلم لرب العالمين » الأنعام : ٧١ والمعنى وأمرت أن أعدل بينكم أي أوسوي بينكم فلا أقدم قوياً على ضعيف ولا غنياً على فقير ولا كبيراً على صغير ، ولا أفضّل أبيض على أسود ولا عربياً على عجمي ولا هاشمياً أو قرشياً على غيره فالدعوة متوجهة إلى الجميع ، والناس قبال الشرع الإلهي سواء .

فقوله : « آمنتم بما أنزل الله من كتاب » تسوية بين الكتب المنزلة من حيث الإيمان بها ، وقوله : « وأمرت لأعدل بينكم » تسوية بين الناس من حيث الدعوة وتوجه ما جاء به من الشرع .

وقيل : اللام في « لأعدل بينكم » للتعليل والمعنى وأمرت بما أمرت لأجل أن أعدل بينكم ، وكذا قيل : المراد بالعدل العدل في الحكم ، وقيل : العدل في القضاء بينكم ، وقيل غير ذلك ؛ وهذه معان بعيدة لا يساعد عليها السياق .

وقوله : « الله ربنا وربكم » الخ في مقام التعليل لما ذكر من التسوية بين الكتب والشرائع في الإيمان بها و بين الناس في دعوتهم و شمول الأحكام لهم ، و لذا جرى في الكلام بالفصل من غير عطف .

فقوله : « الله ربنا وربكم » يشير إلى أن رب الكل هو الله الواحد تعالى فليس لهم أرباب كثيرون حتى يلحق كل بربه ويتفاضلوا بالأرباب و يقتصر كل منهم بالإيمان بشريعة ربه بل الله هو رب الجميع وهم جميعاً عباده المملوكون له المدبرون بأمره و الشرائع المنزلة على الأنبياء من عنده فلا موجب للإيمان ببعضها دون بعض كما يؤمن اليهود بشريعة موسى دون من بعده وكذا النصارى بشريعة عيسى دون محمد ﷺ بل الواجب الإيمان بكل كتاب نازل من عنده لأنها جميعاً من عنده .

و قوله : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » يشير إلى أن الأعمال وإن اختلفت من حيث كونها حسنة أو سيئة ومن حيث الجزاء ثواباً أو عقاباً إلا أنها لا تعدى عاملها فلكل امرء ما عمل فلا ينتفع أحد بعمل آخر ولا يتضرر بعمل غيره فليس له أن يقدم امرء للانتفاع بعمله أو يؤخر امرء للضرر بعمله نعم في الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملين لكن ذلك إلى الله فيما يحاسب به عباده لا إلى الناس - النبي فمن دونه - الذين هم جميعاً عباد مملوكون لا يملك منهم نفس من نفس شيئاً ، وهذا هو الذي ذكره تعالى في محاوراة نوح عليه السلام قومه : « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرزلون قال و ما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربّي لو تشعرون » الشعراء : ١١٣ ، وكذا قوله يخاطب النبي صلى الله عليه وآله : « ما عليك من حسابهم من شيء و ما من حسابك عليهم من شيء » الأنعام : ٥٢ .

و قوله : « لا حجة بيننا و بينكم » لعل المراد أنه لا حجة تدل على تقدم بعض على بعض تكون فيما بيننا يقيمها بعض على بعض يثبت بها تقدمه عليه . ويمكن أن يكون نفي الحجة كناية عن نفي لازمها وهو الخصومة أي لاختصاص بيننا بتفاوت الدرجات لأن ربنا واحد و نحن في أننا جميعاً عباده واحد ولكل نفس ما عملت فلا حجة في البين أي لا خصومة حتى تتخذ لها حجة .

و من هنا يظهر أن لا وجه لقول بعضهم في تفسير الجملة : أي لا احتجاج ولا خصومة لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حاجة ولا للمخالفة محل سوى المكابرة والعناد انتهى إن الكلام مسوق لبيان ما أمر به النبي صلى الله عليه وآله في نفسه و في أمته من سنة التسوية لا لإثبات شيء من أصول المعارف حتى تحمل الحجة على ما حملها عليه .

و قوله : « الله يجمع بيننا » المراد بضمير التكلم فيه مجموع المتكلم و المخاطب في الجمل السابقة ، و المراد بالجمع جمعه تعالى إياهم يوم القيامة للحساب و الجزاء على ما قيل .

وغير بعيد أن يراد بالجمع جمعه تعالى بينهم في الربوبية فهوب ربّ الجميع والجميع عباده فيكون قوله : « الله يجمع بيننا » تأكيداً لقوله السابق : « الله ربنا وربكم » و توطئة و تمهيدا لقوله : « وإليه المصير » ويكون مفاد الجملتين أن الله هو مبدؤنا لا أنه ربنا جميعاً وإليه منتهانا لأنّه إليه المصير فلا موجد لما بيننا إلا هو عز اسمه .

و كان مقتضى الظاهر في التعليل أن يقال : الله ربّي وربكم لي عملي و لكم أعمالكم لاحجة بيني و بينكم على محاذاة قوله : « آمنت » و « أمرت لأعدل » لكن عدل عن المتكلم وحده إلى المتكلم مع الغير لدلالة قوله السابق : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً » الخ و قوله : « الله يجتبي إليه من يشاء و يهدي إليه من ينيب » أن هناك قوما يؤمنون بما آمن به النبي صلى الله عليه و آله و يلبسون دعوته و يتبعون شريعته .

فالمراد بالمتكلم مع الغير في « ربنا » و « لنا أعمالنا » و « بيننا » هو **الذات** و المؤمنون به ، و بالمخاطبين في قوله : « وربكم » و « أعمالكم » و « بينكم » سائر الناس من أهل الكتاب و المشركين ، والآية على وزن قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » آل عمران : ٦٤ .

قوله تعالى : « و الذين يحاجّون في الله من بعد ما استجيب له حجّتهم داحضة عند ربهم و عليهم غضب و لهم عذاب شديد » الحجّة هي القول الذي يقصد به إثبات شيء أو إبطاله من الحجج بمعنى القصد ، والدحض البطلان و الزوال .

والمعنى - على ما قيل - و الذين يحاجّون في الله أي يحجّون على نفي ربوبيته أو على إبطال دينه من بعدما استجاب للناس له و دخلوا في دينه لظهور الحجّة و وضوح الحجّة حجّتهم باطلة زائلة عند ربهم و عليهم غضب منه تعالى و لهم عذاب شديد . و الظاهر أن المراد بالاستجابة له ما هو حق الاستجابة و هو التلقّي بالقبول عن علم لا يداخله شك تضطر إليه الفطرة الإنسانية السليمة فإن الدين بما فيه من المعارف فطريّ تسدّقه و تستجيب له الفطرة الحيّة قال تعالى : « إنّما يستجيب الذين

يسمعون والموتى يبعثهم الله» الأنعام: ٣٦، وقال: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها
و تقواها» الشمس: ٨، وقال: «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس
عليها» الروم: ٣٠.

و محصل الآية على هذا أن الذين يحتاجون فيه تعالى أوفي دينه بعد استجابة
الفترة السليمة له أو بعد استجابة الناس بفطرتهم السليمة له حجبتهم باطلة زائلة عند
ربهم و عليهم غضب منه و لهم عذاب شديد لا يقادر قدره .

و يؤيد هذا الوجه بعض التأييد سياق الآيات السابقة حيث تذكر أن الله شرع
دينا و وصى به أنبياءه واجتنبى إليه من شاء من عباده فالمحاجة في أن لله دينا يستعبد
به عباده داخضة و من الممكن حينئذ أن يكون قوله: «الله الذي أنزل الكتاب بالحق
والميزان» في مقام التعليل و حجة مدخضة لحجبتهم فتدبر فيه .

و قيل: ضمير «له» للرسول ﷺ، والمستجيب أهل الكتاب، واستجابتهم له
اعترافهم بورود أوصافه و نعوته في كتبهم والمراد أن محاجبتهم في الله بعد اعترافهم له
بما اعترفوا حجبتهم باطلة عند ربهم .

وقيل: الضمير له ﷺ والمستجيب هو الله تعالى حيث استجاب دعاءه على صنابير
قريش فقتلهم يوم بدر، و دعاءه على أهل مكة فابتلاهم بالقحط والسنة، و دعاءه على
المستضعفين حتى خلصهم الله من يد قريش إلى غير ذلك من معجزاته، و المعنيين بعيدان
من السياق .

﴿ بحث روائى ﴾

في روح المعاني في قوله تعالى: «والذين يحتاجون في الله» الآية عن ابن عباس
و مجاهد: نزلت في طائفة من بني إسرائيل هممت برد الناس عن الإسلام و إضلالهم
فقالوا: كتابنا قبل كتابكم و نبينا قبل نبيكم فديننا أفضل من دينكم وفي رواية بدل
«فديننا» النح فنحن أولى بالله منكم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس في دين الله أفواجا فاخرجوا من بين أظهرنا فعلام تقيمون بين أظهرنا فنزلت : « والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له » الآية .

اقول : مضمون الآية لا ينطبق على الرواية إذ لا حاجة في القصة ، وكذا الخبر السابق لا يفي بتوجيه قوله : « من بعد ما استجيب له » .





اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ
 قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ
 مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ
 بَعِيدٍ (١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩)
 مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا
 نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا
 لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
 الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ
 وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ
 مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ
 عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا
 الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ
 قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
 (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ
 مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ
 مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) .

﴿بيان﴾

فصل رابع من الآيات يعرف الوحي الإلهي بأن الدين النازل به كتاب مكتوب على الناس وميزان يوزن به أعمالهم فيجوزون بذلك يوم القيامة ، والجزاء الحسن من الرزق ثم يستطرد الكلام في ما يستقبلهم يوم القيامة من الثواب والعقاب ، وفيها آية المودة في القربي وما يلحق بذلك .

قوله تعالى : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » الخ كان مفتتح الفصول السابقة في سياق الفعل إخبارا عن الوحي و غرضه وآثاره « كذلك يوحي إليك » وكذلك أوحينا إليك « شرع لكم من الدين » وقد غير السياق في مفتتح هذا الفصل فجيء بالجملة الاسمية المتضمنة لتوصيفه تعالى بانزال الكتاب والميزان « الله الذي أنزل الكتاب » الخ ولازمه تعريف الوحي بنزول الكتاب والميزان به .

ولعل الوجه فيه ما تقدم في الآية السابقة من ذكر المحاجة في الله « والذين يحاجون في الله » فاستدعى ذلك تعريفه تعالى للمحاجين فيه بأنه الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ، ولازمه تعريف الوحي بآثره كما عرفت .

و كيف كان فالمراد بالكتاب هو الوحي المشتمل على الشريعة والدين الحاكم في المجتمع البشري ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » الآية البقرة : ٢١٣ أن هذا المعنى هو المراد بالكتاب في الكتاب ، وكون إنزاله بالحق نزوله مصاحبا للحق لا يخالطه اختلاف شيطاني ولا نفساني .

والميزان ما يوزن و يقدر به الأشياء ، والمراد به بقرينة ذيل الآية والآيات التالية هو الدين المشتمل عليه الكتاب حيث يوزن به العقائد والأعمال فتحاسب عليه و يجزى بحسبه الجزاء يوم القيامة فالميزان هو الدين بأصوله وفروعه ، و يؤيده قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات و أنزلنا معهم الكتاب و الميزان » الحديد : ٢٥ ، على ما هو ظاهر قوله : « معهم » .

وقيل : المراد به العدل وسمي العدل ميزانا لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية

بين الناس والعدل كذلك وأُيد بسبق ذكر العدل في قوله : « وأمرت لأعدل بينكم » .
 وفيه أنه لا شاهد يشهد عليه من اللفظ ، وقد تقدم أن المراد بالعدل في « لأعدل »
 هو التسوية بين الناس في التبليغ وفي جريان الحكم دون عدل الحاكم والقاضي .

وقيل : المراد به الميزان المعروف المقدر للإثقال . وهو كما ترى .

وقيل : المراد به النبي ﷺ ويمكن إرجاعه إلى ما قدمناه من الوجه لأن
 النبي مصداق كامل ومثل أعلى للدين بأصوله وفروعه ولكل فرد من أمته من الزنة
 الدينية قدر ما يشابهه ويمثله لكن لا يلائم هذا الوجه ما تقدم نقله آنفاً من آية
 سورة الحديد كثير ملاءمة .

وقوله : « وما يدريك لعل الساعة قريب » لما كان الميزان المشعر بالحساب
 والجزاء يومي إلى البعث والقيامة انتقل إلى الكلام فيه وإنذارهم بما سيستقبلهم فيه
 من الأهوال والتبشير بما أعد فيه لل صالحين .

والإدراء الإيعاز ، والمراد بالساعة - على ما قيل - إتيانها ولذا جيء بالخبر
 مذكراً ، والمعنى ما الذي يعلمك لعل إتيان الساعة قريب والخطاب للنبي ﷺ بعنوان
 أنه سامع فيشمل كل من له أن يسمع ويعم الإنذار والتخويف .

قوله تعالى : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها »
 الخ المراد استعجالهم استعجال سخرية واستهزاء وقد تكرر في القرآن نقل قولهم :
 « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

والإشفاق نوع من الخوف قال الراغب : الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن
 المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه قال تعالى : « وهم من الساعة مشفقون »
 فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدّي بفي فمعنى العناية فيه أظهر قال
 تعالى : « إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين » مشفقون منها « انتهى .

وقوله : « ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد » الممارسة الإصرار
 على الجدال ، والمراد إلحاحهم على إنكارها بالجدال ، وإنما كانوا في ضلال بعيد لأنهم
 أخطؤا طريق الحياة التي إصابتها أهم ما يتصور للإنسان فتوهّموها حياة مقطوعة فانية .

انكبوا فيها على شهوات الدنيا وإنما هي حياة خالدة باقية يجب عليهم أن يتزودوا من دنياهم لأخراهم لكنهم ضلوا عن سبيل الرشده فوقعوا في سبيل الغي .

قوله تعالى : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز » في معنى اللطف شيء من الرفق وسهولة الفعل و شيء من الدقة في ما يقع عليه الفعل فإذا تم الرفق والدقة وكان الفاعل يفعل برفق وسهولة ويقع فعله على الأمور الدقيقة كان لطيفاً كالهواء النافذ في منافذ الأجسام برفق وسهولة المماس لدقائق أجزائها الباطنة . وإذا أُلقيت الخصوصيات المادية عن هذا المعنى صح أن يتصف به الله سبحانه فإنه تعالى ينال دقائق الأمور باحاطته وعلمه ويفعل فيها ما يشاء برفق فهو لطيف . وقد رتب الرزق في الآية على كونه تعالى لطيفاً بعباده قوياً عزيزاً دلالة على أنه تعالى بلطفه لا يغيب عنه أحد ممن يشاء أن يرزق ولا يعصيه وبقوته عليه لا يعجز عنه وبعزته لا يمنعه مانع عنه .

والمراد بالرزق ما يعم موهبة الدين الذي يتلبس بها من يشاء من عباده على ما يشهد به الآية التالية ، ولذا ألحق القول فيه بقوله : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » .

قوله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة زدله في حرثه » الخ الحرث الزرع والمراد به نتيجة الأعمال التي يؤتاها الإنسان في الآخرة على سبيل الاستعارة كأن الأعمال الصالحة بذور وما تنتجها في الآخرة حرث .

والمراد بالزيادة له في حرثه تكثير ثوابه ومضاعفته قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الأنعام : ١٦٠ وقال : « والله يضاعف لمن يشاء » البقرة : ٢٤١ .

وقوله : « ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب » أي ومن كان يريد النتائج الدنيوية بأن يعمل للدنيا ويريد نتيجة ما عمله فيها دون الآخرة نؤته من الدنيا وماله في الآخرة نصيب وفي التعبير بإرادة الحرث إشارته إلى اشتراط العمل لما يريد من الدنيا والآخرة كما قال تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » النجم : ٣٩ .

وقد أبهم ما يعطيه من الدنيا إن قال : « نؤته منها » إشارة إلى أن الأمر إلى المشيئة الإلهية فربما بسطت الرزق وربما قدرت كما قال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » أسرى : ١٨ .

والالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير في قوله : « نزلده » و « نؤته منها » للدلالة على العظمة التي يشعر بها قوله : « وهو القوي العزيز » .

والمحصل من معنى الآيتين أن الله سبحانه لطيف بعباده جميعاً ذو قوة مطلقة و عزّة مطلقة يرزق عباده على حسب مشيئته وقد شاء في من أراد الآخرة و عمل لها أن يرزقه منها ويزيد فيه ، و فيمن أراد الدنيا و عمل لها فحسب أن يؤتیه منها و ماله في الآخرة من نصيب .

و يظهر من ذلك أن الآية الأولى عامّة تشمل الفريقين ، والمراد بالعباد ما يعم أهل الدنيا والآخرة ، وكذا الرزق وأن الآية الثانية في مقام تفصيل ما في قوله : « يرزق من يشاء » من الإجمال .

قوله تعالى : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » إلى آخر الآية لما بيّن أن الله سبحانه هو الذي أنزل الكتاب بالحق و شرع لهم الدين الذي هو ميزان أعمالهم وأنه بلطفه وقوته وعزته يرزق من أراد الآخرة و عمل لها ما أرادها منها و يزيد ، و أن من أراد الدنيا و نسي الآخرة لا نصيب له فيها سجل على من كفر بالآخرة عدم النصيب فيها با نكار أن لادين غير ما شرعه الله يدين به هؤلاء حتى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخرة فيها إن لا شريك لله حتى يشرع ديناً غير ما شرعه الله من غير إذن منه تعالى فلا دين إلا لله ولا يرزق في الآخرة رزقاً حسناً إلا من آمن بها و عمل لها .

فقوله : « أم لهم شركاء » الخ في مقام الإنكار ، و قوله : « و لو لا كلمة الفصل لقضى بينهم » إشارة إلى الكلمة التي سبقت منه تعالى أنهم يعيشون في الأرض إلى أجل مسمى ، و فيه إكبار لجرمهم و معصيتهم .

و قوله : « و إن الظالمين لهم عذاب أليم » و عيد لهم على ظلمهم ، و إشارة إلى

أنهم لا يفوتونه تعالى فإن لم يقض بينهم و لم يعدّ بهم في الدنيا فلهم في الآخرة عذاب أليم .

قوله تعالى : « ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا و هو واقع بهم » الخ الخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل من من شأنه أن يرى ، والمراد بالظالمين التاركون لدين الله الذي شرعه لعباده المعرضون عن الساعة ، والمعنى يرى الراؤن هؤلاء الظالمين يوم القيامة خائفين مما كسبوا من السيئات و هو واقع بهم لا مناص لهم عنه . والآية من الآيات الظاهرة في تجسّم الأعمال، وقيل: في الكلام مضاف محذوف والتقدير مشفقين من وبال ما كسبوا . ولا حاجة إليه .

وقوله : « والذين آمنوا و عملوا الصالحات في روضات الجنّات » في المجمع : إن الروضة الأرض الخضرة بحسن النبات ، والجنة الأرض التي تحفها الشجر فروضات الجنّات الحدائق المشجرة المخضرة متونها .

وقوله : « لهم فيها ما يشاؤون عند ربهم » أي إن نظام الأسباب مطوي فيها بل السبب الوحيد هو إرادتهم وحدها يخلق الله لهم من عنده ما يشاؤون ذلك هو الفضل الكبير .

وقوله : « ذلك الذي يبشّر الله عباده الذين آمنوا و عملوا الصالحات » تبشير للمؤمنين الصالحين ، وإضافة العباد تشرifiّة .

قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » الذي نفى سؤال الأجر عليه هو تبليغ الرسالة والدعوة الدينية ، وقد حكى الله ذلك عن عدة ممن قبله ﷺ من الرسل كنوح و هود و صالح و لوط و شعيب فيما حكى مما يخاطب كل منهم أمته : « و ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين » الشعراء و غير ها .

وقد حكى عن النبي ﷺ ذلك إذ قال : و ما تسألهم عليه من أجر « يوسف : ١٠٤ و قد أمره النبي ﷺ أن يخاطب الناس بذلك بتعبيرات مختلفة حيث قال : « قل ما أسألكم عليه من أجر » ص : ٨٦ وقال : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري

إِلَّا عَلَى اللَّهِ» سبأ : ٤٧ ، و قال : « قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين » الأنعام : ٩٠ فأشار إلى وجه النفي وهو أنه ذكرى للعالمين لا يختص ببعض دون بعض حتى يتخذ عليه الأجر .

و قال : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » الفرقان : ٥٧ و معناه على ما مر في تفسير الآية إلا أن يشاء أحد منكم أن يتخذ إلى ربه سبيلا أي يستجيب دعوتي باختياره فهو أجري أي لا شيء هناك وراء الدعوة أي لا أجر .

و قال تعالى في هذه السورة : « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » فجعل أجر رسالته المودة في القربى ، و من المتيقن من مضامين سائر الآيات التي في هذا المعنى أن هذه المودة أمر يرجع إلى استجابة الدعوة إما استجابة كلها و إما استجابة بعضها الذي يهتم به و ظاهر الاستثناء على أي حال أنه متصل بدعوى كون المودة من الأجر ولا حاجة إلى ما تمحلله بعضهم بتقريب الانقطاع فيه .
و أما معنى المودة في القربى فقد اختلف فيه تفاسيرهم :

ف قيل - و نسب إلى الجمهور - أن الخطاب لقريش والأجر المسؤل هو مودتهم للنبي ﷺ لقرايته منهم و ذلك لأنهم كانوا يكذبونه و يبغضونه لتعرضه لآلهتهم على ما في بعض الأخبار فأمر ﷺ أن يسألهم : إن لم يؤمنوا به فليؤدوه و لو كان قرايته منهم ولا يبغضوه ولا يؤذوه فالقربى مصدر بمعنى القرابة ، و في للسببية .

و فيه أن معنى الأجر إنما يتم إذا قوبل به عمل يمتلكه معطي الأجر فيعطي العامل ما يعادل ما امتلكه من مال و نحوه فسؤال الأجر من قريش وهم كانوا مكذبين له كافرين بدعوته إنما كان يصح على تقدير إيمانهم به ﷺ لأنهم على تقدير تكذيبه والكفر بدعوته لم يأخذوا منه شيئا حتى يقابلوه بالأجر ، و على تقدير الإيمان به - والنبوة أحد الأصول الثلاث في الدين - لا يتصور بغض حتى تجعل المودة أجراً للرسالة و يسأل .

و بالجملة لا تحقق لمعنى الأجر على تقدير كفر المسؤولين و لا تحقق لمعنى البغض

على تقدير إيمانهم حتى يسألوا المودة .

و هذا الإشكال وارد حتى على تقدير أخذ الاستثناء منقطعا فإن سؤال الأجر منهم على أي حال إنما يتصور على تقدير إيمانهم والاستدراك على الانقطاع إنما هو عن الجملة بجميع قيودها فأجد التأمل فيه .

وقيل : المراد بالمودة في القربى ما تقدم والخطاب للأصناف فقد قيل : إنهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت الآية فردة ، وقد كان له منهم قرابة من جهة سلمى بنت زيد النجارية و من جهة أخوال أمة آمنة على ما قيل .

وفيه أن أمر الأصناف في حبهم للنبي ﷺ أو ضح من أن يرتاب فيه ذوريب وهم الذين سألوه أن يهاجر إليهم ، وبؤوا له الدار ، وفدوه بالأفانفس والأموال والبنين و بذلوا كل جهدهم في نصرته وحتى في الإحسان على من هاجر إليهم من المؤمنين به ، وقد مدحهم الله تعالى بمثل قوله : « والذين تبوءوا الدار والائمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » الحشر : ٩ و هذا مبلغ حبهم للمهاجرين إليهم لأجل النبي ﷺ فما هو الظن في حبهم له ؟

وإذا كان هذا مبلغ حبهم فما معنى أن يؤمر النبي ﷺ أن يتوسل إلى مودتهم بقرابته منهم هذه القرابة البعيدة ؟

على أن العرب ما كانت تعنى بالقرابة من جهة النساء ذاك الاعتناء وفيهم القائل :
بنونا بنو أبائنا و بناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد
والقائل :

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات و للأنساب آباء
وإنما هو الإسلام أدخل النساء في القرابة وسأوى بين أولاد البنين و أولاد البنات
وقد تقدم الكلام في ذلك .

وقيل : الخطاب لقريش والمودة في القربى هي المودة بسبب القرابة غير أن المراد بها مودة النبي ﷺ لا مودة قريش كما في الوجه الأول ، والاستثناء منقطع ،

و محصل المعنى أنني لا أسألكم أجرا على ما أدعوكم إليه من الهدى الذي ينتهي بكم إلى روضات الجنات والخلود فيها ولا أطلب منكم جزاء لكن حبي لكم بسبب قرباتكم مني دفعني إلى أن أهديكم إليه و أدلكم عليه .

و فيه أنه لا يلائم ما يخذّه الله سبحانه له ﷺ في طريق الدعوة والهداية فإنه تعالى يسجل عليه في مواضع كثيرة من كلامه أن الأمر في هداية الناس إلى الله وليس له من الأمر شيء و أن ليس له أن يحزن لكفرهم و ردّهم دعوته و إنما عليه البلاغ فلم يكن له أن يندفع إلى هداية أحد لحبّ قرابة أو يعرض عن هداية آخرين لبغض أو كراهة و مع ذلك كلّه كيف يتصور أن يأمره الله بقوله : « قل لا أسألكم » الآية أن يخبر كفار قريش أنه إنما اندفع إلى دعوتهم و هدايتهم بسبب حبه لهم لقرباتهم منه لا لأجر يسألهم إياه عليه .

و قيل : المراد بالمودّة في القربى مودّة الأقرباء والخطاب لقريش أو لعامة الناس و المعنى لا أسألكم على دعائي أجرا إلا أن تودّوا أقرباءكم .

وفيه أن مودّة الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب إليه في الإسلام قال تعالى : « لاتجد قوماً يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادّون من حادّ الله و رسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان و أيّدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ ، و سياق هذه الآية لا يلائم كونها مخصّصة أو مقيّدة لعموم قوله : « إلا المودّة في القربى » أو إطلاقه حتّى تكون المودّة للأقرباء المؤمنين هي أجر الرسالة - على أن هذه المودّة الخاصّة لا تلائم خطاب قريش أو عامّة الناس .

بل الذي يفيد سياق الآية أن الذي يندب إليه الإسلام هو الحبّ في الله من غير أن يكون للقراية خصوصيّة في ذلك ، نعم هناك اهتمام شديد بأمر القراية والرحم لكنّه بعنوان صلة الرحم و إيتاء المال على حبه ذوي القربى لا بعنوان مودّة القربى فلا حبّ إلا لله عزّ اسمه .

ولاساغ للقول بأنّ المودّة في القربى في الآية كناية عن صلّتهم والإحسان إليهم بإيتاء المال إذ ليس في الكلام ما يدفع كون المراد هو المعنى الحقيقي غير الملائم لما

ندب إليه الإسلام من الحب في الله .

وقيل : معنى القربى هو التقرب إلى الله ، والمودة في القربى هي التودد إليه تعالى بالطاعة والتقرب فالمعنى لأسألكم عليه أجراً إلا أن توددوا إليه تعالى بالتقرب إليه .

وفيه أن في قوله : « إلا المودة في القربى » على هذا المعنى إبهاماً لا يصلح به أن يخاطب به المشركون فإن حاق مدلوله التودد إليه - أو دونه تعالى - بالتقرب إليه والمشركون لا ينكرون ذلك بل يرون ما هم عليه من عبادة الآلهة تودداً إليه بالتقرب منه فهم القائلون على ما يحكيه القرآن عنهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » الزمر : ٣ « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » يونس : ١٨ .

فسؤال التودد إلى الله بالتقرب إليه من غير تقييده بكونه بعبادته وحده ، وجعل ذلك أجراً مطلوباً ممن يرى شركه نوع تودد إلى الله بالتقرب إليه ، وخطابهم بذلك على ما فيه من الإبهام - والمقام مقام تمحيضه صلى الله عليه وسلم نفسه في دعوتهم إلى دين التوحيد لا يسألهم لنفسه شيئاً قط - مما لا يرضيه الذوق السليم .

على أن المستعمل في الآية هو المودة دون التودد فالمراد بالمودة حبهم لله في التقرب إليه ولم يرد في كلامه تعالى إطلاق المودة على حب العباد لله سبحانه وإن ورد العكس كما في قوله : « إن ربى رحيم ودود » هود : ٩٠ ، وقوله : « وهو الغفور الودود » البروج : ١٤ و لعل ذلك لما في لفظ المودة من الإشعار بمراعاة حال المودود و تعاهده و تفقده ، حتى قال بعضهم - على ما حكاه الراغب - إن مودة الله لعباده مراعاته لهم .

و الإشكال السابق على حاله و لو فسرت المودة في القربى بمودة الناس بعضهم بعضاً و محاببتهم في التقرب إلى الله بأن تكون القربات أسباباً للمودة والحب فيما بينهم فإن للمشركين ما يماثل ذلك فيما بينهم على ما يعتقدون .

وقيل : المراد بالمودة في القربى ، مودة قرابة النبي صلى الله عليه وسلم وهم عترته من أهل بيته عليهم السلام و قد وردت به روايات من طرق أهل السنة و تكاثرت الأخبار من طرق الشيعة

على تفسير الآية بمودتهم و موالاتهم ، و يؤيده الأخبار المتواترة من طرق الفريقين على وجوب موالاة أهل البيت عليهم السلام و محبتهم .

ثم التأمّل الكافي في الروايات المتواترة الواردة من طرق الفريقين عن النبي صلى الله عليه وآله المتضمنة لارجاع الناس في فهم كتاب الله بما فيه من أصول معارف الدين و فروعها و بيان حقائقه إلى أهل البيت عليهم السلام كحديث الثقلين و حديث السفينة و غيرهما لا يدع ريباً في أن إيجاب مودتهم و جعلها أجراً للرسالة إنما كان ذريعة إلى إرجاع الناس إليهم فيما كان لهم من المرجعية العلمية .

فالمودّة المفروضة على كونها أجراً للرسالة لم تكن أمراً وراء الدعوة الدينية من حيث بقائها و دوامها فالآية في مؤدّاتها لا تغيّر مؤدّى سائر الآيات النافية لسؤال الأجر .

و يؤل معناها إلى أنني لا أسألكم عليه أجراً إلا أن الله لما أوجب عليكم مودّة عامّة المؤمنين و من جملتهم قرابتي فأنى احتسب مودّتكم لقرابتي وأعدّها أجراً لرسالتي قال تعالى : « إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » مريم : ٩٦ و قال : « والمؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعض » التوبة : ٧١ .

و بذلك يظهر فساد ما أورد على هذا الوجه أنه لا يناسب شأن النبوة لما فيه من التهمة فإن أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئاً و يسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم و قراباتهم .

و أيضاً فيه منافية لقوله تعالى « و ما تسألهم عليه من أجر » يوسف : ١٠٤ .

وجه الفساد أن إطلاق الأجر عليها و تسميتها به إنما هو بحسب الدعوى و أما بحسب الحقيقة فلا يزيد مدلول الآية على ما يدل عليه الآيات الأخر النافية لسؤال الأجر كما عرفت و ما في ذلك من النفع عائد إليهم فلامورد للتهمة .

على أن الآية على هذا مدنيّة خوطب بها المسلمون و ليس لهم أن يتهموا نبيهم المصون بعصمة إلهيّة - بعد الإيمان به و تصديق عصمته - فيما يأتينهم به من ربهم و لو جاز اتهمهم له في ذلك و كان بذلك غير مناسب لشأن النبوة لا يصلح لأن يخاطب

به ، لا طرد مثل ذلك في خطابات كثيرة قرآنية كآيات الدالة على فرض طاعته المطلقة و الدالة على كون الأنفال و الغنائم لله و لرسوله ، و الدالة على خمس ذوي القربى ، و ما أبيض له في أمر النساء وغير ذلك .

على أنه تعالى تعرض لهذه التهمة و دفعها في قوله الآتي : « أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشاء الله يختم على قلبك » الآية على ما سيأتي .

و هب أننا صرفنا الآية عن هذا المعنى بحملها على غيره دفعاً لما ذكر من التهمة فما هو الدافع لها عن الأخبار التي لانحصى كثرة الواردة من طرق الفريقين في أبحاث مودة أهل البيت عنه عليه السلام .

و أما منافاة هذا الوجه لقوله تعالى : « و ما تسألهم عليه من أجر » فقد اتضح بطلانه مما ذكرناه ، و الآية بقياس مدلولها إلى الآيات النافية لسؤال الأجر نظيرة قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً » الفرقان : ٥٧ .

قال في الكشف بعد اختياره هذا الوجه : فإن قلت : هلا قيل : إلا مودة القربى أو إلا المودة للقربى ، و ما معنى قوله : إلا المودة في القربى ؟

قلت : جعلوا مكاناً للمودة و مقراً لها كقولك : لي في آل فلان مودة ، ولي فيهم هوى و حب شديد ، تريد أحببهم وهم مكان حبي و محله .

قال : و ليست في بصلة للمودة كاللام إذا قلت : إلا المودة للقربى . إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك : المال في الكيس ، و تقديره إلا المودة ثابتة في القربى و متمكنة فيها . انتهى .

قوله تعالى : « و من يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور » الاقتراف الاكتساب ، و الحسنة الفعل التي يرضيها الله سبحانه و يشيب عليها ، و حسن العمل ملامته لسعادة الإنسان و الغاية التي يقصدها كما أن مساءته و قبحه خلاف ذلك ، و زيادة حسناتها إتمام ما نقص من جهاتها و إكماله و من ذلك الزيادة في ثوابها كما قال تعالى : « و لنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون » العنكبوت : ٧ ، و قال :

ليجزئهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله « النور : ٣٨ .
والمعنى ومن يكتسب حسنة نزدله في تلك الحسنه حسناً - برفع نقائصها و
زيادة أجرها - إن الله غفور يمحو السيئات شكور يظهر محاسن العمل من عامله .
وقيل : المراد بالحسنة مودة قري النبي ﷺ و يؤيده ما في روايات أئمة
أهل البيت عليهم السلام أن قوله : « قل لا أسألكم عليه أجراً » إلى تمام أربع آيات نزلت
في مودة قري النبي ﷺ ، و لازم ذلك كون الآيات مدنيّة و أنّها ذات سياق واحد
و أن المراد بالحسنة من حيث انطباقها على المورد هي المودة ، و على هذا فلا إشارة
بقوله : « أم يقولون افتري » الخ إلى بعض ما تفوه به المنافقون ثقافلاً عن قبوله و في
المؤمنين سمّاعون لهم ، و بقوله : « وهو الذي يقبل التوبة » إلى آخر الآيتين إلى توبة
الراجعين منهم و قبولها .

و في قوله : « إن الله غفور شكور » التفات من التكلم إلى الغيبة و الوجه فيه
الإشارة إلى علّة الاتصاف بالمغفرة و الشكر فإن المعنى إن الله غفور شكور لأنّه
الله عز اسمه .

قوله تعالى : « أم يقولون افتري على الله كذباً » إلى آخر الآية أم منقطعة ، و
الكلام مسوق للتوبيخ و لازمه إنكار كونه ﷺ مفترياً على الله كذباً .

و قوله : « فإن يشأ الله يختم على قلبك » معناه على ما يعطيه السياق أنك لست
مفترياً على الله كذباً فإنه ليس لك من الأمر شيء حتى تشاء الفرية فتأتي بها وإنما
هو وحى من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع و الأمر إلى مشيئته تعالى فإن
يشأ يختم على قلبك و سد باب الوحي إليك لكنّه شاء أن يوحى إليك و يبين الحق
و قد جرت سنته أن يمحو الباطل و يحق الحق بكلماته .

فقوله : « فإن يشأ الله يختم على قلبك » كناية عن إرجاع الأمر إلى مشيئة الله
و تنزيهه لساحة النبي ﷺ أن يأتي بشيء من عنده .

و هذا المعنى - كما ترى - أنسب للسياق بناء على كون المراد بالقري قرابة

النبي ﷺ والتوبيخ متوجهاً إلى المنافقين و مرضى القلوب .

و قد ذكروا في معنى الجملة وجوهاً آخر :

منها ما ذكره الزمخشري في الكشف حيث فسّر قوله : « فإن يشأ الله يختم على قلبك » بقوله فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترى عليه الكذب فإنه لا يفترى على الله الكذب إلا من كان في مثل حالهم .

و هذا أسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله و الدخول في جملة المختوم على قلوبهم ، و مثال هذا أن يخون بعض الأمانة فيقول : لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي و هو لا يريد إثبات الخذلان و عمى القلب و إنما يريد استبعاد أن يخون مثله و التنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم . انتهى .

و منها ما قيل : إن المعنى لو حدثت نفسك بأن تفترى على الله الكذب لطبع الله على قلبك و لا نسك القرآن فكيف تقدر أن تفترى على الله ، و هذا كقوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » .

و منها ما قيل : إن معناه فإن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم : إنه مفتر و ساحر ، و هي وجوه لا تخلو من ضعف .

و منها ما قيل : إن المعنى فإن يشأ الله يختم على قلبك كما ختم على قلوبهم و هو تسلية للنبي ﷺ ليشكر ربه على ما آتاه من النعمة .

و منها ما قيل : إن المعنى فإن يشأ الله يختم على قلوب الكفار و على ألسنتهم و يعاجلهم بالعذاب ، و عدل عن الغيبة إلى الخطاب و عن الجمع إلى الأفراد ، و المراد يختم على قلبك أيها القائل : إنه افترى على الله كذبا .

و قوله : « و يمح الله الباطل و يحق الحق بكلماته » : الإتيان بالمضارع - يمحو و يحق - للدلالة على الاستمرار فمحو الباطل و إحقاق الحق بالكلمات سنة جارية له تعالى و المراد بالكلمات ما ينزل على الأنبياء من الوحي الإلهي و التكليم

الربوبي* ويمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث إنَّها مفصحة عن الضمير الغيبي* .

وقوله : « إنَّه عليم بذات الصدور » تعليل لقوله : « ويمح الله الباطل الخ » أي إنَّه يمحو الباطل و يحق الحق بكلماته لأنَّه عليم بالقلوب و ما انطوت عليه فيعلم ما تستدعيه من هدى أو ضلال أو شرح أو ختم بإ نزال الوحي و توجيه الدعوة .
 قيل : و في الآية إشعار بوعد النبي ﷺ بالنصر و لا يخلو من وجه .

قوله تعالى : « و هو الذي يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن السيئات و يعلم ما تفعلون » يقال : قبل منه و قبل عنه قال في الكشاف : يقال : قبلت منه الشيء و قبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه و جعلته مبدء قبولي و منشأه ، و معنى قبلته عنه عزلته و أبنته عنه . انتهى .

و في قوله : « و يعلم ما تفعلون » تحضيض على التوبة و تحذير عن اقتراف السيئات و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « و يستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات و يزيدهم من فضله و الكافرون لهم عذاب شديد » فاعل « يستجيب » ضمير راجع إليه تعالى و « الذين آمنوا » الخ في موضع المفعول بنزع الخافض و التقدير و يستجيب للذين آمنوا - على ما قيل - و قيل : فاعل « يستجيب » هو « الذين » و هو بعيد من السياق .

و الاستجابة إجابة الدعاء و لما كانت العبادة دعوة له تعالى عبّر عن قبولها بالاستجابة لهم ، و الدليل على هذا المعنى قوله : « و يزيدهم من فضله » فإنَّ ظاهره زيادة الثواب و كذا مقابلة استجابة المؤمنين بقوله : « و الكافرون لهم عذاب شديد » .

و قيل : المراد أنَّه يستجيب لهم إذا دعوه و أعظاهم ما سألوه و زادهم على ما طلبوه و هو بعيد من السياق . على أنَّ استجابة الدعاء لا يختص بالمؤمن .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع روى زادن عن علي عليه السلام قال : فينا في آل حم آية لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن . ثم قرء « قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » .
قال الطبرسي : و إلى هذا أشار الكميت في قوله :

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منّا تقيّ و معرب

و فيه و صحّ عن الحسن بن علي عليه السلام أنه خطب الناس فقال في خطبته : إننا من أهل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كل مسلم فقال : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » .

و في الكافي بإسناده عن عبدالله بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى :
« قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » قال : هم الأئمة .

أقول : و الأخبار في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة جداً مروية عنهم .

و في الدر المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و ابن جرير و ابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : « إلا المودة في القربى » فقال سعيد بن جبير : هم قريبي آل محمد فقال ابن عباس : عجّلت إن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال : إلا أن تصلحوا ما بيني وبينكم من القرابة .

أقول : و رواه أيضاً عن ابن عباس بطرق أخرى غير هذا الطريق ، و قد تقدّم في بيان الآية أن هذا المعنى غير مستقيم و لا منطبق على سياق الآية ، و من العجيب ما في بعض هذه الطرق أن الآية منسوخة بقوله تعالى : « قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله » .

و فيه أخرج أبو نعيم و الديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول

الله ﷻ : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى أن تحفظوني في أهل بيتي و تودّوهم لي .

و فيه أخرج ابن المنذر ، و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » قالوا : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم قال : علي و فاطمة و ولداها .

أقول : و رواها الطبرسي في المجمع و فيها « وولدها » مكان « وولداها » . و فيه أخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال : لما جيء بعلي بن الحسين أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم و استأصلكم فقال له علي بن الحسين : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرأت آل حم ؟ قال : نعم قال : أما قرأت « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » ؟ قال : فإني لكم لأنتم هم ؟ قال : نعم .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس « و من يقترف حسنة » قال : المودة لآل محمد .

أقول : و روى ما في معناه في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر ﷻ . و في تفسير القمي حدّثني أبي عن ابن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن محمد بن مسلم قال : سمعت أبا جعفر ﷻ يقول : في قول الله عزّ و جلّ : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » يعني في أهل بيته .

قال : جاءت الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إننا قد آوينا و نصرنا فنخذ طائفة من أموالنا فاستعن بها على ما نأبىك فأنزل الله عزّ و جلّ « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » أي في أهل بيته .

ثم قال : ألا ترى أن الرجل يكون له صديق و في نفس ذلك الرجل شيء على أهل بيته فلا يسلم صدره فأراد الله عزّ و جلّ أن لا يكون في نفس رسول الله ﷺ شيء على أمته ففرض الله عليهم المودة في القربى فإن أخذوا أخذوا مفروضاً ، و إن تركوا

تركوا مفروضا .

قال : فانصرفوا من عنده و بعضهم يقول : عرضنا عليه أموالنا فقال : لا . قاتلوا
عن أهل بيتي من بعدي ، و قال طائفة : ما قال هذا رسول الله و جحدوه و قالوا كما حكى
الله عز و جل : « أم يقولون افتري على الله كذبا » فقال عز و جل : « فإن يشأ الله يختم
على قلبك » قال : لو افتريت « و يمح الله الباطل » يعني يبطله « و يحق الحق بكلماته »
يعني بالأئمة و القائم من آل محمد عليهم السلام « إنه عليهم بذات الصدور » ،
أقول و روى قصة الأ نصار السيوطي في الدر المنثور عن الطبراني و ابن مردويه
من طريق ابن جبير وضعفه .





وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِلُ بِقَدْرِ
 مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ
 مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ
 قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ
 كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
 وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢)
 إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ
 صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوقِعَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَ
 يَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ
 شَيْءٍ فَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا
 عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ
 وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا
 الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ
 إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ

عَفَا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَ لَمَنِ انْتَصَرَ
 بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْتِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
 يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْتِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ (٤٢) وَ لَمَنِ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) وَ مَنْ
 يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ
 يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَ تَرِيَهُمْ يَعْزُضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ
 مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ
 الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَّا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ
 مُقِيمٍ (٤٥) وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ
 يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
 يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧)
 فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا أَنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَ أَنَا
 إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهَا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَ أَنْ تَصْبِهِمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمْتَ
 أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) اللَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا
 يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَوْرَ (٤٩) أَوْ يَزْوَاجَهُمْ
 ذُكْرَانًا وَ إِنَاثًا وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) .

﴿بيان﴾

صدر الآيات متصل بحديث الرزق المذكور في قوله : « والله لطيف بعباده يرزق من يشاء » وقد سبقه قوله « له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » وقد تقدمت الإشارة إلى أن من الرزق نعمة الدين التي آتاها الله سبحانه عباده المؤمنين وبهذه العناية دخل الكلام فيه في الكلام على الوحي الذي سيقت لبيانه آيات السورة و انعطف عليه انعطافا بعد انعطاف .

ثم يذكر بعض آيات التوحيد المتعلقة بالرزق كخلق السموات والأرض وبث الدواب فيهما والسفائن الجوارى في البحر وإيتاء الأولاد الذكور والإناث أو إحداهما لمن يشاء وجعل من يشاء عقيما .

ثم يذكر أن من الرزق ما آتاهموه في الدنيا وهو متاعها الفاني بفنائها ومنه ما يخص المؤمنين في الآخرة وهو خير وأبقى ، و ينتقل الكلام من هنا إلى صفات المؤمنين وحسن عاقبتهم وإلى وصف ما يلقاه الظالمون وهم غيرهم في عقابهم من أهوال القيامة وعذاب الآخرة .

ووراء ذلك في خلال الآيات من إجمال بعض الأحكام والإشارات والتخويف والدعوة إلى الحق و حقائق المعارف شيء كثير .

قوله تعالى : « و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير » القدر مقابل البسط معناه التضييق و منه قوله السابق : « يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر » والقدر بفتح الدال و سكونها كميّة الشيء و هندسته و منه قوله : « و لكن ينزل بقدر ما يشاء » أو جعل الشيء على كميّة معينة و منه قوله : « فقدرنا فنعم القادرون » المرسلات : ٢٣ .

والبغى الظلم ، و قوله : « بعباده » من وضع الظاهر موضع الضمير و النكتة فيه الإشارة إلى بيان كونه خبيراً بصيراً بهم و ذلك أنهم عباده المخلوقون له القائمون به

فلا يكونون محجوبين عنه مجهولين له ، و كذا قوله السابق : « بعباده » لا يخلو من إشارة إلى بيان إيتاء الرزق و ذلك أنهم عباده و رزق العبد على مولاه .
و معنى الآية ولو وسّع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بإيتائه لظلموا في الأرض - لما أن من طبع سعة المال الأشر و البطر و الاستكبار و الطغيان كما قال تعالى « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » العلق : ٧ - و لكن ينزل ما يشاء من الرزق بقدر و كميّة معيّنّة إنّه بعباده خبير بصير فيعلم ما يستحقّه كلّ عبد و ما يصلحهم من غنى أو فقر فيؤتيه ذلك .

ففي قوله : « و لكن ينزل بقدر ما يشاء » بيان للسنة الإلهية في إيتاء الرزق بالنظر إلى صلاح حال الناس أي إن إصلاح حالهم أثراً في تقدير أرزاقهم ، و لا ينا في ذلك ما نشاهد من طغيان بعض المثرين و نماء رزقهم على ذلك فإن هناك سنة أخرى حاكمة على هذه السنة و هي سنة الابتلاء و الامتحان قال تعالى : « إنّما أموالكم و أولادكم فتنة ، التغابن : ١٥ و سنة أخرى هي سنة المكر و الاستدراج قال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يشعرون و أملي لهم إن كيدي متين » الأعراف : ١٨٣ .
فسنة الإصلاح بتقدير الرزق سنة ابتدائية يصلح بها حال الإنسان إلا أن يمتحنه الله كما قال : « وليبتلي الله ما في صدوركم و ليمحص ما في قلوبكم » آل عمران : ١٥٤ أو يغيّر النعمة و يكفر بها فيغيّر الله في حقّه سنته فيعطيه ما يطغيه قال تعالى : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ .

و كما أن إيتاء المال و البنين و سائر النعم الصورية من الرزق المقسوم كذلك المعارف الحقّة و الشرائع السماوية المنتهية إلى الوحي من حيث إنزالها و من حيث الابتلاء بها و التلبس بالعمل بها من الرزق المقسوم .

فلو نزلت المعارف و الأحكام عن آخرها دفعة واحدة - على مالها من الإحاطة و الشمول لجميع شؤون الحياة الإنسانية - لشقت على الناس و لم يؤمن بها إلاّ الأوحدي منهم لكن الله سبحانه أنزلها على رسوله ﷺ تدريجاً و على مكث و هيئاً بذلك الناس بقبول بعضها لقبول بعض قال تعالى : « و قرآنا فرقناه لتقرأه على الناس

على مكث « أسرى : ١٠٦ .

و كذا المعارف العالية التي هي بطون المعارف الساذجة الدينية لو لم يضرب عليها بالحجاب و بينت لعامة الناس على حد الظواهر المبيّنة لهم لم يتحملوها و دفعته أفهامهم إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه كلمهم في ذلك نوع تكليم يستفيد منه كل على قدر فهمه وسعة صدره كما قال في مثل ضربه في ذلك : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها « الرعد : ١٧ .

و كذلك الأحكام والتكاليف الشرعية لو كلف بجمعها جميع الناس لتحرّجوا منها ولم يتحملوها لكنّه سبحانه قسمها بينهم حسب تقسيم الابتلاءات المقتضية لتوجه التكليف المتنوّعة بينهم .

فالرزق بالمعارف والشرائع من أيّ جهة فرض كالرزق الصوري مفروز بين الناس مقدّر على حسب صلاح حالهم .

قوله تعالى : « و هو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد » القنوط اليأس ، والغيث المطر قال في مجمع البيان : الغيث ما كان نافعاً في وقته ، والمطر قد يكون نافعاً وقد يكون ضاراً في وقته وغير وقته . انتهى ، و نشر الرحمة تفريق النعمة بين الناس با نبات النبات وإخراج الثمار التي يكون سببها المطر . وفي الآية انتقال من حديث الرزق إلى آيات التوحيد التي لها تعلق ما بالأرزاق ، و يتلوها في هذا المعنى آيات ، و تذييل الآية بالاسمين : الولي الحميد و هما من أسمائه تعالى الحسنى للثناء عليه في فعله الجميل .

قوله تعالى : « و من آياته خلق السماوات والأرض و ما بثّ فيها من دابة » إلخ البثّ التفريق و يقال : بثّ الريح التراب إذا أثاره ، والدابة كل ما يدب على الأرض فيعمّ الحيوانات جميعاً ، والمعنى ظاهر .

و ظاهر الآية أن في السموات خلقاً من الدواب كالأرض ، وقول بعضهم : إن ما في السموات من دابة هي الملائكة يدفعه أن إطلاق الدواب على الملائكة غير معهود . وقوله : « وهو على جميعهم إذا يشاء قدير » إشارة إلى حشر ما بثّ فيها من دابة

وقد عبّر بالجمع لمقابلته البتّ الذي هو التفريق ، ولا دلالة في قوله : « على جمعهم » حيث أتى بضمير أولي العقل على كون ما في السموات من الدوابّ أولى عقل كالأبسان لقوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمّ أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثمّ إلى ربّهم يحشرون » الأناعام : ٣٨ .

والقدرير من أسمائه تعالى الحسنى وهو الذي أركزت فيه القدرة وثبتت قال الراغب : القدرة إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكّن من فعل شيء ما وإذا وصف الله بها فهي نفى العجز عنه ، ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنى وإن أطلق عليه لفظاً بل حقه أن يقال : قادر على كذا ومتى قيل : هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد ، ولهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلا ويصحّ أن يوصف بالعجز من وجه والله تعالى هو الذي ينتفى عنه العجز من كل وجه .

والقدرير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه ولذلك لا يصحّ أن يوصف به إلا الله تعالى قال : « إنّه على ما يشاء قدير » ، والمقتدر يقاربه نحو « عند مليك مقتدر » لكن قد يوصف به البشر ، وإذا استعمل في الله فمعناه معنى القدير وإذا استعمل في البشر فمعناه المتكفّل والمكتسب للقدرة ، انتهى . وهو حسن غير أن في قوله : « إن القدرة إذا وصف به الله فهي نفى العجز عنه » مساهلة ظاهرة فإن صفاته تعالى الذاتية كالحياة والعلم والقدرة لها معان إيجابية هي عين الذات لا معان سلبية حتى تكون الحياة بمعنى انتفاء الموت والعلم بمعنى انتفاء الجهل والقدرة بمعنى انتفاء العجز على ما يقوله الصابؤن . ولازمه خلوه الذات عن صفات الكمال .

فالحقّ أن معنى قدرته تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء ، ولازم هذا المعنى الإيجابي انتفاء مطلق العجز عنه تعالى .

قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » المصيبة النابتة تصيب الإنسان كأنها تقصده ، والمراد بما كسبت أيديكم المعاصي والسيئات وقوله : « ويعفو عن كثير » أي عن كثير مما كسبت أيديكم وهي السيئات .

والخطاب في الآية اجتماعي موجه إلى المجتمع غير منحل إلى خطابات جزئية ولازمه كون المراد بالمصيبة التي تصيبهم المصائب العامة الشاملة كالقحط والغلاء والوباء والزلازل وغير ذلك .

فيكون المراد أن المصائب والنوائب التي تصيب مجتمعكم و يصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم والله يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها .

فالأية في معنى قوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » الروم : ٤١ ، وقوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا » الأعراف : ٩٤ ، وقوله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ وغير ذلك من الآيات الدالة على أن بين أعمال الإنسان وبين النظام الكوني ارتباطاً خاصاً فلو جرى المجتمع الإنساني على ما يقتضيه الفطرة من الاعتقاد والعمل لنزلت عليه الخيرات وفتح عليه البركات ولو أفسدوا أفسد عليهم .

هذا ما تقتضيه هذه السنة الإلهية إلا أن ترد عليه سنة الابتلاء أو سنة الاستدراج والإملاء فينقلب الأمر قال تعالى : « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسأنا بآباءنا السراء والضراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون » الأعراف : ٩٥ . ويمكن أن يكون الخطاب في الآية عاماً منجلاً إلى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كل إنسان بمصيبة في نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه وما يتعلق به مستنداً إلى معصية أتى بها وسيئة عملها و يعفو الله عن كثير منها .

و كيف كان فالخطاب في الآية لعامة الناس من المؤمن والكافر وهو الذي يفيد السياق وتؤيده الآية التالية هذا أولاً ، والمراد بما كسبته الأيدي المعاصي والسيئات دون مطلق الأعمال ، وهذا ثانياً ؛ والمصائب التي تصيب إنما هي آثار الأعمال في الدنيا لما بين الأعمال وبينها من الارتباط والتداعي دون جزاء الأعمال وهذا ثالثاً .

وبما ذكر يندفع أولاً ما استشكل على عموم الآية بالمصائب النازلة على الأنبياء عليهم السلام وهم معصومون لا معصية لهم ، والمصائب النازلة على الأطفال والمجانين

وهم غير مكلفين بتكليف فلامعصية لهم فيجب تخصيص الآية بمصائب الأنبياء ومصائب الأطفال والمجانين .

وجه الاندفاع أن إثبات المعصية لهم في قوله : « فيما كسبت أيديكم » دليل على أن الخطاب في الآية لمن يجوز عليه صدور المعصية فلا يشمل المعصومين وغير المكلفين من رأس فعدم شمول الآية لهم من باب التخصص دون التخصيص .
وثانياً ما قيل : إن مقتضى الآية مغفرة ذنوب المؤمنين جميعاً فإنها بين ما يجوزون عليها بإصابة المصائب وما يعفى عنها .

وجه الاندفاع أن الآية مسوقة لبيان ارتباط المصائب بالمعاصي وكون المعاصي ذوات آثار دنيوية سيئة منها ما يصيب الإنسان ولا يخطيء ومنها ما يعفى عنه فلا يصيب لأسباب صارفة وحكم مانعة كصلة الرحم والصدقة ودعاء المؤمن والتوبة وغير ذلك مما وردت به الأخبار ، وأما جزاء الأعمال فالآية غير ناظرة إليه كما تقدم .
على أن الخطاب في الآية يعم المؤمن والكافر كما تقدمت الإشارة إليه ، ولا معنى لتبعضها في الدلالة فتدل على المغفرة في المؤمن وعدمها في الكافر .
وبعد هذا كله فالوجه الأول هو الوجه .

قوله تعالى : « وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » معنى الآية ظاهر وهي باتصالها بما قبلها تفيد أنكم لا تعجزون الله حتى لا تصيبكم المصائب لذنوبكم وليس لكم من دونه من ولي يتولى أمركم فيدفع عنكم المصائب ولا نصير ينصركم ويعينكم على دفعها .

قوله تعالى : « ومن آية الجوار في البحر كالأعلام » الجواري جمع جارية وهي السفينة ، والأعلام جمع علم وهو العلامة ويسمى به الجبل وشبهت السفائن بالجبال لعظمتها وارتفاعها والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » إلخ ضمير « يشأ » لله تعالى ، وظل بمعنى صار ، و « رواكد » جمع راکدة وهي الثابتة في محلها والمعنى إن يشأ الله يسكن الريح التي تجري بها الجوارى فيصرن أي الجوارى ثوابت

على ظهر البحر .

وقوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » أصل الصبر الحبس و أصل الشكر إظهار نعمة المنعم بقول أو فعل ، والمعنى إن فيما ذكر من أمر الجوّاري من كونها جارية على ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقلة للناس وأمتعهم من ساحل إلى ساحل لآيات لكل من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعنيه و اشتغل بالتفكر في نعمه والتفكر في النعمة من الشكر .

وقيل المراد بكل صبار شكور المؤمن لأن المؤمن لا يخلو من أن يكون في الضراء أو في السراء فإن كان في الضراء كان من الصابرين و إن كان في السراء كان من الشاكرين .

قوله تعالى : « أو يوبقهن بما كسبوا و يعف عن كثير » الايباق الإهلاك ، و ضمير التأنيث للجوّاري و ضمير التذكير للناس ، و يوبقهن و يعف معطوفان على « يسكن » والمعنى إن يشأ يهلك الجوّاري بإغراقها بسبب ما كسبوا من السيئات و يعف عن كثير منها أي إن بعضها كان في اقتضاء الإهلاك و إن عفى عن كثير منها .

وقيل : المراد بإهلاكها إهلاك أهلها إما مجازاً أو بتقدير مضاف و « يوبقهن » بالعطف على « يسكن » في معنى يرسل الرياح العاصفة فيوبقهم والمعنى إن يشأ يسكن الرياح إلخ و إن يشأ يرسلها فيهلكهم بالإغراق و ينج كثيرا منهم بالعفو والمحصّل إن يشأ يسكن الرياح أو يرسلها فيهلك ناساً بذنوبهم و ينج ناساً بالعفو عنهم . ولا يخفى وجه التكلف فيه .

وقيل : إن « يعف » عطف على قوله : « يسكن الرياح » إلى قوله : « بما كسبوا » و لذا عطف بالواو لا بأو والمعنى إن يشأ يعاقبهم بالإسكان أو الإعصاف و إن يشأ يعف عن كثير . و هو في التكلف كسابقه .

قوله تعالى : « و يعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص » قيل : هو غاية معطوفة على أخرى محذوفة والتقدير نحو من قولنا : ليظهر به قدرته و يعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من مفر و لا مخلص ، و هذا كثير الورد في القرآن الكريم

غير أن المعطوف فيما ورد فيه مقارن للام الغاية كقوله : « و ليعلم الله الذين آمنوا »
آل عمران : ١٤٠ .

و قوله : « و ليكون من الموقنين » الأ نعام : ٧٥ .

و جوز بعضهم أن يكون معطوفا على جزاء الشرط بتقدير أن نحو إن جئتنى
أكرمك و أعطيتك كذا و كذا بنصب أعطيتك ، والمسألة نحوية خلافية فليرجع إلى
ما ذكره فيه .

قوله تعالى : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » إلخ تفصيل لما تقدم
ذكره من الرزق و تقسيم له إلى ما عند الناس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن والكافر
و ما عند الله من رزق الآخرة المختص بالمؤمنين ، وفيه تخلص إلى ذكر صفات المؤمنين
و ذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامة .

فقوله : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » الخطاب للناس على ما يفيد
السياق دون المشركين خاصة ، والمراد بما أوتيتم من شيء جميع ما أعطيه الناس ورزقوه
من النعم ، و إضافة المتاع إلى الحياة للإشارة إلى انقطاعه و عدم ثباته و دوامه ، والمعنى
فكل شيء أعطيتموه مما عندكم متاع تتمتعون به في أيام قلائل .

و قوله : « و ما عند الله خير و أبقى للذين آمنوا و على ربهم يتوكلون » المراد
بما عند الله ما ادخره الله ثواباً ليثيب به المؤمنين ، واللام في « للذين آمنوا » للملك
والظرف لغو ، و قيل اللام متعلق بقوله : « أبقى » والأول أظهر ، و كون ما عند الله
خييراً لكونه خالصاً من الألم والكدر و كونه أبقى لكونه أدام غير منقطع الآخر .

قوله تعالى : « والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش و إذا ما غضبوا هم
يغفرون » عطف على قوله : « الذين آمنوا » والآية وآيتان بعد ها تعد صفات المؤمنين
الحسنة و قول بعضهم أنه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق .

و كبائر الإثم المعاصي الكبيرة التي لها آثار سوء عظيمة و قد عدتعالى منها
شرب الخمر والميسر قال تعالى : « قل فيهما إثم كبير » البقرة : ٢١٩ والفواحش جمع
فاحشة و هي المعصية الشنيعة النكراء و قد عدتعالى منها الزنا واللواط قال : « ولا

تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة « أسرى : ٣٢ ، و قال حاكيا عن لوط : « أتأتون الفاحشة و أنتم تبصرون » النمل : ٥٤ .

و قوله : « يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش » و هو في سورة مكيّة إشارة إلى إجمال ما سيفصل من تشريع تحريم كبائر المعاصي و الفواحش .

و في قوله : « و إذا غضبوا هم يغفرون » إشارة إلى العفو عند الغضب و هو من أخصّ صفات المؤمنين و لذا عبّر عنه بما عبّر و لم يقل : و يغفرون إذا غضبوا ففي الكلام جهات من التأكيد و ليس قصراً للمغفرة عند الغضب فيهم .

قوله تعالى : « و الذين استجابوا لربّهم و أقاموا الصلاة » الخ الاستجابة هي الإجابة و استجابتهم لربّهم إجابتهم لما يكلفهم به من الأعمال الصالحة - على ما يفيد السياق - و ذكر إقامة الصلاة بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه .

على أن الظاهر أن الآيات مكيّة و لم يشرّح يومئذ أمثال الزكاة و الخمس و الصوم و الجهاد ، و في قوله : « و الذين استجابوا لربّهم » من الإشارة إلى إجمال الأعمال الصالحة المشرّعة نظير ما تقدّم في قوله : « و الذين يجتنبون » الخ و نظير الكلام جار في الآيات التالية .

و قوله : « و أمرهم شورى بينهم » قال الراغب : و التشاور و المشاورة و المشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم : شيرت العسل إذا أخذته من موضعه و استخراجته منه قال تعالى : « و شاورهم في الأمر » و الشورى الأمر الذي يتشاور فيه قال تعالى : « و أمرهم شورى بينهم » . انتهى . فالمعنى الأمر الذي يعزمون عليه شورى بينهم يتشاورون فيه ، و يظهر من بعضهم أنّه مصدر والمعنى و شأنهم المشاورة بينهم .

وكيف كان ففيه إشارة إلى أنّهم أهل الرشد و إصابة الواقع يُمعنون في استخراج صواب الرأي بمراجعة العقول فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبّعون أحسنه » الزمر : ١٨ .

و قوله : « و ممّا رزقناهم ينفقون » إشارة إلى بذل المال لمريضات الله .

قوله تعالى : « و الذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » قال الراغب : الانتصار والاستنصار طلب النصر . انتهى فالمعنى الذين إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصر من الآخرين و إن كانوا متفقين على الحق كنفس واحدة فكأنّ الظلم أصاب جميعهم فطلبوا المقاومة قبالة و أعدوا عليه النصر .

و عن بعضهم أن الانتصار بمعنى التناصر نظير اختصم و تخاصم و استبق و تسابق و المعنى عليه ظاهر .

و كيف كان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ينافي المغفرة عند الغضب المذكورة في جملة صفاتهم فإنّ المقاومة دون الظلم و سدّ بابها عن المجتمع لمن استطاعه و الانتصار و التناصر لأجله من الواجبات الفطريّة قال تعالى : « وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر » الأنفال : ٧٢ ، وقال : فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله « الحجرات : ٩ .

قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » إلى آخر الآية بيان لما جعل للمنتصر في انتصاره و هو أن يقابل الباغي بما يماثل فعله و ليس بظلم و بغي .

قيل : و سمي الثانية و هي ما يأتي بها المنتصر سيئة لأنّها في مقابلة الأولى كما قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » البقرة : ١٩٤ ، و قال الزمخشري : كلتا الفعلين : الأولى و جزاؤها سيئة لأنّها تسوء من تنزل به ففيه رعاية لحقيقة معنى اللفظ و إشارة إلى أن مجازاة السيئة بمثلها إنّما تحمد بشرط المماثلة من غير زيادة .

و قوله : « فمن عفا و أصلح فأجره على الله » و عد جميل على العفو و الإصلاح ، و الظاهر أن المراد بالإصلاح إصلاح أمره فيما بينه و بين ربّه ، و قيل : المراد إصلاحه ما بينه و بين ظالمه بالعفو و الإغضاء .

و قوله : « إنّه لا يحبّ الظالمين » قيل : فيه بيان أنّه تعالى لم يرغب المظلوم في العفو عن الظالم لميله إلى الظالم أو لحبه إياه و لكن ليعرض المظلوم بذلك لجزيل الثواب ، و لحبه تعالى الإحسان و الفضل .

وقيل: المراد أنه لا يحب الظالم في قصاص وغيره بتعديده عما هو له إلى ما ليس هو له.

و الوجهان وإن كانا حسنين في نفسيهما لكن سياق الآية لا يساعد عليهما وخاصة مع حيلولة قوله: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» بين التعليل والمعلل. ويمكن أيضاً أن يكون قوله: «إنه لا يحب الظالمين» تعليلاً لأصل كون جزاء السيئة سيئة من غير نظر إلى المماثلة والمساواة.

قوله تعالى: «و لمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل - إلى قوله - من عزم الأمور» ضمير «ظلمه» راجع إلى المظلوم. والإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله.

الآيات الثلاث تبيين ورفع لبس من قوله في الآية السابقة: «فمن عفى وأصلح فأجره على الله» فمن الجائز أن يتوهم المظلوم أن ذلك إلغاء لحق انتصاره فيسب سبحانه بقوله أو لا: «و لمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» أن لا سبيل على المظلومين ولا مجوز لا يبطل حقهم في الشرع الإلهي، وإرجاع ضمير الأفراد إلى الموصول أو لا باعتبار لفظه، و ضمير الجمع ثانياً باعتبار معناه.

و بين بقوله ثانياً: إنما السبيل على الذين يظلمون الناس و يبغون في الأرض بغير الحق» أن السبيل كله على الظالمين في الانتقام منهم للمظلومين، وأكد ذلك ذيلاً بقوله: «أولئك لهم عذاب أليم».

و بين بقوله ثالثاً: «و لمن صبر و غفر إن ذلك لمن عزم الأمور» أن الدعوة إلى الصبر و العفو ليست إبطالا لحق الانتصار وإنما هي إرشاد إلى فضيلة هي من أعظم الفضائل فإن في المغفرة الصبر الذي هو من عزم الأمور، و قد أكد الكلام بلام القسم أو لا و باللام في خبر إن ثانياً لإفادة العناية بمضمونه.

قوله تعالى: «و من يضل الله فماله من ولي» من بعده الخ لما ذكر المؤمنين بأوصافهم و أن لهم عند الله رزقهم المدخر لهم و فيه سعادة عقباهم التي هداهم الله إليها التفت إلى غيرهم وهم الظالمون الآسئون من تلك الهداية الموصلة إلى السعادة المحرومون

من هذا الرزق الكريم فيبين أن الله سبحانه أضلهم لكفرهم و تكذيبهم فلا ينتهون إلى ما عنده من الرزق ولا يسعدهم به و ليس لهم من دونه من ولي حتى يتولى أمرهم و يرزقهم ما حرّمهم الله من الرزق ، فهم صفر الأكف يتمنون عند مشاهدة العذاب الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيكونوا أمثال المؤمنين .

فقوله : « و من يضل الله » الخ من قبيل وضع السبب و هو إضلال الله لهم وعدم ولي آخر يتولى أمرهم فيهديهم ويرزقهم موضع المسبب و هو الهداية و الرزق .
و قوله : « و ترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل » إشارة إلى تمنّيهم الرجوع إلى الدنيا بعد اليأس عن السعادة و مشاهدة العذاب .
و « ترى » خطاب عام وجه إلى النبي ﷺ بما أنه راء ومعناه و ترى ويرى كل من هوراء ، و فيه إشارة إلى أنّهم يتمنون ذلك على رؤس الأشهاد ، و المرد هو الرد .

قوله تعالى : « و تراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » ضمير « عليها » للنار لدلالة المقام عليها وخفي الطرف ضعيفه وإنّما ينظر من طرف خفي إلى المكاره المهولة من ابتلي بها فهو لا يريد أن ينصرف فيفعل عنها و لا يجترىء أن يمتليء بها بصره كالمصبور ينظر إلى السيف ، و الباقي ظاهر .
و قوله : « و قال الذين آمنوا إنّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم و أهلبيهم يوم القيامة » أي إنّ الخاسرين كل الخسران و بحقيقته هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها عن النجاة و أهلبيهم بعدم الانتفاع بهم يوم القيامة . و قيل : أهلوهم أزواجهم من الحور و خدمهم في الجنة لو آمنوا و لا يخلو من وجه نظراً إلى آيات و رائة الجنة .

و هذا القول المنسوب إلى المؤمنين إنّما يقولونه يوم القيامة - و التعبير بلفظ الماضي لتحقق الوقوع - لا في الدنيا كما يظهر من بعضهم فليس لاستناده تعالى إلى مقالة المؤمنين في الدنيا وجه في مثل المقام ، و ليس القائلون به جميع المؤمنين كائنين من كانوا و إنّما هم الكاملون منهم المأنون لهم في الكلام الناطقون بالصواب محضاً كأصحاب الأعراف و شهداء الأعمال قال تعالى : « يوم يأت لاتكلم نفس إلا باذنه » هود : ١٠٥

و قال : « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » النبأ : ٣٨ .
 فلا يصغى إلى ما قيل : إن القول المذكور إنما نسب إلى المؤمنين للدلالة على
 ابتهاجهم بما رزقوا يومئذ من الكرامة و نجوا من الخسران و إلا فالقول قول كل من
 يتأتى منه القول من أهل الجمع كما أن الرؤية المذكورة قبله رؤية كل من تتأتى
 منه الرؤية .

و قوله : « ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » تسجيل عليهم بالعذاب و أنه دائم غير
 منقطع ، و جواز أن يكون من تمام كلام المؤمنين .

قوله تعالى : « و ما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله » الخ هذا التعبير
 أعنى قوله : « و ما كان لهم » الخ دون أن يقال : و ما لهم من ولي كما قيل أو لا
 للدلالة على ظهور بطلان دعواهم و لاية أوليائهم في الدنيا و أن ذلك كان باطلا من
 أول الأمر .

و قوله : « و من يضل الله فما له من سبيل » صالح لتعليل صدر الآية و هو كالنتيجة
 لجميع ما تقدم من الكلام في حال الظالمين في عقابهم ، و نوع انعطاف إلى ماسبق من
 حديث تشريع الشريعة و السبيل بالوحي .

فهو كناية عن أنه لا سبيل إلى السعادة إلا سبيل الله الذي شرعه لعباده من طريق
 الوحي و الرسالة فمن أضله عن سبيله لكفره و تكذيبه بسبيله فلا سبيل له يهتدي به إلى
 سعادة العقبى و التخلص من العذاب و الهلاك .

قوله تعالى : « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم
 من ملجأ يومئذ و ما لكم من نكير » دعوة و إنذار بيوم القيامة المذكور في الآيات
 السابقة على ما يعطيه السياق و قول بعضهم : إن المراد باليوم يوم الموت غير وحيه .

و في قوله : « لا مرد له من الله » « لا » لنفي الجنس و « مرد » اسمه و « له » خبره
 و « من الله » حال من « مرد » و المعنى يوم لارد له من قبل الله أي إنه مقضي محتوم
 لا يرد الله البتة فهو في معنى ما تكرر في كلامه تعالى من وصف يوم القيامة بأنه
 لا ريب فيه .

و قد ذكروا للجملة أعني قوله : « يوم لا مرد له من الله » وجوها أخر من الإعراب لاجدوى في نقلها .

وقوله : « مالكم من ملجاء يومئذ و مالكم من نكير » الملجأ الملاذ الذي يلتجأ إليه و النكير - كما قيل - مصدر بمعنى الإنكار ، والمعنى مالكم من ملاذ تلتجئون إليه من الله و مالكم من إنكار لما صدر منكم لظهور الأمر من كل جهة .

قوله تعالى : « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ » عدول من خطابهم إلى خطاب النبي ﷺ لا لإعلام أن ما حمله من الأمر إنما هو التبليغ لا أزيد من ذلك فقد أرسل مبلغا لدين الله إن عليه إلا البلاغ و لم يرسل حفيظا عليهم مسؤلا عن إيمانهم و طاعتهم حتى يمنعهم عن الإعراض و يتعب نفسه لا قباليهم عليه .

قوله تعالى : « و إننا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة فرح بها و إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » الفرح بالرحمة كناية عن الاشتغال بالنعمة و نسيان المنعم ، و المراد بالسيئة المصيبة التي تسوء الإنسان إذا أصابته ، و قوله : « فإن الإنسان كفور » من وضع الظاهر موضع الضمير و النكتة فيه تسجيل الدم و اللوم عليه بذكره باسمه .

و في الآية استشعار بأعراضهم و توبيخهم بعنوان الإنسان المشغول بالدنيا فإنه بطبعه حليف الغفلة إن ذكر بنعمة يؤتاها صرفه الفرح بها عن ذكر الله ، و إن ذكر بسيئة تصيبه بما قدمت يده شغله الكفران عن ذكر ربه فهو في غفلة عن ذكر ربه في نعمة كانت أو في نقمة فكاد أن لا تنجح فيه دعوة و لا تنفع فيه موعظة .

قوله تعالى : « لله ملك السماوات و الأرض يخلق ما يشاء » إلى آخر الآيتين للآيتين نوع اتصال بما تقدم من حديث الرزق لما أن الأولاد المذكورين فيها من قبيل الرزق .

و قيل : إنهما متصلتان بالآية السابقة حيث ذكر فيها إفاقة الرحمة و إصابة السيئة و أن الإنسان يفرح بالرحمة و يكفر في السيئة فذكر تعالى في هاتين الآيتين أن ملك السماوات و الأرض لله سبحانه يخلق ما يشاء فليس لمن يذوق رحمته أن يفرح بها و

يشتغل به و لا لمن أصابته السيئة أن يكفر و يعترض بل له الخلق و الأمر فعلى المرحوم أن يشكر و على المصاب أن يرجع إليه .

و يبعده أنه تعالى لم ينسب السيئة في الآية السابقة إلى نفسه بل إلى تقديم أيديهم فلا يناسبه نسبة القسامين جميعا في هذه الآية إلى مشيئته و دعوتهم إلى التسليم لها .

و كيف كان فقوله : « لله ملك السماوات و الأرض يخلق ما يشاء » فيه قصر الملك و السلطنة فيه تعالى على جميع العالم و أن الخلق منوط بمشيئته من غير أن يكون هناك أمر يوجب عليه المشيئة أو يضطره على الخلق .

و قوله : « يهب لمن يشاء إناثا و يهب لمن يشاء الذكور » الإناث جمع أنثى و الذكور و الذكران جمعا ذكر ، و ظاهر التقابل أن المراد هبة الإناث فقط لمن يشاء و هبة الذكور فقط لمن يشاء و لذلك كررت المشيئة ، قيل : وجه تعريف الذكور أنهم المطلوبون لهم المعهودون في أذهانهم و خاصة العرب .

و قوله : « أو يزوجهم ذكرا و إناثا » أي يجمع بينهم حال كونهم ذكرا و إناثا معاً فالترويج في اللغة الجمع ، و قوله : « و يجعل من يشاء عقيما » أي لا يلد و لا يولد له ، و لما كان هذا أيضاً قسما برأسه قيده بالمشيئة كالقسامين الأولين ، و أما قسم الجمع بين الذكران و الإناث فإنه بالحقيقة جمع بين القسامين الأولين فاكتمى بما ذكر من المشيئة فيهما .

و قوله : « إنّه عليم قدير » تعليل لما تقدم أي إنّه عليم لا يزيد ما يزيد لجهل قدير لا ينقص ما ينقص عن عجز .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج الحاكم و صححه و البيهقي عن علي قال : إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة : « و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » و ذلك أنهم قالوا : لو أن لنا ، فتمنوا الدنيا .

أقول : و الآية على هذا مدنيّة لكن الرواية أشبهه بالتطبيق منها بسبب النزول .

وفي تفسير القمي قوله : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » قال الصادق عليه السلام : لو فعل لفعالوا و لكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض و استعبدتهم بذلك و لو جعلهم أغنياء لبغوا » و لكن ينزل بقدر ما يشاء مما يعلم أنه يصلحهم في دينهم و دنياهم « إنه بعباده خير بصير » .

و في المجمع روى أنس عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله جل ذكره : إن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم و لو صححته لأفسده ، و إن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة و لو أسقمته لأفسده ، و إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى و لو أفقرته لأفسده ، و إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر و لو أغنيته لأفسده ، و ذلك أني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم .

و في تفسير القمي حدثنني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي حمزة عن الأصبع بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إنني سمعته يقول : إنني أحدتكم بحديث ينبغي لكل مسلم أن يعيه . ثم أقبل علينا فقال : ما عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدنيا إلا كان الله أحكم و أجود و أمجد من أن يعود في عقابه يوم القيامة . ثم قال : و قد يبتلي الله عز وجل المؤمن بالبليّة في بدنه أو ماله أو ولده أو أهله ثم تلا هذه الآية « و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » و حثنا بيده ثلاث مرات .

و في الكافي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : أما إنه ليس من عرق يضرب و لا نكبة و لا صداع و لا مرض إلا بذنب و ذلك قول الله عز و جل في كتابه : « و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » قال : ثم قال : و ما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به .

أقول : و روى هذا المعنى بطريق آخر عن مسمع عنه عليه السلام ، و روى مثله في الدر المنثور عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وآله و لفظه : لما نزلت هذه الآية « و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » قال رسول الله صلى الله عليه وآله : و الذي نفسي بيده ما من خدش عود و لا اختلاج عرق و لا نكبة حجر و لا عثرة قدم إلا بذنب ، و ما يعفو الله عنه أكثر .

و في الكافي أيضاً بإسناده عن علي بن رثاب قال : سألت أبا عبدالله عن قول الله عز وجل : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » أرأيت ما أصاب علياً وأهل بيته عليهم السلام من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله ويستغفر في كل يوم و ليلة مائة مرة من غير ذنب إن الله يخص أوليائه بالمصائب ليأجرهم عليها .

و في المجمع روي عن علي عليه السلام أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : خير آية في كتاب الله هذه الآية . يا علي ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلا بذنب ، و ما عفى الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه ، و ما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثنى على عبده .

أقول : و رواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن علي عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله ، و فحوى الرواية أن قوله تعالى : « وما أصابكم » الآية خاص بالمؤمنين والخطاب لهم و أن مفاده غفران ذنوبهم كافة فلا يعاقبون عليها في برزخ ولا قيامة لأن الآية تقصر الذنوب في مأخوذ به بإصابة المعصية و معفو عنه ومفاد الرواية نفى المؤاخذة بعد المؤاخذة و نفى المؤاخذة بعد العفو .

فيشكل الأمر أو لا من جهة ما عرفت أن الآية في سياق يفيد عموم الخطاب للمؤمن والكافر .

و ثانياً من جهة معارضة الرواية لما ورد في أخبار متكاثرة لعلها تبلغ حد التواتر المعنوي من أن من المؤمنين من يعذب في قبره أو في الآخرة .

و ثالثاً من جهة مخالفة الرواية لظواهر مادكت من الآيات على أن موطن جزاء الأعمال هي الدار الآخرة كقوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون » النحل : ٦١ و غيره من الآيات الدالة على أن كل مظلمة و معصية مأخوذ بها وأن موطن الأخذ هو ما بعد الموت و في القيامة إلا ما غفرت بالتوبة أو تذهب بحسنة أو بشفاعة في الآخرة أو نحو ذلك .

على أن الآية أعني قوله : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » - كما تقدمت الإشارة إليه - غير ظاهرة في كون إصابة المصيبة جزاء للعمل ولا في كون العفو بمعنى إبطال الجزاء وإنما هو الأثر الدنيوي للسيئة يصيب مرة ويمحى أخرى .

فالحرى أن تحمل الرواية - لو قبلت - على الأخذ بحسن الظن بالله سبحانه .
و في المجمع في قوله تعالى : « و أمرهم شورى بينهم » و قد روي عن النبي ﷺ أنه قال : ما من رجل يشاور أحداً إلا هدى إلى الرشد .

و في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ في قوله عز وجل : « يهب لمن يشاء إناثاً » يعني ليس معهن ذكور « و يهب لمن يشاء الذكور » يعني ليس معهم أنثى « أو يزو جهن ذكر انا وإناثاً » أي يهب لمن يشاء ذكراً وإناثاً جميعاً يجمع له البنين والبنات أي يهبهم جميعاً لواحد .

و في التهذيب بإسناده عن الحسين بن علوان عن زيد بن علي عن آبائه عن علي ﷺ قال : أتى النبي ﷺ رجل فقال : يا رسول الله إن أبي عمد إلى مملوك لي فأعتقه كهيئة المضرة لي فقال رسول الله ﷺ : أنت و مالك من هبة الله لا ييك أنت سهم من كناته « يهب لمن يشاء إناثاً و يهب لمن يشاء الذكور أو يزو جهن ذكراً وإناثاً و يجعل من يشاء عقيماً » جازت عتاقة أهلك يتناول والدك من مالك و بدنك و ليس لك أن تتناول من ماله ولا من بدنه شيئاً إلا باذنه .

أقول : و هذا المعنى مروى عن الرضا ﷺ في جواب مسائل محمد بن سنان في العلل و مروى من طرق أهل السنة عن عائشة عنه ﷺ .





وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ
يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ (٥١) وَكَذَلِكَ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ
وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
إِلَّا إِلَىٰ اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣).

﴿بيان﴾

تتضمن الآيات آخر ما يفيد سبجانه في تعريف الوحي في هذه السورة و هو
تقسيمه إلى ثلاثة أقسام : وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بأذنه ما
يشاء ثم يذكر أنه يوحي إليه ﷺ ما يوحي ، على هذه الوتيرة وأن ما أوحى إليه
منه تعالى لم يكن النبي ﷺ يعلم ذلك من نفسه بل هو نور يهدي به الله من يشاء
من عباده و يهدي به النبي ﷺ بأذنه .

قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو
يرسل رسولاً فيوحي بأذنه ما يشاء » الخ قد تقدم البحث عن معنى كلامه تعالى في
الجزء الثاني من الكتاب ، وإطلاق الكلام على كلامه تعالى والتكليم على فعله الخاص
سواء كان إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً واقع في كلامه تعالى قال : « يا موسى إنني اصطفتك

على الناس برسالاتي و بكلامي « الأعراف : ١٤٤ و قال : « و كلم الله موسى تكليماً » النساء : ١٦٤ و من مصاديق كلامه ما يتلقاه الأنبياء عليهم السلام منه تعالى بالوحي .
و على هذا لا موجب لعد الاستثناء في قوله : « إلهياً » منقطعاً بل الوحي والقسمان المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلافاً حقيقياً أو مجازياً فكل واحد من الوحي و ما كان من وراء حجاب و ما كان بإرسال رسول نوع من تكليمه للبشر .

فقوله : « وحياً » - والوحي الإشارة السريعة على ما ذكره الراغب - مفعول مطلق نوعي و كذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النوعي ، والمعنى ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعاً من أنواع التكليم إلا هذه الأنواع الثلاثة أن يوحي وحياً أو يكون من وراء حجاب أو أن يرسل رسولاً فيوحي بان منه ما يشاء .

ثم إن ظاهر الترديد في الآية بأو هو التقسيم على مغايرة بين الأقسام و قد قيد القسمان الأخيران بقيد كالحجاب والرسول الذي يوحي إلى النبي ولم يقيد القسم الأول بشيء فظاهر المقابلة يفيد أن المراد به التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطة بينه تعالى و بين النبي أصلاً ، و أما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد و هو الحجاب أو الرسول الموحى و كل منهما واسطة غير أن الفارق أن الواسطة الذي هو الرسول يوحي إلى النبي بنفسه والحجاب واسطة ليس بموح وإنما الوحي من ورائه .

فتمحصل أن القسم الثالث « أو يرسل رسولاً فيوحي بان منه ما يشاء » وحي بتوسط الرسول الذي هو ملك الوحي فيوحي ذلك الملك بان الله ما يشاء الله سبحانه قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٤ و قال : « قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بان الله » البقرة : ٩٧ ، والموحي مع ذلك هو الله سبحانه كما قال : « بما أوحينا إليك هذا القرآن » يوسف : ٣ .

و أما قول بعضهم : إن المراد بالرسول في قوله : « أو يرسل رسولاً فيوحي بان منه ما يشاء » هو النبي يبلغ الناس الوحي فلا يلائمه قوله : « يوحي » إذ لا يطلق الوحي على تبليغ النبي .

و أن القسم الثاني « أو من وراء حجاب » وحي مع واسطة هو الحجاب غير أن الواسطة لا يوحي كما في القسم الثالث وإنما يبتديء الوحي ممّا وراءه لمكان من ، و ليس وراء بمعنى خلف وإنما هو الخارج عن الشيء المحيط به قال تعالى : « والله من ورائهم محيط » البروج : ٢٠ و هذا كتكليم موسى ﷺ في الطور قال تعالى : « فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة » القصص : ٣٠ و من هذا الباب ما أوحى إلى الأنبياء في مناماتهم .

و أن القسم الأول تكليم إلهي للنبي من غير واسطة بينه و بين ربه من رسول أو أي حجاب مفروض .

ولما كان للوحي في جميع هذه الأقسام نسبة إليه تعالى على اختلافها صح إسناد مطلق الوحي إليه بأي قسم من الأقسام تحقق و بهذه العناية أسند جميع الوحي إليه في كلامه كما قال : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » النساء : ١٦٣ ، و قال : « و ما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم » النحل : ٤٣ . هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة ، و للمفسرين فيها أبحاث طويلة الذيل و شاجرات أضربنا عن الاشتغال بها من أرادها فليراجع المفصلات .

و قوله : « إنّه عليّ حكيم » تعليق لمضمون الآية فهو تعالى لعلوه عن الخلق و النظام الحاكم فيهم يجل أن يكلمهم كما يكلم بعضهم بعضاً ، و لعلوه و حكمته يكلمهم بما اختار من الوحي و ذلك أن هداية كل نوع إلى سعادته من شأنه تعالى كما قال : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، و قال : « و على الله قصد السبيل » النحل : ٩ و سعادة الإنسان الذي يسلك سبيل سعادته بالشعور و العلم في إعلام سعادته و الدلالة إلى سنة الحياة التي تنتهي إليها و لا يكفى في ذلك العقل الذي من شأنه الإخطاء و الإصابة فاختار سبحانه لذلك طريق الوحي الذي لا يخطئ البتة ، و قد فصلنا القول في هذه الحجة في موارد من هذا الكتاب .

قوله تعالى : « و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب

ولا الإيمان ، الخ ظاهر السياق كون « كذلك » إشارة إلى ما ذكر في الآية السابقة من الوحي بأقسامه الثلاث ، ويؤيده الروايات الكثيرة الدالة على أنه ﷺ كما كان يوحى إليه بتوسط جبريل وهو القسم الثالث كان يوحى إليه في المنام وهو من القسم الثاني ويوحى إليه من دون توسط واسطة وهو القسم الأول .

وقيل : الإشارة إلى مطلق الوحي النازل على الأنبياء وهذا متعين على تقدير كون المراد بالروح هو جبريل أو الروح الأمري كما سيأتي .

والمراد بإيحاء الروح - على ما قيل - إيحاء القرآن وأيد بقوله : « ولكن جعلناه نوراً » الخ ومن هنا قيل : إن المراد بالروح القرآن .

لكن يبقى عليه أولاً أنه لا ريب أن الكلام مسوق لبيان أن ما عندك من المعارف والشرائع التي تتلبس بها وتدعو الناس إليها ليس مما أدركته بنفسك وأبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزل إليك بوحينا ، وعلى هذا فلو كان المراد بالروح الموحى القرآن كان من الواجب الاقتصار على الكتاب في قوله : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » لأن المراد بالكتاب القرآن فيكون الإيمان زائداً مستغنى عنه .

و ثانياً أن القرآن وإن أمكن أن يسمى روحاً باعتبار إحيائه القلوب بهداه كما قال تعالى : « إذا دعاكم لما يحييكم » الأنفال : ٢٤ وقال : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس » الأنعام : ١٢٢ لكن لا وجه لتقيده حينئذ بقوله : « من أمرنا » والظاهر من كلامه تعالى أن الروح من أمره خلق من العالم العلوي يصاحب الملائكة في نزولهم قال تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » القدر : ٤ ، وقال : « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً » النبأ : ٣٨ وقال : « قل الروح من أمر ربي » أسرى : ٨٥ ، وقال : « وأبديناه بروح القدس » البقرة : ٨٧ ، وقد سمي جبريل الروح الأمين وروح القدس حيث قال : « نزل به الروح الأمين » الشعراء : ١٩٤ ، وقال : « قل نزله روح القدس من ربك » النحل : ١٠٢ .

ويمكن أن يجاب عن الأول بأن مقتضى المقام وإن كان هو الاقتصار على ذكر الكتاب فقط لكن لما كان إيمانه ﷺ بتفاصيل ما في الكتاب من المعارف والشرائع

من لوازم نزول الكتاب غير المنفكة عنه و آثاره الحسنه صح أن يذكر مع الكتاب فالمعنى و كذلك أوحينا إليك كتاباً ما كنت تدري ما الكتاب ولا ما تجده في نفسك من أثره الحسن الجميل و هو إيمانك به .

و عن الثاني أن المعهود من كلامه في معنى الروح وإن كان ذلك لكن حمل الروح في الآية على ذلك المعنى و إرادة الروح الأمرى أو جبريل منه يوجب أخذ «أوحينا» بمعنى أرسلنا إذ لا يقال : أوحينا الروح الأمرى أو الملك فلا مفر من كون الإيحاء بمعنى الإرسال و هو كما ترى فأخذ الروح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال والجوابان لا يخالوان عن شيء .

وقيل : المراد بالروح جبريل فإن الله سمّاه في كتابه روحاً قال : «نزل به الروح الأمين على قلبك» الشعراء : ١٩٤ و قال : « قل نزل له روح القدس من ربك » .
وقيل : المراد بالروح الروح الأمرى الذي ينزل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا » النحل : ٢ فالمراد بإيحاؤه إليه إنزاله عليه .

و يمكن أن يوجه التعبير عن الإنزال بالإيحاء بأن أمره تعالى على ما يعرفه في قوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن » يس : ٨٣ هو كلمته ، والروح من أمره كما قال : « قل الروح من أمر ربي » أسرى : فهو كلمته ، و يصدق ذلك قوله في عيسى بن مريم عليه السلام : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه » النساء : ١٧١ ، و إنزال الكلمة تكليم فلا ضير في التعبير عن إنزال الروح بإيحاؤه ، والآنبياء مؤيدون بالروح في أعمالهم كما أنهم يوحى إليهم الشرائع به قال تعالى : « و أيدناه بروح القدس » وقد تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى : « و أوحينا إليهم فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة » الأنبياء : ٧٣ .

و يمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الإنزال والإرسال بالقول بكون قوله : « روحاً » منصوباً بنزع الخافض و رجوع ضمير « جعلناه » إلى القرآن المعلوم من السياق أو الكتاب والمعنى و كذلك أوحينا إليك القرآن بروح منّا ما كنت تدري ما الكتاب

وما الإيمان و لكن جعلنا القرآن أو الكتاب نوراً الخ هذا وما أن ذكر أحداً من المفسرين قال به .

وقوله : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » قد تقدم أن الآية مسوقة لبيان أن ما عنده ﷺ الذي يدعو إليه إنما هو من عند الله سبحانه لا من قبله نفسه وإنما أوتي ما أوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العملية فإن ذلك هو الذي أوتي العلم به بعد النبوة والوحي ، و بعدم درايته بالإيمان عدم تلبسه بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقّة والأعمال الصالحة وقد سمي العمل إيماناً في قوله : « و ما كان الله ليضيع إيمانكم » البقرة : ١٤٣ .

فالمعنى ما كان عندك قبل وحي الروح الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً بما أنت متلبس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقادي والعملي بمضامينه وهذا لاينا في كونه ﷺ مؤمناً بالله موحداً قبل البعثة صالحاً في عمله فإن الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملاً و نفي العلم والالتزام التفصيليين لا يلزم نفي العلم والالتزام الإجماليين بالإيمان بالله والخضوع للحق . وبذلك يندفع ما استدلّ بعضهم بالآية على أنه ﷺ كان غير متلبس بالإيمان قبل بعثته .

ويندفع أيضاً ما عن بعضهم أنه ﷺ لم يزل كاملاً في نفسه علماً وعملاً وهو ينافي ظاهر الآية أنه ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان .

وجه الاندفاع أن من الضروري وجود فرق في حاله ﷺ قبل النبوة وبعدها والآية تشير إلى هذا الفرق ، وأن ما حصل له بعد النبوة لا صنع له فيه وإنما هو من الله من طريق الوحي .

وقوله : « ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » ضمير « جعلناه » للروح والمراد بقوله : « من نشاء » على تقدير أن يراد بالروح القرآن هو النبي ﷺ و من آمن به فإنهم جميعاً مهتدون بالقرآن .

وعلى تقدير أن يراد به الروح الأمرى فالمراد بمن نشأ بجميع الأنبياء ومن آمن بهم من أممهم فإنه يهدي بالوحي الذي نزل به ، الأنبياء والمؤمنين من أممهم ويسد الأنبياء خاصة ويهديهم إلى الأعمال الصالحة ويشير عليهم بها .
وعلى هذا تكون الآية في مقام تصديق النبي ﷺ تصدقه في دعواه أن كتابه من عند الله بوحى منه ، و تصدقه في دعواه أنه مؤمن بما يدعو إليه فيكون في معنى قوله تعالى : « إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم » يس : ٥ .
وقوله : « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » إشارة إلى أن الذي يهدي إليه صراط مستقيم وأن الذي يهديه من الناس هو الذي يهديه الله سبحانه فهدايتة ﷺ هداية الله .

قوله تعالى : « صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » إلخ بيان للصراف المستقيم الذي يهدي إليه النبي ﷺ ، و توصيفه تعالى بقوله : « الذي له ما في السماوات وما في الأرض » للدلالة على الحجّة على استقامة صراطه فإنه تعالى لما ملك كل شيء ملك الغاية التي تسير إليها الأشياء والسعادة التي تتوجه إليها ، فكانت الغاية والسعادة هي التي عينها ، و كان الطريق إليها والسبيل الذي عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الذي شرعه و بينه ، و ليس يملك أحد شيئاً حتى ينصب له غاية و نهاية أو يشرع له إليها سبيلاً ، فالسعادة التي يدعو سبحانه إليها حق السعادة والطريق الذي يدعو إليه حق الطريق و مستقيم الصراط .

و قوله : « ألا إلى الله تصير الأمور » تنبيه على لازم ملكه لما في السماوات و ما في الأرض فإنّ لازمه رجوع أمورهم إليه ولازمه كون السبيل الذي يسلكونه - وهو من جملة أمورهم - راجعاً إليه فالصراط المستقيم هو صراطه فالضارح أعني قوله : « تصير » للاستمرار .

و فيه إشعار بلمّ الوحي والتكليم الإلهي : إن لما كان مصير الأشياء إليه تعالى كان لكل نوع إليه تعالى سبيل يسلكه و كان عليه تعالى أن يهديه إليه و يسوقه إلى غايته كما قال : « و على الله قصد السبيل » النحل : ٩ و هو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته

و هو في الإنسان التكليم المسمى بالوحي والإرسال .
 وقيل : المضارع للاستقبال و المراد مصيرها جميعاً إليه يوم القيامة ، و قد سيقت
 الجملة لوعد المهتدين إلى الصراط المستقيم ووعيد الضالين عنه وأول الوجهين أظهر .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج البخاري و مسلم والبيهقي عن عائشة أن الحارث بن
 هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحياناً يأتيني الملك في مثل
 صلصلة الجرس فيفصم عني و قد وعيت عنه ما قال و هو أشده علي ، و أحياناً يتمثل
 لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول .

قالت عائشة : و لقد رأيتہ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم و إن
 جبينه لينفصد عرقاً .

وفي التوحيد بإسناده عن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك
 الغشية التي كانت تصيب رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي ؟ قال : فقال : ذلك إذا
 لم يكن بينه و بين الله أحد ذاك إذا تجلى الله له . قال : ثم قال : تلك النبوة يازرارة
 و أقبل يتخشع .

وفي العلل بإسناده عن ابن أبي عمير عن عمرو بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام قال :
 كان جبرئيل إذا أتى النبي صلى الله عليه وآله قعد بين يديه قعدة العبد ، وكان لا يدخل
 حتى يستأذنه .

وفي أمالي الشيخ بإسناده عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله
 عليه السلام قال : قال بعض أصحابنا : أصلحك الله كان رسول الله ﷺ يقول : قال
 جبرئيل ، وهذا جبرئيل يأمرني ثم يكون في حال أخرى يغمى عليه فقال أبو عبد الله
 عليه السلام : إنّه إذا كان الوحي من الله إليه ليس بينهما جبرئيل أصابه ذلك لثقل الوحي
 من الله ، و إذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك فقال : قال لي جبرئيل و هذا جبرئيل .
 وفي البصائر علي بن حسان عن ابن بكير عن زرارة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام

من الرسول؟ من النبي؟ من المحدث؟ فقال: الرسول الذي يأتيه جبرئيل فيكلمه قبلاً فيراه كما يرى أحدكم صاحبه الذي يكلمه فهذا الرسول، والنبي الذي يؤتى في النوم نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام، ونحو ما كان يأخذ رسول الله عليه السلام من السبات إذا أتاه جبرئيل في النوم فهكذا النبي، ومنهم من يجمع له الرسالة والنبوة فكان رسول الله صلى الله عليه وآله رسولاً نبيّاً يأتيه جبرئيل قبلاً فيكلمه ويراه، ويأتيه في النوم وأما المحدث فهو الذي يسمع كلام الملك فيحدثه من غير أن يراه ومن غير أن يأتيه في النوم.

أقول: وفي معناه روايات أخر.

وفي التوحيد بإسناده عن محمد بن مسلم ومحمد بن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما علم رسول الله عليه السلام أن جبرئيل من قبل الله إلا بالتوفيق.

وفي تفسير العياشي عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله عليه السلام فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان؟ قال: فقال: إن الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه.

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» قال: خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله عليه السلام يخبره ويسدده، وهو مع الأئمة من بعده.

أقول: وفي معناها عدة روايات وفي بعضها أنه من الملكوت، قال في روح المعاني: ونقل الطبرسي عن أبي جعفر وأبي عبد الله أن المراد من هذا الروح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله عليه السلام ولم يصعد إلى السماء، وهذا القول في غاية الغرابة ولعله لا يصح عن هذين الإمامين. انتهى والذي في مجمع البيان: عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالوا: ولم يصعد إلى السماء وإنه لفينا. انتهى واستغرابه فيما لا دليل له على نفيه غريب. على أنه يسلم تسديد هذا الروح لبعض

الامة غير النبي" كما هو ظاهر لمن راجع قسم الاشارات من تفسيره .

وفي النهج و لقد قرن الله به وَالَّذِينَ آمَنُوا من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل و ابن عساكر عن علي قال : قيل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هل عبت وثناً قط ؟ قال : لا . قالوا : فهل شربت خمراً قط ؟ قال : « لا و ما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر و ما كنت أدري ما الكتاب ولا الايمان ، و بذلك نزل القرآن « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » .

وفي الكافي باسناده عن أبي عمرو الزيري عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديث ، و قال في نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم » يقول : تدعو .

وفي الكافي باسناده عن جابر عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال : سمعته يقول : وقع مصحف في البحر فوجدوه و قد ذهب ما فيه إلا هذه الآية : « ألا إلى الله تصير الأمور » .



﴿سورة الزخرف وهي تسع وثمانون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) اِنَّا جَعَلْنَاهُ
 قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَ اِنَّهُ فِي اَمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِي
 حَكِيمٌ (٤) اَفَنْضِرُبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا اَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَ
 كَمْ اَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْاَوَّلِينَ (٦) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ اِلَّا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِءُونَ (٧) فَاَهْلَكْنَا اَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْاَوَّلِينَ (٨) وَ
 لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْاَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)
 وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَاَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١)
 وَ الَّذِي خَلَقَ الْاَزْوَاجَ كُلَّهَا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْاَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢)
 لِيَسْتَوِيَ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ اِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا
 سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ (١٣) وَ اِنَّا اِلَىٰ رَبِّنَا
 لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) .

﴿بيان﴾

السورة موضوعة للإذار كما تشهد به فاتحتها وخاتمتها والمقاصد المتخلفة بينهما
 «إلا ما في قوله: «إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم» إلى تمام ست آيات
 استطرادية.

تذكر أن السنة الإلهية إنزال الذكر وإرسال الأنبياء والرسول ولا يصدّه عن ذلك إسراف الناس في قولهم و فعلهم بل يرسل الأنبياء والرسول ويهلك المستهزئين بهم والمكذّبين لهم ثم يسوقهم إلى نار خالدة .

وقد ذكرت إرسال الأنبياء بالأجمال أو لا ثم سمّي منهم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليه السلام ، وذكرت من إسراف الكفار أشياء ومن عمدتها قولهم بأنّ لله سبحانه ولداً وأنّ الملائكة بنات الله ففيها عناية خاصّة بنفي الولد عنه تعالى فكفرت ذلك وردته وأوعدهم بالعذاب ، وفيها حقائق متفرقة أخرى .

و السورة مكتبة بشهادة مضامين آياتها لإقوله : « وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا الآية ولم يثبت كما سيأتي إن شاء الله .

قوله تعالى : « والكتاب المبين » ظاهره أنّه قسم وجوابه قوله : « إنّنا جعلناه قرآنا عربياً » إلى آخر الآيتين ، وكون القرآن مبيناً هو إبانته وإظهاره طريق الهدى كما قال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » النحل : ٨٩ ، أو كونه ظاهراً في نفسه لا يرتاب فيه كما قال : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » البقرة : ٢ .

قوله تعالى : « إنّنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون » الضمير للكتاب ، و « قرآنا عربياً » أي مقرواً باللغة العربية و « لعلكم تعقلون » غاية الجعل و غرضه . وجعل رجاء تعقله غاية للجعل المذكور يشهد بأنّ له مرحلة من الكينونة والوجود لا ينالها عقول الناس ، و من شأن العقل أن ينال كل أمر فكري وإن بلغ من اللطافة والدقّة ما بلغ فمفاد الآية أن الكتاب بحسب موطنه الذي له في نفسه أمر وراء الفكر أجنبي عن العقول البشرية وإنّما جعله الله قرآنا عربياً وألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه ، والرجاء في كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلم كما تقدّم غير مرّة .

قوله تعالى : « وإنّه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم » تأكيد وتبيين لما تدلّ عليه الآية السابقة أن الكتاب في موطنه الأصليّ وراء تعقل العقول .

والضمير للكتاب ، والمراد بأمّ الكتاب اللوح المحفوظ كما قال تعالى : « بل

هو قرآن مجيد في لوح محفوظ « البروج : ٢٢ ، و تسميته بأُم الكتاب لكونه أصل الكتب السماوية يستنسخ منه غيره ، و التقييد بأُم الكتاب و « لدينا » للتوضيح للاحتراز والمعنى أنه حال كونه في أُم الكتاب لدينا - حالاً لازمة - لعلي حكيم ، و سيجيء في أواخر سورة الجاثية كلام في أُم الكتاب إن شاء الله .

والمراد بكونه علياً على ما يعطيه مفاد الآية السابقة أنه رفيع القدر والمنزلة من أن تناله العقول ، و بكونه حكيماً أنه هناك محكم غير مفصل ولا مجزئى إلى سور و آيات و جمل و كلمات كما هو كذلك بعد جعله قرآناً عربياً كما استفدناه من قوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » هود : ٢ .

وهذان النعتان أعني كونه علياً حكيماًهما اللوجبان لكونه وراء العقول البشرية فإن العقل في فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم والألفاظ أولاً و كان مؤلفاً من مقدمات تصديقية يترتب بعضها على بعض كما في الآيات والجمل القرآنية ، و أما إذا كان الأمر وراء المفاهيم والألفاظ وكان غير متجزئ إلى أجزاء و فصول فلا طريق للعقل إلى نيته .

فمحصل معنى الآيتين أن الكتاب عندنا في اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع وإحكام لا تناله العقول لدينك الوصفين وإنما أترلناه بجعله مقرواً عربياً رجاء أن يعقله الناس .

فإن قلت : ظاهر قوله : « لعلمكم تعقلون » إمكان تعقل الناس هذا القرآن العربي النازل تعقلاً تاماً فهذا الذي نقرؤه و نعقله إما أن يكون مطابقاً لما في أُم الكتاب كل المطابقة أو لا يكون والثاني باطل قطعاً كيف ؟ و هو تعالى يقول : « وإنه في أُم الكتاب » و « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢ و « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون » الواقعة : ٧٨ . فتعيّن الأول و مع مطابقته لأُم الكتاب كل المطابقة ما معنى كون القرآن العربي الذي عندنا معقولاً لنا و ما في أُم الكتاب عند الله غير معقول لنا ؟

قلت : يمكن أن تكون النسبة بين ما عندنا وما في أُم الكتاب نسبة المثل والممثل

فالمثل هو الممثل بعينه لكن الممثل له لا يفقه إلا المثل فافهم ذلك .

و بما مرّ يظهر ضعف الوجوه التي أوردوها في تفسير الوصفين كقول بعضهم : إن المراد بكونه علياً أنه عال في بلاغته مبن لما يحتاج إليه الناس ، و قول بعضهم معناه أنه يعلو كل كتاب بما اختص به من الإعجاز وهو ينسخ الكتب غيره ولا ينسخه كتاب ، و قول بعضهم يعني أنه يعظّمه الملائكة والمؤمنون .

وكقول بعضهم في معنى « حكيم » أنه مظهر للحكمة البالغة ، وقول بعضهم معناه أنه لا ينطق إلا بالحكمة ولا يقول إلا الحق والصواب ، ففي توصيفه بالحكيم تجوز لغرض المبالغة . و ضعف هذه الوجوه ظاهر بالتدبر في مفاد الآية السابقة و ظهور أن جعله قرآناً عربياً بالنزول عن أم الكتاب .

قوله تعالى : « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين » الاستفهام للإنكار ، و الفاء للتفريع على ما تقدم ، و ضرب الذكر عنهم صرفه عنهم قال في المجمع : و أصل ضربت عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابةً فأراد أن يصرفه عن جهة ضربه بعضى أوسوط ليعدل به إلى جهة أخرى ثم وضع الضرب موضع الصرف والعدل . انتهى و الصفح بمعنى الإعراض فصفحاً مفعول له ، و احتمل أن يكون بمعنى الجانب « و أن كنتم » محذوف الجار والتقدير لأن كنتم و هو متعلق بقوله : « أفنضرب » .

والمعنى أفنصرف عنكم الذكر - و هو الكتاب الذي جعلناه قرآناً لتعقلوه - للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أفنصرفه عنكم إلى جانب لكونكم مسرفين أي إننا لا نصرّفه عنكم لذلك .

قوله تعالى : « و كم أرسلنا من نبيّ في الأولين و ما يأتيهم من نبيّ إلا كانوا به يستهزؤن » « كم » للتكثير ، و الأولون هم الأمم الدارجة و « و ما يأتيهم » الخ حال و العامل فيها « أرسلنا » .

وآيتان و ما يتلوها في مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم ببيان أن كونكم قوماً مسرفين لا يمنعنا من إجراء سنة الهداية من طريق الوحي فإننا كثيراً ما أرسلنا من نبيّ في الأمم الماضية والحال أنه ما يأتيهم من نبيّ إلا استهزؤا به و انجر الأمر

إلى أن أهلكنا من أولئك من هو أشد بطشاً منكم .

فكما كانت عاقبة إسرائفهم واستهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبة إسرائفكم ففى الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبي ﷺ ووعيد لقومه .

قوله تعالى : « فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين » قال الراغب : البطش تناول الشيء بصولة . انتهى و فى الآية التفات فى قوله : « منهم » من الخطاب إلى الغيبة ، وكان الوجه فيه العدول عن خطابهم إلى خطاب النبي ﷺ لعدم اعتبارهم بهذه القصص والعبر و ليكون تمهيداً لقوله بعد : « ومضى مثل الأولين » ويؤيده قوله بعد : « ولئن سألتهم » خطاباً للنبي ﷺ . ومعنى قوله : « ومضى مثل الأولين » ومضى فى السور النازلة قبل هذه السورة من القرآن وصف الأمم الأولين وأنه كيف حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » فى الآية وما يتلوها إلى تمام ست آيات احتجاج على ربوبيته تعالى وتوحيده فيها مع إشارة ما إلى المعاد و تبكيت لهم على إسرائفهم مأخوذ من اعترافهم بأنه تعالى هو خالق الكل ثم الأخذ بجهات من الخلق هى بعينها تدبير لأمر العباد كجعل الأرض لهم مهدياً وجعله فيها سبلاً وإنزال الأمطار فينتج أنه تعالى وحده مالك مدبر لأمرهم فهو الرب لا رب غيره .

و بذلك تبين أن الآية مقدمة و توطئة لما تتضمنه الآيات التالية من الحجته وقد تقدم فى هذا الكتاب مراراً أن الوثنية لا تنكر رجوع الصنع والإيجاد إليه تعالى وحده وإنما تدعى رجوع أمر التدبير إلى غيره .

قوله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون » أى جعل لكم الأرض بحيث تربون فيها كما يربى الأطفال فى المهدي ، وجعل لكم فى الأرض سبلاً وطرقاً تسلكونها و تهتدون بها إلى مقاصدكم .

وقيل : معنى « لعلكم تهتدون » رجاء أن تهتدوا إلى معرفة الله وتوحيده فى العبادة

والأول أظهر .

وفي الكلام التفات إلى خطاب القوم بعد صرف الخطاب عنهم إلى النبي ﷺ ولعل الوجه فيه إظهار العناية بهذا المعنى في الخلقة وهو أن التدبير بعينه من الخلق فاعترفهم بكون الخلق مختصاً بالله سبحانه وقولهم يرجوع التدبير إلى غيره من خلقه من التفات في القول جهلاً ففرعهم بهذا الخطاب من غير واسطة .

قوله تعالى : « والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون » قيد تنزيل الماء بقدر للإشارة إلى أنه عن إرادة و تدبير لا كيف اتفق والإشارة إلى إحياء ، والميت مخفف الميتة بالتشديد ، و توصيف البلدة به باعتبار أنها مكان لأن البلدة أيضاً إنما تنصف بالموت والحياة باعتبار أنها مكان ، والاتفات عن الغيبة إلى التكلم مع الغير في « أنشرنا » لإظهار العناية .

ولما استدلّ بتنزيل الماء بقدر وإحياء البلدة الميتة على خلقه و تدبيره استنتج منه أمراً آخر لا يتم التوحيد إلا به وهو المعاد الذي هو رجوع الكل إليه تعالى فقال : « كذلك تخرجون » أي كما أحيا البلدة الميتة كذلك تبعثون من قبوركم أحياء .

قيل : في التعبير عن إخراج النبات بالإشارة إلى إحياء الموتى و عن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات و تهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال و توضيح منهاج القياس .

قوله تعالى : « والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » قيل : المراد بالأزواج أصناف الموجودات من ذكر و أنثى و أبيض و أسود وغيرها ، وقيل : المراد الزوج من كل شيء فكل ما سوى الله كالفوق و تحت واليمين واليسار والذكر والأنثى زوج .

و قوله : « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » أي تركبونه ، والركوب إذا نسب إلى الحيوان كالفرس والإبل تعدى بنفسه فيقال : ركبت الفرس و إذا نسب إلى مثل الفلك والسفينة تعدى بفي فيقال ركب فيه قال تعالى : و « إذا ركبوا في الفلك » ففي قوله : « ما تركبون » أي تركبونه تغليب لجانب الأنعام .

قوله تعالى : « لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمت ربكم إذا استويتم عليه و

تقولوا - إلى قوله - لمنقلبون» الاستواء على الظهور والاستقرار عليها ، والضمير في ظهوره ، راجع إلى لفظ الموصول في « ما تركبون » ، والضمير في قوله : « إذا استويتم عليه » للموصول أيضاً فكما يقال : استويت على ظهر الدابة يقال : استويت على الدابة . والمراد بذكر نعمة الرب سبحانه بعد الاستواء على ظهر الفلك والأنعام ذكر النعم التي ينتفع بها الإنسان بتسخيره تعالى له هذه المركب كالانتقال من مكان إلى مكان و حمل الأثقال قال تعالى : « و سخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره » إبراهيم : ٣٢ و قال : « والأنعام خلقها - إلى أن قال - و تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » النحل : ٧ ، أو المراد ذكر مطلق نعمه تعالى بالانتقال من ذكر هذه النعم إليه .

و قوله : « و تقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين » أي مطيقين والإقران الإطاقة .

و ظاهر ذكر النعمة عند استعمالها والانتفاع بها شكر منعها و لازم ذلك أن يكون ذكر النعمة غير قول : « سبحان الذي » إلخ فإن هذا القول تسبيح و تنزيه له عما لا يليق بساحة كبريائه وهو الشريك في الربوبية والألوهية ، و ذكر النعمة شكر - كما تقدم - والشكر غير التنزيه .

و يؤيد هذا ما ورد عن النبي ﷺ و أمته أهل البيت ﺍﻟﻤﻨﻴﻦ في ما يقال عند الاستواء على المركوب فإن الروايات على اختلافها تتضمن التحميد وراء التسبيح يقول « سبحان الذي » إلخ .

و روى في الكشاف عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال : سبحان الذي سخّر لنا هذا فقال : أبهذا أمرتم ؟ فقال : و بم أمرنا ؟ قال : أن تذكروا نعمة ربكم .

و قوله : « و إننا إلى ربنا لمنقلبون » أي صائرون شهادة بالمعاد .



وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ
 مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفِيكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ
 لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي
 الْحَلِيِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ
 الرَّحْمَنِ أَنْثَىٰ وَأَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ (١٩) وَ قَالُوا
 لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)
 أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا
 آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ
 قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ
 وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْجِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ
 عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٢٥).

﴿ بيان ﴾

حكاية بعض أقوالهم التي دعاهم إلى القول بها الإسراف والكفر بالنعم وهو قولهم بالولد وأن الملائكة بنات الله سبحانه ، واحتجاجهم على عبادتهم الملائكة وردّه عليهم. قوله تعالى : « وجعلوا له من عباده جزء إن الإنسان لكفور مبين » المراد بالجزء الولدان الولادة إنما هي بالاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصور بصورته.

وإنما عبّر عن الولد بالجزء للإشارة إلى استحالة دعواهم ، فإن جزئية شيء من شيء كيفما تصوّرت لا تتم إلا بتركّب في ذلك الشيء والله سبحانه واحد من جميع الجهات .

وقد بان بما تقدّم أن « من عباده » بيان لقوله : « جزء » ولا ضير في تقدّم هذا النوع من البيان على المبيّن ولا في جمعيّة البيان وإفراد المبيّن .

قوله تعالى : « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم البنين » أي أخلصكم للبنين فلکم بنون وليس له إلا البنات وأنتم ترون أن البنت أحسن من الابن فتثبتون له أحسن الصنفين وتخصّصون أنفسكم بأشرفهما ، وهذا مع كونه قولاً محالاً في نفسه إزاء إهانة ظاهرة وكفران .

و تقييد اتخاذ البنات بكونه مما يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكة - على ربوبيّتهم وألوهيّتهم - مخلوقين لله ، والالتفات في الآيات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتثبيت التوبيخ ، والتسكير والتعريف في « بنات » و « البنين » للتحقير والتفخيم .

قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم » المثل هو المثل والشبه المجانس للشيء وضرب الشيء مثلاً أخذه مجانساً للشيء « وما ضرب للرحمن مثلاً » الأُنثى ، والكظيم المملوء كرباً وغيظاً .

والمعنى وحالهم أنّه إذا بشر أحدهم بالأُنثى الذي جعلها شبيهاً مجانساً للرحمن صار وجهه مسوداً من الغمّ وهو مملوء كرباً وغيظاً لعدم رضاهم بذلك وعدّه عاراً لهم لكنّهم يرضونه له .

والالتفات في الآية إلى الغيبة لحكاية شنيع سيرتهم وقبيح طريقتهم للغير حتّى يتعجّب منه .

قوله تعالى : « أو من ينشؤ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » أي أوجعلوا لله سبحانه من ينشؤ في الحلية أي يتربى في الزينة وهو في المخاصمة والمحااجة غير مبين لحجّته لا يقدر على تقرير دعواه .

وإنما ذكر هذين النعتين لأن المرأة بالطبع أقوى عاطفة وشنقة وأضعف

تَعْقَلًا بِالْقِيَاسِ إِلَى الرَّجُلِ وَهُوَ بِالْعَكْسِ وَمِنْ أَوْضَحِ مَظَاهِرِ قُوَّةِ عَوَاطِفِهَا تَعَلُّقُهَا الشَّدِيدَ بِالْحَلِيَّةِ وَالزَّيْنَةِ وَضَعْفِهَا فِي تَقْرِيرِ الْحِجَّةِ الْمُبْنِيِّ عَلَى قُوَّةِ التَّعَقُّلِ .

قوله تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً إلخ » هذا معنى قولهم : إن الملائكة بنات الله وقد كان يقول به طوائف من عرب الجاهلية وأما غيرهم من الوثنية فربما عدوا في آلهتهم إلهة هي أم إله أو بنت إله لكن لم يقولوا بكون جميع الملائكة إناثاً كما هو ظاهر المحكمي في الآية الكريمة .

وإنما وصف الملائكة بقوله : « الذين هم عباد الرحمن » ردّاً لقولهم بأنوثتهم لأن الإناث لا يطلق عليهن العباد ، ولا يلزم منه اتصافهم بالذكر بالذي يتصف به الحيوان فإن الذكورة والأنونة اللتين في الحيوان من لوازم وجوده المادي المجهز للتناسل وتوليد المثل ، والملائكة في معزل من ذلك .

وقوله : « أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون » ردّاً لدعواهم الأنوثة في الملائكة بأن الطريق إلى العلم بذلك الحس وهم لم يروه حتى يعلموا بها فلم يكونوا حاضرين عند خلقهم حتى يشاهدوا منهم ذلك .

فقوله : « أشهدوا خلقهم إلخ » استفهام إنكاري ووعيد على قولهم بغير علم أي لم يشهدوا خلقهم وستكتب في صحائف أعمالهم هذه الشهادة عليهم ويسألون عنه يوم القيامة .

قوله تعالى : « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » حجة عقلية داحضة محكية عنهم يمكن أن تقرر تارة لإثبات صحة عبادة الشركاء بأن يقال : لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ما عبدناهم ضرورة لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته لكننا نعبدهم فهو لم يشأ ذلك وعدم مشيئته عدم عبادتهم إذن في عبادتهم فلا منع من قبله تعالى عن عبادة الشركاء والملائكة منهم ، وهذا المعنى هو المنساق إلى الذهن من قوله في سورة الأنعام : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء » الأنعام : ١٤٨ على ما يعطيه سياق ما قبله وما بعده .

وتقرّر رتارة لا يبطال النبوة القائلة أن الله يوجب عليكم كذا وكذا ويحرم عليكم كذا وكذا بأن يقال لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ولا نحل ولا نحرّم شيئاً لم نعبد الشركاء ولم نضع من عندنا حكماً لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته لكننا نعبدهم ونحلّ ونحرّم أشياء فلم يشأ الله سبحانه منّا شيئاً فقول إن الله يأمركم بالكذا وينهاكم عن كذا وبالجملة إنه شاء كذا باطل .

و هذا المعنى هو الظاهر المستفاد من قوله تعالى في سورة النحل : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء » النحل : ٣٥ بالنظر إلى السياق .

وقولهم في محكي الآية المبحوث عنها : « لو شاء الرحمن ما عبدناهم » على ما يفيد سياق الآيات السابقة واللاحقة مسوق للاحتجاج على المعنى الأول وهو تصحيح عبادتهم للملائكة فيكون في معنى آية سورة الأنعام وأخص منها .

وقوله : « ما لهم بذلك من علم » أي هو منهم قول مبني على الجهل فإنه مغالطة خلطوا فيها بين الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية وأخذ الأولى مكان الثانية فمقتضى الحجّة أن لا إرادة تكوينية منه تعالى متعلّقة بعدم عبادتهم الملائكة و انتفاء تعلق هذا النوع من الإرادة بعدم عبادتهم لهم لا يستلزم انتفاء تعلق الإرادة التشريعية به .

فهو سبحانه لما لم يشأ أن لا يعبدوا الشركاء بالإرادة التكوينية كانوا مختارين غير مضطرين على فعل أو ترك فأراد منهم بالإرادة التشريعية أن يوحدوه ولا يعبدوا الشركاء ، والإرادة التشريعية لا يستحيل تخلف المراد عنها لكونها اعتبارية غير حقيقية ، وإنما تستعمل في الشرائع والقوانين والتكاليف الملوية ، والحقيقة التي تبني عليها هي اشتمال الفعل على مصلحة أو مفسدة .

و بما تقدّم يظهر فساد ما قيل : إن حجّتهم مبنية على مقدّمين : الأولى أن عبادتهم للملائكة بمشيئته تعالى ، والثانية أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى وقد أصابوا في الأولى وأخطأوا في الثانية حيث جهلوا أن المشيئة عبارة عن ترجيح

بعض الممكنات على بعض كائنا ما كان من غير اعتبار الرضا والسخط في شيء من الطرفين .

وجه الفساد أن مضمون الحجّة عدم تعلق المشيئة على ترك العبادة و عدم تعلق المشيئة بالترك لا يستلزم تعلق المشيئة بالفعل بل لازمه الإذن الذي هو عدم المنع من الفعل . ثم إن ظاهر كلامه قصر الإرادة في التكوينية وإهمال التشريعية التي عليها المدار في التكليف المولوية و هو خطأ منه .

ويظهر أيضاً فساد ما نسب إلى بعضهم أن المراد بقولهم : «لوشاء الرحمن ما عبدناهم» الاعتذار عن عبادة الملائكة بتعلق مشيئة الله بها مع الاعتراف بكونها قبيحة .

و ذلك أنهم لم يكونوا مسلمين لقبح عبادة آلهتهم حتى يعتذروا عنها و قد حكي عنهم ذيلاً قولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مهتدون » . و قوله : « إنهم إلا يخرصون » الخرص - على ما يظهر من الراغب - القول على الظن والتخمين ، و فسر أيضاً بالكذب .

قوله تعالى : « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون » ضمير « من قبله » للقرآن ، و في الآية نفي أن يكون لهم حجّة من طريق النقل كما أن في الآية السابقة نفي حجّتهم من طريق العقل ، و محصل الآيتين أن لا حجّة لهم على عبادة الملائكة لا من طريق العقل ولا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها .

قوله تعالى : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مهتدون » الأمة الطريقة التي تؤم و تقصد ، والمراد بها الدين ، والإضراب عما تحصل من الآيتين والمعنى لا دليل لهم على حقيقة عبادتهم بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على دين و إنا على آثارهم مهتدون أي إنهم متشبّهون بتقليد آباءهم فحسب .

قوله تعالى : « و كذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا « إلخ أي إن التشبّه بذيل التقليد ليس مما يختص بهؤلاء فقد كان ذلك دأب أسلافهم من الأمم المشركين و ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير وهو النبي إلا تشبّهت متنعموها بذيل التقليد وقالوا : إنا وجدنا أسلافنا على دين و إنا على آثارهم

مقتدون لن تركها ولن نخالفهم .

و نسبة القول إلى مترفيهم للإشارة إلى أن الإتراف والتنعّم هو الذي يدعوهم إلى التقليد و يصرفهم عن النظر في الحق .

قوله تعالى : « قال أو لوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » إلخ القائل هو النذير ، والخطاب للمترفين و يشمل غيرهم بالتبعية ، والعطف في « أولوجئتكم » على محذوف يدل عليه كلامهم ، و التقدير إنكم على آئارهم مقتدون و لوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ والمحصّل هل أنتم لازمون لدينهم حتّى لو كان ما جئتكم به من الدين أهدى منه ؟ و عدّ النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلا لاهدى فيه من باب مجازاة الخصم .

وقوله : « قالوا إنّنا بما أرسلتم به كافرون » جواب منهم لقول النذير : « أولوجئتكم » إلخ و هو تحكّم من غير دليل .

قوله تعالى : « فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين » أي تفرّع على ذلك الإرسال والردّ بالتقليد والتحكّم أنّا أهلكتناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبة أولئك السابقين من أهل القرى ، وفيه تهديد لقوم النبي ﷺ .





وَ إِذْ قَالَ اِبْرَاهِيْمُ لِاَبِيهِ وَ قَوْمِهِ اِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦)
 اِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَانَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَ اَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُوْلٌ
 مُّبِيْنٌ (٢٩) وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوْا هٰذَا سِحْرٌ وَ اِنَّا بِهٖ كٰفِرُوْنَ (٣٠)
 وَ قَالُوْا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْاٰنُ عَلٰى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبٰتِيْنَ عَظِيْمٍ (٣٠) اَهُمْ
 يَّقْسِمُوْنَ رَحْمَةً رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيْشَتَهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَ
 رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَ رَحْمَةً
 رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُوْنَ (٣٢) وَ لَوْلَا اَنْ يَّكُوْنَ النَّاسُ اُمَّةً وَّاحِدَةً لَّجَعَلْنَا
 لِمَنْ يَّكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبِئُوْتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَ مَعَارِجَ عَلَيَّهَا يَظْهَرُوْنَ (٣٣)
 وَ لِبِئُوْتِهِمْ اَبْوَابًا وَ سُرًّا عَلَيَّهَا يَتَّكُوْنَ (٣٤) وَ زُخْرَفًا وَ اِنْ كُلُّ ذٰلِكَ
 لَمَّا مَتَاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَ الْاٰخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِيْنَ (٣٥) وَ مَنْ يَّعِشْ
 عَن ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نَقِيْضٌ لَّهٗ شَيْطٰنًا فَهُوَ لَهٗ قَرِيْنٌ (٢٦) وَ اِنَّهُمْ لَيَصُدُّوْنَهُمْ
 عَنِ السَّبِيْلِ وَ يَحْسَبُوْنَ اَنْهُمْ مُّهْتَدُوْنَ (٣٧) حَتَّىٰ اِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ
 بِنَبِيٍّ وَّ بَيْنَاكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَبْسُ الْقَرِيْنِ (٣٨) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ اِذْ
 ظَلَمْتُمْ اَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُوْنَ (٣٩) اَفَاَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ اَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ

وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَمَا نَنْهَيْنُ بِكَ فَاثِمًا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١)
 أَوْ نُزِينَاكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَاثِمًا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي
 أُوْحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ
 وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَ سَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ
 دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) .

﴿ بيان ﴾

لمَّا انجرَّ الكلام إلى ردِّهم رسالة الرسول وكفرهم بها تحكُّماً وتشبُّههم في الشرك
 بذيل تقليد الآباء والأسلاف من غير دليل عقب ذلك بالإشارة إلى قصة إبراهيم عليه السلام
 ورفضه تقليد أبيه وقومه وتبرُّيه عمًّا يعبدونه من دون الله سبحانه واستهدائه هدى ربِّه
 الذي فطره .

ثم يذكر تمتيعه لهم بنعمه وكفرانهم بها بالكفر بكتاب الله وطعنهم فيه وفي
 رسوله بما هو مردود عليهم . ثم يذكر تبعة الإعراض عن ذكر الله وما تنتهي إليه من
 الشقاء والخسران ، و يعطف عليه إياس النبي ﷺ من إيمانهم و تهديدهم بالعذاب
 و يؤكِّد الأمر للنبي ﷺ أن يستمسك بالقرآن و أنه لذكر له و لقومه و سوف
 يسألون عنه ، و أن الذي فيه من دين التوحيد هو الذي كان عليه الأنبياء السابقون
 عليه .

قوله تعالى : « و إذ قال إبراهيم لأبيه و قومه إنني براء مما تعبدون » البراء
 مصدر من برىء يبرء فهو برىء فمعنى « إنني براء » إنني ذو براء أو برىء على سبيل

المبالغة مثل زيد عدل .

وفي الآية إشارة إلى تبرّي إبراهيم عليه السلام مما كان يعبده أبوه وقومه من الأصنام والكواكب بعد ما حاجتهم فيها فاستندوا فيها إلى سيرة آبائهم على ما ذكر في سور الأنعام والآباء والشعراء وغيرها .

والمعنى واذكر لهم إن تبرّء إبراهيم عن آلهة أبيه وقومه إن كانوا يعبدونها تقليداً لا بائهم من غير حجة وقام بالنظر وحده .

قوله تعالى : « إِلاّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإنّه سَيَهْدِينِ » أي إِلاّ الَّذِي أوجدني و هو الله سبحانه ، و في توصيفه تعالى بالفطر إشارة إلى الحجّة على ربوبيّته و ألوهيّته فإنّ الفطر والإيجاد لا ينفك عن تدير أمر الموجود المقطوع فالَّذِي فَطَرَ الكُلّ هو الَّذِي يدبّر أمرهم فهو الحقيق أن يعبد .

و قوله : « فَإنّه سَيَهْدِينِ » أي إلى الحقّ الَّذِي أطلبه ، و قيل : أي إلى طريق الجنّة ، و في هذه الجملة إشارة إلى خاصّة أخرى ربوبيّة و هي الهداية إلى السبيل الحقّ يجب أن يسلكه الإنسان فإنّ السوق إلى الكمال من تمام التدير فعلى الربّ المدبّر لأمر مربوبه أن يهديه إلى كماله و سعادته قال تعالى : « ربّنا الَّذِي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٠ و قال : « و على الله قصد السبيل » النحل : ٩ فالرجوع إلى الله بتوحيد العبادة يستتبع الهداية كما قال تعالى : « والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » العنكبوت : ٦٩ .

والاستثناء في قوله : « إِلاّ الَّذِي فَطَرَنِي » منقطع لأنّ الوثنيّين لا يعبدون الله كما مرّ مراراً فقول بعضهم : «إنّه متصل ، و أنّهم كانوا يقولون : الله ربّنا مع عبادتهم الأوثان » كما ترى .

قوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون » الظاهر أنّ ضمير الفاعل المستتر في « جعلها » لله سبحانه ، والضمير البارز - على ما قيل - لكلمة البراءة التي تكلم بها إبراهيم عليه السلام و معناها معنى كلمة التوحيد فإنّ مفاد « لا إله إلاّ الله »

نفى الآلهة غير الله لا نفى الآلهة وإثبات الإله تعالى (١) وهو ظاهر فلا حاجة إلى ما تكلف به بعضهم أن الضمير لكلمة التوحيد المعلوم مما تكلم به إبراهيم عليه السلام .

والمراد بعقبه ذريته وولده ، وقوله : «لعلهم يرجعون» أي يرجعون من عبادة آلهة غير الله إلى عبادته تعالى أي يرجع بعضهم - وهم العابدون لغير الله بدعوة بعضهم وهم العابدون لله - إلى عبادته تعالى ، وبهذا يظهر أن المراد ببقاء الكلمة في عقبه عدم خلوقهم عن الموحّد ماداموا ، ولعلّ هذا عن استجابة دعائه عليه السلام إن يقول : « واجنبنى وبنى أن نعبد الأسماء » إبراهيم : ٣٥ .

وقيل : الضمير في « جعل » لإبراهيم عليه السلام فهو الجاعل هذه الكلمة باقية في عقبه رجاء أن يرجعوا إليها والمراد بجعلها باقية فيهم وصيته لهم بذلك كما قال تعالى : « وصي بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا و أنتم مسلمون » البقرة : ١٣٢ .

و أنت خير بأن الوصية بكلمة التوحيد لا تسمى جعلاً للكلمة باقية في العقب وإن صح أن يقال : أراد بها ذلك لكنّه غير جعلها باقية فيهم !

وقيل : المراد أن الله جعل الإمامة كلمة باقية في عقبه وسيجيء الكلام فيه في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

ويظهر من الآية أن ذرية إبراهيم عليه السلام لا تخلو من هذه الكلمة إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : « بل متّع هؤلاء و آباءهم حتى جاءهم الحق و رسول مبين » إضراب عمّا يفهم من الآية السابقة والمعنى أن رجوعهم عن الشرك إلى التوحيد كان هو الغاية المرجوة منهم لكنّهم لم يرجعوا بل متّع هؤلاء من قومك و آباءهم فتمتّعوا بنعمي حتى جاءهم الحق و رسول مبين » .

ولعلّ الالتفات إلى التكلّم وحده في قوله : « بل متّع » للإشارة إلى تفخيم

(١) وذلك أن « الله » فيها مرفوع على البدلية لامنصوب على الاستثناء .

جرمهم و أنهم لا يقصدون في كفرانهم للنعمة و كفرهم بالحق و رميه بالسحر إلا إياه تعالى وحده .

والمراد بالحق الذي جاءهم هو القرآن ، و بالرسول المبين محمد ﷺ .

قوله تعالى : « و لما جاءهم قالوا هذا سحر و إننا به كافرون » هذا طعنهم في الحق الذي جاءهم و هو القرآن و يستلزم الطعن في الرسول . كما أن قولهم الآتي : « لو لا نزل » إلخ كذلك .

قوله تعالى : « و قالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » المراد بالقريتين مكة والطائف ، ومرادهم بالعظمة - على ما يفيدته السياق - ما هو من حيث المال والجاه اللذين هما ملاك الشرافة و علو المنزلة عند أبناء الدنيا ، والمراد بقوله : « رجل من القريتين عظيم » رجل من إحدى القريتين حذف المضاف إيجازاً . ومرادهم أن الرسالة منزلة شريفة إلهية لا ينبغي أن يتلبس به إلا رجل شريف في نفسه عظيم مطاع في قومه ، والنبي ﷺ فقير فاقد لهذه الخصلة فلو كان القرآن الكذي جاء به وحياً نازلاً من الله فلو لا نزل على رجل عظيم من مكة أو الطائف كثير المال رفيع المنزلة .

و في المجمع : و يعنون بالرجل العظيم من إحدى القريتين الوليد بن المغيرة بن مكة و أبا مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف . عن قتادة ، و قيل : عتبة بن أبي ربيعة من مكة و ابن عبد ياليل من الطائف . عن مجاهد ، و قيل : الوليد بن المغيرة من مكة و حبيب بن عمر الثقفي من الطائف . عن ابن عباس . انتهى .
والحق أن ذلك من تطبيق المفسرين وإنما قالوا ما قالوا على الإبهام و أرادوا أحد هؤلاء من عظماء القريتين على ما هو ظاهر الآية .

قوله تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » إلخ المراد بالرحمة - على ما يعطيه السياق - النبوة .

و قال الراغب : العيش الحياة المختصة بالحيوان ، و هو أخص من الحياة لأن الحياة تقال في الحيوان وفي الباري تعالى و في الملك ، و يشق منه المعيشة لما يتعيش

به انتهى ، وقال : التسخير سياقة إلى الغرض المختص قهراً - إلى أن قال : والسخري هو الذي يُقهر فيتسخّر بإرادته . انتهى .

والآية والآيتان بعدها في مقام الجواب عن قولهم : لو لا نزل هذا القرآن على رجل « إلخ ومحصّلها أن قولهم هذا تحكّم ظاهر ينبغي أن يتعجب منه فإنهم يحكمون فيما لا يملكون . هذه معيشتهم في الحياة الدنيا يعيشون بها ويرتزقون وهي رحمة منّا لا قدر لها ولا منزلة عندنا وليست إلا متاعاً زائلاً نحن نقسمها بينهم وهي خارجة عن مقدرتهم ومشيئتهم فكيف يقسمون النبوة التي هي الرحمة الكبرى وهي مفتاح سعادة البشر الدائمة والفلاح الخالد فيعطونها لمن شاءوا ويمنعونها ممن شاءوا .

فقوله : « أ هم يقسمون رحمة ربك » الاستفهام للإنكار ، والاتفات إلى الغيبة في قوله : « رحمة ربك » ولم يقل : رحمتنا ، للدلالة على اختصاص النبي ﷺ بعناية الربوبية في النبوة .

والمعنى أنهم لا يملكون النبوة التي هي رحمة لله خاصة به حتى يمنعوك منها ويعطوها لمن هوأ .

وقوله : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » بيان لوجه الإنكار في الجملة السابقة بأنهم عاجزون عن قسمة ما هو دون النبوة بمراحل ولا منزلة له وهو معيشتهم في الحياة الدنيا فنحن قسمناها بينهم فكيف يقسمون ما هو أرفع منزلة منها بما لا يقدر قدره وهو النبوة التي هي رحمة ربك الخاصة به .

والدليل على أن الأرزاق والمعاش ليست بيد الإنسان اختلاف أفراده بالغنى والفقير والعافية والصحة و في الأولاد و سائر ما يعد من الرزق ، و كل يريد أن يقتني منها ما لا مزيد عليه ، ولا يكاد يتيسر لأحد منهم جميع ما يتمناه ويرتضيه فلو كان ذلك بيد الإنسان لم يوجد معدم فقير في شيء منها بل لم يختلف اثنان فيها باختلافهم فيها أوضح دليل على أن الرزق مقسوم بمشيئة من الله دون الإنسان .

على أن الإرادة والعمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصة لحصول المطلوب الذي هو الرزق ووراءهما أسباب كونية لا تحصي خارجة عن مقدرة الإنسان لا يحصل

المطلوب إلا بحصولها جميعاً واجتماعها عليه وليست إلا بيد الله الذي إليه تنتهي الأسباب. هذا ككُلِّد في المال و أما الجاه فهو أيضاً مقسوم من عند الله فإنه يتوقف على صفات خاصة بها ترتفع درجات الإنسان في المجتمع فيتمكّن من تسخير من هو دونه كاللظنة والدهاء والشجاعة و علو الهمة وإحكام العزيمة و كثرة المال والعشيرة وشيء من ذلك لا يتم إلا بضع من الله سبحانه ، و ذلك قوله : « و رفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

فيتبين بمجموع القولين أعني قوله : « نحن قسمنا » إلخ وقوله : « و رفعنا بعضهم فوق بعض » إلخ أن القاسم للمعيشة والجاه بين الناس هو الله سبحانه لا غير ، و قوله : « و رحمة ربك خير مما يجمعون » أي النبوة خير من المال فكيف يملكون قسمها وهم لا يملكون قسم المال فيما بينهم .

و من الممكن أن يكون قوله : « و رفعنا بعضهم فوق بعض » عطف تفسير على قوله : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم » إلخ يبين قسم المعيشة بينهم بيان علل انقسامها في المجتمع الإنساني بيان ذلك أن كثرة حوائج الإنسان في حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها في عيش انفرادي أحوجته إلى الاجتماع مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام والاستدراار أو لا و على طريق التعاون والتعاقد ثانياً كما مر في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب .

فأل الأمر إلى المعاوضة العامة المفيدة لنوع من الاختصاص بأن يعطي كل ممّا عنده من حوائج الحياة ما يفضل من حاجته و يأخذ به من الغير ما يعادله ممّا يحتاج إليه فيعطي مثلاً ما يفضل من حاجته من الماء الذي عنده و قد حصله و اختص به و يأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغذاء ، و لازم ذلك أن يسعى كل فرد بما يستعد له و يحسنه من السعي فيقتني ممّا يحتاج إليه ما يختص به ، و لازم ذلك أن يحتاج غيره إليه فيما عنده من متاع الحياة فيتسخر له فيفيده ما يحتاج إليه كالخباز يحتاج إلى ما عند السقاء من الماء و بالعكس فيتعاونان بالمعاوضة و كالمخدوم يتسخر للخادم لخدمته و الخادم يتسخر للمخدوم لماله وهكذا فكل بعض من المجتمع مسخر

لآخرين بما عنده والآخرون متسخرون له بلا واسطة أو بواسطة أو وسائط لما أن كلاً يرتفع على غيره بما يختص به مما عنده بدرجات مختلفة باختلاف تعلق الهمم والقصود به .

و على ما تقدم فالمراد بالمعيشة كل ما يعاش به أعم من المال والجاه أو خصوص المال وغيره تبع له كما يؤيدته قوله ذيلًا : « ورحمة ربك خير مما يجمعون » فإن المراد به المال وغيره من لوازم الحياة مقصود بالتبع .

قوله تعالى : « و لو لا أن يكون الناس أمة واحدة - إلى قوله - و معارج عليها يظهرن » الآية وما يتلوها لبيان أن متاع الدنيا من مال وزينة لا قدر لها عند الله سبحانه ولا منزلة .

قالوا : المراد بكون الناس أمة واحدة كونهم مجتمعين على سنة واحدة هي الكفر بالله لو رأوا أن زينة الدنيا بحذافيرها عند الكافر بالله والمؤمن صفر الكف منها مطلقا ، والمعارج الدرجات والمصاعد .

والمعنى و لو لا أن يجتمع الناس على الكفر لو رأوا تنعم الكافرين و حرمان المؤمنين لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سققاً من فضة و درجات عليها يظهرن لغيرهم .

و يمكن أن يكون المراد بكون الناس أمة واحدة كونهم جميعاً على نسبة واحدة تجاه الأسباب العاملة في حظوظ العيش من غير فرق بين المؤمن والكافر فمن سعى سعيه للرزق و وافقته الأسباب والعوامل الموصلة الأخرى فال منه مؤمناً كان أو كافراً و من لم يجتمع له حرم ذلك و قتر عليه الرزق مؤمناً أو كافراً .

والمعنى لو لآما أردنا أن يتساوى الناس تجاه الأسباب الموصلة إلى زخارف الدنيا ولا يختلفوا فيها بالإيمان والكفر لجعلنا لمن يكفر الخ .

قوله تعالى : « و لبيوتهم أبواباً و سرراً عليها يتكؤون و زخرفاً » تنكير « أبواباً » و « سرراً » للتفخيم ، و الزخرف الذهب أو مطلق الزينة قال في المجمع : الزخرف كمال حسن الشيء و منه قيل للذهب ، و يقال : زخرفه زخرفة إذا حسنه و زينته ، و منه

قيل للنقوش والتصاوير : زخرف ، وفي الحديث إنه ^{نزلت} لم يدخل الكعبة حتى أمر
بالزخرف فنحى . انتهى . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك
للمتقين » « إن » للنفي و « لمتا » بمعنى إلا أي ليس كل ما ذكر من مزايا المعيشة إلا
متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية التي لا تدوم .

وقوله : « والآخرة عند ربك للمتقين » المراد بالآخرة بقرينة المقام الحياة
الآخرة السعيدة كأن الحياة الآخرة الشقية لا تعد حياة .

والمعنى أن الحياة الآخرة السعيدة بحكم من الله تعالى وقضاء منه مختصة
بالمؤمنين ، وهذا التخصيص والقصر يؤيد ما قدمناه من معنى كون الناس أمة واحدة
في الدنيا بعض التأييد .

قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين »
يقال : عشي يعشى عشا من باب علم يعلم إذا كان يبصره آفة لا يبصر مطلقا أو بالليل فقط
وعشا يعشو عشواً وعشواً من باب نصر ينصر إذا تعامى وتعشى بلا آفة ، والتقييض
التقدير والإتيان بشيء إلى شيء يقال : قيضه له إذا جاء به إليه .

لما انتهى الكلام إلى ذكر المتقين وأن الآخرة لهم عند الله قرنه بعاقبة أمر
المعرضين عن الحق المتعامين عن ذكر الرحمن مشيراً إلى أمرهم من أوله وهو أن
تعاميمهم عن ذكر الله يورثهم ملازمة قرناء الشياطين فيلازمونهم مضلين لهم حتى يردوا
عذاب الآخرة معهم .

فقوله : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا » أي من تعامى عن ذكر
الرحمن ونظر إليه نظر الأعمى جئنا إليه بشيطان ، وقد عبر تعالى عنه في موضع
آخر بالإرسال فقال : « ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » مريم :
٨٣ . وإضافة الذكر إلى الرحمن للإشارة إلى أنه رحمة .

وقوله : « فهو له قرين » أي مصاحب لا يفارقه .

قوله تعالى : « وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » ضمير

«أنهم» للشياطين ، و ضمائر الجمع الباقية للعاشين عن الذكر ، و اعتبار الجمع نظراً إلى المعنى في « و من يعش» الخ ، و الصدّ الصرف ، و المراد بالسبيل ما يدعو إليه الذكر من سبيل الله الذي هو دين التوحيد .

و المعنى و إن الشياطين ليصرفون العاشين عن الذكر و يحسب العاشون أنهم أي العاشين أنفسهم - مهتدون إلى الحق .

و هذا أعني حسب أنهم مهتدون عند انصدادهم عن سبيل الحق أمانة تقيض القرين و دخولهم تحت ولاية الشيطان فإنّ الإنسان بطبعه الأولى مفضول على الميل إلى الحق و معرفته إذا عرض عليه ثمّ إذا عرض عليه فأعرض عنه اتباعاً للهوى و دام عليه طبع الله على قلبه و أعمى بصره و قيص له القرين فلم ير الحق الذي تراآى له و طبق الحق الذي يميل إليه بالفطرة على الباطل الذي يدعو إليه الشيطان فيحسب أنه مهتد و هو ضالّ و يخيل إليه أنه على الحق و هو على الباطل .

و هذا هو الغطاء الذي يذكر تعالى أنه مضروب عليهم في الدنيا و أنه سينكشف عنهم يوم القيامة قال تعالى : « الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري - إلى أن قال - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » الكهف : ١٠٤ ، و قال فيما يخاطبه يوم القيامة و معه قرينه : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - إلى أن قال - و قال قرينه ربنا ما أطغيته و لكن كان في ضلال بعيد » ق ٢٧ .

قوله تعالى « حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين حتى » غاية لاستمرار الفعل الذي يدلّ عليه قوله في الآية السابقة : « يصدّونهم » وقوله : « يحسبون » أي لا يزال القرناء يصدّونهم ولا يزالون يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا الواحد منهم .

و المراد بالمجيء إليه تعالى البعث ، و ضمير « جاء » و « قال » راجع إلى الموصول باعتبار لفظه ، و المراد بالمشرقين المشرق و المغرب غلب فيه جانب المشرق .

و المعنى و إنهم يستمرون على صدّهم عن السبيل ويستمرّ العاشون عن الذكر

على حسابان أنهم مهتدون في انصدادهم حتى إذا حضر الواحد منهم عندنا و معه قرينه و كشف له عن ضلاله و ما يستتبعه من العذاب الأليم قال مخاطباً لقرينه متأزياً من صحابته : يا ليت بيني و بينك بعد المشرق و المغرب فبئس القرين أنت .

و استفاد من السياق أنهم معذبون بصحابة القرناء وراء عذابهم بالنار ، و لذا يتمنون التباعده عنهم و يخصونه بالذكر و ينسون سائر العذاب .

قوله تعالى : « و لن ينفعكم اليوم إن ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » الظاهر أنه معطوف على ما قبله من وصف حالهم ، و المراد باليوم يوم القيامة ، و قوله : « أنكم في العذاب مشتركون » فاعل « لن ينفعكم » و المراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر و قرناؤهم ، و « إن ظلمتم » واقع موقع التعليل .

و المراد - و الله أعلم - أنكم إذا أساء بعضكم إلى بعض في الدنيا فأوقعه في مصيبة ربّما تسليتم بعض التسلي لو ابتلي هو نفسه بمثل ما ابتلاكم به فينفعكم ذلك تسلياً و تشفياً لكن لا ينفعكم يوم القيامة اشتراك قرنائكم معكم في العذاب فان اشتراكهم معكم في العذاب و كونهم معكم في النار هو بعينه عذاب لكم .

و ذكر بعض المفسرين أن فاعل « لن ينفعكم » ضمير راجع إلى تمنّيهم المذكور في الآية السابقة ، و قوله : « إن ظلمتم » أي لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا باتباعكم إياهم في الكفر و المعاصي ، و قوله : « أنكم في العذاب مشتركون » تعليل لنفي النفع و المعنى و لن ينفعكم تمنّي التباعد عنكم لأنّ حقكم أن تشركوا أنتم و قرناؤكم في العذاب .

و فيه أن فيه تدافعاً فإنّه أخذ قوله : « إن ظلمتم » تعليلاً لنفي نفع التمنّي أولاً و قوله : « أنكم في العذاب مشتركون » تعليلاً ثانياً و لازم التطابق بين التعليلين أن يذكر ثانياً القضاء على المتمنّين التابعين بالعذاب لا باشتراك التابعين و المتبوعين فيه .

و قال بعضهم : معنى الآية أنه لا يخفف الاشتراك عنكم شيئاً من العذاب لأنّ

لكل واحد منكم و من قرنائكم العظّم الأوفر من العذاب .
 و فيه أن ما ذكر من سبب عدم النفع و إن فرض صحيحاً في نفسه لكن لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية و لا سياق الكلام .

و قال بعضهم : المعنى لا ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم في تحمّل أعبائها و تقسّمهم لعنائها لأن لكل منكم و من قرنائكم من العذاب ما لا تبلغه طاقته .

و فيه ما في سابقه من الكلام ، و ردّ أيضاً بأن الانتفاع بذلك الوجه ليس ممّا يخطر ببالهم حتى يردّ عليهم بنفيه .

قوله تعالى : « أفأنت تسمع الصمّ أو تهدي العمي و من كان في ضلال مبين » ممّا ذكر تقييده القرناء لهم و تقليبهم إدراكهم بحيث يرون الضلال هدى و لا يقدرّون على معرفة الحقّ فرّغ عليه أن نبّه بالتذكير أن هؤلاء صمّ عمي لا يقدر هو على إسماعهم كلمة الحقّ و هدايتهم إلى سبيل الرشّد فلا يتجشّم و لا يتكلّف في دعوتهم و لا يحزن لإعراضهم ، و الاستفهام للإنكار ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فإمّا نذهبنا بك فإنا منهم منتقمون أو نريناك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون » المراد بالإنهابة به توقيه عليه السلام قبل الانتقام منهم ، و قيل : المراد إنهابه بإخراجه من بينهم و قوله : « فإنا منهم منتقمون » أي لامحالة و المراد بإراءته ما وعدهم الانتقام منهم قبل توقيه عليه السلام أو حالكونه بينهم ، و قوله : « فإنا عليهم مقتدرون » أي اقتدارنا يفوق عليهم .

و قوله في الصدر : « فإمّا نذهبنا بك » أصله إن نذهب بك زيدت عليه ما والنون للتأكيد ، و محصل الآية إنّنا منتقمون منهم بعد توفيقك أو قبلها لامحالة .

قوله تعالى : « فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم » الظاهر أنّه تفريع لجميع ما تقدّم من أن إنزال الذكر من طريق الوحي و النبوة من سننه تعالى و أن كتابه النازل عليه حقّ و هو رسول مبين لا يستجيب دعوته إلا المتّقون و لا يعرض عنها إلا قرناء الشياطين ، و لا مطمع في إيمانهم و سينتقم الله منهم .

فأكد عليه الأمر بعد ذلك كله أن يجد في التمسك بالكتاب الذي أوحى إليه لأنه على صراط مستقيم .

قوله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » الظاهر أن المراد بالذكر ذكر الله ، وبهذا المعنى تكرر مراراً في السورة ، واللام في « لك ولقومك » للاختصاص بمعنى توجه ما فيه من التكليف إليهم ، ويؤيده بعض التأيد قوله : « وسوف تسألون » أي عنه يوم القيامة .

وعن أكثر المفسرين أن المراد بالذكر الشرف الذي يذكر به والمعنى وإنه لشرف عظيم لك ولقومك من العرب تذكرون به بين الأمم .

قوله تعالى : « وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » قيل : المراد بالسؤال منهم السؤال من أممهم و علماء دينهم كقوله تعالى : « فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » يونس : ٩٤ وفائدة هذا المجاز أن المسؤل عنه السؤال منهم عين ما جاءت به رسلهم لا ما يجيبونه من تلقاء أنفسهم .

وقيل : المراد السؤال من أهل الكتابين : التوراة والإنجيل فانهم وإن كفروا لكن الحجّة تقوم بتواتر خبرهم ، والخطاب للنبي ﷺ والتكليف لأمته .
وبعد الوجهين غير خفي و يزيد الثاني بعداً التخصيص بأهل الكتابين من غير مخصص ظاهر .

وقيل : الآية مما خوطب به النبي ﷺ ليلة المعراج أن يسأل أرواح الأنبياء السابقين وقد اجتمع بهم أن يسألهم هل جاؤا بدين وراء دين التوحيد .

وقد وردت به غير واحدة من الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وسيوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية في عقبه » وقيل : الكلمة الباقية في عقبه هي الإمامة إلى يوم الدين . عن أبي عبد الله عليه السلام .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر وقد طبقت الآية في بعضها على الإمامة في عقب الحسين عليه السلام.

والتأمل في الروايات يعطي أن بناءها على إرجاع الضمير في « جعلها » إلى الهداية المفهومة من قوله : « سيهدين » وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « إني جاعلك للناس إماما » أن الإمام وظيفته هداية الناس في ملكوت أعمالهم بمعنى سوقهم إلى الله سبحانه بارشادهم وإيرادهم درجات القرب من الله سبحانه وإنزال كل ذي عمل منزله الذي يستدعيه عمله ، وحقيقة الهداية من الله سبحانه وتنسب إليه بالتبع أو بالعرض .

و فعلية الهداية النازلة من الله إلى الناس تشمله أو لا ثم تفيض عنه إلى غيره فله أتم الهداية ولغيره ماهي دونها وما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله : « فإنه سيهدين » هداية مطلقة تقبل الانطباق على أتم مراتب الهداية التي هي حظ الإمام منها فهي الإمامة وجعلها كلمة باقية في عقبه جعل الإمامة كذلك .

وفي الاحتجاج عن العسكري عن أبيه عليه السلام قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة إذ قال له عبد الله بن أمية المخزومي : لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولا لبعث أجل من فيما بيننا مالاً وأحسنه حالاً فهلاً نزل هذا القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك وابتعثك به رسولا ، على رجل من القريتين عظيم : إمام الوليد بن المغيرة بمكة وإمام عروة بن مسعود الثقفي بالطائف .

ثم ذكر عليه السلام في كلام طويل جواب رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوله بما في معنى الآيات .

ثم قال : وذلك قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » قال الله : « أهم يقسمون رحمة ربك » يا محمد « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » فأحوجنا بعضنا إلى بعض أحوج هذا إلى مال ذلك وأحوج ذلك إلى سلعة هذا وإلى خدمته .

فترى أجل الملوك وأغنى الأغنياء محتاجا إلى أفقر الفقراء في ضرب من الضروب إماما سلعة معه ليست معه ، وإماما خدمة يصلح لها لايتهايئاً لذلك الملك أن يستغني إلا به

و إما باب من العلوم والحكم هو فقير إلى أن يستفيدها من هذا الفقير الذي يحتاج إلى مال ذلك الملك الغني ، وذلك الملك يحتاج إلى علم هذا الفقير أو رأيه أو معرفته . ثم ليس للملك أن يقول : هلاً اجتمع إلى مالي علم هذا الفقير ولا للفقير أن يقول : هلاً اجتمع إلى رأبي و معرفتي و علمي و ما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغني ، ثم قال تعالى : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

ثم قال : يا محمد « ورحمة ربك خير مما يجمعون » أي ما يجمعه هؤلاء من أموال الدنيا .

و في الكافي بإسناده عن سعيد بن المسيب قال : سألت علي بن الحسين عليه السلام عن قول الله عز وجل : « و لو لا أن يكون الناس أمة واحدة » قال : عنى بذلك أمة محمد أن يكونوا على دين واحد كفاراً كلهم « لجعلنا لمن يكفر بالرحمان » إلى آخر الآية .

و في تفسير القمي بإسناده عن يحيى بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « فإما نذهبن بك » يا محمد من مكة إلى المدينة فإننا رادوك إليها و منتقمون منهم بعلي بن أبي طالب عليه السلام .

و في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه عن قتادة في قوله : « فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون » قال : قال أنس ذهب رسول الله صلى الله عليه وآله و بقيت النعمة ولم ير الله نبيته في أمته شيئاً يكرهه حتى قبض ولم يكن نبي قط إلا و قدر آى العقوبة في أمته إلا نبيكم رأى ما يصيب أمته بعده فما رؤي ضاحكاً منبسطاً حتى قبض .

أقول : و روى فيه هذا المعنى عنه و عن علي بن أبي طالب و عن غيرهما بطرق أخرى .

و فيه أخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله تعالى : « فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون »

نزلت في عليّ بن أبي طالب أنّه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي .
أقول : ظاهر الرواية وما قبلها وما في معناها أنّ الوعيد في الآيتين للمنحرفين
 عن الحقّ من أهل القبلة دون كفّار قريش .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل يقول فيه : و أمّا قوله
 تعالى : « و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا » فهذا من براهين نبينا صلى الله عليه وآله التي
 آتاه الله إياها و أوجب به الحجّة على سائر خلقه لأنّه لما ختم به الأنبياء و جعله
 الله رسولاّ إلى جميع الأمم و سائر الملل خصّه بالارتقاء إلى السماء عند المعراج و جمع
 له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به و حملوه من عزائم الله و آياته و براهينه .
 الحديث .

أقول : و روى هذا المعنى القميّ في تفسيره بإسناده عن أبي الربيع عن أبي -
 جعفر عليه السلام في جواب ما سأله نافع بن الأزرق ، ورواه في الدر المنثور بطرق عن سعيد
 ابن جبير و ابن جريح و ابن زيد .





وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يُكَادِبِينَ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦).

﴿بيان﴾

لَمَّا ذَكَرَ طَعْيَانَهُمْ بَعْدَ تَمْتِيعِهِمْ بِنِعْمِهِ وَرَمِيمِ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ مَبِينٍ بِأَنَّهُ سِحْرٌ وَأَنَّهُمْ قَالُوا: لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيْبَيْنِ عَظِيمٍ فَرَجَحُوا الرَّجُلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِكَثْرَةِ مَالِهِ مِثْلَ لِهْمِ بَقِصَةِ مُوسَى ﷺ وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ

حيث أرسله الله إليهم بآياته الباهرة فضحكوا منها واستهزأوا بها ، واحتج فرعون فيما خاطب به قومه على أنه خير من موسى بملك مصر و أنهار تجري من تحته فاستخفهم فأطاعوه قال أمر استكبارهم أن انتقم الله منهم فأغرقهم .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه فقال إني رسول رب العالمين » اللام في « لقد » للقسم ، والباء في قوله : « بآياتنا » للمصاحبة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فلما جاءهم بآياتنا إنذاهم منها يضحكون » المراد بمجيئهم بالآيات إظهار المعجزات للدلالة على الرسالة ، والمراد بالضحك ضحك الاستهزاء استخفاً بالآيات .

قوله تعالى : « وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها » إلخ الأخت المثل وقوله : « هي أكبر من أختها » كناية عن كون كل واحدة منها بالغة في الدلالة على حقيقة الرسالة ، وجملة « وما نريهم من آية » إلخ حال من ضمير « منها » ، والمعنى فلما أتاهم بالمعجزات إنذاهم منها يضحكون والحال أن كلاً منها تامة كاملة في إعجازها ودالاتها من غير نقص ولا قصور .

وقوله : « وأخذناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون » أي رجاء أن يرجعوا عن استكبارهم إلى قبول رسالته ، والمراد بالعذاب الذي أخذوا به آيات الرجز التي نزلت عليهم من السنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات كما في سورة الأعراف .

قوله تعالى : « وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون » ما في « بما عهد عندك » مصدرية أي بعنده عندك والمراد به عهده أن يكشف عنهم العذاب لو آمنوا كما قيل أو أن يستجيب دعاءه إذا دعا كما احتمله بعضهم .
وقولهم : يا أيها الساحر خطاب استهزاء استكباراً منهم كما قالوا : ادع ربك ولم يقولوا : ادع ربنا أو ادع الله استكباراً ، والمراد أنهم طلبوا منه الدعاء لكشف العذاب عنهم ووعدهم بالاهتداء .

وقيل : معنى الساحر في عرفهم العالم و كان الساحر عندهم عظيما يعظمونه و لم يكن صفة ذم . و ليس بذلك بل كانوا ساخرين على استكبارهم كما يشهد به قولهم : ادع لنا ربك .

قوله تعالى : « فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » النكث نقض العهد و خلف الوعد ، و وعدهم هو قولهم : « إننا لمهتدون » .

قوله تعالى : « و نادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر و هذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » أي ناداهم و هو بينهم ، و فصل « قال » لكونه في موضع جواب السؤال كأنه قيل : فما ذا قال ؟ فقيل : قال كذا .

و قوله : « و هذه الأنهار تجري من تحتي » أي من تحت قصري أو من بستاني الذي فيه قصري المرتفع العالي البناء ، و الجملة أعني قوله : « و هذه الأنهار » إلخ حالية أو « و هذه الأنهار » معطوف على « ملك مصر » و قوله : « تجري من تحتي » حال من الأنهار ، و الأنهار أنهار النيل .

و قوله : « أفلا تبصرون » في معنى تكرير الاستفهام السابق في قوله « أليس لي ملك مصر » إلخ .

قوله تعالى : « أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين » المهين الحقير الضعيف من المهانة بمعنى الحقارة ، و يريد بالمهين موسى عليه السلام لما به من الفقر و رثانة الحال .

و قوله : « ولا يكاد يبين » أي يفصح عن مراده و لعله كان يصف موسى عليه السلام به باعتبار ما كان عليه قبل الرسالة لكن الله رفع عنه ذلك لقوله : « قال قد أوتيت سؤالك يا موسى » طه : ٣٦ بعد قوله عليه السلام : « و احلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » طه : ٢٨ .

و قوله في صدر الآية : « أم أنا خير » إلخ أم فيه إما منقطة لتقرير كلامه السابق والمعنى بل أنا خير من موسى لأنه كذا و كذا ، و إما متصلة و أحد طرفي الترديد محذوف مع همزة الاستفهام و التقدير أهذا خير أم أنا خير إلخ و في المجمع قال سيبويه

والخليل : عطف أنا بأم على « أفلا تبصرون » لأن معنى « أنا خير » معنى أم تبصرون فكأنه قال : أفلا تبصرون أم تبصرون لأنهم إذا قالوا له : أنت خير منه فقد صاروا بصراء عنده انتهى أي إن وضع « أم أنا خير » موضع أم تبصرون من وضع المسبب موضع السبب أو بالعكس .

و كيف كان فلا إشارة إلى موسى بهذا من دون أن يذكره باسمه للتحقير وتوصيفه بقوله : « أأدي هوميين ولا يكاد بين » للتحقير و للدلالة على عدم خيريته .

قوله تعالى : « فلو لا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين » الأ سورة جمع سوار بالكسر و قال الراغب : هو معرب دستواره قالوا : كان من دأبهم أنهم إذا سوتوا رجلا سوتوه بسوار من ذهب و طوقوه بطوق من ذهب فالمعنى لو كان رسولاً و ساد الناس بذلك لألقى إليه أسورة من ذهب .

و قوله : « أوجاء معه الملائكة مقترنين » الظاهر أن الاقتران بمعنى التقارن كالاتباق والاستواء بمعنى التسابق والتساوي ، والمراد إتيان الملائكة معه مقترنين لتصديق رسالته ، و هذه الكلمة مما تكررت على لسان مكذبي الرسل كقولهم : « لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً » الفرقان : ٧ .

قوله تعالى : « فاستخف قوم فأتاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين » أي استخف عقول قومهم و أحلامهم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » الأ يساف الأ غضاب أي فلما أغضبونا بفسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، والغضب منه تعالى إرادة العقوبة .

قوله تعالى : « فجعلناهم سلفاً و مثلاً للآخرين » السلف المتقدم والظاهر أن المراد بكونهم سلفاً للآخرين تقدمهم عليهم في دخول النار ، والمثل الكلام السائر الذي يتمثل به و يعتبر به ، والظاهر أن كونهم مثلاً لهم كونهم مما يعتبر به الآخرون لو اعتبروا و اتعظوا .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ولا يكاديبين » قال : لم يبين الكلام .
 وفي التوحيد بإسناده إلى أحمد بن أبي عبد الله رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام في
 قول الله عز وجل « فلما آسفونا انتقمنا منهم » قال : إن الله لا يأسف كأسفنا ولكنّه
 خلق أولياء لنفسه يأسفون و يرضون وهم مخلوقون مدبرون فجعل رضاهم لنفسه رضى
 وسخطهم لنفسه سخطاً وذلك لأنّه جعلهم الدعاء إليه والاداء عليه فلذلك صاروا كذلك .
 وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه ولكن هذا معنى ما قال من
 ذلك ، وقد قال أيضاً من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها ، وقال أيضاً :
 « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وقال أيضاً : « إن الذين يباعدونك إنما يباعدون
 الله » و كل هذا وشبهه على ما ذكرت لك ، وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من
 الأشياء مما يشاكل ذلك .

ولو كان يصل إلى المكوّن الأسف والضجر وهو الذي أحدثهما وأنشأهما لجاز
 لقائل أن يقول : إن المكوّن يبئد يوماً لأنّه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيير
 فإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة ، و لو كان ذلك لم يعرف المكوّن من
 المكوّن ولا القادر من المقدور ولا الخالق من المخلوقين تعالى الله عن هذا القول علواً
 كبيراً .

هو الخالق للأشياء لا حاجة فإذا كان لا حاجة استحال الحد والكيف فيه
 فافهم ذلك إن شاء الله .

أقول و روى مثله في الكافي بإسناده عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن عمه حمزة
 بن بزيع عنه عليه السلام .





وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ (٥٧) وَقَالُوا آءِلهَتِنَا
 خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ
 هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ
 لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠) وَ إِنَّهُ لَعَلِمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا
 تَمْتَرَنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ
 إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ
 بِالْحِكْمَةِ وَ لِأَيِّن لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (٦٣)
 إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ
 الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (٦٥) .

﴿ بيان ﴾

إشارة إلى قصة عيسى بعد الفراغ عن قصة موسى عليه السلام و قد تم عليها مجادلتهم
 النبي صلى الله عليه وآله في عيسى عليه السلام و أوجب عنها .

قوله تعالى : « و لما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون - إلى قوله :-
 خصمون » الآية إلى تمام أربع آيات أو ست آيات حول جدال القوم فيما ضرب من
 مثل ابن مريم ، والذي يتحصل بالتدبر فيها نظراً إلى كون السورة مكية و مع قطع
 النظر عن الروايات هو أن المراد بقوله : « و لما ضرب ابن مريم مثلاً » هو ما أنزل

الله من وصفه في أول سورة مريم فإنها السورة المكيّة الوحيدة التي وردت فيها قصة عيسى بن مريم عليه السلام تفصيلا ، و السورة تقصّ قصص عدّة من النبيّين بما أن الله أنعم عليهم كما تختتم قصصهم بقوله : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيّين » مريم : ٥٨ وقد وقع في هذه الآيات قوله : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » وهو من الشواهد على كون قوله : « ولما ضرب ابن مريم مثلا » إشارة إلى ما في سورة مريم .

و المراد بقوله : « إذا قومك منه يصدون » بكسر الصاد أي يضجون ويضحكون ذمّ لقريش في مقابلتهم المثل الحقّ بالتهكم و السخرية ، و قرىء « يصدون » بضم الصاد أي يعرضون وهو أنسب للجملة التالية .

و قوله : « وقالوا آلهتنا خير أم هو » الاستفهام للإنكار أي آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمة والكرامة أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن و أخذوه بماله من الصفة عند النصارى أنه إله ابن إله فردوا على النبيّ ﷺ بأن آلهتنا خير منه و هذا من أسخف الجدال كأنهم يشيرون بذلك إلى أن الذي في القرآن من وصفه لا يعتنى به و ما عند النصارى لا ينفع فإن آلهتهم خير منه .

و قوله : « ما ضربوه لك إلا جدلا » أي ما وجهوا هذا الكلام : « آلهتنا خير أم هو » إليك إلا جدلا يريدون به إبطال المثل المذكور و إن كان حقاً « بل هم قوم خصمون » أي ثابتون على خصومتهم مصرّون عليها .

و قوله : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه » ردّ لما يستفاد من قولهم : « آلهتنا خير أم هو » أنه إله النصارى كما سيحيى .

و قال الزمخشري في الكشاف و كثير من المفسرين و نسب إلى ابن عباس و غيره في تفسير الآية : إن النبيّ ﷺ لما قرء قوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم » على قريش امتعضوا من ذلك امتعضا شديدا فقال ابن الزبيري :

يا محمد أخاصة لنا ولا لهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: هو لكم ولا لهتكم ولجميع الأمم.

فقال: خصمتك ورب الكعبة ألتت تزعم أن عيسى بن مريم نبي وتثني عليه خيراً وعلى أمه؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما، وعزير يعبد والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار فقد رضيانا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي ﷺ فأنزل الله: «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون» ونزلت هذه الآية.

والمعنى ولما ضرب ابن الزبير عيسى بن مريم مثلاً وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه إذا قومك يعني قريشاً من هذا المثل يضجون فرحاً وضحكاً بما سمعوا منه من إساءات رسول الله ﷺ، وقالوا: «آلهتنا خير أم هو أي إن عيسى عندك خير من آلهتنا وإذا كان هو حسب جهنم فأمر آلهتناهين. ما ضربوا هذا المثل لك إلا جدلاً وغلبة في القول لالميز الحق من الباطل.

وفيه أنه تقدم في تفسير (١) قوله: «إنكم وما تعبدون من دون الله حسب جهنم» الأنبياء: ٩٨ أن هذه الرواية بما فيها من وجوه الوهن والخلل ضعيفة لا يعابها حتى نقل عن الحافظ ابن حجر أن الحديث لا أصل له ولم يوجد في شيء من كتب الحديث لأمسنداً ولا غير مسند. وقصة ابن الزبير هذه وإن رويت من طرق الشيعة على وجه سليم عن المناقشة لكن لم يذكر فيها نزول قوله: «ولما ضرب ابن مريم» الآية هناك.

على أن ظاهر قوله: «ضرب ابن مريم مثلاً» وقوله: «آلهتنا خير أم هو» لا يلائم ما فسرته تلك الملائمة.

وقيل: إنهم لما سمعوا قوله تعالى: «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه

(١) في البحث الروائي المعقود بعد الآية.

من تراب ثم قال له كن فيكون « آل عمران : ٥٩ قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم يعبدون آدميًّا ونحن نعبد الملائكة - يريدون أرباب الأصنام - فألهتنا خير من إلههم فالذي ضرب المثل بابن مريم هو الله سبحانه وقولهم : «آلهتنا خير أم هو » لتفضيل آلهتهم على عيسى لا بالعكس كما في الوجه السابق .

و فيه أن قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم » مدنيّة . وهذه الآيات أعني قوله : « ولما ضرب ابن مريم » الخ آيات مكّيّة من سورة مكّيّة .

على أن الأساس في قولهم - على هذا الوجه - تفضيلهم أنفسهم على النصارى فلا يرتبط على هذا قوله : « إن هو إلا عبد أئمننا عليه » الخ بما تقدّمه .

وقيل : إنهم لما سمعوا قوله : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم » ضجّوا و قالوا : ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبد كما يعبد النصارى المسيح ، وآلهتنا خير منه أي من محمد .

و فيه ما في سابقه .

وقيل : مرادهم بقولهم : «آلهتنا خير أم هو » التنصّل والتخلّص عما أنكر عليهم من قولهم : الملائكة بنات الله ، و من عبادتهم لهم كأنهم قالوا : ما كان ذلك منّا بدعاً فإن النصارى يعبدون المسيح و ينسبونه إلى الله و هو بشر و نحن نعبد الملائكة و ننسبهم إلى الله و هم أفضل من البشر .

و فيه أنه لا يفي بتوجيه قوله : « ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون » على أن قوله : « إن هو إلا عبد أئمننا عليه » على هذا الوجه لا يرتبط بما قبله كما في الوجهين السابقين .

وقيل : معنى قولهم : «آلهتنا خير أم هو » أن مثلنا في عبادة الآلهة مثل النصارى في عبادة المسيح فأيهما خير ؟ عبادة آلهتنا أم عبادة المسيح ؟ فإن قال : عبادة المسيح خير فقد اعترف بعبادة غير الله و إن قال : عبادة الآلهة فكذلك ، و إن قال : ليس في عبادة المسيح خير فقد قصر به عن منزلته وجوابه أن اختصاص المسيح بضر من التشريف

والإنعام من الله تعالى لا يوجب جواز عبادته .

و فيه أنه في نفسه لا بأس به لكن الشان في دلالة قوله تعالى : « آلهتنا خير أم هو » على هذا التفصيل .

و قال في المجمع في الوجوه التي أوردها في معنى الآية : و رابعها ما رواه سادة أهل البيت عن علي عليه السلام أنه قال : جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فوجدته في ملا من قريش فنظر إلي ثم قال : يا علي إنما مثلك في هذه الأمة مثل عيسى بن مريم أحبه قوم فأفراطوا في حبه فهلكوا ، و أبغضه قوم فأفراطوا في بغضه فهلكوا ، و اقتصد فيه قوم فنجوا . فعظم ذلك عليهم فضحكوا و قالوا : يشبهه بالأنبياء و الرسل فنزلت الآية .

أقول : و الرواية غير متعوضة لتوجيه قولهم : « آلهتنا خير أم هو » و لئن كانت القصة سبباً للنزول فمعنى الجملة : لئن نتبع آلهتنا و نطيع كبراءنا خير من أن نتولى علينا فيتحكم علينا أو خير من أن نتبع محمداً فيحكم علينا ابن عمه .

و يمكن أن يكون قوله : « و قالوا آلهتنا خير أم هو » إلخ استثناءً و النازل في القصة هو قوله : « و لما ضرب ابن مريم مثلاً » الآية .

قوله تعالى : « إن هو إلا عبد إلا عبد أنعمنا عليه و جعلناه مثلاً لبنى إسرائيل » الذي يستدعيه السياق أن يكون الضمير لابن مريم ، و المراد بكونه مثلاً - على ما قيل - كونه آية عجيبة إلهية يسير ذكره كالأمثال السائرة .

و المعنى ليس ابن مريم إلا عبداً متظاهراً بالعبودية أنعمنا عليه بالنبوة و تأييده بروح القدس و إجراء المعجزات الباهرة على يديه و غير ذلك و جعلناه آية عجيبة خارقة نصف به الحق لبنى إسرائيل .

و هذا المعنى كما ترى رد لقولهم : « آلهتنا خير أم هو » الظاهر في تفضيلهم آلهتهم في ألوهيتها على المسيح عليه السلام في ألوهيته و محصله أن المسيح لم يكن إلهاً حتى ينظر في منزلته في ألوهيته و إنما كان عبداً أنعم الله عليه بما أنعم ، و أمّا آلهتهم

فنظر القرآن فيهم ظاهر .

قوله تعالى : « ولو شئنا لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون » الظاهر أن الآية متصلة بما قبلها مسرودة لرفع استبعاد أن يتلبس البشر من الكمال ما يقصه القرآن عن عيسى عليه السلام فيخلق الطير و يحيى الموتى ويكلم الناس في المهدي إلى غير ذلك فيكون كالملائكة المتوسطين في الإحياء والإماتة والرزق وسائر أنواع التدبير ويكون مع ذلك عبداً غير معبود و مألوها غير إله فإن هذا النوع من الكمال عند الوثنية مختص بالملائكة وهو ملاك ألوهيتهم ومعبوديتهم وبالجملة هم يحلون تلبس البشر بهذا النوع من الكمال الذي يخصونه بالملائكة .

فأجيب بأن الله أن يزكي الإنسان ويطهره من أدناس المعاصي بحيث يصير باطنه باطن الملائكة فظاهره ظاهر البشر و باطنه باطن الملك يعيش في الأرض يخلف مثله و يخلفه مثله و يظهر منه ما يظهر من الملائكة ^(١) .

و على هذا فمن في قوله : « منكم » للتبويض و قوله : « يخلفون » أي يخلف بعضهم بعضاً .

و في المجمع أن « من » في قوله : « منكم » تفيد معنى البدلية كما في قوله : فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على الطهيان ^(٢) و قوله : « يخلفون » أي يخلفون بني آدم و يكونون خلفاء لهم ، والمعنى ولو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلكم ملائكة يسكنون الأرض ويعمرونها و يعبدون الله . و فيه أنه لا يلائم النظم تلك الملازمة .

قوله تعالى : « وإنه لعلم للساعة فلا تترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم »

(١) وليس هذا من الانقلاب المحال في شيء بل نوع من التكامل الوجودي بالخروج

من حد منه أدنى إلى حد منه أعلى كما بين في محله .

(٢) الطهيان قلة الجبل ومعنى البيت لبت لنا بدلا من ماء زمزم شربة من الماء مبردة

بقيت ليلة على قلة الجبل .

ضمير «إنه» لعيسى عليه السلام والمراد بالعلم ما يعلم به ، و المعنى وإن عيسى يعلم به الساعة في خلقه من غير أب وإحيائه الموتى فيعلم به أن الساعة ممكنة فلا تشكوا في الساعة ولا ترتابوا فيها البتة .

و قيل : المراد بكونه علما للساعة كونه من أشراتها ينزل على الأرض فيعلم به قرب الساعة .

و قيل : الضمير للقرآن وكونه علما للساعة كونه آخر الكتب المنزلة من السماء. و في الوجهين جميعاً خفاء التفريع الذي في قوله : « فلا تمترن بها » .

وقوله : « واتبعون هذا صراط مستقيم » قيل : هو من كلامه تعالى والمعنى اتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي ، و قيل : من كلام الرسول بأمر منه تعالى .

قوله تعالى : « ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين » الصدّ الصرف والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة » إلخ المراد بالبينات الآيات البينات من المعجزات ، و بالحكمة المعارف الإلهية من العقائد الحقّة والأخلاق الفاضلة .

و قوله : « ولا يبين لكم بعض الذي تختلفون فيه » أي في حكمه من الحوادث والأفعال ، والذي يختلفون فيه وإن كان أعمّ من الاعتقادات التي يختلف في كونها حقّة أو باطلة والحوادث والأفعال التي يختلف في مشروع حكمها لكنّ المناسب لسبق قوله : « قد جئتكم بالحكمة » أن يختصّ ما اختلفوا فيه بالحوادث والأفعال والله أعلم .

و قيل : المراد بقوله : « بعض الذي تختلفون فيه » كلّ الذي تختلفون فيه . و هو كما ترى .

و قيل : المراد لا يبين لكم أمور دينكم دون أمور دنياكم ولا دليل عليه من لفظ الآية ولا من المقام .

و قوله : « فاتقوا الله وأطيعون » نسب التقوى إلى الله والطاعة إلى نفسه ليسجّل أنّه لا يدعي إلا الرسالة .

قوله تعالى : « إن الله هو ربتي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » دعوة منه إلى عبادة الله وحده وأنه هو ربه وربهم جميعاً وإتمام للحجة على من يقول بألوهيته .
قوله تعالى : « فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » ضمير « من بينهم » لمن بعث إليهم عيسى عليه السلام والمعنى فاختلف الأحزاب المتشعبة من بين أمته في أمر عيسى من كافر به قال فيه ، ومن مؤمن به غال فيه ، ومن مقتصد لازم الاعتدال .
و قوله : « فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » تهديد و وعيد للقالي منهم والغالي .





هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦)
 الْإِخْلَاءِ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ
 عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
 مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ
 عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ
 الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ
 الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ
 مُبْلِسُونَ (٧٥) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَ نَادُوا
 يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ
 وَ لَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) .

﴿بيان﴾

رجوع إلى إنذار القوم وفيه تخويفهم بالساعة والإشارة إلى ما يؤل إليه حال
 المتقين والمجرمين فيها من الثواب والعقاب .
 قوله تعالى : « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون »

النظر الانتظار ، والبغته الفجأة ، والمراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بأمر الدنيا كما قال تعالى : « ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون » يس : ٤٩ فلا يتكرر المعنى في قوله : « بغته وهم لا يشعرون » .

والمعنى ما ينتظر هؤلاء الكفار بكفرهم و تكذيبهم لآيات الله إلا أن تأتيهم الساعة مباغته لهم وهم غافلون عنها مشتغلون بأموور دنياهم أي إن حالهم حال من هدده الهلاك فلم يتوسل بشيء من أسباب النجاة وقعد ينتظر الهلاك ففي الكلام كناية عن عدم اعتنائهم بالإيمان بالحق . ليتخلصوا به عن أليم العذاب .

قوله تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » الأخلاء جمع خليل وهو الصديق حيث يرتفع خلّة صديقه و حاجته ، والظاهر أن المراد بالأخلاء المطلق الشامل للمخالّة والتحاب في الله كما في مخالّة المتقين أهل الآخرة والمخالّة في غيره كما في مخالّة أهل الدنيا فاستثناء المتقين متصل .

والوجه في عداوة الأخلاء غير المتقين أن من لوازم المخالّة إغاثة أحد الخليلين الآخر في مهام أموره فإذا كانت لغير وجه الله كان فيها الإغاثة على الشقوة الدائمة والعذاب الخالد كما قال تعالى حاكيا عن الظالمين يوم القيامة : « يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني » الفرقان : ٢٩ ، و أما الأخلاء من المتقين فإن مخالّتهم تتأكد و تنفعهم يومئذ .

وفي الخبر النبوي إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام وقلت الأنساب وذهبت الأخوة إلا الأخوة في الله و ذلك قوله : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » (١) .

قوله تعالى : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » من خطابه تعالى لهم يوم القيامة كما يشهد به قوله بعد : « ادخلوا الجنة » إلخ ، و في الخطاب تأمين لهم من كل مكروه محتمل أو مقطوع به فإن مورد الخوف المكروه المحتمل و مورد الحزن المكروه المقطوع به فإذا ارتفعا ارتفعا .

(١) رواه في الدر المنثور في الآية عن سعد بن معاذ .

قوله تعالى: «الذين آمنوا بآياتنا و كانوا مسلمين» الموصول بدل من المنادى المضاف في «يا عباد» أو صفة له، والآيات كل ما يدل عليه تعالى من نبي و كتاب و أي آية أخرى دالة، والمراد بالإسلام التسليم لإرادة الله و أمره.

قوله تعالى: «ادخلوا الجنة أنتم و أزواجكم تجبرون» ظاهر الأمر بدخول الجنة أن المراد بالأزواج هي النساء المؤمنات في الدنيا دون الحور العين لأنهن في الجنة غير خارجات منها.

والحبور - على ما قيل - السرور الذي يظهر أثره و حُبارِه في الوجه و الحبرة الزينة و حسن البيئة، والمعنى ادخلوا الجنة أنتم و أزواجكم المؤمنات و الحال أنكم تسرون سروراً يظهر أثره في وجوهكم أو تزيّنون بأحسن زينة.

قوله تعالى: «يطاف عليهم بصحاف من ذهب و أكواب» إلخ الصحاف جمع صحفة و هي القصة أو أصغر منها، و الأكواب جمع كوب و هو كوز لا عروة له، و في ذكر الصحاف و الأكواب إشارة إلى تنعمهم بالطعام و الشراب.

و في الالتفات إلى الغيبة في قوله: «يطاف عليهم» بين الخطابين «ادخلوا الجنة» و «أنتم فيها خالدون» تفخيم لإكرامهم و إنعامهم أن ذلك بحيث ينبغي أن يذكر لغيرهم ليزيد به اغتباطهم و يظهر به صدق ما وعدوا به.

و قوله: «وفيهما ما تشتهي النفس و تلتذ الأعين» الظاهر أن المراد بما تشتهي النفس ما تتعلق به الشهوة الطبيعية من مذوق و مشموم و مسموع و ملموس مما يتشارك فيه الإنسان و عامة الحيوان، و المراد بما تلتذ الأعين الجمال و الزينة و ذلك مما الالتذان به كالمختص بالإنسان كما في المناظر البهجة و الوجه الحسن و اللباس الفاخر، و لذا غير التعبير فعبّر عما يتعلق بالنفس بالاشتهاء و فيما يتعلق بالأعين باللذة و في هذين القسمين تنحصر اللذائذ النفسانية عندنا.

و يمكن أن تندرج اللذائذ الروحية العقلية فيما تلتذ الأعين فإن الالتذان الروحي يعد من رؤية القلب.

قال في المجمع: «وقد جمع الله سبحانه في قوله: «ما تشتهي النفس و تلتذ الأعين»

ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان . انتهى .

وقوله : « وأنتم فيها خالدون » إخبار ووعد وتبشير بالخلود و لهم في العلم به من اللذة الروحية ما لا يقاس بغيره ولا يقدر بقدر .

قوله تعالى : « و تلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون » قيل : المعنى أعطيتموها بأعمالكم ، وقيل : أوردتموها من الكفار و كانوا داخلها لو آمنوا و عملوا صالحاً ، وقد تقدم الكلام في المعنيين في تفسير قوله تعالى : « أولئك هم الوارثون » المؤمنون : ١٠ .

قوله تعالى : « لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » أضاف الفاكهة إلى ما مرّت الإشارة إليه من الطعام والشراب لإحصاء النعمة ، و « من » في « منها تأكلون » للتبويض ولا يخلو من إشارة إلى أنها لا تنفذ بالأكل .

قوله تعالى : « إنّ المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم و هم فيها ملبسون » المراد بالمجرمين المتلبسون بالإجرام فيكون أعمّ من الكفار ويؤيده إيرادهم في مقابلة المتقين و هو أخصّ من المؤمنين .

والتفتير التخفيف والتقليل ، والإبلاس اليأس ويأسهم من الرحمة أو من الخروج من النار .

قوله تعالى : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » وذلك أنه تعالى جازاهم بأعمالهم لكنّهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوة والهلكة .

قوله تعالى : « و قالوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما كنون » مالك هو الملك الخازن للنار على ما وردت به الأخبار من طرق العامة والخاصة .

و خطابهم مالكا بما يسألونه من الله سبحانه لكونهم محجوبين عنه كما قال تعالى : « كلاًّ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » المطففين : ١٥ ، و قال : « قال اخسوا فيها ولا تكلمون » المؤمنون : ١٠٨ .

فالمعنى أنهم يسألون مالكا أن يسأل الله أن يقضي عليهم .

والمراد بالقضاء عليهم إمامتهم ، ويريدون بالموت الانعدام والبطلان لينجوا بذلك عما هم فيه من الشقوة و أليم العذاب ، وهذا من ظهور ملكاتهم الدنيوية فإنهم كانوا يرون في الدنيا أن الموت انعدام وفوت لا انتقال من دار إلى دار فيسألون الموت بالمعنى الذي ارتكز في نفوسهم وإلا فهم قد ماتوا و شاهدوا ما هي حقيقته .

وقوله : « قال إنكم ما كنون » أي فيما أنتم فيه من الحياة الشقية والعذاب الأليم ، والقائل هو مالك جواباً عن مسألتهم .

قوله تعالى : « لقد جئناكم بالحق » و لكن أكثركم للحق كارهون » ظاهره أنه من تمام كلام مالك يقوله عن لسان الملائكة وهو منهم ، وقيل : من كلامه تعالى و يبعده أنهم محجوبون يومئذ عن ربهم لا يكلمهم الله تعالى .

والخطاب لأهل النار بما أنهم بشر فالمعنى لقد جئناكم معشر البشر بالحق و لكن أكثركم وهم المجرمون كارهون للحق .

وقيل : المراد بالحق مطلق الحق أي حق كان فهم يكرهونه و ينفرون منه و أما الحق المعهود الذي هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشتمزون منه .

والمراد بكرهاتهم للحق الكراهة بحسب الطبع الثاني المكتسب بالمعاصي والذنوب لا بحسب الطبع الأول الذي هو الفطرة التي فطر الناس عليها إذ لو كرهوه بحسبها لم يكلفوا بقبوله قال تعالى : « لا تبديل لخلق الله » الروم : ٣٠ ، وقال : « و نفس و ما سواها فألهمها فجورها و تقواها » الشمس : ٨ .

و يظهر من الآية أن الملاك في السعادة والشقاء قبول الحق و رده .





أَمْ أَمْرًا مَّأْمُورًا فَإِنَّا مَبْرُومُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ
 وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرَسُولُنَا بِهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ
 فَأَنَّا أَوْلَىٰ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
 يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
 يُوْعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ
 الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
 بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَ
 لئن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلَ يَا رَبِّ
 إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ
 يَعْلَمُونَ (٨٩) .

﴿ بيان ﴾

رجوع إلى سابق الكلام وفيه توبيخهم على ما يريدون من الكيد برسول الله
 صلى الله عليه وآله وتهديدهم بأن الله يكيدهم ، ونفي الولد الذي يقولون به ، و
 إبطال القول بمطلق الشريك وإثبات الربوبية المطلقة لله وحده وتختتم السورة بالتهديد
 والوعيد .

قوله تعالى : « أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون » الإبرام خلاف النقص و هو الإحكام ، و أم منقطعة .

والمعنى على ما يفيد سباق الآية والآية التالية : بل أحكموا أمراً من الكيد بك يا محمد فإنا محكمون الكيد بهم فالآية في معنى قوله تعالى : « أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون » الطور : ٤٢ .

قوله تعالى : « أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم و نجواهم بلى و رسلنا لديهم يكتبون » السر ما يستسر و نه في قلوبهم و النجوى ما يناجيه بعضهم بعضاً بحيث لا يسمعه غيرهما ، و لما كان السر حديث النفس عبث عن العلم بالسر و النجوى جميعاً بالسمع . و قوله : « بلى و رسلنا لديهم يكتبون » أي بلى نحن نسمع سرهم و نجواهم و رسلنا الموكّلون على حفظ أعمالهم عليهم يكتبون ذلك .

قوله تعالى : « قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين » إبطال لألوهية الولد بإبطال أصل وجوده من جهة علمه بأنه ليس ، و التعبير بإل الشرطية دون لو الدالة على الامتناع - و كان مقتضى المقام أن يقال : لو كان للرحمان ولد - ، لاستنزالهم عن رتبة المكابرة إلى مرحلة الانتصاف .

والمعنى قل لهم إن كان للرحمان ولد كما يقولون ، فأنا أول من يعبده أداء لحق بنوته و مسانخته لوالده ، لكنني أعلم أنه ليس ولذلك لا أعبده لا لبغض و نحوه .

و قد أوردوا للآية معاني أخرى :

منها أن المعنى لو كان لله ولد كما تزعمون فأنا أعبد الله وحده و لا أعبد الولد الذي تزعمون . ومنها أن « إن » نافية و المعنى قل ما كان لله ولد فأنا أول العابدين الموحدين له من بينكم .

و منها أن « العابدين » من عبد بمعنى أنف و المعنى قل لو كان للرحمان ولد فأنا أول من أنف و استنكف عن عبادته لأن الذي يلد لا يكون إلا جسماً و الجسمية تنافي الألوهية .

و منها أن المعنى كما أنني لست أول من عبد الله كذلك ليس لله ولد أي لوجاز

لكم أن تدعوا ذلك المحال جاز لي أن أدعي هذا المحال . إلى غير ذلك مما قيل لكن الظاهر من الآية ما قد مناه .

قوله تعالى : « سبحان ربّ السماوات والأرض ربّ العرش عما يصفون » تسبيح له سبحانه عما ينسبون إليه ، والظاهر أن « ربّ العرش » عطف بيان لربّ السماوات والأرض لأنّ المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود وهو عرش ملكه تعالى الذي استوى عليه وحكم فيه ودبر أمره .

ولا يخلو من إشارة إلى حجة على الوحدانية إذ لما كان الخلق مختصاً به تعالى حتى باعتراف الخصم وهو من شؤون عرش ملكه ، والتدبير من الخلق والايجاد فانه إيجاد النظام الجاري بين المخلوقات فالتدبير أيضاً من شؤون عرشه فربوبيته للعرش ربويّة لجميع السماوات والأرض .

قوله تعالى : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » وعيد إجماليّ لهم بأمر النبي ﷺ بالإعراض عنهم حتى يلاقوا يومهم من عذاب يوم القيامة .

والمعنى فتركهم يخوضوا في أباطيلهم ويلعبوا في دنياهم ويشغلوا بذلك حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدونه وهو يوم القيامة كما ذكر في الآيات السابقة : « هل ينظرون إلا الساعة » إلخ .

قوله تعالى : « وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم » أي هو الذي هو في السماء إله مستحقّ للمعبودية وهو في الأرض إله أي هو المستحقّ لمعبودية أهل السماوات والأرض وحده ، ويفيد تكرار « إله » كما قيل التأكيد والدلالة على أن كونه تعالى إلهاً في السماء والأرض بمعنى تعلقاً لوحيته بهما لا بمعنى استقراره فيهما أو في أحدهما .

وفي الآية مقابلة لما يثبت الوثنية لكل من السماء والأرض إلهاً أو آلهة ، وفي تذييل الآية بقوله : « وهو الحكيم العليم » الدالّ على الحصر إشارة إلى وحدانيته في الربويّة التي لازمها الحكمة والعلم .

قوله تعالى : « وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه يرجعون » ثناء عليه تعالى بالتبارك وهو مصدريته للخير الكثير .
و كل من الصفات الثلاث المذكورة حجة على توحيده في الربوبية أما ملكه للجميع فظاهر فإن الربوبية لمن يدبر الأمر والتدبير للملك ، وأما اختصاص علم الساعة به فلأن الساعة هي المنزل الأقصى إليه يسير الكل وكيف يصح أن يرب الأشياء من لا علم له بمنتهى مسيرها فهو تعالى رب الأشياء لا من يدعونه ، وأما رجوع الناس إليه فإن الرجوع للحساب والجزاء وهو آخر التدبير فمن إليه الرجوع فإنه التدبير ومن إليه التدبير له الربوبية .

قوله تعالى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » السياق سياق العموم فالمراد بالذين يدعون ، أي يعبدونهم من دونه ، كل معبود غيره تعالى من الملائكة والجن والبشر وغيرهم .
والمراد « بالحق » الحق الذي هو التوحيد والشهادة به الاعتراف به ، والمراد بقوله : « وهم يعلمون » حيث أطلق العلم علمهم بحقيقة حال من شفَعوا له و حقيقة عمله كما قال : « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » النبأ : ٣٨ وإذا كان هذا حال الشفعاء لا يملكونها إلا بعد الشهادة بالحق فما هم بشافعين إلا لأهل التوحيد كما قال : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » .
والآية مصرحة بوجود الشفاعة .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنسى يؤفكون » أي إلى متى يصرفون عن الحق الذي هو التوحيد إلى الباطل الذي هو الشرك ، وذلك أنهم معترفون أن لاخالق إلا الله والتدبير الذي هو ملاك الربوبية غير منفك عن الخلق كما اتضح مراراً فالرب المعبود هو الذي بيده الخلق وهو الله سبحانه .

قوله تعالى : « وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون » ضمير « قيله » للنبي صلى الله عليه وآله بلا إشكال ، والقييل مصدر كالقول والقال ، و « قيله » معطوف على ما قيل - على الساعة في قوله : « وعنده علم الساعة » والمعنى وعنده علم قوله : « يارب »

إن هؤلاء قوم لا يؤمنون .

قوله تعالى : « فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون » أمر بالإعراض عنهم وإقناظ من إيمانهم ، وقوله : « قل سلام » أي وادعهم موادعة ترك من غيرهم لك فيهم ، وفي قوله « فسوف يعلمون » تهديد ووعيد .

﴿ بحث روائي ﴾

في الاحتجاج عن علي عليه السلام في حديث طويل يقول فيه : قوله : « إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين » أي الجاحدين ، والتأويل في هذا القول باطنه مضاد لظاهره .

أقول : الظاهر أن المراد أنه خلاف ما ينصرف إليه لفظ عابد عند الإطلاق . وفي الكافي بإسناده عن هشام بن الحكم قال : قال أبو شاهر الديباني : إن في القرآن آية هي قولنا . قلت : و ما هي ؟ قال : هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله فلم أدر بما أجيبه فحججت فخبرت أبا عبد الله عليه السلام فقال : هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل : ما اسمك بالكوفة ؟ فإنه يقول : فلان فقل : ما اسمك بالبصرة ؟ فإنه يقول : فلان ، فقل كذلك الله ربنا في السماء إله ، وفي الأرض إله ، وفي البحار إله ، وفي القفار إله ، وفي كل مكان إله .

قال : فقدمت فأتيت أبا شاهر فأخبرته فقال : هذه نقلت من الحجاز .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » قال : هم الذين عبدوا في الدنيا لا يملكون الشفاعة لمن عبدهم .

وفي الكافي بإسناده عن أبي هاشم الجعفري قال : سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام : ما معنى الواحد ؟ فقال : إجماع الألسن عليه بالوحدانية لقوله : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » .

﴿سورة الدخان مكيّة وهي تسع وخمسون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمَّ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
فِي لَيْلَةٍ مَبْرُورَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)
أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ (٦) رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧)
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨).

﴿بيان﴾

يتلخص غرض السورة في إنذار المرتابين في الكتاب بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة
وقد سبق بيان ذلك بأنه كتاب مبين نازل من عند الله على من أرسله إلى الناس لئلا يندارهم
وقد نزل رحمة منه تعالى لعباده خير نزول في ليلة القدر التي فيها يفرق كل أمر حكيم.
غير أن الناس وهم الكفار ارتابوا فيه لآعين في هوساتهم وسيقشاهم أليم
عذاب الدنيا ثم يرجعون إلى ربهم فينتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد.
ثم يذكر لهم تنظيراً لأول الوعدين قصة إرسال موسى عليه السلام إلى قوم فرعون
لإنقاذ بني إسرائيل وتكذيبهم له وإغراقهم نكالا منه.
ثم يذكر إنكارهم لثاني الوعدين وهو الرجوع إلى الله في يوم الفصل فيقيم
الحجة على أنه آت لا محالة ثم يذكر طرفا من أخباره وما سيجري فيه على المجرمين
ويعيبيهم من ألوان عذابه ، وما سيناب به المتقون من حياة طيبة ومقام كريم .
والسورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « حم والكتاب المبين » الواو للقسم والمراد بالكتاب المبين القرآن .

قوله تعالى: « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ إِنَّهَا كُنَّا كَنَّا مُنذِرِينَ » المراد بالليلة المباركة التي نزل فيها القرآن ليلة القدر على ما يدل عليه قوله تعالى: « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » القدر: ١، وكونها مباركة ظرفيتها للخير الكثير الذي ينسبط على الخلق من الرحمة الواسعة وقد قال تعالى: « وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر » القدر: ٣.

و ظاهر اللفظ أنها إحدى الليالي التي تدور على الأرض و ظاهر قوله: « فيها يفرق » الدال على الاستمرار أنها تتكرر و ظاهر قوله تعالى: « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » البقرة: ١٨٥ أنها تتكرر بتكرار شهر رمضان فهي تتكرر بتكرار السنين القمرية و تقع في كل سنة قمرية مرة واحدة في شهر رمضان، و أما أنها أي ليلة هي؟ فلا إشعار في كلامه تعالى بذلك، و أما الروايات فستوافيك في البحث الروائي التالي.

و المراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة على ما هو ظاهر قوله: « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ » و قوله: « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » القدر: ١، و قوله: « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان » البقرة: ١٨٥ أن النازل هو القرآن كله.

و لا يدفع ذلك قوله: و قرآننا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث و نزلناه تنزيلاً أسرى: ١٠٦ و قوله: « و قال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » الفرقان: ٣٢، الظاهرين في نزوله تدريجاً، و يؤيد ذلك آيات أخر كقوله: « فاذا أنزلت سورة محكمة » سورة محمد: ٢٠، و قوله: « و إذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض » التوبة: ١٢٧ و غير ذلك و يؤيد ذلك أيضاً ما لا يحصى من الأخبار المتضمنة لأسباب النزول.

و ذلك أنه يمكن أن يحمل على نزول القرآن مرتين مرة مجموعاً و جملة في ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان، و مرة تدريجاً و نجومياً في مدة ثلاث و عشرين سنة و هي مدة دعوته ﷺ.

لكن الذي لا ينبغي الارتياح فيه أن هذا القرآن المؤلف من السور والآيات بما فيه من السياقات المختلفة المنطبقة على موارد النزول المختلفة الشخصية لا يقبل النزول دفعة فإذن الآيات النازلة في وقائع شخصية وحوادث جزئية مرتبطة بأزمنة و أمكنة وأشخاص و أحوال خاصة لاتصدق إلا مع تحقق موارد المتفرقة زمانا و مكانا و غير ذلك بحيث لو اجتمعت زمانا و مكانا و غير ذلك انقلبت عن تلك الموارد وصارت غيرها فلا يمكن احتمال نزول القرآن و هو على هيئته و حاله بعينها مرة جملة ، و مرة نجوما .

فلو قيل بنزوله مرتين كان من الواجب أن يفرق بين المرتين بالإجمال والتفصيل فيكون نازلاً مرة إجمالاً و مرة تفصيلاً و نعني بهذا الإجمال و التفصيل ما يشير إليه قوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » هود : ١ وقوله : « إننا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون و إنّه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم » الزخرف : ٤ و قد مرّ الكلام في معنى الأحكام و التفصيل في تفسير سورتني هود و الزخرف .

وقيل : المراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة افتتاح نزوله التدريجي في ليلة القدر من شهر رمضان فأول ما نزل من آيات القرآن - و هو سورة العلق أو سورة الحمد - نزل في ليلة القدر .

و هذا القول مبني على استشعار منافاة نزول الكتاب كله في ليلة و نزوله التدريجي الذي تدل عليه الآيات السابقة و قد عرفت أن لامنافاة بين الآيات .
على أنك خبير بأنه خلاف ظاهر الآيات .

وقيل : إنّه نزل أولاً جملة على السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل من السماء الدنيا على الأرض تدريجاً في ثلاث و عشرين سنة مدة الدعوة النبوية .

و هذا القول مأخوذ من الأخبار الواردة في تفسير الآيات الظاهرة في نزوله جملة و ستمرّ بك في البحث الروائي التالي إن شاء الله .

وقوله : « إننا كنا منذرين » واقع موقع التعليل ، و هو يدل على استمرار

الإِ نذار منه تعالى قبل هذا الإِ نذار ، فيدلّ على أن نزول القرآن من عنده تعالى ليس بيدع ، فإنّما هو إِنْذار و الإِ نذار سنّة جارية له تعالى لم تزل تجري في السابقين من طريق الوحي إلى الأنبياء و الرسل و بعثهم لإِ نذار النّاس .

قوله تعالى : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » ضمير « فيها » لليلة و الفرق فصل الشيء من الشيء بحيث يتمايزان و يقابله الإِ حكام فالأمر الحكيم ما لا يتمييز بعض أجزائه من بعض و لا يتعيّن خصوصياته و أحواله كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه و ما ننزله إلاّ بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

فللأمور بحسب القضاء الإِ لهيّ مرحلتان : مرحلة الإِ جمال و الإِ بهام و مرحلة التفصيل ، و ليلة القدر - على ما يدلّ عليه قوله : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم - ليلة يخرج فيها الأمور من مرحلة الإِ حكام إلى مرحلة الفرق و التفصيل ، و قد نزل فيها القرآن و هو أمر من الأمور المحكمة فرق في ليلة القدر .

و لعلّ الله سبحانه أطلع نبيّه على جزئيات الحوادث التي ستقع في زمان دعوته و ما يقارن منها نزول كلّ آية أو آيات أو سورة من كتابه فيستدعي نزولها و أطلعه على ما ينزل منها فيكون القرآن نازلا عليه دفعة و جملة قبل نزوله تدريجا و مفرقا . و مآل هذا الوجه اطلاع النبيّ ﷺ على القرآن في مرحلة نزوله إلى القضاء التفصيليّ قبل نزوله على الأرض و استقراره في مرحلة العين ، و على هذا الوجه لا حاجة إلى تفريق المرتبين بالإِ جمال و التفصيل كما تقدّم في الوجه الأوّل .

و ظاهر كلام بعضهم أن المراد بقوله : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » تفصيل الأمور المبيّنة في القرآن من معارف و أحكام و غير ذلك . و يدفعه أن ظاهر قوله : « فيها يفرق » الاستمرار و الذي يستمرّ في هذه الليلة بتكرّرها تفصيل الأمور الكونية بعد إِ حكامها و أمّا المعارف و الأحكام الإِ لهية فلا استمرار في تفصيلها فلو كان المراد فرقتها كان الأُ نسب أن يقال : « فيها فرق » .

و قيل : المراد بكون الأمر حكيمًا إِ حكامه بعد الفرق لا الإِ حكام الذي قبل التفصيل ، و المعنى يقضى في الليلة كلّ أمر محكم لا يتغيّر بزيادة أو نقصان أو غير ذلك

هذا ، و الأظهر ما قدّمناه من المعنى .

قوله تعالى : « أمراً من عندنا إنّنا كنّا مرسلين » المراد بالأمر الشأن و هو حال من الأمر السابق و المعنى فيها يفرق كلّ أمر حال كونه أمراً من عندنا و مبتدئاً من لدنا ، و يمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهي و المعنى يفرق فيها كلّ أمر بأمر منا ، و هو على أيّ حال متعلّق بقوله : « يفرق » .

و يمكن أن يكون متعلّقاً بقوله : « أنزلناه » أي حال كون الكتاب أمراً أو بأمر من عندنا ، و قوله : « إنّنا كنّا مرسلين » لا يخلو من تأييد لذلك ، و يكون تعليلاً له و المعنى إنّنا أنزلناه أمراً من عندنا لأنّ سننّتنا الجارية إرسال الأنبياء و الرسل .

قوله تعالى : « رحمة من ربّك إنّّه هو السميع العليم » أي إنزاله رحمة من ربّك أو أنزلناه لأجل إفاضة الرحمة على الناس أو لاقتضاء رحمة ربّك إنزاله فقوله : « رحمة » حال على المعنى الأوّل و مفعول له على الثاني و الثالث .

و في قوله : « من ربّك » التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة و وجهه إظهار العناية بالنبي صلى الله عليه وآله لأنّه هو الذي أنزل عليه القرآن و هو المُنذر المرسل إلى الناس . و قوله : « إنّّه هو السميع العليم » أي السميع للمسائل و العليم بالحوادث فيسمع مسألّتهم و يعلم حاجتهم إلى الهداء بهدى ربّك فينزل الكتاب و يرسل الرسول رحمة منه لهم .

قوله تعالى : « ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما إنّ كنتم موقنين » لما كانت الوثنيّة يرون أنّ لكلّ صنف من الخلق إلهاً أو أكثر و ربّما اتّخذ قوم منهم إلهاً غير ما يتّخذونه غيرهم عقب قوله : « من ربّك » بقوله : « ربّ السماوات » الخ لئلاّ يتوهّم متوهّم منهم أنّ ربوبيّته للنبي صلى الله عليه وآله ليست بالاختصاص كالتي بينهم بل هو تعالى ربّه و ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما ، و لذلك عقبه أيضاً في الآية التالية بقوله : « لا إله إلاّ هو » .

و قوله : « إنّ كنتم موقنين » هذا الاشرط كما ذكره الزمخشريّ من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه و اشتهروا سخاءه إنّ بلغك حديثه و حدثت

بقصته فالمعنى هو الذي يعرفه الموقنون بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنه رب كل شيء .

قوله تعالى . « لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين »
 لما كان مدلول الآية السابقة انحصار الربوبية وهي الملك والتدبير فيه تعالى والألوهية وهي المعبودية بالحق من لوازم الربوبية عقبه بكلمة التوحيد النافية لكل إله دونه تعالى .

وقوله : « يحيى ويميت » من أخص الصفات به تعالى وهما من شؤون التدبير ، وفي ذكرهما نوع تمهيد لما سيأتي من إنذارهم بالمعاد .

وقوله : « ربكم ورب آبائكم الأولين » فيه كمال التصريح بأنه ربهم ورب آبائهم فليعبده ولا يتعلموا بتتابع آبائهم في عبادة الأصنام ، ولتكميل التصريح سيقف الجملة بالخطاب فقول : « ربكم ورب آبائكم » .

وهما أعني قوله : « يحيى ويميت » وقوله : « ربكم » خبران لمبتدأ محذوف والتقدير هو يحيى ويميت الخ .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » : والليلة المباركة هي ليلة القدر ، وهو المراد عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي الكافي بإسناده عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران أنه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » قال : نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر قال الله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » قال : يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من خير وشر وطاعة ومعصية ومولود وأجل ورزق فما قدر في تلك السنة وقضى

فهو المحتوم والله تعالى فيه المشيئة .

أقول : قوله : «فهو المحتوم والله فيه المشيئة» أي أنه محتوم من جهة الأسباب والشرائط فلا شيء يمنع عن تحققه إلا أن يشاء الله ذلك .

و في البصائر عن عباس بن معروف عن سعدان بن مسلم عن عبد الله بن سنان قال : سألته عن النصف من شعبان فقال : ما عندي فيه شيء ولكن إذا كانت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان قسم فيها الأرزاق وكتب فيها الآجال وخرج فيها صكك الحاج واطلع الله إلى عباده فغفر الله لهم إلا شارب خمر مسكر .

فإذا كانت ليلة ثلاث وعشرين فيها يفرق كل أمر حكيم ثم ينهى ذلك ويمضى ذلك . قلت : إلى من؟ قال : إلى صاحبكم ولولا ذلك لم يعلم .

و في الدر المنثور أخرج محمد بن نصر وابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » قال : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب الحاج : يحج فلان و يحج فلان .

أقول : والأخبار في ليلة القدر وما يقضى فيها وفي تعيينها كثيرة جداً وسيأتي عمدتها في تفسير سورة القدر إن شاء الله تعالى .





بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ
 مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ
 إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) إِنِّي لَهُمُ الذَّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣)
 ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ
 عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦) وَلَقَدْ
 فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدَّوْا إِلَى عِبَادِ
 اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ
 بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَ إِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠)
 وَ أَنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لِأَنَّ قَوْمَ
 مُجْرِمُونَ (٢٢) فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَ اتركِ الْبَحْرَ
 رَهْوَآ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَاتٍ وَ عِيُونٍ (٢٥)
 وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَ نِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ
 وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ
 وَ مَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ
 الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَ لَقَدْ

اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ
بَلَاءٌ مُّبِينٌ (٣٣) .

﴿بيان﴾

تذكر الآيات ارتيابهم في كتاب الله بعد ما ذكرت أنه كتاب مبين نازل في خير ليلة على رسوله لغرض الإنذار رحمة من الله ، ثم تهددهم بعذاب الدنيا و بطش يوم القيامة وتمثل لهم بقصة إرسال موسى إلى قوم فرعون و تكذيبهم له و إغراقهم .
ولا تخلو القصة من إيماء إلى أنه تعالى سينجي النبي ﷺ والمؤمنين به من عتاة قريش بإخراجهم من مكة ثم إهلاك صنابير قريش في تعقيبهم النبي ﷺ والمؤمنين به .
قوله تعالى : « بل هم في شك يلعبون » ضمير الجمع لقوم النبي ﷺ ، والإضراب عن محذوف يدل عليه السياق السابق أي إنهم لا يوقنون ولا يؤمنون بما ذكر من رسالة الرسول و صفة الكتاب الذي أنزل عليه بل هم في شك و ارتياب فيه يلعبون بالاشتغال بديناهم ، و ذكر الزمخشري أن الإضراب عن قوله : « إن كنتم موقنين » .
قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس » الارتقاب الانتظار و هذا وعيد بالعذاب و هو إتيان السماء بدخان مبين يغشى الناس .
و اختلف في المراد بهذا العذاب المذكور في الآية :

ف قيل : المراد به المجاعة التي ابتلي بها أهل مكة فأنهم لما أصرّوا على كفرهم و أذاهم النبي ﷺ والمؤمنين به دعا عليهم النبي ﷺ فقال : اللهم سنين كسني يوسف فأجذبت الأرض و أصابت قريشا مجاعة شديدة ، و كان الرجل لما به من الجوع يرى بينه و بين السماء كالدخان و أكلوا الميتة و العظام ثم جاؤا إلى النبي ﷺ و قالوا : يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم و قومك قد هلكوا ، و وعدوه إن كشف الله عنهم الجذب أن يؤمنوا فدعا وسأل الله لهم بالخصب والسعة فكشف عنهم ثم عادوا إلى كفرهم و نقضوا عهدهم .

وقيل : إن الدخان المذكور في الآية من أشرطة الساعة وهو لم يأت بعد وهو يأتي قبل قيام الساعة فيدخل أسماع الناس حتى أن رؤسهم تكون كالرأس الحنيد . و يصيب المؤمن منه مثل الزكمة وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص (١) و يمكن ذلك أربعين يوماً .

وربما قيل : إن المراد بيوم الدخان يوم فتح مكة حين دخل جيش المسلمين مكة فارتفع الغبار كالدخان المظلم ، وربما قيل : المراد به يوم القيامة ، والقولان كما ترى .

وقوله : « يغشى الناس » أي يشملهم و يحيط بهم ، والمراد بالناس أهل مكة على القول الأول ، و عامة الناس على القول الثاني .

قوله تعالى : « هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » حكاية قول الناس عند نزول عذاب الدخان أي يقول الناس يوم تأتي السماء بدخان مبين : هذا عذاب أليم و يسألون الله كشفه بالاعتراف بربوبيته و إظهار الإيمان بالدعوة الحقّة فيقولون : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون .

قوله تعالى : « أنتى لهم الذكرى و قد جاءهم رسول مبين » أي من أين لهم أن يتذكروا و يذعنوا بالحقّ والحال أنه قد جاءهم رسول مبين ظاهر في رسالته لا يقبل الارتياب و هو محمد ﷺ ، و في الآية ردّ صدقهم في وعدهم .

قوله تعالى : « ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » التوليّ الإعراض ، و ضمير « عنه » للرسول و « معلم مجنون » خبران لمبتدء محذوف هو ضمير راجع إلى الرسول والمعنى ثم أعرضوا عن الرسول وقالوا هو معلم مجنون فرموده أو لا بأنه معلم يعلمه غيره فيسند ما تعلمه إلى الله سبحانه قال تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر » النحل : ١٠٣ ، و ثانياً بأنه مجنون مختلّ العقل .

قوله تعالى : « إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون » أي إنا كاشفون

(١) الخصاص الثقبه والفرجة ،

للعذاب زمانا إنكم عائدون إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب هذا بناء على القول الأول والآية تأكيد لرد صدقهم فيما وعدوه من الإيمان .
و أما على القول الثاني فالأقرب أن المعنى إنكم عائدون إلى العذاب يوم القيامة .

قوله تعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى إننا منتقمون » البطش - على ما ذكره الراغب - تناول الشيء بصولة ، وهذا اليوم بناء على القول الأول المذكور يوم بدر و بناء على القول الثاني يوم القيامة ، وربما أيد توصيف البطشة بالكبرى هذا القول الثاني فإن بطش يوم القيامة وعذابه أكبر البطش والعذاب قال تعالى : « فيعذب به الله العذاب الأكبر » الغاشية : ١٤ كما أن أجره أكبر الأجر قال تعالى : « ولا أجر الآخرة أكبر » النحل : ٤١ .

قوله تعالى : « ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم » الفتنة الامتحان والابتلاء للحصول على حقيقة الشيء . وقوله : « وجاءهم رسول كريم » النخ تفسير للامتحان ، والرسول الكريم موسى عليه السلام ، والكريم هو المتصف بالخصال الحميدة قال الراغب : الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه و إنعامه المتظاهر نحو قوله : « إن ربّي غنيّ كريم » و إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه ، ولا يقال : هو كريم حتى يظهر ذلك منه ، قال : وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم قال تعالى « وأنبتنا فيها من كل زوج كريم » وزروع ومقام كريم « إنه لقرآن كريم » و قل لهما قولا كريما » انتهى .

قوله تعالى : « أن أدوا إلى عباد الله إنني لكم رسول أمين » تفسير لمجيء الرسول فإن معنى مجيء الرسول تبليغ الرسالة و كان من رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون و قومه أن يرسلوا معهم بني إسرائيل ولا يعذبوهم ، والمراد بعباد الله بنو إسرائيل و عبر عنهم بذلك استرحاما و تلويحا إلى أنهم في استكبارهم و تعدّ بهم عليهم إنما يستكبرون على الله لا أنهم عباد الله .

و في قوله : « إنني لكم رسول أمين » حيث وصف نفسه بالأمانة دفع لاحتمال أن

يخونهم في دعوى الرسالة و إنجاء بني إسرائيل من سيطرتهم فيخرج معهم عليهم فيخرجهم من أرضهم كما حكى تعالى عن فرعون إذ قال للملأ حوله : « إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » الشعراء : ٢٥ .

و قيل : « عباد الله » نداء لفرعون و قومه و التقدير أن أدوا إلي ما أمركم به يا عباد الله ، و لا يخلو من التقدير المخالف للظاهر .

قوله تعالى : « و أن لا تعلوا على الله إنني آتيكم بسلطان مبين » أي لا تتجبروا على الله بتكذيب رسالتي و الإعراض عما أمركم الله فإن تكذيب الرسول في رسالته استعلاء و تجبر على من أرسله و الدليل على أن المراد ذلك تعليل النهي بقوله : « إنني آتيكم بسلطان مبين » أي حجة بارزة من الآيات المعجزة أو حجة المعجزة و حجة البرهان .

قيل : و من حسن التعبير الجمع بين التأييد و الأمين و كذا بين العلو و السلطان .
قوله تعالى : « و إنني عدت برببي و ربكم أن ترجون » أي التجأت إليه تعالى من رجعت إلي أي فلا تقدرون على ذلك ، و الظاهر أنه إشارة إلى ما آمنه ربه قبل المجيء إلى القوم كما في قوله تعالى : « قالوا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع و أرى » طه : ٤٦ .

و بما مر يظهر فساد ما قيل : إن هذا كان قبل أن يخبره الله بعجزهم عن رجعه بقوله سبحانه : « فلا يصلون إليكما » .

قوله تعالى : « و إن لم تؤمنوا لي فاعتزلون » أي إن لم تؤمنوا لي فكونوا بمعزل مني لالي و لا على و لا تتعرضوا لي بخير أو شر ، و قيل : المراد تنحوا عنّي و انقطعوا ، و هو بعيد .

قوله تعالى : « فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون » أي دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون و قد ذكر من دعائه السبب الداعي له إلى الدعاء و هو إجرامهم إلى حد يستحقون معه الهلاك و يعلم ما سأله مما أجاب به ربه تعالى إذ قال : « فأسرعبادي ، إلخ و هو الإهلاك » .

قوله تعالى : « فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون » الاسراء : السير بالليل فيكون قوله : « ليلاً » تأكيداً له و تصريحاً به ، والمراد بعبادي بنو إسرائيل ، وقوله : « إنكم متبعون » أي يتبّعكم فرعون وجنوده ، وهو استئناف يخبر عمّا سيقع عقيب الإسراء . وفي الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فقال له : أسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون يتبّعكم فرعون وجنوده .

قوله تعالى : « و اترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون » قال في المفردات : و اترك البحر رهواً أي ساكناً ، وقيل : سعة من الطريق و هو الصحيح . انتهى وقوله : « إنهم جند مغرقون » تعليل لقوله : « و اترك البحر رهواً » .

وفي الكلام إيجاز بالحذف اختصاراً والتقدير أسر بعبادي ليلاً يتبّعكم فرعون وجنوده حتى إذا بلغتكم البحر فاضربه بعصاك لينفتح طريق لجوازكم فجاوزوه و اتركه ساكناً أو مفتوحاً على حاله فيدخلونه طمعاً في إدراككم فهم جند مغرقون .

قوله تعالى : « كم تركوا من جنّات و عيون و زروع و مقام كريم و نعمة كانوا فيها فاكهين كذلك » « كم » للتكثير أي كثيراً ما تركوا ، وقوله : « من جنّات » إلخ بيان لما تركوا ، والمقام الكريم المساكن الحسنة الزاهية ، والنعمة بفتح النون التنعم و بناؤها بناء المرأة كالضربة و بكسر النون قسم من التنعم و بناؤها بناء النوع كالجلسة و فسروا النعمة ههنا بما يتنعم به و هو أنسب للترك ، و فاكهين من الفكاهة بمعنى حديث الأُنس و لعل المراد به ههنا التمتع كما يتمتع بالفواكه و هي أنواع الثمار . وقوله : « كذلك » قيل : معناه الأمر كذلك ، وقيل : المعنى نفعل فعلاً كذلك لمن يريد إهلاكه ، وقيل : الإشارة إلى الإخراج المفهوم من الكلام السابق والمعنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها .

و يمكن أن يكون حالاً من مفعول « تركوا » المحذوف والمعنى كثيراً ما تركوا أشياء كذلك أي على حالها والله أعلم .

قوله تعالى : « و أوردناها قوماً آخرين » الضمير لمفعول « تركوا » المحذوف المبيّن بقوله : « من جنّات » إلخ والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » بكاء السماء والأرض على شيء فانت كناية تخيلية عن تأثرهما عن فوته وفقده فعدم بكائهما عليهما بعد إهلاكهم كناية عن هوان أمرهم على الله و عدم تأثير هلاكهم في شيء من أجزاء الكون .

وقوله : « وما كانوا منظرين » كناية عن سرعة جريان القضاء الإلهي والقهر الربوبي في حقهم و عدم مصادفته لمانع يمنعه أو يحتاج إلى علاج في رفعه حتى يتأخر به .

قوله تعالى : « ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين » و هو ما يصيبهم وهم في أسارة فرعون من ذبح الأبناء و استحياء النساء و غير ذلك .

قوله تعالى : « من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين » « من فرعون » بدل من قوله : « من العذاب » إما بحذف مضاف والتقدير من عذاب فرعون ، أو من غير حذف بجعل فرعون عين العذاب دعوى للمبالغة ، وقوله : « إنه كان عالياً من المسرفين » أي متكبراً من أهل الإسراف والتعدي عن الحد .

قوله تعالى : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » أي اخترناهم على علم مناً باستحقاقهم الاختيار على ما يفيد السياق .

والمراد بالعالمين جميع العالمين من الأمم إن كان المراد بالاختيار الاختيار من بعض الوجوه ككثرة الأنبياء فانهم يمتازون من سائر الأمم بكثرة الأنبياء المبعوثين منهم و يمتازون بأن مر عليهم دهر طويل في التيه و هم يتظلمون بالغمم و يأكلون المن والسلوى إلى غير ذلك .

و عالموا أهل زمانهم إن كان المراد بالاختيار مطلقه فانهم لم يختاروا على الأمة الإسلامية التي خاطبهم الله تعالى بمثل قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » البقرة : ١٤٣ ، وقوله : « هو اجتباكم و ما جعل عليكم في الدين من حرج » الحج : ٧٨ .

قوله تعالى : « وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » البلاء الاختبار والامتحان

أي وأعطينا بني إسرائيل من الآيات المعجزات ما فيه امتحان ظاهر ولقد أوتوا من الآيات المعجزة ما لم يعهد في غيرهم من الأمم وابتلوا بذلك ابتلاء مبيناً .
 قيل : وفي قوله : « فيه » إشارة إلى أن هناك أموراً أخرى ككونه معجزة .
 وفي تذييل القصة بهذه الآيات الأربع أعني قوله : « ولقد نجينا بني إسرائيل - إلى قوله - بلاء مبين » نوع تطيب لنفس النبي ﷺ وإيماء إلى أن الله تعالى سينجيه والمؤمنين به من فراعنة مكة و يختارهم ويمكّنهم في الأرض فينظر كيف يعملون .

﴿ بحث روائي ﴾

عن جوامع الجامع في قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » و اختلف في الدخان فقيل : إنه دخان يأتي من السماء قبل قيام الساعة يدخل في أسمع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيد^(١) و يعتري المؤمن منه كهيئة الزكام و يكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص يمدّ ذلك أربعين يوماً ، وروي ذلك عن عليّ و ابن عباس والحسن .

أقول : و رواه في الدر المنثور عنهم و أيضاً عن حذيفة بن اليمان و أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ ، و رواه أيضاً عن ابن عمر موقوفاً .

و في تفسير القمي في الآية قال : ذلك إذا خرجوا في الرجعة من القبر يغشى الناس كلهم الظلمة فيقولون : هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إننا مؤمنون .
 و في المجمع و روى زرارة بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : بكت السماء على يحيى بن زكريا والحسين بن عليّ عليه السلام أربعين صباحاً . قلت : فما بكؤها قال : كانت تطلع حمراء و تغيب حمراء .

و في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن عبيد الملك عن إبراهيم قال : ما بكت

(١) الحنيد : المشوى .

السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين . قيل لعبيد : أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن ؟ قال : ذلك مقامه وحيث يصعد عمله . قال : و تدري ما بكاء السماء ؟ قال : لا . قال : تحمرّ و تصير وردة كالدهان . إن يحيى بن زكريا لما قتل احرمت السماء و قطرت دما ، و إن الحسين بن علي يوم قتل احرمت السماء .

و في الفقيه عن الصادق عليه السلام قال : إذا مات المؤمن بكى عليه بقاع الأرض التي كان يعبد الله عزّ وجلّ فيها والباب الذي كان يصعد منه عمله و موضع سجوده .
أقول : و في هذا المعنى ومعنى الروايتين السابقتين روايات أخر من طرق الشيعة و أهل السنة .

و لو بني في معنى بكاء السماء والأرض على ما يظهر من هذه الروايات لم يحتج إلى حمل بكائهما على الكناية التخيلية .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « و قالوا معلم مجنون » قال : قالوا ذلك لما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذه الغشي فقالوا : هو مجنون .





اِنَّ هٰؤُلَاءِ لَيَقُولُوْنَ (٣٤) اِنْ هِيَ اِلَّا مَوْتُنَا الْاُولٰٓئِ وَ مَا نَحْنُ
 بِمُنشَرِّينَ (٣٥) فَاْتُوا بِآبَاتِنَا اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ (٣٦) اَهُمْ خَيْرٌ اَمَّ
 قَوْمٌ تَبِعَ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ اَهْلَكْنَاهُمْ اِنَّهُمْ كَانُوْا مُجْرِمِيْنَ (٣٧) وَمَا
 خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لِاَعْبِيْنَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا اِلَّا
 بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّا اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ (٣٩) اِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ
 اَجْمَعِيْنَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِيْ مَوْلٰى عَنْ مَوْلٰى شَيْئًا وَّلَا هُمْ يُنصَرُوْنَ (٤١)
 اِلَّا مَنْ رَحِمَ اللّٰهُ اِنَّهُ هُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ (٤٢) اِنَّ شَجْرَةَ الرُّقُوْمِ (٤٣)
 طَعَامٌ الْاٰثِيْمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِيْ فِي الْبُطُوْنِ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيْمِ (٤٦)
 خُذُوْهُ فَاَعْتَلُوْهُ اِلٰى سِوَا الْجَحِيْمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُوْا فَوْقَ رَاسِهِ مِنْ عَذَابِ
 الْحَمِيْمِ (٤٨) ذُقْ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَزِيْزُ الْكَرِيْمُ (٤٩) اِنْ هٰذَا مَا كُنْتُمْ
 بِهِ تَمْتَرُوْنَ (٥٠) اِنَّ الْمُتَّقِيْنَ فِيْ مَقَامٍ اَمِيْنٍ (٥١) فِيْ جَنٰتٍ وَعِيُوْنَ (٥٢)
 يَلْبَسُوْنَ مِنْ سُنْدُسٍ وَّ اِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِيْنَ (٥٣) كَذٰلِكَ وَ زَوْجَانَهُمْ
 بِحُوْرٍ عِيْنٍ (٥٤) يَدْعُوْنَ فِيْهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ اٰمِنِيْنَ (٥٥) لَا يَذُوْقُوْنَ
 فِيْهَا الْمَوْتَ اِلَّا الْمَوْتَةَ الْاُولٰٓئِ وَ وَقِيَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيْمِ (٥٦) فَصَلّٰمِيْنَ
 رَبِّكَ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ (٥٧) فَاِنَّمَا يَسْرٰنَاۤ اِبْلٰسًا نَّكَ لَعْلَهُمْ
 يَتَدَكَّرُوْنَ (٥٨) فَارْتَقِبْ اِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُوْنَ (٥٩) .

﴿ بيان ﴾

لما أُنذِر القوم بالعذاب الدنيوي ثم بالعذاب الأخرى وتمثل للعذاب الدنيوي بما جرى على قوم فرعون إذ جاءهم موسى عليه السلام بالرسالة من ربه فكذبوه فأخذهم الله بعذاب الإغراق فاستأصلهم .

رجع إلى الكلام في العذاب الأخرى فذكر إنكار القوم للمعاد و قولهم أن ليس بعد الموتة الأولى حياة فاحتج على إثبات المعاد بالبرهان ثم أنبأ عن بعض ما سيلقاه المجرمون من العذاب في الآخرة و بعض ما سيلقاه المتقون من النعيم المقيم و عند ذلك تختتم السورة بما بدئت به و هو نزول الكتاب للتذكّر و أمره صلى الله عليه وآله بالارتقاب .

قوله تعالى : « إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين » رجوع إلى أول الكلام من قوله : « بل هم في شك يلعبون » والإشارة بهؤلاء إلى قريش و من يلحق بهم من العرب الوثنيين المنكرين للمعاد ، و قولهم : « إن هي إلا موتتنا الأولى » يريدون به نفي الحياة بعد الموت الملازم لنفي المعاد بدليل قولهم بعده : « وما نحن بمنشرين » أي بمبعوثين قال في الكشاف يقال : أنشر الله الموتى و نشرهم إذا بعثهم انتهى .

فقولهم : « إن هي إلا موتتنا الأولى » الضمير فيه للعاقبة و النهاية أي ليست عاقبة أمرنا و نهاية وجودنا و حياتنا إلا موتتنا الأولى فنعدم بها ولا حياة بعدها أبداً . ووجه تقييد الموتة في الآية بالأولى ، بأنه ليس بقيد احترازي إذ لا ملازمة بين الأول والآخر أو بين الأول والثاني فمن الجائز أن يكون هناك شيء أول ولا ثاني له ولا في قبالة آخر ، كذا قيل .

و هناك وجه آخر ذكره الزمخشري في الكشاف فقال : فإن قلت : كان الكلام واقعاً في الحياة الثانية لا في الموت فهلاً قيل : إلا حياتنا الأولى و ما نحن بمنشرين كما قيل : إن هي إلا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين و ما معنى قوله : « إلا موتتنا

الأولى؟ و ما معنى ذكر الأولى؟ كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها و أنبتوا الأولى .

قلت: معناه - والله الموفق للصواب - أنهم قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتبعها حياة كما تقدمتكم موتة قد تعقبها حياة وذلك قوله عز وجل: « و كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم » فقالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى يريدون ما الموتة التي من شأنها أن تعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية ، و ما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة فلا فرق إذاً بين هذا و بين قوله: « إن هي إلا حياتنا الدنيا » في المعنى انتهى .

و يمكن أن يوجه بوجه ثالث و هو أن يقولوا: « إن هي إلا موتتنا الأولى » بعد ما سمعوا قوله تعالى: « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » الآية و قد تقدم في تفسير الآية أن الإماتة الأولى هي الموتة بعد الحياة الدنيا ، والإماتة الثانية هي التي بعد الحياة البرزخية فهم في قولهم: « إن هي إلا موتتنا الأولى » ينفون الموتة الثانية الملازمة للحياة البرزخية التي هي حياة بعد الموت فإنهم يرون موت الإنسان انعداماً له و بطلاناً لذاته .

ويمكن أن يوجه رابع وهو أن يرجع التقييد بالأولى إلى الحكاية دون المحكي و ذلك بأن يكون الذي قالوا إنما هو « إن هي إلا موتتنا » و يكون معنى الكلام أن هؤلاء ينفون الحياة بعد الموت ويقولون: إن هي إلا موتتنا يريدون الموتة الأولى من الموتين اللتين ذكرنا في قولنا: « قالوا ربنا أمتنا اثنتين » الآية .

والوجه الأربع مختلفة في القرب من الفهم فأقربها ثالثها ثم الرابع ثم الأول .
قوله تعالى: « فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » تتمه كلام القوم و خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين به حيث كانوا يذكرون لهم البعث والإحياء فاحتجوا لرد الإحياء بعد الموت بقولهم: « فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » أي فليحي آباؤنا الماضون بدعائكم أو بأي وسيلة اتخذتموها حتى نعلم صدقكم في دعواكم أن الأموات سيحيون

و أن الموت ليس بانعدام .

قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تبّع والذين من قبلهم أهلكتناهم إنهم كانوا مجرمين » تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبّع والذين من قبلهم من الأمم .
وتبّع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن واسمه على ما ذكروا أسعد أبو كرب قيل : سعد أبو كرب و سيأتي في البحث الروائي نبذة من قصته و في الكلام نوع تلويح إلى سلامة تبّع نفسه من الإهلاك .

قوله تعالى : « و ما خلقنا السماوات والأرض و ما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق و لكن أكثرهم لا يعلمون » ضمير التثنية في قوله : « و ما بينهما » لجنسي السماوات والأرض ولذا لم يجمع ، والباء في قوله : « بالحق » للملابسة أي ما خلقناهما إلا متلبستين بالحق ، وجوز بعضهم كونها للسببية أي ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء ، ولا يخفى بعده .

و مضمون الآيتين حجة برهانية على ثبوت المعاد و تقريرها أنه لو لم يكن وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان الله لا يزال يوجد أشياء ثمّ يعدمها ثمّ يوجد أشياء آخر ثمّ يعدمها و يحيي هذا ثمّ يميتها و يحيي آخر و هكذا كان لاعباً في فعله عابثاً به واللعب عليه تعالى محال ففعله حق له غرض صحيح فهناك عالم آخر باق دائم ينتقل إليه الأشياء و ما في هذا العالم الدنيوي الفاني البائد مقدّمة للانتقال إلى ذلك العالم و هو الحياة الآخرة .

وقد فصلنا القول في هذا البرهان في تفسير الآية ١٦ من سورة الأنبياء ، والاية -

٢٧ من سورة ص فليراجع .

و قوله : « و لكن أكثرهم لا يعلمون » تقرير لهم بالجهل .

قوله تعالى : « إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » بيان لصفة اليوم الذي يثبته البرهان السابق و هو يوم القيامة الذي فيه يقوم الناس لرب العالمين .
وسمّاه الله يوم الفصل لأنّه يفصل فيه بين الحق والباطل و بين المحق والمبطل

والمتقين والمجرمين أو لأنه يوم القضاء الفصل منه تعالى .
و قوله : « ميقاتهم أجمعين » أي موعد الناس أجمعين أو موعد من تقدم ذكره من قوم تبع و قوم فرعون و من تقدمهم و قريش و غيرهم .

قوله تعالى : « يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون » بيان ليوم الفصل ، والمولى هو صاحب الذي له أن يتصرف في أمور صاحبه و يطلق على من يتولى الأمر و على من يتولى أمره والمولى الأول في الآية هو الأول والثاني هو الثاني .

والآية تنفي أو لا إغناء مولى عن موله يومئذ ، و تخبر ثانياً أنهم لا ينصرون والفرق بين المعنيين أن الإغناء يكون فيما استقل المغني في عمله ولا يكون لمن يغني عنه صنع في ذلك ، والنصرة إنما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصة و يتم له ذلك بنصرة الناصر .

والوجه في انتفاء الإغناء والنصر يومئذ أن الأسباب المؤثرة في نشأة الحياة الدنيا تسقط يوم القيامة قال تعالى : « و تقطعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ و قال : « فزبلنا بينهم » يونس : ٢٨ .

قوله تعالى : « إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم » استثناء من ضمير « لا ينصرون » والآية من أدلة الشفاعة يومئذ و قد تقدم تفصيل القول في الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب .

هذا على تقدير رجوع ضمير « لا ينصرون » إلى الناس جميعاً على ما هو الظاهر . و أما لو رجع إلى الكفار كما قيل فالاستثناء منقطع والمعنى لكن من رحم الله و هم المستقون فإنهم في غنى عن مولى يغني عنهم و ناصر ينصرهم .

و أما ما جوزه بعضهم من كونه استثناء متصلاً من « مولى » فقد ظهر فساده مما قدّمناه فإن الإغناء إنما هو فيما لم يكن عند الإنسان شيء من أسباب النجاة و من كان على هذه الصفة لم يغن عنه مغن ولا استثناء و الشفاعة نصرة تحتاج إلى بعض أسباب النجاة و هو الدين المرضي و قد تقدم في بحث الشفاعة ، نعم يمكن أن يوجه بما سيحجى

في رواية الشحام .

وقوله : « إنّه هو العزيز الرحيم » أي الغالب الذي لا يغلبه شيء حتى يمنعه من تعذيب من يريد عذابه ، ومفيض الخير على من يريد أن يرحمه ويفيض الخير عليه ومناسبة الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهرة .

قوله تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » تقدم الكلام في شجرة الزقوم في تفسير سورة الصافات ، والأثيم من استقر فيه الإثم إمّا بالمدامة على معصية أو بالإكثار من المعاصي والآية إلى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار .

قوله تعالى : « كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم » المهل هو المذاب من النحاس والرصاص وغيرهما ، والغلي والغليان معروف ، والحميم الماء الحار الشديد الحرارة ، وقوله : « كالمهل » خبر ثان لقوله : « إن » كما أن قوله : « طعام الأثيم » خبر أول ، وقوله : « يغلي في البطون كغلي الحميم » خبر ثالث ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم » الاعتلاء الزعزعة والدفع بعنف و سواء الجحيم وسطه ، والخطاب للملائكة الموكلين على النار أي نقول للملائكة خذوا الأثيم وادفعوه بعنف إلى وسط النار لتحيط به قال تعالى : « وإن جهنم ملحطة بالكافرين » التوبة : ٤٩ .

قوله تعالى : « ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم » كأن المراد بالعذاب ما يعذب به وإضافته إلى الحميم بيانية والمعنى ثم صبوا فوق رأسه من الحميم الذي يعذب به .

قوله تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » خطاب يخاطب به الأثيم وهو يقاسي العذاب بعد العذاب ، وتوصيفه بالعزة والكرامة على ما هو عليه من الذلّة واللامّة استهزاء به تشديداً لعذابه وقد كان يرى في الدنيا لنفسه عزّة وكرامة لا تفارقانه كما يظهر مما حكى الله سبحانه من قوله : « ولا أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى » حم السجدة : ٥٠ .

قوله تعالى: « إن هذا ما كنتم به تمترون » الامتراء الشك والارتياب والآية تتممة قولهم له: « ذق » إلخ وفيها تأكيد وإعلام لهم بخطأهم و زلتهم في الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهدة عيان ، ولذا عبّر عن تحمّل العذاب بالذوق لما أنه يعبر عن إدراك ألم الموطمات و لذّة الملذّات إدراكاً تامّاً بالذوق .

و يمكن أن تكون الآية استثناء من كلام الله سبحانه يخاطب به الكفّار بعد ذكر حالهم في يوم القيامة ، وربما أيّده قوله : « كنتم به تمترون » بخطاب الجمع والخطاب في الآيات السابقة بالافراد .

قوله تعالى: « إن المتّقين في مقام أمين » المقام محلّ القيام بمعنى الثبوت والركوز و لذا فسرّ أيضاً بموضع الإقامة ، والأمين صفة من الأمان بمعنى عدم إصابة المكروه والمعنى إن المتّقين - يوم القيامة - ثابتون في محلّ ذي أمن من إصابة المكروه مطلقاً .

و بذلك يظهر أن نسبة الأمان إلى المقام بتوصيف المقام بالأمان من المجاز في النسبة .

قوله تعالى: « في جنّات وغيون » بيان لقوله : « في مقام أمين » وجعل العيون ظرفاً لهم باعتبار المجاورة ووجودها في الجنّات التي هي ظرف ، و جمع الجنّات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أن لكلّ منهم وحده جنّة أو أكثر .

قوله تعالى: « يلبسون من سندس و استبرق متقابلين » السندس الرقيق من الحرير والاستبرق الغليظ منه و هما معرّبان من الفارسيّة .

وقوله : « متقابلين » أي يقابل بعضهم بعضاً للاستيناس إن لاشراً ولا مكروه عندهم لكونهم في مقام أمين .

قوله تعالى: « كذلك و زوّجناهم بحور عين » أي الأمر كذلك أي كما وصفناه والمراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهم من الزوج بمعنى القرين وهو أصل التزويج في اللغة ، والحور جمع حوراء بمعنى شديدة سواد العين و بياضها أو ذات المقلّة السوداء كالظباء ، والعين جمع عيناء بمعنى عظيمة العينين ، و ظاهر كلامه تعالى أن الحور العين

غير نساء الدنيا الداخلة في الجنة .

قوله تعالى : « يدعون فيها بكل فاكهة آمنين » أي آمنين من ضررها .

قوله تعالى : « لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم

أي إنهم في الجنة الخلد أحياء بحياة أبدية لا يعتربها موت .

وقد استشكل في الآية بأن استثناء الموتة الأولى من قوله : « لا يذوقون فيها

الموت » يفيد أنهم يذوقون الموتة الأولى فيها ، والمراد خلافة قطعاً ، وبتقرير آخر

الموتة الأولى هي مودة الدنيا وقد مضت بالنسبة إلى أهل الجنة ، والتلبس في المستقبل

بأمر ماض محال قطعاً فما معنى استثناء الموتة الأولى من عدم الذوق في المستقبل ؟

وهنا إشكال آخر لم يتعرضوا له وهو أنه قد تقدم في قوله تعالى : « ربنا أمتنا

اثنتين وأحييتنا اثنتين » المؤمن : ١١ أن بين الحياة الدنيا والساعة موتتين : مودة

بالانتقال من الدنيا إلى البرزخ ومودة بالانتقال من البرزخ إلى الآخرة ، والظاهر أن

المراد بالموتة الأولى في الآية هي مودة الدنيا الناقلة للإنسان إلى البرزخ فبأننا

أصلحنا استثناء الموتة الأولى بوجه فما بال الموتة الثانية لم تستثنى ؟ وما الفرق بينهما

وهما موتتان ذاقوهما قبل الدخول في الجنة الخلد ؟

وأجيب عن الإشكال الأول بأن الاستثناء منقطع والمعنى لكنهم قد ذاقوا

الموتة الأولى في الدنيا وقد مضت فعموم قوله : « لا يذوقون فيها الموت » على حاله .

وعلى تقدير عدم كون الاستثناء منقطعاً « إلا » بمعنى سوى و« إلا الموتة الأولى »

بدل من « الموت » وليس من الاستثناء في شيء والمعنى لا يذوقون فيها سوى الموتة الأولى

من الموت أما الموتة الأولى فقد ذاقوها ومحال أن تعود وتذاق وهي أولى .

وأجيب ببعض وجوه آخر لا يعابها ، وأنت خير بأن شيئاً من الوجهين لا يوجه

اتصاف الموتة بالأولى وقد تقدم في تفسير قوله : « إن هي إلا موتتنا الأولى » الآية

وجوه في ذلك .

وأما الإشكال الثاني فيمكن أن يجاب عنه بالجواب الثاني المتقدم لما أن

هناك موتتين الأولى وهي الناقلة للإنسان من الدنيا إلى البرزخ والموتة الثانية

وهي الناقلة له من البرزخ إلى الآخرة فإذا كان «إلا» في قوله: «إلا الموتة الأولى» بمعنى سوى والمجموع بدلاً من الموت كانت الآية مسوقة لنفي غير الموتة الأولى وهي الموتة الثانية التي هي موتة البرزخ فلا موت في جنّة الآخرة لا موتة الدنيا لأنها تحققت لهم قبلاً ولا غير موتة الدنيا التي هي موتة البرزخ، ويتبين بهذا وجه تقييد الموتة بالأولى.

وقوله: «ووقاهم عذاب الجحيم» الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره فالمعنى وحفظهم من عذاب الجحيم، وذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفي الموت عنهم تميم لقسمة المكاهر أي إنهم مصونون من الانتقال من دار إلى دار ومن نشأة الجنّة إلى نشأة غيرها وهو الموت ومصونون من الانتقال من حال سعيدة إلى حال شقية وهي عذاب الجحيم.

قوله تعالى: «فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم» حال مما تقدم ذكره من الكرامة والنعمة، ويمكن أن يكون مفعولاً مطلقاً أو مفعولاً له، وعلى أي حال هو تفضّل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقاً يوجب عليه تعالى ويلزمه على الإثابة فإنه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكّم عليه شيء، وإنما هو وعد وعده لعباده ثم أخبر أنه لا يخلف وعده، وقد تقدم تفصيل القول في هذا المعنى في الأبحاث السابقة.

وقوله: «ذلك هو الفوز العظيم» الفوز هو الظفر بالمراد وكونه فوزاً عظيماً لكونه آخر ما يسعد به الإنسان.

قوله تعالى: «فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون» تفرّيع على جميع ما تقدم من أوّل السورة إلى هنا وذلكة للجميع، والتيسير التسهيل، والضمير للكتاب والمراد بلسان النبي ﷺ العربية.

والمعنى فإنما سهّلنا القرآن - أي فهم مقاصده - بالعربية لعلهم - أي لعل قومك - يتذكرون فتكون الآية قريبة المعنى من قوله: «إننا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» الزخرف: ٣.

وقيل : المراد من تيسير الكتاب بلسان النبي ﷺ إجراؤه على لسانه و هو
أمي لا يقرأ ولا يكتب ليكون آية لصدق نبوته ، و هو بعيد من سياق الفذلكة .

قوله تعالى : « فارتقب إنهم مرتقبون » كأنه متفرع على ما يتفرع على الآية
السابقة ، و محصل المعنى أننا يسرناه بالعربية رجاء أن يتذكروا فلم يتذكروا بل هم
في شك يلبعون و ينتظرون العذاب الذي لا مرد له من المكذبين فانتظر العذاب إنهم
منتظرون له .

فإطلاق المرتقبين على القوم من باب التهكم ، و من سخييف القول قول من يقول
إن في الآية أمراً بالمشاركة و هي منسوخة بآية السيف .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تبسع » روى سهل بن ساعد عن
النبي ﷺ أنه قال : لا تسبوا تبساً فإنه كان قد أسلم .

أقول : و روى هذا المعنى في الدر المنثور عن ابن عباس أيضاً ، و أيضاً عن ابن
عساكر عن عطاء بن أبي رباح عن النبي ﷺ .

وفيه و روى الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله ﷺ قال : إن تبساً قال للأوس
والخزرج : كونوا ههنا حتى يخرج هذا النبي ، أما أنا فلو أدركته لخدمته و
خرجت معه .

و في الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن سلام قال : لم يمت
تبسع حتى صدق بالنبي ﷺ لما كان يهود يثرب يخبرونه .

أقول : والأخبار في أمر تبسع كثيرة ، و في بعضها أنه أول من كسى الكعبة .

و في الكافي بإسناده عن زيد الشحام قال : قال لي أبو عبد الله ﷺ و نحن في
الطريق في ليلة الجمعة : إقرأ فإنها ليلة الجمعة قرأنا فقرأت « إن يوم الفصل ميقاتهم
أجمعين يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله » فقال أبو عبد الله

عليه السلام : نحن والله الذي استثنى الله فكنتنا نغني عنهم .

أقول : يشير عليه السلام إلى الشفاعة وقد أخذ الاستثناء عن « مولى » الأول .

و في تفسير القمي : ثم قال : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » نزلت في أبي-

جهل بن هشام ، و قوله : « كالمهل » قال : المهل الصفر المذاب « يغلي في البطون كغلي

الحميم » و هو الذي قد حمي و بلغ المنتهى .

أقول : « و من طرق أهل السنة أيضاً روايات تؤيد نزول الآية في أبي جهل .



﴿ سورة الجاثية مكية وهي ست و ثلاثون آية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمَّ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
 الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ
 وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ
 تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
 بِالْحَقِّ فَبَأَى حَدِيثِ بَعْدَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ
 أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا
 فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَ إِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا
 أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا
 شَيْئًا وَ لَأَمَّا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)
 هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ (١١)
 اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ
 فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ مَا فِي
 الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) .

﴿بيان﴾

غرض السورة دعوة عامّة على الإنذار تفتتح بآيات الوجدانية ثم تذكر تشريع الشريعة للنبي ﷺ وتشير إلى لزوم اتباعها له ولغيره بما أن أمامهم يوماً يحاسبون فيه على أعمالهم الصالحة من الإيمان واتباع الشريعة واجتراحهم السيئات بالإعراض عن الدين ، ثم تذكر ما سيجري على الفريقين في ذلك اليوم وهو يوم القيامة .
و في خلال مقاصدها إنذار ووعيد شديد للمستكبرين المعرضين عن آيات الله والذين اتخذوا إلههم هواهم وأضلهم الله على علم .

و من طرائف مطالبها بيان معنى كتابة الأعمال و استنساخها .

والسورة مكيّة بشهادة سياق آياتها و استثنى بعضهم قوله تعالى : « قل للذين آمنوا » الآية ولا شاهد له .

قوله تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » : الظاهر أن « تنزيل الكتاب » من إضافة الصفة إلى الموصوف والمصدر بمعنى المفعول ، و « من الله » متعلق بتنزيل ، والمجموع خبر لمبتدأ محذوف .

والمعنى هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم ، وقد تقدم الكلام في مفردات الآية فيما تقدم .

قوله تعالى : « إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين » آية الشيء علامته التي تدل عليه وتشير إليه ، والمراد بكون السماوات والأرض فيها آيات كونها بنفسها آيات له فليس وراء السماوات والأرض وسائر ما خلق الله أمر مظروف لها هو آية دالة عليه تعالى .

و من الدليل على ما ذكرنا اختلاف التعبير فيها في كلامه تعالى فتارة يذكر أن في الشيء آية له وأخرى يعدّه بنفسه آية كقوله تعالى : « إن في خلق السماوات والأرض و اختلاف الليل والنهار لآيات » آل عمران : ١٩٠ و قوله : « ومن آياته

خلق السماوات والأرض « الروم : ٢٢ ونظائرهما كثيرة ، ويستفاد من اختلاف التعبير الذي فيها أن معنى كون الشيء فيه آية هو كونه بنفسه آية كما يستفاد من اختلاف التعبير في مثل قوله : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات » وقوله : « إن في السماوات والأرض آيات » الآية أن المراد من خلق السماوات والأرض نفسها لا غير .

والعناية في أخذ الشيء ظرفاً للآية مع كونه بنفسه آية اعتبار جهات وجوده وأن لوجوده جهة أو جهات كل واحدة منها آية من الآيات ولو أخذت نفس الشيء لم يستقم إلا أخذها آية واحدة كما في قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين » الذاريات : ٢٠ ولو أخذت الآية نفس الأرض لم يستقم إلا أن يقال : والأرض آية للموقنين و ضاع المراد وهو أن في وجود الأرض جهات كل واحدة منها آية وحدها . فمعنى قوله : « إن في السماوات والأرض » إلخ أن لوجود السماوات والأرض جهات دالة على أن الله تعالى هو خالقها المدبر لها وحده لا شريك له فانها بحاجة إليها الذاتية إلى من يوجد لها وعظمة خلقتها وبداعة تركيبها واتصال وجود بعضها ببعض وارتباطه على كثرتها الهائلة واندراج أنظمتها الجزئية الخاصة بكل واحد تحت نظام عام يجمعها ويحكم فيها تدل على أن لها خالقاً هو وحده ربها المدبر أمرها فلولا أن هناك من يوجد لها لم توجد من رأس ، ولولا أن مدبرها واحد لتناقضت النظمات وتدافعت واختلف التدبير .

ومما تقدم يظهر أن قول بعضهم : إن قوله : « في السماوات » بتقدير مضاف محذوف والتقدير في خلق السماوات ، تكلف من غير ضرورة تدعو إليه .

قوله تعالى : « وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » البث التفريق والإثارة وبثه تعالى للدواب خلقها وتفريقها ونشرها على الأرض كما قال في خلق الإنسان : « ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » الروم : ٢٠ .

ومعنى الآية وفيكم من حيث وجودكم المخلوق وفيما يفرقه الله من دابة من حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين .

و خلق الإنسان على كونه موجوداً أرضياً له ارتباط بالمادة نوع آخر من الخلق يغير خلق السماوات والأرض لأنه مركب من بدن أرضي مؤلف من مواد كونية عنصرية تفسد بالموت بالتفرق والتلاشي وأمر آخر وراء ذلك علوي غير مادي لا يفسد بالموت بل يتوقى ويحفظ عند الله ، وهو الذي يسميه القرآن بالروح قال تعالى : « و نفخت فيه من روحي » الحجر ٢٩ ، وقال بعد ذكر خلق الإنسان من نطفة ثم من علقه ثم مضغة ثم تميم خلق بدنه : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » المؤمنون : ١٤ ، وقال « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » الم السجدة : ١١ .

فالنظر في خلق الإنسان ناظر في آية ملكوتية وراء الآيات المادية وكذا الناظر في خلق الدواب ولها نفوس ذوات حياة وشعور وإن كانت دون الإنسان في حياتها وشعورها كما أنها دونه في تجهيزاتها البدنية ففي الجميع آيات لأهل اليقين يعرفون بها الله سبحانه بأنه واحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته .

قوله تعالى : « واختلاف الليل والنهار » إلى آخر الآية هذا القبيل من الآيات آيات ما بين السماء والأرض .

وقوله : « واختلاف الليل والنهار » يريد به اختلافهما في الطول والقصر اختلافاً منظماً باختلاف الفصول الأربعة بحسب بقاع الأرض المختلفة ويتكرر بتكرار السنين يدبر سبحانه بذلك أقوات أهل الأرض ويربئهم بذلك تربية صالحة قال تعالى : « وقد ر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » حم السجدة : ١٠ .

وقوله : « وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها » المراد بالرزق الذي ينزل الله من السماء هو المطر تسمية للسبب باسم المسبب مجازاً أو لأن المطر أيضاً من الرزق فإن مياه الأرض من المطر ، والمراد بالسماء جهة العلو أو السحاب مجازاً ، وإحياء الأرض به بعد موتها هو إحياء ما فيها من النبات بالأخذ في الرشد والنمو ولا يخلو التعرض للإحياء بعد الموت من تلويح إلى المعاد .

وقوله : « و تصريف الرياح » أي تحويلها وإرسالها من جانب إلى جانب ، و

لتصرفها فوائد عامة كثيرة من أهمها سوق السحب إلى أفطار الأرض و تلقيح النباتات و دفع العفونات والروائح المنتنة .

وقوله : « آيات لقوم يعقلون » أي يميزون بين الحق والباطل والحسن والقبيح بالعقل الذي أودعه الله سبحانه فيهم .

وقد خص كل قبيل من الآيات بقوم خاص فخصت آية السماوات والأرض بالمؤمنين و آية الإنسان و سائر الحيوان بقوم يوقنون ، و آية اختلاف الليل و النهار و الأمطار و تصريف الرياح بقوم يعقلون .

و لعل الوجه في ذلك أن آية السماوات والأرض تدل بدلالة بسيطة ساذجة على أنها لم توجد نفسها بنفسها ولا عن اتفاق وصدفة بل لها موجد أو جدها مع مالها من الآثار والأفعال التي يتحصل منها النظام المشهود فخالق الجميع و رب الكل ، و الإنسان يدرك ذلك بفهمه البسيط الساذج و المؤمنون بجميع طبقاتهم يفهمون ذلك و ينتفعون به .

و أما أنه خلق الإنسان و سائر الدواب التي لها حياة و شعور فإنها من حيث أرواحها و نفوسها الحية الشاعرة من عالم وراء عالم المادة و هو المسمى بالملكوت و قد خص القرآن كمال إدراكه و مشاهدته بأهل اليقين كما قال : « و كذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض و ليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ .

و أما آية اختلاف الليل و النهار و الأمطار المحيية للأرض و تصريف الرياح فإنها لتنوع أقسامها و تعدد جهاتها و ارتباطها بالأرض و الأرضيات و كثرة فوائدها و سعة منافعها تحتاج إلى تعقل فكري تفصيلي عميق و لا تنال بالفهم البسيط الساذج و لذلك خصت بقوم يعقلون و الآيات آيات لجميع الناس لكن لما كان المنتفع بها بعضهم خصت بهم .

و قد عبّر عن أهل اليقين و العقل بقوم يوقنون و بقوم يعقلون و عن أهل الإيمان بالمؤمنين لأن بساطة آية أهل الإيمان تفيد أن المراد بالإيمان أصله و هو ثابت فيهم

فناسب التعبير عنهم بالوصف بخلاف آيتي أهل اليقين و العقل فإنهما لدقتهما و علو منالهما تدركان شيئاً فشيئاً فناسبنا التعبير بالفعل المضارع الدال على الاستمرار التجديدي .

و قيل في وجه ما في الآيات الثلاث من الترتيب بين أهلها حيث ذكر أولاً أهل الإيمان ثم الإيقان ثم العقل أنه على ترتيب الترقى فإن الإيقان مرتبة خاصة في الإيمان فهو بعد الإيمان و العقل مدار الإيمان و الإيقان و معنى العقل المؤيد بنور البصيرة فبسببه يخلص اليقين من اعتراء الشكوك من كل وجه و في استحكامه كل خير و روعي في ترتيب الآيات ما روعي في ترتيب المراتب الثلاث (١) .

و فيه أن مقتضى ما وصفه من أمر العقل وقوعه قبل الثاني بل قبل أول المراتب على أن ما ذكره من إمكان اعتراء الشكوك على اليقين مما لا سبيل إلى تصويره .
و قيل في وجه الترتيب : أن تمام النظر في الثاني يضطر إلى النظر في الأول لأن السماوات و الأرض من أسباب تكون الحيوان بوجه فيجب أن تذكر قبله ، و كذلك النظر في الثالث يضطر إلى النظر في الأولين أما الأول فظاهر ، و أما الثاني فلا أنه العلة الغائية فلا بد أن يكون جامعاً أي إن الثالث و هو المعلول يتوقف في معرفته على ذكر علة الغائية قبله .

و فيه أنه على تقدير صحته وجه لترتيب الآيات دون مراتب الصفات الثلاث أعني الإيمان و الإيقان و العقل . على أن الثالث أيضاً كالأول من أسباب تكون الحيوان فيجب أن يتقدم على الثاني ، و بوجه آخر الثاني علة غائية للأول فيجب أن يتقدم على الأول كما تقدم على الثالث .

و قيل : إن السبب في ترتيب هذه الفواصل أنه قيل : إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، و إن كنتم لمستم بمؤمنين و كنتم من طلاب الجزم و اليقين فافهموا هذه

(١) هذا الوجه مستفاد من الكشاف ، و ما يتلوه لصاحب الكشاف ، و الوجه الآخر

الدلائل ، و إن كنتم لستم بمؤمنين و لاموقنين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل .
 وفيه أنه على تقدير صحته وجه لترتب الصفات الثلاث دون أقسام الآيات الثلاثة
 على أن لازمه أن لا يختص شيء من الآيات الثلاث بواحدة من الصفات الثلاث بل يكون
 الجميع للجميع و السياق لا يساعد عليه . على أن ظاهر كلامه أنه فسّر اليقين بالجزم
 و هو العلم فلا يبقى للعقل إلا الحكم الظني و لا يعبأ به في المعارف الاعتقادية .
قوله تعالى : « تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته
 يؤمنون » الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملاً فلو لم يلتزم لم يكن إيماناً و
 إن كان هناك علم قال تعالى : « و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ ، وقال :
 « و أضله الله على علم » الجاثية : ٢٣ .

و الآيات هي العلامات الدالة فآيات الله الكونية هي الأمور الكونية الدالة
 بوجودها الخارجي على كونه تعالى واحداً في الخلق متصفاً بصفات الكمال منزهاً عن
 كل نقص و حاجة ، و الإيمان بهذه الآيات هو الإيمان بدلائلها عليه تعالى و لازمه
 الإيمان به تعالى كما تدل هي عليه .

و الآيات القرآنية آيات له تعالى بما تدل على الآيات الكونية الدالة عليه
 سبحانه أو على معارف اعتقادية أو أحكام عملية أو أخلاق يرتضيها الله سبحانه و يأمر
 بها فإن مضامينها دالة عليه و من عنده ، و الإيمان بهذه الآيات أيضاً إيمان بدلائلها
 و يلزمه الإيمان بمدلولها .

و الآيات المعجزة أيضاً إما آيات كونية و دلالتها دلالة الآيات الكونية وإما
 غير كونية كالقرآن في إعجازه و مرجع دلالتها إلى دلالة الآيات الكونية .

و قوله : « تلك آيات الله تتلوها عليك » الإشارة إلى الآيات القرآنية المتلوّة
 عليه ﷺ ، و يمكن أن تكون إشارة إلى الآيات الكونية المذكورة في الآيات الثلاث
 السابقة بعناية الاتحاد بين الدال و المدلول .

و قوله : فبأي حديث بعد الله و آياته يؤمنون » قيل : هو من قبيل قولك :

أعجبني زيد و كرمه ، وإنما أعجبك كرمه و المعنى بحسب النظر الدقيق أعجبني كرم زيد و زيد من حيث كرمه ، فمعنى الآية فبأي حديث بعد آيات الله يعني الآيات القرآنية يؤمنون ؟ يعني إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأي حديث بعده يؤمنون ؟

وقيل : الكلام بتقدير حديث أي إذا لم يؤمنوا فبأي حديث بعد حديث الله و آياته يؤمنون ، و الأنسب على هذا المعنى أن يكون المراد بالآيات الآيات الكونية و لذا قال الطبرسي بعد ذكر هذا المعنى : و الفرق بين الحديث الذي هو القرآن و بين الآيات أن الحديث قصص يستخرج منه عبر تبيين الحق من الباطل ، و الآيات هي الأدلة الفاصلة بين الصحيح و الفاسد . انتهى و أول الوجهين أطف .

قوله تعالى : « ويل لكل أفكأثم » الويل الهلاك ، و الأفك مبالغة من الإفك و هو الكذب ، و الأثم من الإثم بمعنى المعصية و المعنى ليكن الهلاك على كل كذاب ذي معصية .

قوله تعالى : « يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها » الخ صفة لكل أفكأثم ، و « ثم » للتراخي الرتبي و تفيد معنى الاستبعاد ، و الإصرار على الفعل ملازمته و عدم الانفكاك عنه .

و المعنى يسمع آيات الله - و هي آيات القرآن - تقرأ عليه ثم يلازم الكفر و الحال أنه مستكبر لا يتواضع للحق كأن لم يسمع تلك الآيات فبشره بعذاب أليم .
قوله تعالى : « و إذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً » الخ ظاهر السياق أن ضمير « اتخذها » للآيات ، و جعل الهزاء متعلقاً بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله و المعنى و إذا علم ذلك الأفكأثم المصر المستكبر بعض آياتنا استهزاء بآياتنا جميعاً .

و قوله : « أولئك لهم عذاب مهين » أي مذل مخز ، و توصيف العذاب بالإهانة مقابلة لاستكبارهم و استهزائهم ، و الإشارة بأولئك إلى كل أفكأثم ، و قيل في الآية بوجوه أخر أعرضنا عنها لعدم الجدوى فيها .

قوله تعالى : « من ورائهم جهنم و لا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً و لا ما اتخذوا من دون الله أولياء » الخ لما كانوا مشغولين بالدنيا معرضين عن الحق غير ملتفتين إلى تبعات أعمالهم جعلت جهنم ورائهم مع أنها قد أمهم و هم سائرون نحوها متوجهون إليها .

و قيل : ورائهم بمعنى قد أمهم قال في المجمع : وراء اسم يقع على القدم و الخلف فما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك . انتهى و في قوله : « من ورائهم جهنم » قضاء حتم .

و قوله : « و لا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً » المراد بما كسبوا ما حصلوه في الدنيا من مال و نحوه ، و تنكير « شيئاً » للتحقير أي و لا يغني عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال و جاه و أنصار في الدنيا شيئاً يسيراً حقيراً .

و قوله : « و لا ما اتخذوا من دون الله أولياء » « ما » مصدرية و المراد بالأولياء أرباب الأصنام الذين اتخذوهم أرباباً آلهة و زعموا أنهم لهم شفاء أو الأصنام . و قوله : « ولهم عذاب عظيم » تأكيد لوعيدهم و قد أوعدهم الله سبحانه أو لا بقوله : « ويل لكل أفك » الخ ، و ثانياً بقوله : « فبشره بعذاب أليم » و ثالثاً بقوله : « أولئك لهم عذاب مهين » و رابعاً بقوله « من ورائهم جهنم » الخ و خامساً بقوله : « ولهم عذاب عظيم » ، و وصف عذابهم في خلالها بأنه أليم مهين عظيم .

قوله تعالى : « هذا هدى و الذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم » الإشارة بقوله : « هذا هدى » إلى القرآن و وصفه بالهدى للمبالغة نحو زيد عدل و الرجز - كما قيل - أشد العذاب و أصله الاضطراب . و الآية في مقام الرد لما رموا به القرآن و عدوه مهاناً بالهزاء و السخرية و خلاصة وعيد من كفر بآياته .

قوله تعالى : « الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره » الخ لما ذكر سبحانه حال الأفلاك من الاستكبار عن الإيمان بالآيات إن أنزلت عليهم و الاستهزاء

بما علموا منها و أوعدهم أبلغ الإيعاد بأشدّ العذاب رجع إليهم بخطاب الجميع ممن يؤمن و يكفر ، و ذكر بعض آيات ربوبيته التي فيها من عظيم عليهم و ليس في وسعهم إنكارها فذكر أو لا تسخير البحر لهم ثم ما في السماوات والأرض جميعاً ففيها آيات لا يكفر بها إلا من انسلخ عن الفطرة الإنسانية و نسي التفكير الذي هو من أجلى خواص الإنسان .

فقوله : « الله الذي سخّر لكم البحر » اللام في « لكم » للغاية أي سخّر لآجلكم البحر بأن خلقه على نحو يحمل الفلك و يقبل أن تجري فيه فينتفع به الإنسان ، و يمكن أن تكون للتعدية فيكون الإنسان يسخّر البحر بأذن الله .

و قوله : « لتجري الفلك فيه بأمره » غاية لتسخير البحر ، و جريان الفلك فيه بأمره ، هو إيجاده الجريان بكلمة كن فأثار الأشياء كنفس الأشياء منسوبة إليه تعالى و قوله : « ولتبتغوا من فضله » أي و لتطلبوا بركوبه عطيشته تعالى و هو رزقه .

و قوله : « ولعلمكم تشكرون » أي رجاء أن تشكروه تعالى قبال هذه النعمة التي هي تسخير البحر .

قوله تعالى : « و سخّر لكم ما في السماوات و ما في الأرض جميعاً منه » إلخ هذا من الترقى بعطف العام على الخاص ، و الكلام في « لكم » كالكلام في مثله في الآية السابقة ، و قوله : « جميعاً » تأكيد لما في السماوات والأرض أحوال منه .

و قوله : « سخّر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً » معنى تسخيرها للإنسان أن أجزاء العالم المشهود تجري على نظام واحد يحكم فيها و يربط بعضها ببعض و يربط الجميع بالإنسان فينتفع في حياته من علويتها و سفليتها و لا يزال المجتمع البشري يتوسّع في الانتفاع بها والاستفادة من توسطها و التوسّل بشتاتها في الحصول على مزاي الحياة فالكل مسخّر له .

و قوله : « منه » من للابتداء ، والضمير لله تعالى و هو حال ممّا في السماوات والأرض ، والمعنى سخّر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً حال كونه مبتدئ منه

حاصلاً من عنده فذوات الأشياء تتبدىء منه بإيجاده لها من غير مثال سابق و كذلك خواصها وآثارها بخلقه و من خواصها وآثارها ارتباط بعضها ببعض و هو النظام الجارى فيها المرتبط بالإنسان قال تعالى : « الله يبدؤ الخلق ثم يعيده » الروم : ١١ وقال : « إنه هو يبدىء و يعيد » البروج : ١٣ .

و قد ذكروا لقوله : « منه » معاني أخر لا يخلو شيء منها عن التكلف تركنا التعرض لها .

و قوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وجه تعلقها بالتفكر ظاهر .





قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنَّبُوَّةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (١٦)
وَ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ
بَعِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩).

﴿بيانات﴾

لما ذكر آيات الوجدانية و أشار فيها بعض الإشارة إلى المعاد وكذا إلى النبوة
في ضمن ذكر تنزيل الكتاب و إبعاد المستكبرين المستهزئين به ذكر في هذه الآيات
تشريع الشريعة للنبي ﷺ ، و توسل إلى ذلك بمقدمتين تربطانه بما تقدم من
الكلام إحداها دعوة المؤمنين إلى أن يكفوا عن التعرض لحال الكفار الذين لا
يرجون أيام الله فإن الله مجازيهم لأن الأعمال مسؤل عنها صالحة أو طالحة ، وهذا
هو السبب لتشريع الشريعة ، والثانية أن إنزال الكتاب والحكم والنبوة ليس ببدع
فقد أتى الله بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة و آتاهم البيِّنات التي لا يبقى معها

في دين الله ريب لمرتاب إلا أن علماءهم اختلفوا فيه بغياً منهم وسيقضى الله بينهم .
ثم ذكر سبحانه تشريع الشريعة له وأمره باتباعها ونهاه عن اتباع أهواء
الجاهلين .

قوله تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » إلخ أمر
منه تعالى لنبيه ﷺ أن يأمر المؤمنين أن يغفروا للكفار فيصير تقدير الآية قل لهم:
اغفروا يغفروا فهي كقوله تعالى : « قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة »
إبراهيم : ٣١ .

والآية مكّية واقعة في سياق الآيات السابقة الواصفة لحال المستكبرين
المستهزئين بآيات الله المهتدة لهم بأشدّ العذاب وكان المؤمنين بالنبي ﷺ كانوا
إذا رأوا هؤلاء المستهزئين يبالغون في طعنهم وإهانتهم للنبي ﷺ واستهزائهم بآيات الله
لم يتمالكوا أنفسهم دون أن يدافعوا عن كتاب الله ومن أرسله به ويدعوهم إلى رفض
ما هم فيه والإيمان مع كونهم ممن حقت عليهم كلمة العذاب كما هو ظاهر الآيات
السابقة فأمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يأمرهم بالغفو والصفح عنهم وعدم التعرض
لحالهم فإن وبال أعمالهم سيلحق بهم وجزاء ما كسبوه سينالهم .

وعلى هذا فالمراد بالمغفرة في قوله : « قل للذين آمنوا يغفروا » الصفح والإعراض
عنهم بترك مخاصمتهم ومجادلتهم ، والمراد بالذين لا يرجون أيام الله هم الذين ذكروا
في الآيات السابقة فإنهم لا يتوقعون لله أيّاماً لا حكم فيها ولا ملك إلا له تعالى كيوم
الموت والبرزخ ويوم القيامة ويوم عذاب الاستئصال .

وقوله : « ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون » تعليل للأمر بالمغفرة أو للأمر
بالأمر بالمغفرة ومحصله ليصفحوا عنهم ولا يتعرضوا لهم ، فلا حاجة إلى ذلك لأن
الله سيجزيهم بما كانوا يكسبون فتكون الآية نظيرة قوله : « فذرني والمسكذبين أولى
النعمة ومهملهم قليلاً إن لدينا أنكلاً وجحيماً » المزمل : ١٣ ، وقوله : « ثم ذرهم
في خوضهم يلعبون » الأنعام : ٩١ ، وقوله : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا
يومهم الذي يوعدون » المعارج : ٤٢ ، وقوله : « فاصفح عنهم وقل سلام فسوف

يعلمون ، الزخرف : ١٩ .

و معنى الآية : مر الذين آمنوا أن يعفوا و يصفحوا عن أولئك المستكبرين المستهزئين بآيات الله الذين لا يتوقعون أيام الله ليجزئهم الله بما كانوا يكسبون ويوم الجزاء يوم من أيامه أي ليصفحوا عن هؤلاء المنكرين لآيام الله حتى يجزيهم بأعمالهم في يوم من أيامه .

وفي قوله : « ليجزي قوماً » وضع الظاهر موضع الضمير ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ليجزيهم ، والنكتة فيه مع كون « قوماً » نكرة غير موصوفة بتحقيق أمرهم و عدم العناية بشأنهم كأنهم قوم منكرون لا يعرف شخصهم ولا بيتهم بشيء من أمرهم . و بما تقدم من تقرير معنى الآية تتصل الآية و ما بعدها بما قبلها و تندفع الإشكالات التي أوردوها عليها و اهتموا بالجواب عنها ، و يظهر فساد المعاني المختلفة التي ذكروها لها و من أراد الاطلاع عليها فليراجع المطولات .

قوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون » في موضع التعليل لقوله : « ليجزي قوماً » إلخ و لذا لم يعطف و ليس من الاستئناف في شيء .

و محصل المعنى ليجزيهم الله بما كسبوا فإن الأعمال لا تذهب سدى و بلا أثر بل من عمل صالحاً انتفع به و من أساء العمل تضرّ به ثم إلى ربكم ترجعون فيجزئكم حسب أعمالكم إن خيراً فخيراً و إن شراً فشرّاً .

قوله تعالى : « و لقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » إلخ لما بين أن للأعمال آثاراً حسنة أو سيئة تلحق صاحبها أراد التنبيه على تشريع شريعة للنبي ﷺ إذ كان على الله سبحانه أن يهدي عباده إلى ما فيه خيرهم و سعادتهم كما قال تعالى : « و على الله قصد السبيل و منها جائر » النحل : ٩ .

فنبه على ذلك بقوله الآتي : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر » إلخ و قدم على ذلك الإشارة إلى ما آتى بني إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة و رزقهم من الطيبات و تفضيلهم وإيتائهم البيئات ليؤذن به أن الإفاضة الإلهية بالشريعة و النبوة

والكتاب ليست بيدع لم يسبق إليه بل لها نظير في بني إسرائيل وهم بمرآهم ومسمعهم. ف قوله : « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » المراد بالكتاب التوراة المشتملة على شريعة موسى ﷺ و أما الإنجيل فلا يتضمن الشريعة و شريعته شريعة التوراة ، و أما زبور داود فهي أدعية و أذكار ، و يمكن أن يراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراة والإنجيل والزبور كما قيل لكن يبعده أن الكتاب لم يطلق في القرآن إلا على ما يشتمل على الشريعة .

والمراد بالحكم بقرينة ذكره مع الكتاب ما يحكم ويقضي به الكتاب من وظائف الناس كما يذكره قوله تعالى : « و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » البقرة : ٢١٣ وقال في التوراة : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله » المائدة : ٤٤ فالحكم من لوازم الكتاب كما أن النبوة من لوازمه .

والمراد بالنبوة معلوم وقد بعث الله من بني إسرائيل جمعاً كثيراً من الأنبياء كما في الأخبار و قص في كتابه جماعة من رسلهم .

وقوله : « و رزقناهم من الطيبات » أي طيبات الرزق ومن ذلك المن والسلوى . و قوله : « و فضلناهم على العالمين » إن كان المراد جميع العالمين فقد فضلها من بعض الجهات ككثرة الأنبياء المبعوثين و المعجزات الكثيرة الظاهرة من أنبيائهم ، وإن كان المراد عالمي زمانهم فقد فضلوا من جميع الجهات .

قوله تعالى : « و آتيناهم بيّنات من الأمر » إلى آخر الآية المراد بالبيّنات الآيات البيّنات التي تزيل كل شك و ريب و تمحوه عن الحق و يشهد بذلك تفرّيع قوله : « فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم » .

والمراد بالأمر قيل : هو أمر الدين ، و من « بمعنى في والمعنى و أعطيناهم دلائل بيّنة في أمر الدين و يندرج فيه معجزات موسى ﷺ .

وقيل : المراد به أمر النبي ﷺ والمعنى آتيناهم آيات من أمر النبي و علامات بيّنة لصدقه كظهوره في مكة و مهاجرته منها إلى يثرب و نصرته أهله وغير ذلك

مما كان مذكوراً في كتبهم .

و قوله : « فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، يشير إلى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف في الدين و اختلاط الباطل بالحق لم يكن عن شبهة أو جهل وإنما أوجدها علماؤهم بغياً و كان البغي دائراً بينهم .

و قوله : « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » إشارة إلى أن اختلافهم الذي لا يخلو من اختلاط الباطل بالحق لا يذهب سدى و سيؤثر أثره و يقضى الله بينهم يوم القيامة فيجزون على حسب ما يستدعيه أعمالهم .

قوله تعالى : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » الخطاب للنبي ﷺ و يشاركه فيه أمته ، و الشريعة طريق ورود الماء والأمر أمر الدين ، والمعنى بعد ما آتينا بني إسرائيل ما آتينا جعلناك على طريقة خاصة من أمر الدين الإلهي وهي الشريعة الإسلامية التي خص الله بها النبي صلى الله عليه وآله و آله و أمته .

و قوله : « فاتبعها » إلخ أمر للنبي ﷺ باتتباع ما يوحى إليه من الدين و أن لا يتبع أهواء الجاهلين المخالفة للدين الإلهي .

و يظهر من الآية أو لا أن النبي ﷺ مكلف بالدين كسائر الأمة . و ثانياً أن كل حكم عملي لم يستند إلى الوحي الإلهي ولم ينته إليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب إلى العلم .

قوله تعالى : « إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً » إلخ ، تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون ، والإغناء من شيء رفع الحاجة إليه ، والمحصّل أن لك إلى الله سبحانه حوائج ضرورية لا يرفعها إلا هو والذريعة إلى ذلك اتباع دينه لا غير فلا يغني عنك هؤلاء الذين اتبعت أهواءهم شيئاً من الأشياء إليها الحاجة أو لا يغني شيئاً من الإغناء .

و قوله : « و إن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين » الذي يعطيه السياق أنه تعليل آخر للنهي عن اتباع أهواء الجاهلين ، وأن المراد بالظالمين المتبوعون

لأهوائهم المبتدعة و بالمتقين المتبعون لدين الله .
والمعنى أن الله وليّ الذين يتبعون دينه لأنهم متقون والله وليّهم ، والذين
يتبعون أهواء الجهلة ليس هو تعالى وليّاً لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون
والظالمون بعضهم أولياء بعض فاتبع دين الله يكن لك وليّاً ولا تتبع أهواءهم حتى
يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيئاً .
و تسمية المتبعين لغير دين الله بالظالمين هو الموافق لما استفاد من قوله : « أن
لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وبالآخرة هم كافرون »
الأعراف : ٤٥ .





هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ
حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَ
خَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ
بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ
وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ (٢٤) وَ إِذَا تَتَلَا عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا
أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ
ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ (٢٦) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يَوْمَئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَ تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ
إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ
عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠)
 وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ
 قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ
 فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَ الْأَظْنَاءِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَقِيمِينَ (٣٢)
 وَ بَدَأ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣)
 وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَ مَا وَكُمُ النَّارُ
 وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمُ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَ
 غَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ (٣٥)
 فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَ لَهُ
 الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) .

﴿ بيان ﴾

لمَّا أشار إلى جعل النبي ﷺ على شريعة من الأمر و هو تشريع الشريعة
 الاسلامية أشار في هذه الآيات إلى أنها بصائر للناس يبصرون بها ما يجب عليهم أن
 يسلكوه من سبيل الحياة الطيبة في الدنيا و تتلوها سعادة الحياة الآخرة ، و هدى ورحمة
 لقوم يوقنون بآيات الله .

وأشار إلى أن الذي يدعو مجترحي السيئات أن يستنكفوا عن التشريع بالشريعة
 إنكارهم المعاد فيحسبون أنهم و المقتشرون بالدين سواء في الحياة و الممات وأن لأثر

للتشريع بالشرعية فلا ثمرة للعمل الصالح الذي تهدي إليه الشرعية إلا إتعاب النفس بالتقيّد من غير موجب . فبرهن تعالى على بطلان حسابهم بإثبات المعاد ثم أردفه بوصف المعاد وما يثيب به الصالحين يومئذ وما يعاقب به الصالحين أهل الجحود والإجرام ، و عند ذلك تختتم السورة بالتحميد والتسبيح .

قوله تعالى : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » الإشارة بهذا إلى الأمر المذكور الذي هو الشرعية أو إلى القرآن بما يشتمل على الشرعية، والبصائر جمع بصيرة وهي الإدراك المصيب للواقع ، والمراد بها ما يبصر به ، وإنما كانت الشرعية بصائر لأنها تتضمن أحكاماً وقوانين كل منها يهدي إلى واجب العمل في سبيل السعادة .

والمعنى هذه الشرعية المشروعة أو القرآن المشتمل عليها وظائف عملية يتبصر بكل منها الناس ويهتدون إلى السبيل الحق وهو سبيل الله و سبيل السعادة فقوله بعد ذكر تشريع الشرعية « هذا بصائر للناس » كقوله بعد ذكر آيات الوجدانية في أول السورة : « هذا هدى والذين كفروا » إلخ .

وقوله : « وهدى ورحمة لقوم يوقنون » أي دلالة واضحة وإفاضة خير لهم ، والمراد بقوم يوقنون: الذين يوقنون بآيات الله الدالة على أصول المعارف فإن المعهود في القرآن تعلق الإيقان بالأصول الاعتقادية .

و تخصيص الهدى والرحمة بقوم يوقنون مع التصريح بكونه بصائر للناس لا يخلو من تأييد لكون المراد بالهدى الوصول إلى المطلوب دون مجرد التبصر ، وبالرحمة الرحمة الخاصة بمن اتقى و آمن برسوله بعد الإيمان بالله قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به و يغفر لكم » الحديد : ٢٨ ، و قال : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب - إلى أن قال - وبالآخرة هم يوقنون » البقرة : ٤ ، و للرحمة درجات كثيرة تختلف سعة وضيقاتها للرحمة الخاصة بأهل الإيمان أيضاً مراتب مختلفة باختلاف مراتب الإيمان فللكل مرتبة من مراتبه ما يناسبها منها .

وَأَمَّا الرَّحْمَةُ بِمَعْنَى مَطْلُوقِ الْخَيْرِ الْفَائِضِ مِنْهُ تَعَالَى فَانَّ الْقُرْآنَ بِمَا يَشْتَمَلُ عَلَى الشَّرِيعَةِ رَحْمَةً لِلنَّاسِ كَمَا أَنَّ الرَّسُولَ الْمُبْعُوثَ بِهِ رَحْمَةً لَهُمْ جَمِيعاً قَالَ تَعَالَى : « وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » الْأَنْبِيَاءُ : ١٠٧ وَ قَدْ أوردنا بعض الكلام في هذا المعنى في بعض المطابحات السابقة .

قوله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم » الخ قال في المجمع : الاجتراح الاكتساب يقال : جرح و اجترح وكسب و اكتسب و أصله من الجراح لأن ذلك تأثيراً كتأثير الجراح . قال : و السيئة الفعلة القبيحة التي يسوء صاحبها باستحقاق الذم عليها . انتهى .

و الجعل بمعنى التصيير ، و قوله : « كالذين آمنوا و عملوا الصالحات » في محل المفعول الثاني للجعل و التقدير كائنين كالذين آمنوا الخ . و جزم الزمخشري في الكشف على كون الكاف في « كالذين » اسماً بمعنى المثل هو مفعول ثان لقوله : « نجعلهم » و قوله : « سواء » بدلا منه .

و قوله : « سواء » بالنصب على القراءة الدائرة و هو مصدر بمعنى اسم الفاعل أي مستويا أو متساويا ، و قوله : « محياهم » مصدر ميمي و فاعل « سواء » و ضميره راجع إلى مجموع المجترحين و المؤمنين ، و « مماتهم » معطوف على « محياهم » و حاله كحاله .

و الآية مسوقة سوق الإنكار و « أم » منقطعة ، و المعنى بل أحسب و ظن الذين يكتسبون السيئات أن نصيرهم مثل الذين آمنوا و عملوا الصالحات مستويا محياهم و مماتهم أي تكون حياة هؤلاء كحياة أولئك و موتهم كموتهم فيكون الايمان و التشرع بالدين لغوا لا أثر له في حياة ولا موت و يستوي وجوده و عدمه .

و قوله : « ساء ما يحكمون » رد لحسبانهم المذكور و حكمهم بالمماثلة بين مجترحي السيئات و الذين آمنوا و عملوا الصالحات و مساءة الحكم كناية عن بطلانه . فالفرقان لا يتساويان في الحياة ولا في الممات :

أما أنهما لا يتساويان في الحياة فلا ن الذين آمنوا و عملوا الصالحات في سلوكهم مسلك الحياة على بصيرة من أمرهم وهدى ورحمة من ربهم كما ذكره سبحانه في الآية السابقة و المسمى صفر الكف من ذلك وقال تعالى في موضع آخر : « فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى و من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا » طه : ١٢٤ . وقال في موضع آخر : « أو من كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأ نعام : ١٢٢ .

و أما أنهما لا يتساويان في الممات فلا ن الموت كما ينطق به البراهين الساطعة ليس انعداماً للشئ و بطلاناً للنفس الانسانية كما يحسبه المبتطلون بل هو رجوع إلى الله سبحانه و انتقال من نشأة الدنيا إلى نشأة الآخرة التي هي دار البقاء و عالم الخلود يعيش فيها المؤمن الصالح في سعادة و نعمة و غيره في شقاء و عذاب .

وقد أشار سبحانه إليه فيما تقدم من كلامه بقوله : « كذلك يحيي الله الموتى » و قوله : « ثم إلى ربكم ترجعون » و غير ذلك ، و سيعرض له بقوله : « و خلق الله السماوات و الأرض بالحق » الخ .

والآية من حيث تركيب ألفاظها و المعنى المتحصّل منها معارك الآراء بين المفسّرين وقد ذكروا لها محامل كثيرة و الذي يعطيه السياق و يساعد عليه هو ما قدّمناه ، و لا كثير فائدة في التعرّض لوجوه أخر ذكروها فمن أراد الاطلاع عليها فليراجع المطوّلات .
قوله تعالى : « و خلق الله السماوات و الأرض بالحق » و لتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » الظاهر أن المراد بالسماوات و الأرض مجموع العالم المشهود و الباء في « بالحق » للملابسة فكون خلق العالم بالحق كونه حقاً لا باطلاً و لعلاً وهو أن يكون لهذا العالم الكائن الفاسد غاية ثابتة باقية وراءه .

وقوله : « و لتجزى » الخ عطف على « بالحق » و الباء في قوله : « بما كسبت » للتعديّة أو للمقابلة أي لتجزى مقابل ما كسبت إن كان طاعة فالثواب و إن كان معصية فالعقاب ، و قوله : « وهم لا يظلمون » حال من كل نفس أي و لتجزى كل نفس بما كسبت بالعدل .

فيؤل معنى الآية إلى مثل قولنا وخلق الله السماوات والأرض بالحق وبالعدل فكون الخلق بالحق يقتضى أن يكون وراء هذا العالم عالم آخر يخلد فيه الموجودات وكون الخلق بالعدل يقتضى أن تجزى كل نفس ما تستحقه بكسبها فالمحسن يجزى جزاء حسناً والمسيء يجزى جزاء سيئاً وإذ ليس ذلك في هذه النشأة ففي نشأة أخرى .

و بهذا البيان إن الآية تتضمن حجبتين على المعاد إحداهما ما أُشير إليه بقوله : « وخلق الله السماوات والأرض بالحق » ويسلك من طريق الحق ، والثانية ما أُشير إليه بقوله : « و لتجزى » الخ ويسلك من طريق العدل .

فتؤل الحجبتان إلى ما يشتمل عليه قوله : «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ .

والآية بما فيها من الحجّة تبطل حسابهم أن المسيء كالمحسن في الملمات فإن حديث المجازاة بالثواب والعقاب على الطاعة والمعصية يوم القيامة ينفي تساوي المطيع والعاصي في الملمات ، ولأزم ذلك إبطال حسابهم أن المسيء كالمحسن في الحياة فإن ثبوت المجازاة يومئذ يقتضى وجوب الطاعة في الدنيا والمحسن على بصيرة من الأمر في حياته يأتي بواجب العمل و يتزود من يومه لغده بخلاف المسيء العائش في عمى وضلال فليسا بمتساوين .

قوله تعالى : « أفرايت من اتخذ إليه هواه وأضله الله على علم » إلى آخر الآية ظاهر السياق أن قوله : « أفرايت » مسوق للتعجب أي ألا تعجب ممن حاله هذا الحال ؟

والمراد بقوله : « اتخذ إليه هواه » حيث قدّم « إليه » على « هواه » أنه يعلم أن له إليها يجب أن يعبده - وهو الله سبحانه - لكنّه يبدّله من هواه و يجعل هواه مكانه فيعبده فهو كافر بالله سبحانه على علم منه ، ولذلك عقبه بقوله : « وأضله الله على علم » أي إنّه ضالّ عن السبيل وهو يعلم .

ومعنى اتخذ الإله العبادة والمراد بها الإطاعة فإنّ الله سبحانه عدّ الطاعة

عبادة كما في قوله : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين و أن اعبدوني » يس : ٦٠ و قوله : « اتخذوا أحيارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله » التوبة : ٣١ ، و قوله : « ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » آل عمران : ٦٤ . و الاعتبار يوافقه إن ليست العبادة إلا إظهار الخضوع و تمثيل أن العابد عبد لا يريد و لا يفعل إلا ما أراه و رضيه معبوده فمن أطاع شيئاً فقد اتخذه إلهاً و عبده فمن أطاع هواه فقد اتخذه إلهه هواه و لا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته .

فقوله : « أفرأيت من اتخذه إلهه هواه » أي ألا تعجب ممن يعبد هواه باطاعته و اتباعه و هو يعلم أن له إلهاً غيره يجب أن يعبده و يطيعه لكنّه يجعل معبوده ومطاعه هو هواه .

و قوله : « و أضله الله على علم » أي هو ضالّ باضلال منه تعالى يضله به مجازاة لاتباعه الهوى حالكون إضلاله مستقراً على علم هذا الضالّ ، و لاضرير في اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل و معرفته كما في قوله تعالى : « و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ ، و ذلك أن العلم لا يلازم الهدى و لا الضلال يلازم الجهل بل الذي يلازم الهدى هو العلم مع التزام العالم بمقتضى علمه فيتعقبه الاهتداء و أمّا إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لاتباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال وإن كان معه علم .

و أمّا قول بعضهم : إن المراد بالعلم هو علمه تعالى و المعنى و أضله الله على علم منه تعالى بحاله فبعيد عن السياق .

و قوله : « و ختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوة » كالعطف التفسيري لقوله : « و أضله الله على علم » و الختم على السمع و القلب هو أن لا يسمع الحقّ و لا يعقله ، و جعل الغشاوة على البصر هو أن لا يبصر الحقّ من آيات الله و محصل الجميع أن لا يرتب على السمع و القلب و البصر أثرها وهو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحقّ إذا أدركه لاستكبار من نفسه و إتباع للهوى ، و قد عرفت أن الضلال عن السبيل لا يتنافى العلم به إذا لم يكن هناك التزام بمقتضاه .

وقوله : « فمن يهديه من بعد الله » الضمير لمن اتخذ إليه هواه و التفرغ على ما تحصل من حاله أي إذا كان حاله هذا الحال وقد أضله الله على علم إلخ فمن يهديه من بعد الله سبحانه فلا هادي دونه قال تعالى : « قل إن هدى الله هو الهدى » البقرة : ١٢٠ و قال : « و من يضل الله فما له من هاد » المؤمن : ٣٣ .

وقوله : « أفلا تدكرون » أي أفلا تتفكرون في حاله فتدكروا أن هؤلاء لاسبيل لهم إلى الهدى مع اتباع الهوى فتتعظوا .

قوله تعالى : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » إلى آخر الآية قال الراغب: الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدء وجوده إلى انقضائه و على ذلك قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة ، و هو خلاف الزمان فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة . انتهى

والآية على ما يعطيه السياق - سياق الاحتجاج على الوثنيين المشبتهين للصانع المنكرين للمعاد - حكاية قول المشركين في إنكار المعاد لا كلام الدهريين الناسين للحوادث وجوداً و عدماً إلى الدهر المنكرين للمبدء والمعاد جميعاً إذا لم يسبق لهم ذكر في الآيات السابقة .

فقولهم : « ما هي إلا حياتنا الدنيا » الضمير للحياة أي لآية لنا إلا حياتنا الدنيا لا حياة وراءها فلا وجود لما يدعيه الدين الإلهي من البعث والحياة الآخرة ، و هذا هو القرينة المؤيدة لأن يكون المراد بقوله : « نموت ونحيا » يموت بعضنا و يحيا بعضنا الآخر فيستمر بذلك بقاء النسل الإنساني بموت الأسلاف و حياة الأُخلاف و يؤيد ذلك بعض التأييد قوله بعده : « و ما يهلكنا إلا الدهر » المشعر بالاستمرار .

فالمنعنى و قال المشركون : ليست حياتنا إلا حياتنا الدنيا التي نعيش بها في الدنيا فلا يزال يموت بعضنا و هم الأسلاف و يحيى آخرون و هم الأُخلاف و ما يهلكنا إلا الزمان - الذي يمروره يبلى كل جديد و يفسد كل كائن و يميت كل حي - فليس الموت انتقالاً من دار إلى دار منتهيماً إلى البعث والرجوع إلى الله .

و لعلّ هذا كلام بعض الجبهة من وثنية العرب وإلا فالعقيدة الدائرة بين الوثنية هي التناسخ وهو أن نفوس غير أهل الكمال إذا فارقت الأبدان تعلقت بأبدان أخرى جديدة فإن كانت النفس المفارقة اكتسبت السعادة في بدنها السابق تعلقت ببدن جديد تنعم فيه و تسعد ، وإن كانت اكتسبت الشقاء في البدن السابق تعلقت ببدن لاحق تشقى فيه و تعذب جزاء لعملها السيئ وهكذا ، وهؤلاء لا ينكرون استناد أمر الموت كالحياة إلى وساطة الملائكة .

و لهذا أعني كون القول بالتناسخ دائراً بين الوثنية ذكر بعض المفسرين أن المراد بالآية قولهم بالتناسخ والمعنى «إن هي إلا حياتنا الدنيا» فلسنا نخرج من الدنيا أبداً «نموت» عن حياة دنيا «و نحيا» بعد الموت بالتعلق ببدن جديد وهكذا «و ما يهلكنا إلا الدهر» .

و هذا لا يخلو من وجه لكن لا يلائمه قولهم المنقول ذبلاً : «و ما يهلكنا إلا الدهر» إلا أن يوجه بأن مرادهم من نسبة الإهلاك إلى الدهر كون الدهر وسيلة يتوسل بها الملك الموكل على الموت إلى الأئمة ، و كذا لا تلائمهم المنقولة ذبلاً : «اتموا بأبائنا إن كنتم صادقين» الظاهرة في أنهم يرون آباءهم معدومين باطلا الذوات .

و ذكر في معنى الآية وجود آخر لا يعبا بها كقول بعضهم : المعنى نكون أمواتاً لا حياة فيها وهو قبل ولوج الروح ثم نحى بولوجها على حد قوله تعالى : «وكنتم أمواتاً فأحياكم» البقرة : ٢٨ .

و قول بعضهم : المراد بالحياة بقاء النسل مجازاً والمعنى نموت نحن و نحيا ببقاء نسلنا . إلى غير ذلك مما قيل .

و قوله : «و ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون» أي إن قولهم ذلك المشعر با نكار المعاد قول بغير علم و إنما هو ظن يظنونونه و ذلك أنهم لا دليل لهم يدل على نفي المعاد مع ما هناك من الأدلة على ثبوته .

قوله تعالى : «و إذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجّتهم إلا أن قالوا اتوا

بآبائنا إن كنتم صادقين» تأكيد لكون قولهم بنفي المعاد وحصر الحياة في الحياة الدنيا قولاً بغير علم .

والمراد بالآيات البيّنات الآيات المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد وكونها بيّنات وضوح دلالتها على ثبوته بلاشك و تسمية قولهم : « ائثوا بآبائنا إن كنتم صادقين» مع كونه اقتراحاً جزافياً بعد قيام الحجّة إنّما هو من باب التهكم فإنّه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنّه قيل : ما كانت حجّتهم إلاّ الحجّة .
والمعنى وإذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد والحال أنّها واضحات الدلالة على ثبوته ما قابلوها إلاّ بجزاف من القول وهو طلب الدليل على إمكانه باحياء آبائهم الماضين .

قوله تعالى : « قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه و لكن أكثر الناس لا يعلمون - إلى قوله - والأرض ما ذكر من اقتراحهم الحجّة على المطلوب قامت عليه الحجّة وإن كان اقتراحاً جزافياً لا يستدعي شيئاً من الجواب لكنّه سبحانه أمر نبيّه ﷺ أن يحييهم بإثبات إمكانه الذي كانوا يستبعدونه .
ومحصّله أن الذي يحييكم لأول مرة ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة الذي لا ريب فيه هو الله سبحانه والله ملك السماوات والأرض يحكم فيها ما يشاء ويتصرّف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس إليه ويتصرّف فيكم بجمعكم إلى يوم القيامة والقضاء بينكم ثم الجزاء ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون » قال الراغب : الخسر والخسران انتقاص رأس المال وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال : خسرفلان ، وإلى الفعل فيقال : خسرت تجارتك قال تعالى : « تلك إذا كره خاسرة » ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجية كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر ، وفي المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين .

قال : وكلّ خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخيردون الخسران المتعلق بالمقتنيات المادية والتجارات البشرية .

و قال : والإبطال يقال في إفساد الشيء وإزالته سواء كان ذلك الشيء حقاً أو باطلاً قال تعالى : « ليحق الحق ويبطل الباطل » و قد يقال فيمن يقول شيئاً لا حقيقة له نحو « و لئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون » ، و قوله تعالى : « خسر هنالك المبطلون » أي الذين يبطلون الحق . انتهى

والأشبه أن يكون المراد بقيام الساعة فعلية ما يقع فيها من البعث والجمع والحساب والجزاء وظهوره ، و بذلك صح جعل الساعة مظهراً لليوم و هما واحد ، والأشبه أن يكون قوله : « يومئذ » تأكيداً لقوله : « يوم تقوم الساعة » .

والمعنى و يوم تقوم الساعة و هي يوم الرجوع إلى الله يومئذ يخسر المبطلون الذين أبطلوا الحق و عدلوا عنه .

قوله تعالى : « وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها » إلخ الجنو البروك على الركبتين كما أن الجنو البروك على أطراف الأصابع .

والخطاب عام لكل من يصح منه الرؤية و إن كان متوجهاً إلى النبي ﷺ والمراد بالدعوة إلى الكتاب الدعوة إلى الحساب على ما ينطق به الكتاب بإحصائه الأعمال بشهادة قوله بعده : « اليوم تجزون ما كنتم تعملون » .

والمعنى وترى أنت وغيرك من الرائيين كل أمة من الأمم جالسة على الجنو جلسة الخاضع الخائف كل أمة منهم تدعى إلى كتابها الخاص بها و هي صحيفة الأعمال و قيل لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون .

و استفاد من ظاهر الآية أن لكل أمة كتاباً خاصاً بهم كما أن لكل إنسان كتاباً خاصاً به قال تعالى : « و كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه و نخرج له القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » أسرى : ١٣ .

قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » قال في الصحاح : و نسخت الكتاب و انتسخته و استنسخته كله بمعنى ، و النسخة اسم المنتسخ منه . انتهى و قال الراغب : النسخ إزالة الشيء بشيء يتعقبه كنسخ الشمس الظل و نسخ الظل الشمس والشيب الشباب - إلى أن قال - و نسخ الكتاب نقل صورته

المجردة إلى كتاب آخر وذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى بل يقتضي إثبات مثلها في مادة أخرى كاتخاذ نقش الخاتم في شموع كثيرة ، والاستنساخ التقدّم بنسخ الشيء والترشح للنسخ . انتهى

ومقتضى ما نقل أن المفعول الذي يتعدى إليه الفعل في قولنا : استنسخت الكتاب هو الأصل المنقول منه ، ولازم ذلك أن تكون الأعمال في قوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » كتاباً وأصلاً وإن شئت فقل : في أصل وكتاب يستنسخ وينقل منه ولو أريد به ضبط الأعمال الخارجية القائمة بالإنسان بالكتابة لقليل : إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون إن لا نكتة تستدعي فرض هذه الأعمال كتاباً وأصلاً يستنسخ ، ولادليل على كون « يستنسخ » بمعنى يستكتب كما ذكره بعضهم .

ولاظم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجية بما أنه في اللوح المحفوظ فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ وتكون صحيفة الأعمال صحيفة الأعمال وجزء من اللوح المحفوظ ، ويكون معنى كتابة الملائكة للأعمال تطبيقهم ما عندهم من نسخة اللوح على الأعمال .

وهذا هو المعنى الذي وردت به الرواية من طرق الشيعة عن الصادق عليه السلام ومن طرق أهل السنة عن ابن عباس ، و سيوافيك في البحث الروائي التالي .

وعلى هذا فقوله : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » من كلامه تعالى لا من كلام الملائكة ، وهو من خطابه تعالى لأهل الجمع يوم القيامة بحكيه لنا فيكون في معنى « ويقال لهم هذا كتابنا » إلخ .

والإشارة بهذا - على ما يعطيه السياق - إلى صحيفة الأعمال وهي بعينها إشارة إلى اللوح المحفوظ على ما تقدم وإضافة الكتاب إليه تعالى نظراً إلى أنه صحيفة الأعمال من جهة أنه مكتوب بأمره تعالى ونظراً إلى أنه اللوح المحفوظ من جهة التشريف وقوله : « ينطق عليكم بالحق » أي يشهد على ما عملتم ويدل عليه دلالة واضحة ملاسماً للحق .

وقوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » لتعليل لكون الكتاب ينطق عليهم

بالحق أي إن كتابنا هذا دال على عملكم بالحق من غير أن يتكلف عنه لأنه اللوح المحفوظ المحيط بأعمالكم بجميع جهاتها الواقعية .

ولولا أن الكتاب يريهم أعمالهم بنحو لا يداخله شك ولا يحتمل منهم التكذيب لكدّ بوه قال تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » آل عمران : ٣٠ .

و للقوم في الآية أقوال أخر :

منها ما قيل : إن الآية من كلام الملائكة لامن كلام الله ومعنى الاستنساخ الكتابة والمعنى هذا أي صحيفة الأعمال كتابنا معشر الملائكة الكاتبين للأعمال يشهد عليكم بالحق إننا كنا نكتب ما كنتم تعملون .

وفيه أن كونه من كلام الملائكة بعيد من السياق على أن كون الاستنساخ بمعنى مطلق الكتابة لم يثبت لغة .

ومنها أن الآية من كلام الله ، والإشارة بهذا إلى صحيفة الأعمال ، وقيل : إلى اللوح المحفوظ ، والاستنساخ بمعنى اللاستكتاب مطلقاً .

قوله تعالى : « أما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين » تفصيل حال الناس يومئذ بحسب اختلافهم بالسعادة والشقاء والثواب والعقاب ، والسعداء المثنون هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات والأشقياء المعاقبون هم الذين كفروا من المستكبرين المجرمين .

والمراد بالرحمة الإفاضة الإلهية تسعد من استقر فيها ومنها الجنة ، والفوز المبين الفلاح الظاهر ، والباقي واضح .

قوله تعالى : « و أما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم و كنتم قوماً مجرمين » المراد بالذين كفروا المتلبسون بالكفر عن تكذيب و جحود بشهادة قوله : « أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم » إلخ .

والفاء في « أفلم تكن » للتفريع فتدل على مقدر متفرع عليه هو جواب لما والتقدير فيقال لهم ألم تكن آياتي تتلى عليكم ، والمراد بالآيات الحجج الإلهية الملقاة

إليهم عن وحي و دعوة ، والمجرم هو المتلبس بالإجرام و هو الذنب .
 والمعنى وأما الذين كفروا جاحدين للحق مع ظهوره فيقال لهم تويخاً وتقريراً :
 ألم تكن حججتي تقرأ و تبين لكم في الدنيا فاستكبرتم عن قبولها و كنتم قوماً مذنبين .
قوله تعالى : « و إذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري
 ما الساعة » إلخ المراد بالوعد الموعود و هو ما وعده الله بلسان رسله من البعث والجزاء
 فيكون قوله : « والساعة لا ريب فيها » من عطف التفسير ، و يمكن أن يراد بالوعد
 المعنى المصدرى .

و قولهم : « ما ندري ما الساعة » معناه أنه غير مفهوم لهم والحال أنهم أهل فهم
 و ذياية فهو كناية عن كونه أمراً غير معقول و لو كان معقولاً لدروه .
 و قوله : « إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين » أي ليست مما نقطع به ونجزم
 بل نظن ظناً لا يسعنا أن نعتمد عليه ففي قولهم : ما ندري ما الساعة إلخ غب ما تليت
 عليهم من الآيات البيّنة أفحش المكابرة مع الحق .

قوله تعالى : « و بدا لهم سيئات ما عملوا و حاق بهم ما كانوا به يستهزئون »
 إضافة السيئات إلى ما عملوا بياناً أو بمعنى من ، والمراد بما عملوا جنس ما عملوا أي
 ظهر لهم أعمالهم السيئة أو السيئات من أعمالهم فالآية في معنى قوله : « يوم تجد كل
 نفس ما عملت من خير محضراً و ما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .
 فالآية من الآيات الدالة على تمثيل الأعمال ، و قيل : إن في الكلام حذفاً و
 التقدير و بدالهم جزاء سيئات ما عملوا .

و قوله : « و حاق بهم ما كانوا به يستهزئون » أي و حل بهم العذاب الذي كانوا
 يسخرون منه في الدنيا إذا أذروا به بلسان الأنبياء و الرسل .

قوله تعالى : « و قيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا و ما واكم النار
 و مالكم من ناصرين » النسيان كناية عن الإعراض و الترك فنسيانه تعالى لهم يوم
 القيامة إعراضه عنهم و تركه لهم في شدائده وأهواله ، ونسيانهم لقاء يومهم ذاك في الدنيا
 إعراضهم عن تذكره و تركهم التأهب للقائه ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً و غرتكم الحياة الدنيا ، الخ الإشارة بقوله : « ذلكم » إلى ما ذكر من عقابهم من ظهور السيئات و حلول العذاب و الهزء السخرية التي يستهزء بها و الباء للسببية .

والمعنى ذلكم العذاب الذي يحل بكم بسبب أنكم اتخذتم آيات الله سخرية تستهزؤون بها و بسبب أنكم غرتكم الحياة الدنيا فأخذتم إليها و تعلقتم بها .

و قوله : « فالיום لا يخرجون منها و لاهم يستعجبون » صرف الخطاب عنهم إلى النبي ﷺ ، و يتضمن الكلام خلاصة القول فيما يصيبهم من العذاب يومئذ و هو الخلود في النار و عدم قبول العذر منهم .

و الاستعجاب طلب العتبي و الاعتذار ، و نفي الاستعجاب كناية عن عدم قبول العذر .

قوله تعالى : « فلكم الحمد رب السماوات و رب الأرض رب العالمين » تحميد له تعالى بالتفريع على ما تقدم في السورة من كونه خالق السماوات و الأرض و ما بينهما و المدبر لأمر الجميع و من بديع تديره خلق الجميع بالحق المستتب ليوم الرجوع إليه و الجزاء بالأعمال و هو المستدعي لجعل الشرائع التي تسوق إلى السعادة و الثواب و يتعقبه الجمع ليوم الجمع ثم الجزاء و استقرار الجميع على الرحمة و العدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه فلم يدبر إلا تديراً جميلاً و لم يفعل إلا فعلاً محموداً فله الحمد كله .

و قد كرر « الرب » فقال : رب السماوات و رب الأرض ثم أبدل منهما قوله : « رب العالمين » ليأتي بالتصريح بشمول الربوبية للجميع فلوجيء رب العالمين و اكتفي به أمكن أن يتوهم أنه رب المجموع لكن للسماوات خاصة رب آخر و للأرض وحدها رب آخر كما ربما قال بمثله الوثنية ، و كذا لو اكتفي بالسماوات و الأرض لم يكن صريحاً في ربوبيته لغيرهما ، و كذا لو اكتفي بإحدهما .

قوله تعالى : « و له الكبرياء في السماوات و الأرض و هو العزيز الحكيم » الكبرياء على ما عن الراغب : الترفع عن الانقياد ، و عن ابن الأثير : العظمة و الملك و في المجمع السلطان القاهر و العظمة القاهرة و العظمة والرفعة .

وهي على أي حال أبلغ معنى من الكبر وتستعمل في العظمة غير الحسية و مرجعه إلى كمال وجوده ولاتناهي كماله .

وقوله : « و له الكبرياء في السماوات و الأرض » أي له الكبرياء في كل مكان فلا يتعالى عليه شيء فيهما و لا يستغره شيء و تقديم الخبر في « له الكبرياء » يفيد الحصر كما في قوله : « فله الحمد » .

وقوله : « و هو العزيز الحكيم » أي الغالب غير المغلوب فيما يريد من خلق و تدبير في الدنيا و الآخرة و الباني خلقه و تديره على الحكمة و الإيقان .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي^١ في قوله تعالى : « أفرايت من اتخذ إلهه هواه » قال : نزلت في قريش كلما هووا شيئا عبده .

و في الدر المنثور^٢ أخرج النسائي^٣ و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان الرجل من العرب يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه أخذه و ألقى الآخر فأنزل الله « أفرايت من اتخذ إلهه هواه » .

و في المجمع في قوله تعالى : « و ما يهلكنا إلا الدهر » و قد روي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر .

أقول : قال الطبرسي^٤ بعد إيراد الحديث : و تأويله أن أهل الجاهلية كانوا ينسبون الحوادث المحزنة و البلاء النازلة إلى الدهر فيقولون : فعل الدهر كذا ، و كانوا يسبون الدهر فقال ﷺ : إن فاعل هذه الأمور هو الله فلا تسبوا فاعلها انتهى و يؤيد هذا الوجه الرواية التالية .

و في الدر المنثور^٥ أخرج ابن جرير و البيهقي^٦ في الأسماء و الصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تبارك و تعالى : لا يقل ابن آدم يسب الدهر يا خيبة الدهر فإنتي أنا الدهر أرسل الليل والنهار فإذا شئت قبضتهما .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » الآية حدثنى أبي عن ابن أبي عمير عن عبدالرحيم القصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن « ن والقلم » قال : إن الله خلق القلم من شجرة في الجنة يقال لها الخلد ثم قال لنهر في الجنة : كن مداداً فجمد النهر و كان أشد ، بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد . ثم قال للقلم : اكتب . قال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب القلم في رق أشد بياضاً من الفضة وأصفى من الياقوت . ثم طواه فجعله في ركن العرش ثم ختم على فم القلم فان ينطق أبداً .

فهو الكتاب الممكنون الذي منه النسخ كلها أولستم عرباً ؟ فكيف لا تعرفون معنى الكلام ؟ وأحدكم يقول لصاحبه : انسخ ذلك الكتاب أو ليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل ؟ وهو قوله : « إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

أقول : قوله عليه السلام : فكتب القلم في رق إلخ تمثيل للوح المكتوب فيه الحوادث بالرق والرق ما يكتب فيه شبه الكاغد - على ما ذكره الراغب - وقد تقدم الحديث عنه عليه السلام أن القلم ملك واللوح ملك ، وقوله : فجعله في ركن العرش تمثيل للعرش بعرش الملك ذي الأركان والقوائم ، وقوله : ثم ختم على فم القلم إلخ كناية عن كون ما كتب في الرق قضاء محتوماً لا يتغير ولا يتبدل ، وقوله : أولستم عرباً إلخ إشارة إلى ما تقدم توضيحه في تفسير الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون وهو الدواة و خلق القلم فقال : اكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول بر أو فاجر أورزق مرزوق حلال أو حرام ثم ألزم كل شيء من ذلك شأنه : دخوله في الدنيا ومقامه فيهاكم ، وخروجه منها كيف ؟

ثم جعل على العباد حفظة وعلى الكتاب خزناً تحفظه ينسخون كل يوم من الخزن أن عمل ذلك اليوم فإذنى ذلك الرزق انقطع الأمر وانقضى الأجل أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم فيقول لهم الخزنة : ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً فيرجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا .

قال ابن عباس : أستم قوماً عرباً ؟ تسمعون الحفظة يقولون : إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ، و هل يكون الاستنساخ إلا من أصل ؟

أقول : والخبر كما ترى يجعل الآية من كلام الملائكة الحفظة .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : يستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم فإتما يعمل الإنسان على ما استنسخ الملك من أم الكتاب .
وعن كتاب سعد السعود لابن طاوس قال بعد ذكر الملكين الموكّنين بالعبد : وفي رواية أنهما إذا أرادا النزول صباحاً ومساءً ينسخ لهما إسرائيل عمل العبد من اللوح المحفوظ فيعطيهما ذلك فإذا صعدا صباحاً ومساءً بديوان العبد قابله إسرائيل بالنسخ التي انتسخ لهما حتى يظهر أنه كان كما نسخ منه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وله الكبرياء في السماوات والأرض » وفي الحديث يقول الله : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في نار جهنم .

أقول : و رواه في الدر المنثور عن مسلم وأبي داود وابن ماجه وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .



﴿سورة الأحقاف مكية وهي خمس و ثلاثون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمَّ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
 الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اتُّتُونِي
 بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ
 مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ
 دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ
 كَافِرِينَ (٦) وَ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ
 لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا
 تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي
 وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ
 وَ مَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَ لَابِكُمْ إِنْ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَ مَا أَنَا
 إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ
 شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّا وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا

مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكَ قَدِيمٍ (١١)
 وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا
 عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا
 رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤).

﴿ بيان ﴾

غرض السورة إنذار المشركين الراديين للدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله بالمعاد بما فيه من أليم العذاب لمنكريه المعرضين عنه ، ولذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق » ثم يعود إليه عودة بعد عودة كقوله : « وإذا حشر الناس » وقوله : « والذي قال لوالديه أف لكما أتعذاني أن أخرج » وقوله : « و يوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم » وقوله : « و يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » وقوله في مختتم السورة : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ » الآية .

و فيها احتجاج على الوحدانية والنبوة ، وإشارة إلى هلاك قوم هود و هلاك القرى التي حول مكة و إنذارهم بذلك ، و إنباء عن حضور نفر من الجن عند النبي صلى الله عليه وآله و استماعهم القرآن و إيمانهم به و رجوعهم إلى قومهم منذرين لهم و السورة مكيّة كلها إلا آيتين اختلف فيهما سنشير إليهما في البحث الروائي الآتي إن شاء الله : قوله تعالى : « أم يقولون افتراء » إلخ و قوله : « قل أرأيتم إن كان من عند الله الآية .

قوله تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » تقدم تفسيره .

قوله تعالى : « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى »
 إلخ المراد بالسماوات والأرض وما بينهما مجموع العالم المشهود علويته وسفليته ، والباء
 في « بالحق » للملابسة ، والمراد بالأجل المسمى ما ينتهي إليه أمد وجود الشيء ، والمراد
 به في الآية الأجل المسمى لوجود مجموع العالم وهو يوم القيامة الذي تطوى ^(١) فيه
 السماء كطي السجل للكتب وتبدل الأرض ^(٢) غير الأرض و السماوات و برزوا لله
 الواحد القهار .

والمعنى ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلوية والسفلية إلا ملابساً
 للحق له غاية ثابتة و ملابساً لأجل معين لا يتعداه وجوده وإذا كان له أجل معين
 يفنى عند حلوله وكانت مع ذلك له غاية ثابتة فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء
 و هو المعاد الموعود ، و قد تكرر الكلام فيما تقدم في معنى كون الخلق بالحق .

وقوله : « والذين كفروا عما أُنذروا معرضون » المراد بالذين كفروا هم المشركون
 بدليل الآية التالية لكن ظاهر السياق أن المراد بكفرهم كفرهم بالمعاد ، و « ما » في « عما »
 مصدرية أو موصولة والثاني هو الأوفق للسياق والمعنى والمشركون الذين كفروا بالمعاد
 عما أُنذروا به - و هو يوم القيامة بما فيه من أليم العذاب لمن أشرك بالله - معرضون
 منصرفون .

قوله تعالى : « قل أرايتم ما تدعون من دون الله » إلى آخر الآية « أرايتم »
 بمعنى أخبروني والمراد بما تدعون من دون الله الأصنام التي كانوا يدعونها و يعبدونها
 و إرجاع ضمائر أُولي العقل إليها بعد لكونهم ينسبون إليه أفعال أُولي العقل و حجة
 الآية و ما بعدها مع ذلك تجري في كل إله معبود من دون الله .

وقوله : « أروني ماذا خلقوا من الأرض » أروني بمعنى أخبروني و « ما » اسم
 اسم استفهام و « ذا » بعده زائدة والمجموع مفعول « خلقوا » و من الأرض متعلق به .

(١) إشارة الى الآية ١٠٤ من سورة الانبياء .

(٢) إشارة الى الآية ٤٨ من سورة ابراهيم .

وقوله : « أم لهم شرك في السماوات » أي شركة في خلق السماوات فإن خلق شيء من السماوات والأرض هو المسؤول عنه .

توضيح ذلك أنهم وإن لم ينسبوا إليها إلا تدير الكون وخصوا الخلق به سبحانه كما قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنَّ الله » الزمر : ٣٨ وقال : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله » الزخرف : ٨٧ لكن لما كان الخلق لا ينفك عن التدبير أوجب ذلك أن يكون لمن له سهم من التدبير سهم في الخلق ولذلك أمر تعالى نبيه ﷺ أن يسألهم عما لأربابهم الذين يدعون من دون الله من النصيب في خلق الأرض أو في خلق السماوات فلا معنى للتدبير في الكون من غير خلق .

وقوله : « ائتوني بكتاب من قبل هذا أو آثارة من علم إن كنتم صادقين » الإشارة بهذا إلى القرآن ، والمراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماوي كالتوراة نازل من عند الله يذكر شركة آلهتهم في خلق السماوات أو الأرض .

والآثارة على ما ذكره الراغب مصدر بمعنى النقل والرواية قال : و أثرت العلم رويته أثره أثراً و آثارة و آثرة وأصله تبتعت أثره انتهى . وعليه فالآثارة في الآية مصدر بمعنى المفعول أي شيء منقول من علم يثبت أن آلهتهم شركة في شيء من السماوات والأرض ، و فسره غالب المفسرين بمعنى البقية وهو قريب مما تقدم .

والمعنى ائتوني للدلالة على شركهم لله في خلق شيء من الأرض أو في خلق السماوات بكتاب سماوي من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشيء منقول من علم أو بقية من علم أو رثمتوها يثبت ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم أنهم شركاء لله سبحانه .

قوله تعالى : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » إلخ الاستفهام إنكاري ، و تحديد عدم استجابتهم الدعوة بيوم القيامة لما أن يوم القيامة أجل مسمى للدنيا والدعوة مقصورة في الدنيا ولا دنيا بعد قيام الساعة .

وقوله : « وهم عن دعائهم غافلون » صفة أخرى من صفات آلهتهم مضافة إلى صفة عدم استجابتهم وليس تعليلاً لعدم الاستجابة فإن عدم استجابتهم معلول كونهم لا يملكون لعبادهم شيئاً قال تعالى : « قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا

نفعاً « المائدة : ٧٦ .

بل هي صفة مضافة إلى صفة مذكورة لتكون توطئة و تمهيداً لما سيذكره في الآية التالية من عداوتهم لهم وكفرهم بعبادتهم يوم القيامة فهم في الدنيا غافلون عن دعائهم و سيطلبون عليه يوم القيامة فيعادونهم ويكفرون بعبادتهم .

و في الآية دلالة على سراية الحياة والشعور في الأشياء حتى الجمادات فإن الأصنام من الجماد وقد نسب إليها الغفلة والغفلة من شؤون ذوي الشعور لا تطلق إلا على ما من شأن موصوفه أن يشعر .

قوله تعالى: « حتى إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » الحشر إخراج الشيء عن مقره بازعاج ، والمراد بعث الناس عن قبورهم و سوقهم إلى المحشر يوم القيامة فيومئذ يعادبونهم آلهتهم و يكفرون بشرك عبادهم بالتبري منهم كما قال تعالى : « و يوم القيامة يكفرون بشرككم » فاطر : ١٤ وقال حكاية عنهم : « تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون » القصص : ٦٣ ، و قال : فكفى بالله شهيداً بيننا و بينكم أن كنا عن عبادتكم لغافلين « يونس : ٢٩ .

و في سياق الآيتين تلويح إلى أن هذه الجمادات التي لا تظهر لنا في هذه النشأة أن لها حياة لعدم ظهور آثارها سيظهر في النشأة الآخرة أن لها حياة و تظهر آثارها و قد تقدم بعض الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » الم السجدة : ٢١ .

قوله تعالى: « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين » الآية والتي بعدها مسوقتان للتوبيخ ، والمراد بالآيات البينات آيات القرآن تتلى عليهم، ثم بدلها من الحق الذي جاءهم حيث قال : « للحق لما جاءهم، - و كان مقتضى الظاهر أن يقال : « لها » - للدلالة على أنها حق جاءهم لا مسوغ لرميها بأنها سحر مبين وهم يعلمون أنها حق مبين فهم متحكمون مكابرون للحق الصريح .

قوله تعالى: « أم يقولون افتراء قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً »

إلخ « أم » منقطعة أي بل يقولون افترى القرآن على الله في دعواه أنه كلامه .
 وقوله : « قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً » أي إن افتريت القرآن لأجلكم
 آخذني بالعذاب أو عاجلني بالعذاب على الافتراء و لستم تقدرون على دفع عذابه عني
 فكيف افتريه عليه لأجلكم ، والمحصّل أنني على يقين من أمر الله و أعلم أنه يأخذ
 المفترى عليه أو يعاجل في عقوبته و أنتم لا تقدرون على دفع ما يريد فـكيف افترى
 عليه فأعرض نفسي على عذابه المقطوع لأجلكم ؟ أي لست بمفتر عليه .

و يتبين بذلك أن جزاء الشرط في قوله : « إن افتريته فلا تملكون لي » إلخ
 محذوف و قد أقيم مقامه ما يجري مجرى ارتفاع المانع والتقدير إن افتريته آخذني
 بالعذاب أو عاجلني بالعذاب ولا مانع من قبلكم يمنع عنه ، وليس من قبيل وضع المسبب
 موضع السبب كما قيل .

و قوله : « هو أعلم بما تفيضون فيه » الإفاضة في الحديث الخوض فيه و « ما »
 موصولة يرجع إليه ضمير « فيه » أو مصدرية و مرجع الضمير هو القرآن ، والمعنى
 الله سبحانه أعلم بالذي تخوضون فيه من التكذيب برمي القرآن بالسحر والافتراء
 على الله أو المعنى هو أعلم بخوضكم في القرآن .

و قوله : « كفى به شهيداً بيني وبينكم » احتجاج ثان على نفي الافتراء و أول
 الاحتجاجين قوله : « إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً » و قد تقدم بيانه آنفاً ، و
 معنى الجملة أن شهادة الله سبحانه في كلامه بأنه كلامه و ليس افتراء مني يكفي في
 نفي كوني مقترياً به عليه ، و قد صدق سبحانه هذه الدعوى بقوله : « لكن الله يشهد
 بما أنزله عليك أنزله بعلمه » النساء : ١٦٦ وما في معناه من الآيات ، و أما أنه كلامه
 فيكفي في ثبوته آيات التحدي .

و قوله : « و هو الغفور الرحيم » تذييل الآية بالاسمين الكريمين للاحتجاج
 على نفي ما يتضمنه تحكّمهم الباطل من نفي الرسالة كأنه قيل : إن قولكم : « افتراء »
 يتضمن دعويين : دعوى عدم كون هذا القرآن من كلام الله و دعوى بطلان الرسالة
 - والثنيون ينفونها مطلقاً - أما الدعوى الأولى فيدفعه أو لا أنه إن افتريته فلا تملكون

إلخ و ثانياً أن الله يكفيني شهيداً على كونه كلامه لا كلامي .
 و أما الدعوى الثانية فيدفعها أن الله سبحانه غفور رحيم ، و من الواجب في حكمته أن يعامل خلقه بالمغفرة والرحمة ولا تشملان إلا التائبين الراجعين إليه الصالحين لذلك و ذلك بأن يهديهم إلى صراط يقر بهم منه سلوكه فتشملهم مغفرته و رحمته بحط السيئات و الاستقرار في دار السعادة الخالدة ، و كونه واجباً في حكمته لأن فيهم صلاحية هذا الكمال و هو الجواد الكريم قال تعالى : « وما كان عطاء ربك محظوراً » أسرى : ٢٠ ، و قال : « وعلى الله قصد السبيل » النحل : ٩ و السبيل إلى هذه الهداية هي الدعوة من طريق الرسالة فمن الواجب في الحكمة أن يرسل إلى الناس رسولا يدعوهم إلى سبيله الموصلة إلى مغفرته و رحمته .

قوله تعالى : « قل ما كنت بدعاً من الرسل و ما أدري ما يفعل بي و لآبكم » إلخ البدع ما كان غير مسبوق بالمثل من حيث صفاته أو من حيث أقواله و أفعاله و لذا فسره بعضهم بأن المعنى ما كنت أول رسول أرسل إليكم لا رسول قبلي ، و قيل : المعنى ما كنت مبدعاً في أقوالي و أفعالي لم يسبقني إليها أحد من الرسل .
 و المعنى الأول لا يلائم السياق و لا قوله المتقدم : « و هو الغفور الرحيم » بالمعنى الذي تقدم توجيهه فتأني المعنيين هو الأنسب ، و عليه فالمعنى لست أخالف الرسل السابقين في صورة أو سيرة و في قول أو فعل بل أنا بشر مثلهم في من آثار البشرية ما فيهم و سبيلهم في الحياة سبيلي .

و بهذه الجملة يجاب عن مثل ما حكاه الله من قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق لو لا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقي إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها » الفرقان : ٨ .

و قوله : « و ما أدري ما يفعل بي و لآبكم » نفى لعلم الغيب عن نفسه فهو نظير قوله : « و لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير و ما مستني السوء » الأعراف : ١٨٨ ، و الفرق بين الآيتين أن قوله : « و لو كنت أعلم الغيب » إلخ نفى للعلم بمطلق الغيب و استشهاد له بمس السوء و عدم الاستكثار من الخير ، و قوله : « و ما أدري

ما يفعل بي ولا بكم» نفي للعلم بغيب خاص وهو ما يفعل به و بهم من الحوادث التي يواجهونها جميعاً ، وذلك أنهم كانوا يزعمون أن المتلبس بالنبوة لو كان هناك نبي يجب أن يكون عالماً في نفسه بالغيوب ذا قدرة مطلقة غيبية كما يظهر من اقتراحاتهم المحكيّة في القرآن فأمر ﷺ أن يعترف - مصرحاً به - أنه لا يدري ما يفعل به ولا بهم فينفي عن نفسه العلم بالغيب ، وأن ما يجري عليه و عليهم من الحوادث خارج عن إرادته و اختياره وليس له في شيء منها صنع بل يفعله به و بهم غيره و هو الله سبحانه .

فقوله : « و ما أدري ما يفعل بي ولا بكم » كما ينفي عنه العلم بالغيب ينفي عنه القدرة على شيء مما يصيبه و يصيبهم مما هو تحت أستار الغيب .

و نفي الآية العلم بالغيب عنه ﷺ لا ينافي علمه بالغيب من طريق الوحي كما يصرّح تعالى به في مواضع من كلامه كقوله : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » آل عمران : ٤٤ يوسف : ١٠٢ و قوله : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك » هود : ٤٩ ، و قوله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » الجن : ٢٧ ، و من هذا الباب قول المسيح ﷺ : « و أنبئكم بما تأكلون و ما تدخرون في بيوتكم » آل عمران : ٤٩ ، و قول يوسف ﷺ لصاحبي السجن : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » يوسف : ٣٧ .

وجد عدم المنافاة أن الآيات النافية للعلم بالغيب عنه و عن سائر الأنبياء عليهم السلام إنما تنفيه عن طبيعتهم البشرية بمعنى أن تكون لهم طبيعة بشرية أو طبيعة هي أعلى من طبيعة البشر من خاصتها العلم بالغيب بحيث يستعمله في جلب كل نفع و دفع كل شر كما نستعمل ما يحصل لنا من طريق الأسباب و هذا لا ينافي انكشاف الغيب لهم بتعليم إلهي من طريق الوحي كما أن إتيانهم بالمعجزات فيما أتوا بها ليس عن قدرة نفسية فيهم يملكونها لأنفسهم بل بإذن من الله تعالى و أمر قال تعالى : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » الإسراء : ٩٣ جواباً عما اقترحوا عليه من الآيات ، و قال : « قل إنما الآيات عند الله و إنما أنا نذير مبين » العنكبوت : ٥٠

وقال : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق ، المؤمن : ٧٨ .

و يشهد بذلك قوله بعده متصلًا به : « إن أتبع إلا ما يوحى إلي » فإن اتصاله بما قبله يعطى أنه في موضع الإضراب والمعنى إنى ما أدري شيئاً من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسي وإنما أتبع ما يوحى إلي من ذلك .
وقوله : « وما أنا إلا نذير مبين » تأكيد لجميع ما تقدم في الآية من قوله : « ما كنت بدعا » إلخ و « وما أدري » إلخ وقوله : « إن أتبع » إلخ

﴿ بحث فلسفى وادفع شبهة ﴾

تظافت الأخبار من طرق أئمة أهل البيت أن الله سبحانه علم النبي ﷺ والأئمة ﷺ علم كل شيء ، وفسر ذلك في بعضها أن علم النبي ﷺ من طريق الوحي وأن علم الأئمة ﷺ ينتهي إلى النبي ﷺ .

وأورد عليه أن الماثور من سيرتهم أنهم كانوا يعيشون مدى حياتهم عيشة سائر الناس فيقصدون مقاصدهم ساعين إليها على ما يرشد إليه الأسباب الظاهرية ويهدي إليه السبل العادية فربما أصابوا مقاصدهم وربما أخطأ بهم الطريق فلم يصيبوا ، ولو علموا الغيب لم يخيبوا في سعيهم أبداً فالعاقل لا يترك سبيلاً يعلم يقيناً أنه مصيب فيه ولا يسلك سبيلاً يعلم يقيناً أنه مخطيء فيه .

وقد أصيبوا بمصائب ليس من الجائز أن يلقي الإنسان نفسه في مهلكتها لو علم بواقع الأمر كما أصيب النبي ﷺ يوم أحد بما أصيب ، وأصيب علي ﷺ في مسجد الكوفة حين فتك به المرادي لعنه الله وأصيب الحسين ﷺ فقتل في كربلاء وأصيب سائر الأئمة بالسّم فلو كانوا يعلمون ما سيجري عليهم كان ذلك من إلقاء النفس في التهلكة وهو محترم ، والأشكال كما ترى مأخوذ من الآيتين : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » .

و يردّه أنّه مغالطة بالخلط بين العلوم العادية وغير العادية فالعلم غير العادي بحقائق الأمور لا أثر له في تغيير مجرى الحوادث الخارجية .
توضيح ذلك أن أفعالنا الاختيارية كما تتعلق بإرادتنا كذلك تتعلق بعلم وشرائط أخرى مادية زمانية و مكانية إذا اجتمعت عليها تلك العلة والشرائط و تمت بالإرادة تحققت العلة التامة و كان تحقق الفعل عند ذلك واجباً ضرورياً إذ من المستحيل تخلف المعلول عن علته التامة .

فنسبة الفعل و هو معلول إلى علته التامة نسبة الوجوب والضرورة كنسبة جميع الحوادث إلى عللها التامة ، ونسبته إلى إرادتنا وهي جزء علة نسبة الجواز والإمكان . فتبين أن جميع الحوادث الخارجية و منها أفعالنا الاختيارية واجبة الحصول في الخارج واقعة فيها على صفة الضرورة ولا ينافي ذلك كون أفعالنا الاختيارية ممكنة بالنسبة إلينا مع وجوبها على ما تقدم .

فإذا كان كل حادث و منها أفعالنا الاختيارية بصفة الاختيار معلولاً له علة تامة يستحيل معها تخلفه عنها كانت الحوادث سلسلة منتظمة يستوعبها الوجوب لا يتعدى حلقة من حلقاتها موضعها ولا تتبدل من غيرها ، و كان الجميع واجباً من أول يوم سواء في ذلك ما وقع في الماضي وما لم يقع بعد ، فلو فرض حصول علم بحقائق الحوادث على ما هي عليها في متن الواقع لم يؤثر ذلك في إخراج حادث منها و إن كان اختيارياً عن ساحة الوجوب إلى حد الإمكان .

فإن قات : بل يقع هذا العلم اليقيني في مجرى أسباب الأفعال الاختيارية كالعلم الحاصل من الطرق العادية فيستفاد منه فيما إذا خالف العلم الحاصل من الطرق العادية فيصير سبباً للفعل أو الترك حيث يبطل معه العلم العادي .

قلت : كلاً فإن المفروض تحقق العلة التامة للعلم العادي مع سائر أسباب الفعل الاختياري فمثله كمثل أهل الجحود والعناد من الكفار يستيقنون بأن مصيرهم مع الجحود إلى النار ومع ذلك يصرّون على جحودهم لحكم هواهم بوجوب الجحود وهذا منهم هو العلم العادي بوجوب الفعل قال تعالى في قصة آل فرعون : « و جحدوا بها

واستيقنتها أنفسهم ، النمل : ١٤ .

و بهذا يندفع ما يمكن أن يقال : لا يتصور علم يقيني بالخلاف مع عدم تأثيره في الإرادة فليكشف عدم تأثيره في الإرادة عن عدم تحقق علم على هذا الوصف .
وجه الاندفاع أن مجرد تحقق العلم بالخلاف لا يستوجب تحقق الإرادة مستندة إليه وإنما هو العلم الذي يتعلق بوجود الفعل مع التزام النفس به كما مر في جحود أهل الجحود وإنكارهم الحق مع يقينهم به ومثله الفعل بالعناية فإن سقوط الواقف على جذع عال ، منه على الأرض بمجرد تصور السقوط لا يمنع عنه علمه بأن في السقوط هلاكه القطعي .

وقد أجاب بعضهم عن أصل الإشكال بأن للنبي ﷺ والأئمة عليهم السلام تكاليف خاصة بكل واحد منهم فعليهم أن يقتحموا هذه المهالك وإن كان ذلك من إلقاء النفس في التهلكة وهو حرام ، وإليه إشارة في بعض الأخبار .

وأجاب بعضهم عنه بأن الذي ينجز التكاليف من العلم هو العلم من الطرق العادية وأما غيره فليس بمنجز ، ويمكن توجيه الوجهين بما يرجع إلى ما تقدم .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم » إلخ ضمائر « كان » و « به » و « مثله » على ما يعطيه السياق للقرآن ، وقوله : « وشهد شاهد من بني إسرائيل » إلخ معطوف على الشرط ويشاركه في الجزاء ، والمراد بمثل القرآن مثله من حيث مضمونه في المعارف الإلهية وهو كتاب التوراة الأصلية التي نزلت على موسى عليه السلام ، وقوله : « فآمن واستكبرتم » أي فآمن الشاهد الإسرائيلي المذكور بعد شهادته .

وقوله : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » تعليق للجزاء المحذوف دال عليه ، والظاهر أنه أستم ضالين لا ما قيل : إنه أستم ظلمتم لأن التعليق بعدم هداية الله الظالمين إنما يلائم ضلالهم لا ظلمهم وإن كانوا متصفين بالوصفين جميعاً .

والمعنى قل للمشركين : أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله والحال أنكم

كفرتم به و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما في القرآن من المعارف فأمن هو و استكبرتم أنتم أستم في ضلال؟ فإن الله لا يهدي القوم الظالمين .

والذي شهد على مثله فأمن على ما في بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود ، والآية على هذا مدينة لا مكينة لأنه ممن آمن بالمدينة ، و قول بعضهم : من الجائز أن يكون التعبير بالماضي في قوله « و شهد شاهد من بني إسرائيل فأمن » لتحقق الوقوع والقصة واقعة في المستقبل سخيف لأنه لا يلائم كون الآية في سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلموا للنبي ﷺ صدقه فيما يخبرهم به من الأمور المستقبلية .

و في معنى الآية أقوال أخر منها أن المراد ممن شهد على مثله فأمن هو موسى عليه السلام شهد على التوراة فأمن به وإنما عدلوا عن المعنى السابق إلى هذا المعنى للبناء على كون الآية مكينة ، وأنه إنما أسلم عبدالله بن سلام بالمدينة .

و فيه أو لا عدم الدليل على كون الآية مكينة و لتكن القصة دليلاً على كونها مدينة ، وثانياً بعد أن يجعل موسى الكليم ﷺ قريناً لهؤلاء المشركين الأجلاف يقاسون به فيقال ما محصله إن موسى ﷺ آمن بالكتاب النازل عليه و أنتم استكبرتم عن الإيمان بالقرآن فسخافته ظاهرة .

و مما قيل أن المثل في الآية بمعنى نفس الشيء كما قيل في قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » الشوري : ١١ ، و هو في البعد كسابقه .

قوله تعالى : « و قال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه » إلى آخر الآية قيل : اللام في قوله : « للذين آمنوا » للتعليل أي لأجل إيمانهم ويؤل إلى معنى في ، و ضمير « كان » و « إليه » للقرآن من جهة الإيمان به .

والمعنى و قال الذين كفروا في الذين آمنوا - أي لأجل إيمانهم - : لو كان الإيمان بالقرآن خيراً ما سبقونا - أي المؤمنون - إليه .

و قال بعضهم : إن المراد بالذين آمنوا بعض المؤمنين و بالضمير العائد إليه في

في قوله : سبقونا « البعض الآخر ، واللام متعلق بقال والمعنى و قال الذين كفروا لبعض المؤمنين لو كان خيراً ما سبقنا البعض من المؤمنين وهم الغائبون إليه ، وفيه أنه بعيد من سياق الآية .

وقال آخرون: إن المراد بالذين آمنوا المؤمنون جميعاً لكن في قوله : ماسبقونا التفاتاً والأصل ما سبقتمونا وهو في البعد كسابقد و ليس خطاب الحاضرين بصيغة الغيبة من الالتفات في شيء .

وقوله : « و إذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » ضمير « به » للقرآن وكذا الإشارة بهذا إليه والإفك الافتراء أي و إذ لم يهتدوا بالقرآن لاستكبارهم عن الإيمان به فسيقولون أي الذين كفروا هذا أي القرآن إفك وافتراء قديم ، و قولهم : هذا إفك قديم كقولهم : أساطير الأوثان .

قوله تعالى : « و من قبله كتاب موسى إماماً ورحمة و هذا كتاب مصدق لساناً عربياً » إلخ الظاهر أن قوله : « و من قبله » إلخ جملة حالية والمعنى فسيقولون هذا إفك قديم والحال أن كتاب موسى حال كونه إماماً ورحمة قبله أي قبل القرآن و هذا القرآن كتاب مصدق له حال كونه لساناً عربياً ليكون منذراً للذين ظلموا وهو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكاً ؟

و كون التوراة إماماً ورحمة هو كونها بحيث يقتدي بها بنو إسرائيل ويتبعونها في أعمالهم ورحمة للذين آمنوا بها و اتبعوها في إصلاح نفوسهم .

قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » إلى آخر الآية المراد بقولهم ربنا الله إقرارهم وشهادتهم بانحصار الربوبية في الله سبحانه وتوحيده فيها ، و باستقامتهم ثباتهم على ما شهدوا به من غير زيغ وانحراف و التزامهم بلوازمه العملية .

وقوله : « فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون » أي ليس قبائلهم مكروه محتمل يخافونه من عقاب محتمل ، و لا مكروه محقق يحزنون به من عقاب أو هول ، فالخوف

إنّما يكون من مكروه ممكن الوقوع ، و الحزن من مكروه محقق الوقوع ، و الفاء في قوله : « فلاخوف » النخ لتوهم معنى الشرط فإنّ الكلام في معنى من قال ربّنا الله ثمّ استقام فلاخوف النخ .

قوله تعالى : « أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » المراد بصحابة الجنة ملازمتها ، و قوله : « خالدين فيها » حال مؤكدة لمعنى الصحابة . و المعنى أولئك الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا ملازمون للجنة حال كونهم خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا من الطاعات و القربات .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن أبي عبيدة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى : « اثنوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » قال : عنى بالكتاب التوراة و الإنجيل « و أثارة من علم » فإنّما عنى بذلك علم أوصياء الأنبياء . و في الدر المنثور أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبدالرحمان عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله « أو أثارة من علم » قال : الخط .

أقول : لعل المراد بالخط كتاب مخطوط موروث من الأنبياء أو العلماء الماضين لكن في بعض ما روي في تفسير قوله : « أو أثارة من علم » أنّه حسن الخط و في بعض آخر أنّه جودة الخط وهو أجنبي من سياق الاحتجاج الذي في الآية .

و في العيون في باب مجلس الرضا مع المأمون عنه عليه السلام حدّثني أبي عن جدي عن آبائه عن الحسين بن علي عليه السلام قال : اجتمع المهاجرون و الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : إنّ لك يا رسول الله مؤنة في نفقتك و فيمن يأتبك من الوفود ، و هذه أموالنا مع دماننا فاحكم فيها باراً مأجوراً أعط ما شئت و احكم ما شئت من غير حرج .

قال : فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » يَعْنِي أَنْ تُوَدَّ وَأَقْرَابَتِي مِنْ بَعْدِي فَخَرَجُوا فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : مَا حَمَلَ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيَّ تَرَكْتُ مَا عَرْضْنَا عَلَيْهِ إِلَّا لِيَحْتَنُنَّا عَلَيَّ قَرَابَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِنْ هُوَ إِلَّا شَيْءٌ افْتَرَاهُ فِي مَجْلِسِهِ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ عَظِيمًا .

فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتَهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » فَبَعَثَ إِلَيْهِمُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : هَلْ مِنْ حَدِيثٍ ؟ فَقَالُوا : إِي وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ قَالَ بَعْضُنَا كَلِمًا غَلِيظًا كَرِهْنَاهُ فَتَلَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْآيَةَ فَبَكَوْا وَاشْتَدَّ بِكَأْوِهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

و فِي الدَّرِّ الْمُنْشُورِ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي نَاسِخِهِ مِنْ طَرِيقِ عِكْرَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : « وَمَا أُدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ » قَالَ : نَسَخْتَهَا هَذِهِ ^(١) الْآيَةَ الَّتِي فِي الْفَتْحِ فَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَبَشَّرَهُمْ بِالَّذِي غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : هَنِيئًا لَكَ يَا نَبِيَّ - اللهُ قَدْ عَلِمْنَا الْآنَ مَا يَفْعَلُ بِكَ فَمَاذَا يَفْعَلُ بِنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ « وَبَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا » وَقَالَ : « لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا » فَبَيَّنَ اللهُ مَا بِهِ يَفْعَلُ وَبِهِمْ .

أَقُولُ : الرُّوَايَةُ لَا يَدْخُلُ مِنْ شَيْءٍ :

أَمَّا أَوْ لَا فَلَمَّا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَعْنَى قَوْلِهِ : « وَمَا أُدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ » أَنَّهَا أَجْنَبِيَّةٌ عَنِ الْعِلْمِ بِالْغَيْبِ الَّذِي هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ بِدَلَالَةٍ صَرِيحَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَلَا يَنْفِي بِهَا الْعِلْمُ بِالْمَغْفَرَةِ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ حَتَّى تَنْسَخَهَا آيَةُ سُورَةِ الْفَتْحِ .

(١) يُرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » الْفَتْحُ : ٢ .

وَأَمَّا ثَانِيًا فَلأنَّ ظاهِرَ الرواية أنَّ الذنبَ الَّذِي تصرَّحَ بمغفرته آية سورة الفتح هو الذنبُ بمعنى مخالفة الأمر والنهي المولويين وسيأتي في تفسير سورة الفتح إن شاء الله تعالى - إنَّ الذنبَ في الآية لغير هذا المعنى .

وَأَمَّا ثَالِثًا فَلأنَّ الآياتِ الدالة على دخول المؤمنين الجنة كثيرة جدًا في مكِّيَّة السور ومدنيَّتها ولا تدلُّ آياتُ سورة الأحزاب على أزيد ممَّا يدلُّ عليه سائر الآيات فلا وجه لتخصيصهما بالدلالة على دخول المؤمنين الجنة وشمول المغفرة لهم .
على أن سورة الأحزاب نازلة قبل سورة الفتح بزمان .

وفيه أخرج أبو يعلى وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال : انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا على كنيسة اليهود يوم عيدهم فكروها دخولنا عليهم .

فقال لهم رسول الله ﷺ أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد فثك فلم يجبه أحد فقال : أبيتكم فوالله لا أنا الحاشر وأنا العاقب وأنا الملقفي آمنتم أو كذبتم .

ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمداً فأقبل فقال ذلك الرجل : أي رجل تعلمونني فيكم يا معشر اليهود ؟ فقالوا : والله لا نعلم فيما رجلاً أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أهلك ولا من جدك فقال : إنني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه في التوراة والإنجيل ، قالوا : كذبت ثم ردوا عليه وقالوا شراً فقال رسول الله ﷺ : كذبتم لن يقبل منكم قولكم .

فخرجنا ونحن ثلاث : رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام فأنزل الله : « قل رأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

أقول : وفي نزول الآية في عبدالله بن سلام روايات أخرى من طرق أهل السنة

غير هذه الرواية ، و سياق الآية و خاصة قوله : « من بني إسرائيل » لا يلائم كون الخطاب فيها لبني إسرائيل ، و قد عدّ الإنجيل في الرواية من كتبهم و ليس من كتبهم و اليهود لا يصدّقونه .

و في بعض الروايات أن الآية نزلت في ابن يامين من علمائهم حين شهد و أسلم فكذبته اليهود و الإشكال السابق على حاله .





وَصَيَّنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَ وَضَعَتْهُ
 كَرْهًا وَ حَمَلَهُ وَ وِصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ
 سِنًا قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَى
 وَالِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ
 إِلَيْكَ وَ أَنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا
 عَمِلُوا وَ نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي
 كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَ الَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفِّ لَكُمْمَا أَعْتَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ
 وَ قَدْ خَلتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَ هُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ أَنْ وَعَدَّ
 اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ
 عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلتِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
 خَاسِرِينَ (١٨) وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوقِفَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ
 لَا يَظْلَمُونَ (١٩) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَيْتُمْ
 طِبْيَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
 الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠).

﴿بيان﴾

ملماً قسم الناس في قوله : « لينذر الذين ظلموا و بشرى للمحسنين » إلى ظالمين و محسنين و أشير فيه إلى أن للظالمين ما يخاف و يحذر و للمحسنين ما يسر الإنسان و يبشربه عقب ذلك في هذا الفصل من الآيات بتفصيل القول فيه ، و أن الناس بين قوم تائبين إلى الله مسلمين له و هم الذين يتقبل أحسن أعمالهم و يتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، و قوم خاسرين حق عليهم القول في أمم قد دخلت من قبلهم من الجن و الإنس .

و مثل الطائفة الأولى بمن كان مؤمناً بالله مسلماً له باراً بوالديه يسأل الله أن يلهمه الشكر على ما أنعم عليه و على والديه و العمل الصالح و إصلاح ذريته ، و الطائفة الثانية بمن كان عاقراً لوالديه إذا دعوا إلى الإيمان بالله و اليوم الآخر فيزجرهما و يعد ذلك من أساطير الأولين .

قوله تعالى : « و وصينا الإنسان بوالديه إحساناً » إلى آخر الآية الوصية على ما ذكره الراغب هو التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ و التوصية تفعيل من الوصية قال تعالى : « ووصى بها إبراهيم بنبيه » البقرة : ١٣٢ فمفعوله الثاني الذي يتعدى إليه بالباء من قبيل الأفعال فالمراد بالتوصية بالوالدين التوصية بعمل يتعلق بهما و هو الإحسان إليهما .

و على هذا فتقدير الكلام : ووصينا الإنسان بوالديه أن يحسن إليهما إحساناً . و في إعراب « إحساناً » أقوال أخر كقول بعضهم : إنه مفعول مطلق على تضمين « وصينا » معنى أحساناً و التقدير وصينا الإنسان محسنين إليهما إحساناً ، و قول بعضهم : إنه صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أي إيصالاً ذاك إحسان ، و قول بعضهم : هو مفعول له و التقدير وصينا بهما لإحساننا إليهما إلى غير ذلك مما قيل .

و كيف كان فبر الوالدين و الإحسان إليهما من الأحكام العامة المشروعة في جميع الشرائع كما تقدم في تفسير قوله تعالى : « قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم أن

لا تشرکوا به شیئاً وبالوالدین إحساناً» الأ نعام : ١٥١ ولذلک قال : « ووصینا الإنسان ، فعمّمه لکلّ إنسان .

ثمّ عقّبده سبحانه بالإشارة إلى ما قاسته أمّه في حملها ووضعها وفصاله إشعاراً بملاک الحکم وتهييجاً لعواطفه وإثارة لغريزة رحمته ورأفته فقال : « حملته أمّه كرهاً ووضعته كرهاً وحملها ثلاثون شهراً » أي حملته أمّه حملاً ذا كره أي مشقّة وذلک لما في حملها من الثقل ، ووضعته وضعاً ذا كره وذلک لما عنده من ألم الطلق .

وأما قوله : « وحملها وفصالها ثلاثون شهراً » فقد أخذ فيه أقلّ مدّة الحمل وهو ستة أشهر ، والحوالان الباقيان إلى تمام ثلاثين شهراً مدّة الرضاع قال تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهنّ حولین کاملین » البقرة : ٢٣٣ ، وقال : « وفصاله في عامين » لقمان : ١٤ .

والفصال التفريق بين الصبيّ وبين الرضاع ، وجعل العامين ظرفاً للفصال بعناية أنّه في آخر الرضاع ولا يتحقّق إلا بانقضاء عامين .

وقوله : « حتّى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة » بلوغ الأشدّ بلوغ زمان من العمر تشدّد فيه قوى الإنسان ، وقد مرّ نقل اختلافهم في معنى بلوغ الأشدّ في تفسير قوله : « ولما بلغ أشده آتيناها حکماً وعلماً » يوسف : ٢٢ و بلوغ الأربعين ملازم عادة لکمال العقل .

وقوله : « قال ربّ أوزعني أن أشکر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلی والديّ » وأنّ عمل صالحاً ترضاه « الإيزاع الإلهام ، وهذا الإلهام ، ليس بالإلهام علم يعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع كما في قوله : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ بل هو إلهام عمليّ بمعنی البعث والدعوة الباطنيّة إلى فعل الخير و شكر النعمة و بالجملة العمل الصالح .

وقد أطلق النعمة الّتي سأل إلهام الشکر عليها فتعمّ النعم الظاهريّة كالحياة والرزق والشعور والإرادة والباطنيّة كالإيمان بالله والإسلام والخشوع له والتوکل عليه والتفويض إليه ففي قوله : « ربّ أوزعني أن أشکر نعمتك » إلخ سؤال أن يلهمه الثناء

عليه باظهار نعمته قولاً وفعلاً : أما قولاً فظاهر ، وأما فعلاً فباستعمال هذه النعم استعمالاً يظهر به أنها لله سبحانه أنعم بها عليه وليست له من قبل نفسه و لازمه ظهور العبودية والمملوكية من هذا الإنسان في قوله و فعله جميعاً .

و تفسير النعمة بقوله : « التي أنعمت عليّ و علي والدي » يفيد شكره من قبل نفسه علي ما اختص به من النعمة و من قبل والديه فيما أنعم به عليهما فهو لسان ذاكراً لهما بعدهما .

و قوله : « و أن أعمل صالحاً ترضاه » عطف علي قوله : « أن أشكر » إلخ سؤال متمم لسؤال الشكر علي النعم فإن الشكر يحلّي ظاهر الأعمال ، والصلاحية التي يرضيها الله تعالى تحلّي باطنها و تخلّصها له تعالى .

و قوله : « و أصلح لي في ذرّيّتي » الإصلاح في الذرية إيجاد الصلاح فيهم و هو من الله سبحانه توفيقهم للعمل الصالح و ينجرّ إلى إصلاح نفوسهم ، و تقييد الإصلاح بقوله : « لي » للدلالة على أن يكون إصلاحهم بنحو ينتفع هو به أي أن يكون ذرّيّته له في برّه و إحسانه كما كان هو لوالديه .

و محصل الدعاء سؤال أن يلهمه الله شكر نعمته و صالح العمل و أن يكون باراً محسناً بوالديه و يكون ذرّيّته له كما كان هو لوالديه ، و قد تقدّم (١) غير مرّة أن شكر نعمه تعالى بحقيقة معناه هو كون العبد خالصاً لله فيؤل معنى الدعاء إلى سؤال خلوص النفس و صلاح العمل .

و قوله : « إنّي تبت إليك و إنّي من المسلمين » أي الذين يسلمون الأمر لك فلا تريد شيئاً إلا أرادوه بل لا يريدون إلا ما أردت .

والجملة في مقام التعليل لما يتضمّنه الدعاء من المطالب ، و يتبيّن بالاية حيث ذكر الدعاء ولم يردّه بل أيّده بما وعد في قوله : « أو لك الذين تتقبّل عنهم » إلخ ، أن التوبة والإسلام لله سبحانه إذا اجتمعا في العبد استعقب ذلك إلهامه تعالى بما يصير به العبد من المخلصين - بفتح اللام - ذاتاً والمخلصين - بكسر اللام - عملاً أما إخلاص الذات

(١) تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران والاية ١٧ من سورة الاعراف .

فقد تقدمت الإشارة إليه آنفاً ، و أما إخلاص العمل فلا أن العمل لا يكون صالحاً لقبوله تعالى مرفوعاً إليه إلا إذا كان خالصاً لوجهه الكريم قال تعالى : « أَلَا اللَّهُ الدِّينَ الْخَالِصُ » الزمر : ٣ .

قوله تعالى : « أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة » إلخ التقبّل أبلغ من القبول ، والمراد بأحسن ما عملوا طاعاتهم من الواجبات والمندوبات فإنّها هي المقبولة المتقبّلة و أما المباحات فإنّها وإن كانت ذات حسن لكنّها ليست بمتقبّلة كذا ذكر في مجمع البيان و هو تفسير حسن و يؤيّده مقابلة تقبّل أحسن ما عملوا بالتجاوز عن السيئات فكأنّه قيل : إن أعمالهم طاعات من الواجبات والمندوبات و هي أحسن أعمالهم فنتقبّلها و سيئات فتجاوز عنها و ما ليس بطاعة و لا حسنة فلا شأن له من قبول و غيره .

و قوله : « في أصحاب الجنة » متعلق بقوله : « نتجاوز » أي نتجاوز عن سيئاتهم في جملة من نتجاوز عن سيئاتهم من أصحاب الجنة ، فهو حال من ضمير « عنهم » .
و قوله : « وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » أي يعدهم الله بهذا الكلام و وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه إلى هذا الحين بلسان الأنبياء والرسل ، أو المراد أنّه ينجز لهم بهذا التقبّل والتجاوز يوم القيامة وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه في الدنيا .

قوله تعالى : « والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج و قد دخلت القرون من قبلي » لما ذكر الإنسان الذي تاب إلى الله و أسلم له و سأله الخلوص والإخلاص و برّ والديه و إصلاح أولاده له قابله بهذا الإنسان الذي يكفر بالله و رسوله والمعاد و يعقّ والديه إذا دعوا إلى الإيمان و أنذرا بالمعاد .

فقوله : « والذي قال لوالديه أف لكما » الظاهر أنّه مبتدئ في معنى الجمع وخبره قوله بعد : « أولئك الذين » إلخ و « أف » كلمة تبرّم يقصد بها إظهار التسخّط والتوجّع و « أتعدانني أن أخرج » الإستفهام للتوبيخ والمعنى أتعدانني أن أخرج من قبري فأحيا و أخصر للحساب أي أتعدانني المعاد « و قد دخلت القرون من قبلي » أي

والحال أنه هلكت أمم الماضون العائشون من قبلي ولم يُحيي منهم أحد ولا بُعث .
 وهذا على زعمهم حجة على نفي المعاد و تقريره أنه لو كان هناك إحياء وبعث
 لأحيي بعض من هلك إلى هذا الحين و هم فوق حد الإحصاء عدداً في أزمئة طويلة لا
 أمد لها ولا خبر عنهم ولا أثر ولم يتنبهوا أن القرون السالفة لو عادوا كما يقولون كان
 ذلك بعثاً لهم و إحياء في الدنيا والذي وعده الله سبحانه هو البعث للحياة الآخرة والقيام
 لنشأة أخرى غير الدنيا .

وقوله : « وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق » الاستغاثة طلب الغوث
 من الله أي والحال أن والديه يطلبان من الله أن يغيثهما ويعينهما على إقامة الحجّة و
 استمالته إلى الإيمان و يقولان له : ويلك آمن بالله و بما جاء به رسوله و منه وعده
 تعالى بالمعاد إن وعد الله بالمعاد من طريق رسله حق .

ومنه يظهر أن مرادهما بقولهما ! « آمن » هو الأمر بالإيمان بالله ورسوله فيما
 جاء به من عند الله ، و قولهما : « إن وعد الله حق » المراد به المعاد ، و تعليل الأمر
 بالإيمان به لغرض الانذار والتخويف .

وقوله : « فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » الإشارة بهذا إلى الوعد الذي
 ذكرناه و أنذراه به أو مجموع ما كانا يدعوانه إليه والمعنى فيقول هذا الإنسان لوالديه
 ليس هذا الوعد الذي تنذرانني به أو ليس هذا الذي تدعوانني إليه إلا خرافات الأولين
 و هم الأمم الأولى واليهيمة .

قوله تعالى : « أولئك الذين حق عليهم القول » إلخ تقدم بعض الكلام فيه
 في تفسير الآية ٢٥ من سورة حم السجدة .

قوله تعالى : « ولكل درجات مما عملوا » إلى آخر الآية أي لكل من
 المذكورين و هم المؤمنون البررة والكافرون الفجرة منازل و مراتب مختلفة صعوداً و
 حذوراً فلجنة درجات و للنار دركات .

و يعود هذا الاختلاف إلى اختلافهم في أنفسهم وإن كان ظهوره في أعمالهم ولذلك
 قال : « لهم درجات مما عملوا » فالدرجات لهم و منشأها أعمالهم .

و قوله : « و ليوفّيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » اللام للغاية والجملة معطوفة على غاية أو غايات أخرى محذوفة لم يتعلّق بذكرها غرض ، وإنّما جعلت غاية لقوله : « هم درجات » لأنّه في معنى وجعلناهم درجات ، والمعنى وجعلناهم درجات لكذا و كذا و ليوفّيهم أعمالهم وهم لا يظلمون .

و معنى توفّيتهم أعمالهم إعطاؤهم نفس أعمالهم فالآية من الآيات الدالة على تجسّم الأعمال ، و قيل : الكلام على تقدير مضاف والتقدير و ليوفّيهم أجور أعمالهم .

قوله تعالى : ويوم يعرض الذين كفروا على النار « إلخ عرض الماء على الدابة وللدابة وضعه بمرئى منها بحيث إن شاءت شربته ، و عرض الملتاع على البيع وضعه موضعاً لا مانع من وقوع البيع عليه .

و قوله : « و يوم يعرض الذين كفروا على النار » قيل : المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم : عرض فلان على السيف إذا قتل و هو مجاز شائع .
و فيه أن قوله في آخر السورة « و يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » قالوا بلى و ربنا قال فذوقوا العذاب « لا يلائمه تلك الملاعة حيث فرّع ذوق العذاب على العرض فهو غيره .

و قيل : إن في الآية قلباً والأصل عرض النار على الذين كفروا لأن من الواجب في تحقّق معنى العرض أن يكون في المعروف عليه شعور بالمعروض والنار لا شعور لها بالذين كفروا بل الأمر بالعكس ففي الكلام قلب ، والمراد عرض النار على الذين كفروا .

و وجهه بعض المفسّرين بأن المناسب أن يؤتى بالمعروض إلى المعروف عليه كما في قولنا : عرضت الماء على الدابة و عرضت الطعام على الضيف ، و لما كان الأمر في عرض النار على الذين كفروا بالعكس فإنّهم هم المسيّرون إلى النار فقلب الكلام رعاية لهذا الاعتبار .

و فيه نظر أمّا ما ذكر من أن المعروف عليه يجب أن يكون ذا شعور و إدراك بالمعروض حتّى يرغب إليه أو يرغب عنه و النار لا شعور لها ففيه أو لا أنّه

ممنوع كما يؤيدته قولهم : عرضت المتاع على البيع ، وقوله تعالى : « إِنَّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال » الأحزاب : ٧٢ ، و ثانياً أننا لا نسلم خلوقاً نار الآخرة عن الشعور ففي الأخبار الصحيحة أن للجنة والنار شعوراً ويشعر به قوله : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل مزيد » ق : ٣٠ ، وغيره من الآيات .
و أما ما قيل من أن المناسب تحريك المعروض إلى المعروض عليه فلا نسلم لزومه ولا اطراداه فهو منقوض بقوله : « إِنَّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض » الآية الأحزاب : ٧٢ .

على أن في كلامه تعالى ما يدل على الإتيان بالنار إلى الذين كفروا كقوله : وجيىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنتى له الذكرى « الفجر : ٢٣ .
فالحق أن العرض وهو إظهار عدم المانع من تلبس شيء بشيء معنى له نسبة إلى الجانبين يمكن أخذ كل منهما أصلاً معروضاً عليه والآخر فرعاً معروضاً فتارة تؤخذ النار معروضة على الكافرين بعناية أن لا مانع من عمل صالح أو شفاعاة تمنع من دخولهم فيها كقوله تعالى : « و عرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً » الكهف : ١٠٠ فتارة يؤخذ الكفار معروضين للنار بعناية أن لا مانع يمنع النار أن تعذبهم كما في قوله : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » المؤمن : ٢٦ و قوله : « يعرض الذين كفروا على النار » الآية .

و على هذا فالأشبه تحقق عرضين يوم القيامة : عرض جهنم للكافرين حين تبرؤ لهم ثم عرضهم على جهنم بعد الحساب والقضاء الفصل بدخولهم فيها حين يساقون إليها قال تعالى : « و سيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً » الزمر : ٧١ .
و قوله : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » على تقدير القول أي يقال لهم : « أذهبتم » إلخ و الطيبات الأمور التي تلائم النفس و توافق الطبع و يستلذُّ بها الإنسان ، و إذهاب الطيبات إنفادها بالاستيفاء لها ، والمراد بالاستمتاع بها استعمالها والانتفاع بها لنفسها لا للآخرة والتهيؤ لها .

والمعنى يقال لهم حين عرضهم على النار : أنفدتم الطيبات التي تلتذون بها في

حياتكم الدنيا و استمتعتم بتلك الطيبات فلم يبق لكم شيء تلتذثون به في الآخرة .
 و قوله : « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق »
 و بما كنتم تفسقون » تفريع على إزهابهم الطيبات ، و عذاب الهون العذاب الذي فيه
 الهوان والخزي .

والمعنى فاليوم تجزون العذاب الذي فيه الهوان والخزي قبال استكباركم في الدنيا
 عن الحق و قبال فسقكم و تولىكم عن الطاعات ، و هما ذنبان أحدهما متعلق بالاعتقاد
 و هو الاستكبار عن الحق و الثاني متعلق بالعمل و هو الفسق .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر من طريق قتادة
 عن أبي حرب بن أبي الأسود الدثلي قال : رفع إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر
 فسأل عنها أصحاب النبي فقال علي : لا رجم عليها ألا ترى أنه يقول : و حمله و فضاله
 ثلاثون شهراً ، و قال : و فضاله في عامين ، و كان الحمل ههنا ستة أشهر فتركها عمر . قال :
 ثم بلغنا أنها ولدت آخر لستة أشهر .

أقول : و روى القصة المفيد في الإرشاد .

و فيه أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن بعجة بن عبد الله الجهني قال : تزوج
 رجل منّا امرأة من جهينة فولدت له تماماً لستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان بن
 عفان فأمر برجمها فبلغ ذلك علياً فأناه فقال : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر
 و هل يكون ذلك ؟ قال علي : أما سمعت الله تعالى يقول : و حمله و فضاله ثلاثون شهراً
 و قال : حولين كاملين فكم تجده بقي إلا ستة أشهر ؟

فقال عثمان : والله ما فطننت لهذا . علي بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها ، و كان
 من قولها لأختها : لا تحزني فو الله ما كشف فرجي أحد قط غيره . قال : فشب الغلام
 بعد فاعترف الرجل به و كان أشبه الناس به . قال : فرأيت الرجل بعد يتساقط عضواً
 عضواً على فراشه .

و في التهذيب باسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سأله أبي و أنا حاضر عن قول الله عز وجل : « حتى إذا بلغ أشده » قال : الاحتلام .
 و في الخصال عن أبي بصير قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إذا بلغ العبد ثلاثاً و ثلاثين سنة فقد بلغ أشده ، و إذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن في إحدى و أربعين فهو في النقصان ، و ينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزاع .
أقول : لا تخلو الرواية من إشعار بكون بلوغ الأشد مما يختلف بالمراتب فيكون الاحتلام و هو غالباً في الست عشرة أو ل مرتبة منها و الثلاث و الثلاثين و هي بعد مضي ست عشرة أخرى المرتبة الثانية و قد تقدم في نظيرة الآية من سورة يوسف بعض أخبار آخر .

و اعلم أنه قد وردت في الآية أخبار تطبقها على الحسين بن علي عليهما السلام و ولادته لستة أشهر و هي من الجري .

و في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن عبد الله قال : إنني لفي المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً و إن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر و عمر فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : أهزلية ؟ إن أبا بكر و الله ما جعلها في أحد من ولده و لأحد من أهل بيته و لاجعلها معاوية إلا رحمة و كرامة لولده .

فقال مروان : ألسنت الذي قال لوالديه : أف لكما ؟ فقال عبد الرحمن : ألسنت ابن اللعين الذي لعن أباك رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال : و سمعتها عائشة فقالت : يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا و كذا ؟ كذبت والله ما فيه نزلت . نزلت في فلان بن فلان .

و فيه أخرج ابن جرير عن ابن عباس في الذي قال لوالديه أف لكما الآية قال : هذا ابن لأبي بكر .

أقول : و روي ذلك أيضاً عن قتادة و السدي ، و قصة رواية مروان و تكذيب عائشة له مشهورة . قال في روح المعاني بعد رد رواية مروان : و وافق بعضهم كلسهيلي

في الأعلام مروان في زعم نزولها في عبد الرحمان ، و على تسليم ذلك لا معنى للتعبير لاسيما من مروان فإن الرجل أسلم و كان من أفاضل الصحابة و أبطالهم ، و كان له في الإسلام غناء يوم اليمامة و غيره ، و الإسلام يجب ما قبله فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يعير بما كان يقول . انتهى

و فيه أن الروايات لو صححت لم يكن مناص عن صريح شهادة الآية عليه بقوله : « أولئك الذين حق عليهم القول - إلى قوله - إنهم كانوا خاسرين » و لم ينفع شيء مما دافع عنه به .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « و يوم يعرض الذين كفروا - إلى قوله - و استمتعتم بها » قال : أكلتم و شربتم و ركبتهم ، و هي في بني فلان « فالיום تجزون عذاب الهون » قال : العطش .

و في المحاسن بإسناده عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال : أتني يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم بخبيص ^(١) فأبى أن يأكله فقيل : أتحرمه ؟ فقال : لا و لكنني أكره أن تتوق إليه نفسي ثم تلا الآية « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » . و في المجمع في الآية و قد روي في الحديث أن عمر بن الخطاب قال : استأذنت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخلت عليه في مشربة أم إبراهيم و إنه لمضطجع على خصفة و إن بعضه على التراب و تحت رأسه وسادة محشوة ليفا فسلمت عليه ثم جلست فقلت : يا رسول الله أنت نبي الله و صفوته و خيرته من خلقه و كسرى و قيصر على سرير الذهب و فرش الحرير والديباج ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أولئك قوم عجبت طيباتهم و هي وشيكة الانقطاع ، وإنما أخبرت لنا طيباتنا .
أقول : و رواه في الدر المنثور بطرق عنه .



وَ اذْكُرْ اٰخَا عَادٍ اِذْ اَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْاَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ اِلَّا تَعْبُدُوْا اِلَّا اللّٰهَ اِنِّيْ اَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ (٢١)
قَالُوْا اَجِئْتَنَا لِتَاْفِكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَاْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ (٢٢)
قَالَ اِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ اَبْلَغْتُمْ مَا اُرْسَلْتُ بِهِ وَ لِكِنِّيْ اَرَاكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُوْنَ (٢٣) فَلَمَّا رَاَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ اُوْدِيَّتِهِمْ قَالُوْا هٰذَا عَارِضٌ
مِّمَّطْرِنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيْحٌ فَيَهْبِطُ فِيْهَا عَذَابٌ اَلِيْمٌ (٢٤) تَدْمِرُ
كُلَّ شَيْءٍ بَادِنِ رَبِّهَا فَاَصْبَحُوْا لَا يَرٰى اِلَّا مَسَاكِيْنَهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ
الْمُجْرِمِيْنَ (٢٥) وَ لَقَدْ مَكَّنٰهُمْ فَيَمًا اِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيْهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا
وَ اَبْصَارًا وَ اَفْئِدَةً فَمَا اَغْنٰى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا اَبْصَارُهُمْ وَلَا اَفْئِدَتُهُمْ
مِنْ شَيْءٍ اِذْ كَانُوْا يَجْحَدُوْنَ بِآيَاتِ اللّٰهِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوْا بِهِ
يَسْتَهْزِؤْنَ (٢٦) وَ لَقَدْ اَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرٰى وَ صَرَفْنَا الْاِيَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ (٢٧) فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ
قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوْا عَنْهُمْ وَ ذٰلِكَ اَفْكَهْمُ وَ مَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ (٢٨) .

﴿بيان﴾

لَمَّا قَسَمَ النَّاسُ عَلَى قَسْمَيْنِ وَ انْتَهَى الْكَلَامُ إِلَى الْاِنْذَارِ عَقَبَ ذٰلِكَ بِالْاِشَارَةِ
إِلَى قِصَّتَيْنِ قِصَّةِ قَوْمِ عَادٍ وَ هَالِكِهِمْ وَ مَعَهَا الْاِشَارَةُ إِلَى هَالِكِ الْقُرٰى الَّتِي حَوْلَ مَكَّةَ وَ

قصة إيمان قوم من الجن صرّفهم الله إلى النبي ﷺ فاستمعوا القرآن فأمنوا ورجعوا إلى قومهم منذرين وإنما أورد القصتين ليعتبر بهما من شاء أن يعتبر منهم ، وهذه الآيات المنقولة تتضمن أولى القصتين .

قوله تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه و من خلفه » إلخ أخو القوم هو المنسوب إليهم من جهة الأب ، والمراد بأخي عاد هود النبي ﷺ ، والأحقاف مسكن قوم عاد والمؤمنين أنه في جنوب جزيرة العرب ولا أثر اليوم باقيا منهم ، واختلفوا أين هو ؟ فقيل : واد بين عمان ومهرة ، وقيل رمال بين عمان إلى حضرموت ، وقيل : رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن وقيل غير ذلك .

و قوله : « وقد خلت النذر من بين يديه و من خلفه » النذر جمع نذير والمراد به الرسول على ما يفيد السياق ، وأما تعميم بعضهم النذر للرسول و نوايهم من العلماء ففي غير محله .

و فسروا « من بين يديه » بالذين كانوا قبله و « من خلفه » بالذين جاؤا بعده ويمكن العكس بأن يكون المراد بالنذر بين يديه من كانوا في زمانه ، و من خلفه من كان قبله ، والأولى على الأول أن يكون المراد بخلو النذر من بين يديه و من خلفه أن يكون كناية عن مجيئه إليهم و إنذاره لهم على فترة من الرسل .
و قوله : « أن لا تعبدوا إلا الله » تفسير للإذار و فيه إشارة إلى أن أساس دينه الذي يرجع إليه تفاصيله هو التوحيد .

و قوله : « إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » تعليل لدعوتهم إلى التوحيد، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم عذاب الاستئصال لا يوم القيامة يدل على ذلك ما سيأتي من قولهم : « فائتتنا بما تعدنا » و قوله : « بل هو ما استعجلتم به » والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قالوا أجبتنا لتأفكنا عن آلهتنا » إلخ جواب القوم له قبل إنذاره ، و قوله : « لتأفكنا عن آلهتنا » بتضمين الإفك وهو الكذب والفرية معنى الصرف والمعنى قالوا أجبنا لتصرفنا عن آلهتنا إفكا و افتراء .

و قوله : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » أمر تعجيزي منهم له زعماً منهم أنه ﷺ كاذب في دعوته آفك في إنذاره .

قوله تعالى : « قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به » إلخ جواب هود عن قولهم ردّاً عليهم فتوله : « إنما العلم عند الله » قصر العلم بنزول العذاب فيه تعالى لأنه من الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله جل شأنه ، وهو كناية عن أنه عليه السلام لا علم له بأنه ما هو ؟ ولا كيف هو ؟ ولا متى هو ؟ ولذلك عقبه بقوله : « وأبلغكم ما أرسلت به » أي إن الذي حملته وأرسلت به إليكم هو الذي أبلغكموه ولا علم لي بالعذاب الذي أمرت بإذراكم به ما هو ؟ وكيف هو ؟ ومتى هو ؟ ولا قدرة لي عليه .

و قوله : « ولكنني أراكم قوماً تجهلون » إضراب عما يدل عليه الكلام من نفيه العلم عن نفسه ، والمعنى لا أعلم لي بما تستعجلون به من العذاب ولكنني أراكم قوماً تجهلون فلا تميزون ما ينفعكم مما يضركم وخيركم من شركم حين تردون دعوة الله وتكذبون بآياته وتستهزؤون بما يوعدكم به من العذاب .

قوله تعالى : « فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا » إلخ صفة نزول العذاب إليهم بادئ ظهوره عليهم .

و العارض هو السحاب يعرض في الأفق ثم يطبق السماء وهو صفة العذاب الذي يرجع إليه ضمير « رأوه » المعلوم من السياق ، وقوله : « مستقبلاً أوديتهم » صفة أخرى له ، والأودية جمع الوادي ، وقوله : « قالوا هذا عارض ممطرنا » أي استبشروا ظناً منهم أنه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا : هذا الذي نشاهده سحاب عارض ممطر إيانا . وقوله : « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » رد لقولهم : « هذا عارض ممطرنا » بالإضراب عنه إلى بيان الحقيقة فبين أولاً على طريق التهكم أنه العذاب الذي استعجلتم به حين قلتم : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » وزاد في البيان ثانياً بقوله : « ريح فيها عذاب أليم » .

و الكلام من كلامه تعالى وقيل : هو كلام لهود النبي ﷺ .

قوله تعالى : « تدمر كل شيء باذن ربها فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين » التدمير الإهلاك ، و تعلقه بكل شيء و إن كان يفيد عموم التدمير لكن السياق يخصه بنحو الإنسان والدواب والأموال فالمعنى إن تلك الريح تدمر كل ما مرت عليه من إنسان ودواب وأموال .

و قوله : « فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » بيان لنتيجة نزول العذاب ، وقوله : « كذلك نجزي القوم المجرمين » إعطاء ضابط كلي في مجازاة المجرمين بتشبيه الكلي بالفرد الممثل به و التشبيه في الشدة أي إن سنقتنا في جزاء المجرمين على هذا النحو الذي قصصناه من الشدة فهو كقوله تعالى : « و كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذها أليم شديد » هود . ١٠٣ .

قوله تعالى : « و لقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه » إلخ موعظة لكفار مكة مستنتجة من القصة .

و التمكين إقرار الشيء وإثباته في المكان ، و هو كناية عن إعطاء القدرة و الاستطاعة في التصرف و « ما » في « فيما » موصولة أو موصوفة و « إن » نافية ، و المعنى و لقد جعلنا قوم هود في الذي - أو في شيء - ما مكناكم معشر كفار مكة و من يتلوكم فيه من بسطة الأجسام و قوة الأبدان والبطش الشديد و القدرة القومية .

و قوله : « و جعلنا لهم سمعاً و أبصاراً و أفئدة » أي جهزناهم بما يدركون به ما ينفعهم و ما يضرهم و هو السمع و الأبصار و ما يميزون به ما ينفعهم مما يضرهم فيحتالون لجلب النفع و لدفع الضرر بما قدروا كما أن لكم ذلك .

و قوله : « فما أغنى عنهم سمعهم و لأبصارهم و لأفئدتهم من شيء إن كانوا يجحدون بآيات الله » ما في « فما أغنى » نافية لا استفهامية ، و « إن » ظرف متعلق بالنفي الذي في قوله : « فما أغنى » .

و محصل المعنى أنهم كانوا من التمكّن على ما ليس لكم ذلك و كان لهم من أدوات الإدراك و التمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكروه و الاتقاء من الحوادث المهلكة المبيدة لكن لم يغن عنهم ولم ينفعهم هذه المشاعر و الأفئدة شيئاً عند ما جحدوا

آيات الله فما الذي يؤمنكم من عذاب الله و أنتم جاحدون لآيات الله .
 وقيل : معنى الآية و لقد مكنتهم في الذي أو في شيء ما مكنتكم فيه من
 القوة و الاستطاعة وجعلنا لهم سمعاً و أبصاراً و أفئدة ليستعملوها فيما خلقت له و يسمعون
 كلمة الحق و يشاهدوا آيات التوحيد و يعتبروا بالتفكر في العبر ، و يستدلوا بالتعقل
 الصحيح على المبدء و المعاد فما أغنى عنهم سمعهم و لأبصارهم و لأفئدتهم من شيء حيث
 لم يستعملوها فيما يوصل إلى معرفة الله سبحانه هذا و لعل الذي قد مناه من المعنى
 أنسب للسياق .

و قد جوزوا في مفردات الآية و جوهاً لم نوردها لعدم جدوى فيها .
 و قد تقدم في نظائر قوله : « سمعاً و أبصاراً و أفئدة » أن أفراد السمع - والمراد
 منه الجمع - لمكان مصدريته في الأصل نظير الضيف و القربان و الجنب قال تعالى :
 « ضيف إبراهيم المكرمين » الذاريات : ٢٤ و قال : « إن قرّبنا قربانا » المائدة : ٢٧ ، و
 قال : « و إن كنتم جنبا » المائدة : ٤ .

و قوله : « و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن » عطف على قوله : « ما أغنى عنهم »
 الخ .

قوله تعالى : « و لقد أهلكنا ما حولكم من القرى » تذكرة إنذارية متفرقة
 على العظة التي في قوله : « و لقد مكنتهم » الخ فهي معطوفة عليه على ما يفيد السياق
 لا على قوله : « و اذكر أخعاد » .

و قوله : « و صرّفنا الآيات لعلمهم يرجعون » أي و صيرنا الآيات المختلفة من
 معجزة أيّدنا بها الأنبياء و وحي أنزلناه عليهم و نعم رزقناهموها ليتذكروا بها و نعم
 ابتليناهم بها ليتوبوا و ينصرفوا عن ظلمهم لعلمهم يرجعون من عبادة غير الله سبحانه إلى
 عبادته .

و الضمير في « لعلمهم يرجعون » راجع إلى القرى و المراد بها أهل القرى .
 قوله تعالى : « فلو لا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة » الخ
 ظاهر السياق أن آلهة مفعول ثان لا اتخذوا و مفعوله الأول هو الضمير الراجع إلى

الموصول و « قرباناً » بمعنى ما يتقرب به ، والكلام مسوق للتهكم والمعنى فلو لانصرهم
الذين اتخذوهم آلهة حالكونهم متقرباً بهم إلى الله كما كانوا يقولون : « ما نعبدهم
إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

و قوله : « بل ضلوا عنهم » أي ضل الآلهة عن أهل القرى و انقطعت رابطة
الألوهية والعبودية التي كانوا يزعمونها ويرجون بذلك أن ينصروهم عند الشدائد والمكاره
فالضلال عنهم كناية عن بطلان مزعمتهم .

و قوله : « و ذلك إفكهم و ما كانوا يفترون » مبتدء و خبر والإشارة إلى ضلال
آلهتهم ، والمراد بالإفك أثر الإفك أو بتقدير مضاف ، و « ما » مصدرية ، والمعنى و
ذلك الضلال أثر إفكهم و افتراءهم .

و يمكن أن يكون الكلام على صورته من غير تقدير مضاف أو تجوز والإشارة
إلى إهلاكهم بعد تصريح الآيات و ضلال آلهتهم عند ذلك ، و محصل المعنى أن هذا
الذي ذكرناه من عاقبة أمرهم هو حقيقة زعمهم أن الآلهة يشفعون لهم و يقرّبونهم من
الله زعمهم الذي أفكوه و افتروه ، والكلام مسوق للتهكم .



* * *

وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ
 قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا
 قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي
 إِلَى الْحَقِّ وَ إِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ
 آمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَ يَجْعَلْكُمْ مِّن عَبْدَ اللَّهِ أَلِيمٍ (٣١) وَ مَن
 لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ
 أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوْ لِمَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَ الْأَرْضِ وَ لِمَ يَعْبُدُونَهُ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ
 هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)
 فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ
 يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَم يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا
 الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ (٣٥) .

﴿بيان﴾

هذه هي القصة الثانية عقببت بها قصة عاد ليعتبر بها قومه ﷺ إن اعتبروا ، و
 فيه تفريع للقوم حيث كفروا به ﷺ و بكتابه النازل على لغتهم و هم يعلمون أنها

آية معجزة و هم مع ذلك يماثلونه في النوعية البشرية و قد آمن الجن بالقرآن إذ استمعوا إليه و رجعوا إلى قومهم منذرين .

قوله تعالى : « و إذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن » إلى آخر الآية الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة أو من مكان إلى مكان ، والنفر - على ما ذكره الراغب - عدة من الرجال يمكنهم النفرو هو اسم جمع يطلق على مافوق الثلاثة من الرجال والنساء والإنسان و على الجن كما في الآية و « يستمعون القرآن » صفة نفر ، والمعنى و اذكر إذ وجهنا إليك عدة من الجن يستمعون القرآن .

و قوله : « فلماً حضروه قالوا أتصتوا » ضمير « حضروه » للقرآن بما يلح إليه من المعنى الحديثي ، والإنصات السكوت للاستماع أي فلماً حضروا قراءة القرآن و تلاوته قالوا أي بعضهم لبعض : اسكتوا حتى نستمع حق الاستماع .

و قوله : « فلماً قضي وكوا إلى قومهم منذرين » ضمير « قضي » للقرآن باعتبار قراءته و تلاوته ، والتولية الانصراف و « منذرين » حال من ضمير الجمع في « وكوا » أي فلماً أتمت القراءة و فرغ منها انصرفوا إلى قومهم حال كونهم منذرين مخوفين لهم من عذاب الله .

قوله تعالى : « قالوا يا قومنا إنما سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه » إلخ حكاية دعوتهم قومهم وإنذارهم لهم ، والمراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن ، وفي الكلام إشعار بل دلالة على كونهم مؤمنين بموسى عليه السلام و كتابه ، والمراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراة أو جميع الكتب السماوية السابقة .

و قوله : « يهدي إلى الحق » و إلى طريق مستقيم « أي يهدي من اتبعه إلى صراط الحق » و إلى طريق مستقيم لا يضل سالكوه عن الحق في الاعتقاد والعمل .

قوله تعالى : « يا قومنا أجيئوا داعي الله و آمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم و يجركم من عذاب أليم » المراد بداعي الله هو النبي صلى الله عليه وآله قال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة » يوسف : ١٠٨ ، و قيل : المراد به ما سمعوه من القرآن و هو بعيد .

والظاهر أن « من » في « يغفر لكم من ذنوبكم » للتبويض والمراد مغفرة بعض الذنوب وهي التي اكتسبها قبل الإيمان قال تعالى : « إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » الأنفال : ٣٨ .

وقيل : المراد بهذا البعض حقوق الله سبحانه فإنها مغفورة بالتوبة والإيمان وتوبة وأما حقوق الناس فإنها غير مغفورة بالتوبة ، ورد بأن الإسلام يجب ما قبله .
قوله تعالى : « ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض و ليس له من دونه أولياء » إلخ أي ومن لم يؤمن بداعي الله فليس بمعجز لله في الأرض برد دعوته وليس له من دون الله أولياء ينصرونه ويمدونه في ذلك والمحصل أن من لم يجب داعي الله في دعوته فإنما ظلم نفسه و ليس له أن يعجز الله بذلك لا مستقلا ولا بنصرة من ينصره من الأولياء فليس له أولياء من دون الله ، ولذلك أتم الكلام بقوله : « أولئك في ضلال مبين » .

قوله تعالى : « أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر » إلخ الآية وما بعدها إلى آخر السورة متصلة بما تقدم من قوله تعالى : « و يوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم » إلخ وفيها تميم القول فيما به الإنذار في هذه السورة وهو المعاد والرجوع إلى الله تعالى كما أشرنا إليه في البيان المتقدم .

والمراد بالرؤية العلم عن بصيرة ، والعي العجز والتعب ، والأول أفصح على ما قيل ، والباء في « بقادر » زائدة لوقوعها موقعا فيه شائبة حيز النفي كأنه قيل : أليس الله بقادر .

والمعنى أو لم يعلموا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعجز عن خلقهن أو لم يتعب بخلقهن قادر على إحياء الموتى - وهو تعالى مبدء وجود كل شيء وحياته - بلى هو قادر لأنه على كل شيء قدير ، وقد أوضحنا هذه الحجّة فيما تقدم غير مرة .

قوله تعالى : « و يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » إلى آخر الآية تأييد للحجة المذكورة في الآية السابقة بالإخبار عما سيجري على منكري المعاد يوم القيامة ، و معنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « فاصبر كما صبراً ولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » إلى آخر الآية تفرغ على حقيقة المعاد على ما دلت عليه الحجة العقلية و أخبر به الله سبحانه و نفى الريب عنه .

والمعنى فاصبر على جحود هؤلاء الكفار و عدم إيمانهم بذلك اليوم كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم بالعذاب فانهم سيلاقون اليوم بما فيه من العذاب و ليس اليوم عنهم يبعيد و إن استبعدوه .

و قوله : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » تبين لقرب اليوم منهم و من حياتهم الدنيا بالإخبار عن حالهم حينما يشاهدون ذلك اليوم فانهم إذا رأوا ما يوعدون من اليوم و ما هييء لهم فيه من العذاب كان حالهم حال من لم يلبث في الأرض إلا ساعة من نهار .

و قوله : « بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » أي هذا القرآن بما فيه من البيان تبليغ من الله من طريق النبوة فهل يهلك بهذا الذي بلغه الله من الإهلاك إلا القوم الفاسقون الخارجون عن نزي العبودية .

و قد أمر الله سبحانه في هذه الآية نبيه ﷺ أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل و فيه تلويح إلى أنه ﷺ منهم فليصبر كصبرهم ، و معنى العزم ههنا إما الصبر كما قاله بعضهم لقوله تعالى : « و لمن صبر و غفر إن ذلك لمن عزم الأمور » الشورى : ٤٣ و إما العزم على الوفاء بالميثاق المأخوذ من الأنبياء كما يلوح إليه قوله : « و لقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي و لم نجد له عزماً » طه : ١١٥ و إما العزم بمعنى العزيمة وهي الحكم و الشريعة .

و على المعنى الثالث و هو الحق الذي تذكره روايات أئمة أهل البيت ﷺ

هم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم لقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً وما أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » الشورى : ١٣ وقد مرّ تقريب معنى الآية .

وعن بعض المفسرين أن جميع الرسل أولو عزم ، وقد أخذ « من الرسل » بياناً لأولي العزم في قوله : « أولو العزم من الرسل » وعن بعضهم أنهم الرسل الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام (الآية ٨٣ - ٩٠) لأنه تعالى قال بعد ذكرهم : « فبهدهم اقتده » .

وفيه أنه تعالى قال بعد عدّهم « ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم » ثم قال : « فبهدهم اقتده » ولم يقل ذلك بعد عدّهم بلا فصل .

وعن بعضهم أنهم تسعة : نوح وإبراهيم والذبيح ويعقوب ويوسف وأيوب وموسى وداود وعيسى ، وعن بعضهم أنهم سبعة : آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى ، وعن بعضهم أنهم ستة وهم الذين أمروا بالقتال : نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان ، وذكر بعضهم أن الستة هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب ، وعن بعضهم أنهم خمسة وهم : نوح وهود وإبراهيم وشعيب وموسى ، وعن بعضهم أنهم أربعة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وذكر بعضهم أن الأربعة هم نوح وإبراهيم وهود ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم أجمعين .

وهذه الأقوال بين ما لم يستدل عليه بشيء أصلاً وبين ما استدل عليه بما لا دلالة فيه ، ولذا أغمضنا عن نقلها ، وقد تقدّم في أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب بعض الكلام في أولي العزم من الرسل فراجع إن شئت .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وإن صرفنا إليك نفرأ من الجن » الايات كان سبب نزول هذه الآيات أن رسول الله ﷺ خرج من مكة إلى سوق عكاظ ، و معه زيد بن حارثة يدعو الناس إلى الإسلام فلم يجبه أحد و لم يجد أحداً يقبله ثم رجع إلى مكة .

فلما بلغ موضعاً يقال له : وادي مجنّة (١) تهجد بالقرآن في جوف الليل فمر به نفر من الجن فلما سمعوا قراءة رسول الله ﷺ استمعوا له فلما سمعوا قرآنه قال بعضهم لبعض : « أنصتوا » يعني اسكتوا « فلما قضي » أي فرغ رسول الله ﷺ من القرآن « وكوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا » إلى آخر الآيات .

فجاؤا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا و آمنوا و علمهم رسول الله ﷺ شرائع الإسلام فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » السورة كلها فحكى الله قولهم و وكى عليهم رسول الله ﷺ منهم ، و كانوا يعودون إلى رسول الله ﷺ في كل وقت فأمر رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام أن يعلمهم و يفقههم فمنهم مؤمنون و كفرون و ناصبون و يهود و نصارى و مجوس ، و هم ولد الجن .

أقول : والروايات في قصة هؤلاء النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن كثيرة مختلفة اختلافاً شديداً ، ولا سبيل إلى تصحيح متونها بالكتاب أو بقرائن موثوق بها و لذا اكتفينا منها على ما تقدم من خبر القمي و سيأتي نبذ منها في تفسير سورة الجن إن شاء الله تعالى .

و فيه سئل العالم عليه السلام عن مؤمنى الجن أيدخلون الجنة ؟ فقال : لا و لكن لله حظائر بين الجنة والنار يكون فيها مؤمنو الجن و فساق الشيعة .

(١) المجنّة محل الجن .

أقول : وروي مثله في بعض الروايات الموقوفة من طرق أهل السنة ، ورواية القمي^١ مرسلة كالمضمرة فإن قبلت فلتحمل على أدنى مراتب الجنة وعمومات الكتاب تدل^٢ على عموم الثواب للمطيعين من الإنس والجن .

وفي الكافي بإسناده عن ابن أبي يعفور قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : سادة النبيين والمرسلين خمسة : وهم أولو العزم من الرسل وعليهم دارت الرحي نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعلى جميع الأنبياء . وفيه بإسناده عن عبد الرحمان بن كثير عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن أول وصي^٣ كان على وجه الأرض هبة الله بن آدم ، وما من نبي^٤ مضى إلا وله وصي^٥ .

وكان جميع الأنبياء مائة ألف وعشرين ألف نبي^٦ : منهم خمسة أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم . الحديث .
أقول : كون أولي العزم خمسة مما استفاضت عليه الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فهو مروى عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الباقر والصادق والرضا عليهم السلام بطرق كثيرة . وعن روضة الواعظين للمفيد : قيل للنبي صلى الله عليه وآله : كم بين الدنيا والآخرة ؟ قال : غمضة عين قال الله عز وجل : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ » الآية .



﴿ سورة محمد مدنيّة و هي ثمان و ثلاثون آية ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا
 نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ
 بِاللَّهِمْ (٢) ذَلِكَ بَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
 اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا
 لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا
 الْوَتَاقَ فَمَا مَنَّأَ بَعْدَ وَ أَمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ
 وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قَتَلُوا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَ يَصْلِحُ بِاللَّهِمْ (٥)
 وَ يَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦).

﴿ بيان ﴾

تصف السورة الذين كفروا بما يخصهم من الأوصاف الخبيثة والأعمال السيئة
 و تصف الذين آمنوا بصفاتهم الطيبة و أعمالهم الحسنة ثم تذكر ما يعقب صفات هؤلاء
 من النعمة والكرامة و صفات أولئك من النعمة والهوان و على الجملة فيها المقايسة بين
 الفريقين في صفاتهم و أعمالهم في الدنيا و ما يترتب عليها في الأخرى ، و فيها بعض ما
 يتعلق بالقتال من الأحكام .

و هي سورة مدنيّة على ما يشهد به سياق آياتها .

قوله تعالى : « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَالِهِمْ » فسّر الصدّ بالإعراض عن سبيل الله و هو الإسلام كما عن بعضهم ، و فسّر بالمنع وهو منعهم الناس أن يؤمنوا بما كان النبي ﷺ يدعوهم إليه من دين التوحيد كما عن بعض آخر .
و ثاني التفسيرين أوفق لسياق الآيات التالية و خاصّة ما يأمر المؤمنين بقتلهم و أسرهم و غيرهم .

فالمراد بالَّذِينَ كَفَرُوا كَفَّارٌ مَكَّةَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ فِي كُفْرِهِمْ وَقَدْ كَانُوا يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَيَفْتَنُونَهُمْ ، وَصَدُّوهُمْ أَيْضًا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .
و قوله : « أَضَلُّ أَعْمَالِهِمْ » أي جعل أعمالهم ضالّة لا تهتدي إلى مقاصدها التي قصدت بها و هي بالجملة إبطال الحقّ و إحياء الباطل فالجملة في معنى ما تكرّر منه تعالى من قوله : « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » البقرة : ٢٦٤ و قد وعد سبحانه بإحياء الحقّ و إبطال الباطل كما في قوله : « لِيَحِقَّ الْحَقُّ » و يبطل الباطل و لو كره المجرمون « الْأَنْفَال : ٨ .

فالمراد من ضلال أعمالهم بطلانها و فسادها دون الوصول إلى الغاية ، و عدّ ذلك ضلالاً من الاستعارة بالكناية .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٌ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » إلخ ظاهر إطلاق صدر الآية أن المراد بالَّذِينَ آمَنُوا إلخ مطلق من آمن و عمل صالحاً فيكون قوله : « وَآمَنُوا بِمَا نَزَّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٌ » تقييداً احترازياً لا تأكيداً و ذكراً لما تعلقت به العناية في الإيمان .

و قوله : « وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » جملة معترضة والضمير راجع إلى ما نزل .
و قوله : « كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالِهِمْ » قال في المجمع : البال الحال والشأن والبال القلب أيضاً يقال : خطر ببالي كذا ، والبال لا يجمع لأنّه أبهم أخواته من الحال والشأن . انتهى .

وقد قوبل إضلال الأعمال في الآية السابقة بتكفير السيئات و إصلاح البال في هذه

الآية فمعنى ذلك هداية إيمانهم وعملهم الصالح إلى غاية السعادة ، وإنما يتم ذلك بتكفير السيئات المانعة من الوصول إلى السعادة ، ولذلك ضم تكفير السيئات إلى إصلاح الباطل .

والمعنى ضرب الله الستر على سيئاتهم بالعفو والمغفرة ، وأصلح حالهم في الدنيا والآخرة أما الدنيا فلأن الدين الحق هو الدين الذي يوافق ما تقتضيه الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها ، والفطرة لا تقتضي إلا ما فيه سعادتها وكمالها ففي الإيمان بما أنزل الله من دين الفطرة والعمل به صلاح حال المؤمنين في مجتمعهم الدنيوي ، وأما في الآخرة فلا نبتها عاقبة الحياة الدنيا وإن كانت فاتحتها سعيدة كانت خاتمتها كذلك قال تعالى :
« والعاقبة للمتقوى » طه : ١٣٢ .

قوله تعالى : « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » الخ تعليل لما في الآيتين السابقتين من إضلال أعمال الكفار وإصلاح حال المؤمنين مع تكفير سيئاتهم .

وفي تقييد الحق بقوله : « من ربهم » إشارة إلى أن المنتسب إليه تعالى هو الحق ولا نسبة للباطل إليه و لذلك تولى سبحانه إصلاح بال المؤمنين لما ينتسب إليه طريق الحق الذي اتبعوه ، وأما الكفار بأعمالهم فلا شأن له تعالى فيهم وأما انتساب ضلالهم إليه في قوله : « أضل أعمالهم » فمعنى إضلال أعمالهم عدم هدايته لها إلى غايات صالحة سعيدة .

وفي الآية إشارة إلى أن الملاك كل الملاك في سعادة الإنسان و شقائه اتباع الحق و اتباع الباطل والسبب في ذلك انتساب الحق إليه تعالى دون الباطل .

وقوله : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » أي يبين لهم أوصافهم على ما هي عليه ، وفي الإتيان باسم الإشارة الموضوع للبعيد لتفخيم لأمر ما ضربه من المثل .

قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » إلى آخر الآية تفريع على ما تقدم في الآيات الثلاث من وصف الفريقين كأنه قيل : إذا كان المؤمنون أهل الحق والله ينعم عليهم بما ينعم والكفار أهل الباطل والله يضل أعمالهم فعلى المؤمنين إذا لقوا

الكفار أن يقتلوهم و يأسروهم ليحيى الحق الذي عليه المؤمنون و تطهر الأرض من الباطل الذي عليه الكفار .

فقوله : « فاذا لقيتم الذين كفروا فاضربوا الرقاب » المراد باللقاء اللقاء في القتال و ضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فيه و التقدير فاضربوا الرقاب - أي رقابهم - ضرباً و ضرب الرقبة كناية عن القتل ، لأن أسير القتل و أسرع ضرب الرقبة به .

و قوله : « حتى إذا أنخنتموهم فشدوا الوثاق » في المجمع : الاثنان إكثار القتل و غلبة العدو و قهرهم و منه أنخنه المرض اشتد عليه و أنخنه الجراح . انتهى و في المفردات : وثقت به أثق ثقة سكنت إليه و اعتمدت عليه ، و أوثقت شدته ، و الوثاق - بفتح الواو - و الوثاق - بكسر الواو - اسمان لما يوثق به الشيء . انتهى و « حتى » غاية لضرب الرقاب ، و المعنى فاقتلوهم حتى إذا أكثرتم القتل فيهم فأسروهم بشد الوثاق و إحكامه فالمراد بشد الوثاق الأسر فالآية في ترتب الأسر فيها على الاثنان في معنى قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » الأ نفال : ٦٧ .

وقوله : « فإمّاناً بعد و إمّاء فداء » أي فأسروهم و يتفرع عليه أنكم إمّاتمنون عليهم منبأ بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقونهم و إمّاء تغدونهم فداء بالمال أو بمن لكم عندهم من الأسارى .

وقوله : « حتى تضع الحرب أوزارها » أوزار الحرب أثقالها وهي الأسلحة التي يحملها المحاربون والمراد به وضع المقاتلين و أهل الحرب أسلحتهم كناية عن انقضاء القتال .

وقد تبيّن بما تقدّم من المعنى ما في قول بعضهم إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » الأ نفال : ٦٧ لأن هذه السورة متأخرة نزولاً عن سورة الأ نفال فتكون ناسخة لها .

وذلك لعدم التدافع بين الآيتين فآية الأ نفال تنهى عن الأسر قبل الإثنان

والآية المبسوطة عنها تأمر بالأمر بعد الإتيان .

وكذا ما قيل : إن قوله : « فشدوا الوثاق » النسخ منسوخ بآية السيف « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » التوبة : ٤ ، وكأنه مبني على كون العام الوارد بعد الخاص ناسخاً له لا مخصصاً به والحق خلافه وتمام البحث في الأصول ، وفي الآية أيضاً مباحث فقهية محلها علم الفقه .

وقوله : « ذلك » أي الأمر ذلك أي إن حكم الله هو ما ذكر في الآية .

وقوله : « ولو شاء الله لانتصر منهم » الضمير للكفار أي ولو شاء الله الانتقام منهم لانتقم منهم بإهلاكهم وتعذيبهم من غير أن يأمرهم بقتالهم .

وقوله : « ولكن ليلو بعضكم ببعض » استدراك من مشية الانتصار أي ولكن لم ينتصر منهم بل أمرهم بقتالهم ليمتحن بعضهم ببعض فيمتحن المؤمنون بالكفار بأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعون من العاصين ويمتحن الكفار بالمؤمنين فيتميز أهل الشقاء منهم ممن يوفق للتوبة من الباطل والرجوع إلى الحق .

وقد ظهر بذلك أن قوله : « ليلو بعضكم ببعض » تعليل للحكم المذكور في الآية ، والخطاب في « بعضكم » لمجموع المؤمنين والكفار ووجه الخطاب إلى المؤمنين . وقوله : « والذين قتلوا في سبيل الله فإن يضل أعمالهم » الكلام مسوق سوق الشرط والحكم عام أي ومن قتل في سبيل الله وهو الجهاد والقتال مع أعداء الدين فلن يبطل أعمالهم الصالحة التي أتوا بها في سبيل الله .

وقيل : المراد بقوله : « والذين قتلوا في سبيل الله » شهداء يوم أحد ، وفيه أنه تخصيص من غير مخصص والسياق سياق العموم .

قوله تعالى : « سيهديهم ويصلح بالهم » الضمير للذين قتلوا في سبيل الله فالآية وما يتلوها لبيان حالهم بعد الشهادة أي سيهديهم الله إلى منازل السعادة والكرامة ويصلح حالهم بالمغفرة والعتو عن سيئاتهم فيصلحون لدخول الجنة .

وإذا انضمت هذه الآية إلى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم » آل عمران : ١٦٩ ظهر أن المراد بإصلاح بالهم إحيائهم

حياة يصلحون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء .

وقال في المجمع : والوجه في تكرير قوله : « بالهم » أن المراد بالأول أنه أصلح بالهم في الدين والدنيا ، والثاني أنه يصلح حالهم في نعيم العقبي فالأول سبب النعيم والثاني نفس النعيم . انتهى . والفرق بين ما ذكره من المعنى وما قدمناه أن قوله تعالى : « ويصلح بالهم » على ما ذكرنا كالعطف التفسيري لقوله : « سيهديهم » دون ما ذكره ، وقوله الآتي : « ويدخلهم الجنة » على ما ذكره كالعطف التفسيري لقوله : « ويصلح بالهم » دون ما ذكرناه .

قوله تعالى : « ويدخلهم الجنة عرفها لهم » غاية هدايته لهم ، وقوله : « عرفها لهم » حال من إدخاله إياهم الجنة أي سيدخلهم الجنة والحال أنه عرفها لهم إما بالبيان الديني من طريق الوحي والنبوة وإما بالبشرى عند القبض أوفي القبر أو في القيامة أو في جميع هذه المواقف هذا ما يفيد السياق من المعنى .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن علي قال : سورة محمد آية فينا و آية في بني أمية .

أقول : و روى القمي في تفسيره عن أبيه عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام مثله .

و في المجمع في قوله : « فإذا لقيتم الذين كفروا ف ضرب الرقاب » الخ المروري عن أئمة الهدى عليهم السلام : أن الأسيارى ضربان : ضرب يؤخذون قبل انقضاء القتال والحرب قائمة فهؤلاء يكون الإمام مخيراً بين أن يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف و يتركهم حتى ينزفوا ، ولا يجوز المن ولا الفداء .

والضرب الآخر الذين يؤخذون بعد أن وضعت الحرب أوزارها و انقضى القتال فلا إمام مخير فيهم بين المن والفداء إما بالمال أو بالنفس وبين الاسترقاق وضرب الرقاب

فإذا أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك وكان حكمهم حكم المسامحين .

أقول : و روى ما في معناه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام .

و في الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله تعالى : « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم » قال : نزل فيمن قتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد .

أقول : قد عرفت أن الآية عامة ، وسباق الاستقبال في قوله : « سيهديهم ويصلح

بالهم » إلخ إنما يلائم العموم و كون الكلام مسوقاً لضرب القاعدة .

و قد روي أن قوله تعالى : « حتى إذا أنخنتموهم فشدوا الوثاق » ناسخ لقوله :

« وما كان لنبي أن يكون له أسرى » الآية ، و أيضاً أن قوله : « فاقتلوا المشركين

حيث وجدتموهم » ناسخ لقوله : « فشدوا الوثاق فإما منّا بعد و إما فداء » وقد عرفت

فيما تقدم عدم استقامة النسخ .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَ يَثْبُتْ
 أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ
 بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ
 أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا
 مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا
 تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً
 مِنْ قَرِيبَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلِكَانَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ
 عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زِينَ لَهُ سَوْءَ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مِثْلُ
 الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهَارٌ مِنْ
 لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ
 مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ
 فِي النَّارِ وَ سَقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) .

﴿ بيان ﴾

الآيات جارية على السياق السابق .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » تحضيض لهم على الجهاد و وعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى فالمراد بنصرهم لله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييداً لدينه وإعلاءً لكلمة الحق لا ليستعلوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمة أو ليظفروا بنجدة وشجاعه .

والمراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضية لظهورهم و غلبتهم على عدوهم كإلقاء الرعب في قلوب الكفار وإدارة الدوائر للمؤمنين عليهم وربط جأش المؤمنين و تشجيعهم ، و على هذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام و تخصيص تثبيت الأقدام ، و هو كناية عن التشجيع و تقوية القلوب ، لكونه من أظهر أفراد النصر .

قوله تعالى : « والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم » ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين لله لقياس حالهم من حالهم .

والتعس هو سقوط الإنسان على وجهه و بقاؤه عليه و يقابله الانتعاش وهو القيام عن السقوط على الوجه فقوله : « تعسأ لهم » أي تعسوا تعسا و هو و ما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله : « قاتلهم الله أنى يؤفكون » التوبة : ٣٠ : « قتل الإنسان ما أكفره » عبس : ١٧ ، و يمكن أن يكون إخباراً عن تعسهم و بطلان أثر مساعيهم على نحو الكناية فإن الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطاً على وجهه .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » المراد بما أنزل الله هو القرآن والشرائع والأحكام التي أنزلها الله تعالى على نبيه ﷺ وأمرها بطاعتها والانقياد لها فكرهوها و استكبروا عن اتباعها .

والآية تعليل مضمون الآية السابقة ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها » التدمير الإهلاك يقال : دمره الله أي أهلكه ، ويقال : دمر الله عليه أي أهلك ما يخصه من نفس وأهل ودار وعقار فدمر عليه أبلغ من دمره كما قيل ، وضمير « أمثالها » للعاقبة أو للعقوبة المدلول عليها بسابق الكلام. والمراد بالكافرين الكافرون بالنبي ﷺ والمعنى وللكافرين بك يا محمد أمثال تلك العاقبة أو العقوبة وإنما أوعدوا بأمثال العاقبة أو العقوبة ولا يحل بهم إلا مثل واحد لأنهم في معرض عقوبات كثيرة دنيوية وأخروية وإن كان لا يحل بهم إلا بعضها ، ويمكن أن يراد بالكافرين مطلق الكافرين ، والجملة من باب ضرب القاعدة . قوله تعالى : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » الإشارة بذلك إلى ما تقدم من نصر المؤمنين ومقت الكافرين وسوء عاقبتهم ، ولا يصغى إلى ما قيل : إنه إشارة إلى ثبوت عاقبة أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء ، وكذا ما قيل : إنه إشارة إلى نصر المؤمنين ، وذلك لأن الآية متعوضة لحال الطائفتين المؤمنين والكفار جميعا .

والمولى كأنه مصدر ميمي أريد به المعنى الوصفي فهو بمعنى الولي ولذلك يطلق على سيد العبد ومالكه لأن له ولاية التصرف في أمور عبده ، ويطلق على الناصر لأنه يلي التصرف في أمر منصوره بالتقوية والتأييد والله سبحانه مولى لأنه المالك الذي يلي أمور خلقه في صراط التكوين ويدبرها كيف يشاء قال تعالى : « مالك من دونه من ولي ولا شفيع » آلم السجدة : ٤ ، وقال : « وردوا إلى الله مولاهم الحق » يونس : ٣٠ ، وهو تعالى مولى لأنه يلي تدبير أمور عباده في صراط السعادة فيهديهم إلى سعادتهم والجنة ويوقفهم للصالحات وينصرهم على أعدائهم ، والمولوية بهذا المعنى الثاني تختص بالمؤمنين ، لأنهم هم الداخلون في حظيرة العبودية المتبعون لما يريد منهم ربهم دون الكفار .

وللمؤمنين مولى وولي هو الله سبحانه كما قال : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا » ، وقال : « الله ولي الذين آمنوا » البقرة : ٢٥٧ ، وأما الكفار فقد اتخذوا

الأصنام أو أرباب الأصنام أولياء فهم أولياؤهم على ما زعموا كما قال بالبناء على مزعمتهم بنوع من التهكم: «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت» البقرة: ٢٥٧، ونفى ولايتهم بالبناء على حقيقة الأمر فقال: «وأن الكافرين لامولى لهم» ثم نفى ولايتهم مطلقا تكويننا وتشريعا مطلقا فقال: «أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي» الشورى: ٩، وقال: «إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم» النجم: ٢٣.

فمعنى الآية أن نصره تعالى للمؤمنين وتثبيته أقدامهم وخذلانه الكفار وإضلاله أعمالهم وعقوبته لهم إنما ذلك بسبب أنه تعالى مولى المؤمنين ووليهم، وأن الكفار لا مولى لهم فينصرهم ويهدي أعمالهم وينجيهم من عقوبته.

وقد تبين بما تقدم ضعف ما قيل: «إن المولى في الآية بمعنى الناصر دون المالك وإلا كان منافيا لقوله تعالى: «وردوا إلى الله مولاهم الحق» يونس: ٣٠، ووجه الضعف ظاهر.

قوله تعالى: «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم» مقايسة بين الفريقين وبيان أثر ولاية الله للمؤمنين وعدم ولايته للكفار من حيث العاقبة والآخرة وهي أن المؤمنين يدخلون الجنة والكفار يقيمون في النار.

وقد أُشير في الكلام إلى منشا ما ذكر من الأثر حيث وصف كلاً من الفريقين بما يناسب حاله فأشار إلى صفة المؤمنين بقوله: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» وإلى صفة الكفار بقوله: «يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام» فأفاد الوصفان بما بينهما من المقابلة أن المؤمنين راشدون في حياتهم الدنيا مصيبون للحق حيث آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة فسلكوا سبيل الرشد وقاموا بوظيفة الإنسانية، وأما الكفار فلا عناية لهم بإصابة الحق ولا تعلق لقلوبهم بوظائف الإنسانية، وإنما همسهم بطنهم وفرجهم يتمتعون في حياتهم الدنيا القصيرة ويأكلون كما تأكل الأنعام لا منية لهم إلا ذلك ولا غاية لهم وراءه.

فهؤلاء أي المؤمنون تحت ولاية الله حيث يسلكون مسلكا يريد من ربهم

و يهديهم إليه و لذلك يدخلهم في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأولئك أي الكفار ما لهم من ولي و إنما وكلوا إلى أنفسهم و لذلك كان مثوهم و مقامهم النار .

وإنما نسب دخول المؤمنين الجنات إلى الله نفسه دون إقامة الكفار في النار قضاء لحق الولاية المذكورة فله تعالي عناية خاصة بأوليائه ، وأما المنسلخون من ولايته فلا يبالي في أي وادهلكوا .

قوله تعالي : «وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » المراد بالقرية أهل القرية بدليل قوله بعد : « أهلكناهم » إلخ والقرية التي أخرجته ﷺ هي مكة .

و في الآية تقوية لقلب النبي ﷺ و تهديد لأهل مكة و تحقير لأمرهم أن الله أهلك قري كثيرة كل منها أشد قوة من قريتهم ولا ناصر لهم ينصرهم .

قوله تعالي : « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله و اتبعوا أهواءهم » السياق الجاري على قياس حال المؤمنين بحال الكفار يدل على أن المراد بمن كان على بينة من ربه هم المؤمنون فالمراد بكونهم على بينة من ربهم كونهم على دلالة بينة من ربهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه و هي الحججة البرهانية فهم إنما يتبعون الحججة القاطعة على ما هو الحري بالإنسان الذي من شأنه أن يستعمل العقل و يتبع الحق .

وأما الذين كفروا فقد شغفهم أعمالهم السيئة التي زينها لهم الشيطان و تعلقت بها أهواؤهم و عملوا السيئات ، فكم بين الفريقين من فرق .

قوله تعالي : « مثل الجنة التي وعد المتقون » إلى آخر الآية يفرق بين الفريقين ببيان مال أمرهما و هو في الحقيقة توضيح ما مر في قوله : « إن الله يدخل الذين آمنوا » إلخ من الفرق بينهما فهذه الآية في الحقيقة تفصيل تلك الآية .

فقوله : « مثل الجنة التي وعد المتقون » المثل بمعنى الصفة - كما قيل - أي صفة الجنة التي وعد الله المتقين أن يدخلهم فيها ، وربما حمل المثل على معناه

المعروف و استفيد منه أن الجنة أرفع وأعلى من أن يحيط بها الوصف ويحدّها اللفظ و إنما تقرّب إلى الأذهان نوع تقريب بأمثال مضروبة كما يلوح إليه قوله تعالى : «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين» السجدة : ١٧ .

و قد بدل قوله في الآية السابقة : «الذين آمنوا و عملوا الصالحات» في هذه الآية من قوله : «المتّقون» تبديل اللازم من الملزوم فإنّ تقوى الله يستلزم الإيمان به و عمل الصالحات من الأعمال .

و قوله : « فيها أنهار من ماء غير آسن » أي غير متغيّر بطول المقام ، و قوله : « و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه » كما في ألبان الدنيا ، و قوله : « و أنهار من خمر لذّة للشاربين » أي لذيّة للشاربين ، واللذّة إمّا صفة مشبهة مؤنثة وصف للخمر ، و إمّا مصدر وصفت به الخمر مبالغة ، وإمّا بتقدير مضاف أي ذات لذّة ، و قوله : « و أنهار من عسل مصفى » أي خالص من الشمع والرغوة والقذى و سائر ما في عسل الدنيا من الأذى والعيوب ، و قوله : « ولهم فيها من كلّ الثمرات » جمع للتعميم .

و قوله : « و مغفرة من ربهم » ينمحي بها عنهم كلّ ذنب و سيئة فلا تتكدّر عيشتهم بمكدر ولا ينتغص بمنغص ، و في التعبير عنه تعالى برّبهم إشارة إلى غشيان الرحمة و شمول الحنان والرأفة الإلهية .

و قوله : « كمن هو خالد في النار » قياس محذوف أحد طرفيه أي أمن يدخل الجنة التي هذا مثلها كمن هو خالد في النار و شرابهم الماء الشديد الحرارة الذي يقطع أمعاءهم و ما في جوفهم من الأحشاء إذا سقوه ، و إنما يسقونه و هم مكرهون كما في قوله : « و سقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم » ، و قيل : قوله : « كمن هو خالد » الخ بيان لقوله في الآية السابقة : « كمن زين » الخ و هو كما ترى .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله » قال أبو جعفر عليه السلام كرهوا ما أنزل الله في حق علي عليه السلام .

وفيه في قوله تعالى : « كمن زين له سوء عمله » قيل : هم المنافقون و هو المرؤى عن أبي جعفر عليه السلام .

أقول : ويحتمل أن تكون الروايتان من الجري .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم » قال : ليس من هو في هذه الجنة الموصوفة كمن هو في هذه النار كما أن ليس عدو الله كوليته .





وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
 أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
 وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ
 تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ
 أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
 اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
 وَ مُثَوِّبَكُمْ (١٩) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ
 سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ
 إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ
 مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ
 عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢)
 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْمَهُمْ وَ أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا
 يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنْ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى
 أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمَلَى
 لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِعُكُمْ فِي

بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكَةُ
يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ
اللَّهَ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ
فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسْمِيهِمْ وَلَتَعَرَفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)
وَ لَنْبَلُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَ نَبْلُو
أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا
الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيَحْبِطُ
أَعْمَالُهُمْ (٣٢) .

﴿بيان﴾

الآيات جارية على السياق السابق ، و فيها تعرض لحال الذين في قلوبهم مرض
والمناققين و من ارتد بعد إيمانه .

قوله تعالى : « و منهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين
أوتوا العلم ماذا قال آنفا » الخ آنفا اسم فاعل منصوب على الظرفية أو لكونه مفعولا
فيه ، و معناه الساعة التي قبيل ساعتك ، و قيل : معناه هذه الساعة و على أي حال
مأخوذة من الأنف بمعنى الجارحة .

و قوله : « و منهم من يستمع إليك » الضمير للذين كفروا ، والمراد باستماعهم
إلى النبي ﷺ إصغائهم إلى ما يتلوه من القرآن وما يبين لهم من أصول المعارف و
شرائع الدين .

وقوله : « حتى إذا خرجوا من عندك » الضمير للموصول و جمع الضمير باعتبار المعنى كما أن إفراده في « يستمع » باعتبار اللفظ .

وقوله : « قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً » المراد بالذين أوتوا العلم العلماء بالله من الصحابة ، والضمير في « ماذا قال » للنبي ﷺ .

والاستفهام في قولهم : « ماذا قال آنفاً » قيل : للاستعلام حقيقة لأن استعراقهم في الكبر والغرور و اتباع الأهواء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحق كما قال تعالى : « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » النساء : ٧٨ وقيل : للاستهزاء ، وقيل : للتحقير كأن القول لكونه مشحوناً بالأباطيل لا يرجع إلى معنى محصل ، ولكل من المعاني الثلاثة وجه .

وقوله : « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم » تعريف لهم ، وقوله : « و اتبعوا أهواءهم » تعريف بعد تعريف فهو كعطف التفسير ، و يتحصل منه أن اتباع الأهواء أمانة الطبع على القلب فالقلب غير المطبوع عليه الباقي على طهارة الفطرة الأصلية لا يتوقف في فهم المعارف الدينية والحقائق الإلهية .

قوله تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم » لمقابلة الظاهرة بين الآية و بين الآية السابقة يعطى أن المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب و هو التسليم لما تهدي إليه الفطرة السليمة و اتباع الحق ، و زيادة هداهم من الله سبحانه رفعه تعالى درجة إيمانهم ، و قد تقدم أن الهدى والإيمان ذمرا تب مختلفة ، والمراد بالتقوى ما يقابل اتباع الأهواء و هو الورع عن محارم الله والتجنب عن ارتكاب المعاصي .

و بذلك يظهر أن زيادة الهدى راجع إلى تكميلهم في ناحية العلم و إبتاء التقوى إلى تكميلهم في ناحية العمل ، و يظهر أيضاً بالمقابلة أن الطبع على القلوب راجع إلى فقدانهم كمال العلم و اتباع الأهواء راجع إلى فقدانهم العمل الصالح و حرمانهم منه و هذا لا ينافي ما قدمنا أن اتباع الأهواء كعطف التفسير بالنسبة إلى الطبع على القلوب .

قوله تعالى : « فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة فقد جاء أشراطها » الخ النظر هو الانتظار ، والأشراط جمع شرط بمعنى العلامة ، والأصل في معناه الشرط بمعنى ما يتوقف عليه وجود الشيء لأن تحققه علامة تحقق الشيء فأشراط الساعة علاماتها الدالة عليها .

وسياق الآية سياق التهكم كأنهم واقفون موقفا عليهم إما أن يتقربوا الحق فتسعد بذلك عاقبتهم ، وإما أن ينظروا الساعة حتى إذا أيقنوا بوقوعها وأشرفوا عليها تذكروا وآمنوا واتبعوا الحق أما اتباع الحق اليوم فلم يخضوعوا له بحجة أو بموعظة أو عبرة ، وأما انتظارهم مجيء الساعة ليتذكروا عنده فلا ينفعهم شيئاً فإنها تجيء بغتة ولا تمهلهم شيئاً حتى يستعدوا لها بالذكرى وإذا وقعت لم ينفعهم الذكرى لأن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل قال تعالى : « يومئذ يتذكر الإنسان وأنتى له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى » الفجر : ٢٣ .

مضافاً إلى أن أشراطها وعلاماتها قد جاءت وتحققت ، و لعل المراد بأشراطها خلق الإنسان و انقسام نوعه إلى صلحاء و مفسدين و متقين و فجار المستدعي للحكم الفصل بينهم و نزول الموت عليهم فإن ذلك كله من شرائط وقوع الواقعة و إتيان الساعة ، و قيل : المراد بأشراط الساعة ظهور النبي ﷺ و هو خاتم الأنبياء و انشقاق القمر و نزول القرآن و هو آخر الكتب السماوية .

هذا ما يعطيه التدبر في الآية من المعنى وهي - كما ترى - حجة برهانية في عين أنها مسوقة سوق التهكم .

و عليه فقوله : « بغتة » حال من الإتيان جيء به لبيان الواقع و ليتفرع عليه قوله الآتي : « فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » و ليس قيداً للانتظار حتى يفيد أنهم إنما ينتظرون إتيانها بغتة ، ولدفع هذا التوهم قيل : « إلا الساعة أن تأتيهم بغتة » ولم يقل : إلا أن تأتيهم الساعة بغتة .

و قوله : « فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » أنتى خبر مقدم و « ذكراهم » مبتدئ مؤخر و « إذا جاءتهم » معترضة بينهما ، والمعنى فكيف يكون لهم أن يتذكروا إذا

جاءتهم؟ أي كيف ينتفعون بالذكرى في يوم لا ينفع العمل الذي يعمل فيه وإنما هو يوم الجزاء .

و للقوم في معنى جُمِلَ الآية و معناها بالجملة أقوال مختلفة تركنا إيرادها من أرادها فليراجع كتبهم المفصلة .

قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات » الخ قيل : هو متفرع على جميع ما تقدم في السورة من سعادة المؤمنين و شقاوة الكفار كأنه قيل : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء و شقاوة أولئك فأثبت على ما أنت عليه من العلم بوحداية الله سبحانه فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم .

و يمكن أن يكون تفرعاً على ما بيّنه في الآيتين السابقتين أعني قوله : « ومنهم من يستمع إليك - إلى قوله - و آتاهم تقواهم » من أنه تعالى يطبع على قلوب المشركين و يتركهم و ذنوبهم و يعكس الأمر في الذين اهتدوا إلى توحيدده و الايمان به فكأنه قيل : إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحداية الإله و اطلب مغفرة ذنبك و مغفرة أمتك من المؤمنين بك و المؤمنات حتى لا تكون ممن يطبع الله على قلبه و يحرمه التقوى بتركه و ذنوبه ، و يؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية : « والله يعلم متقلبكم و مشواكم » .

فقوله : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » معناه على ما يؤيده السياق فاستمسك بعلمك أنه لا إله إلا الله ، و قوله : « و استغفر لذنبك » تقدم الكلام في معنى الذنب المنسوب إليه ^{والتقوى} و سيأتي أيضاً في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى .

و قوله : « وللمؤمنين و المؤمنات » أمر بطلب المغفرة للأمة من المؤمنين و المؤمنات و حاشا أن يأمر تعالى بالاستغفار ولا يواجهه بالمغفرة أو بالدعاء ولا يقابله بالاستجابة . و قوله : « والله يعلم متقلبكم و مشواكم » تعليل لما في صدر الآية : « فاعلم أنه » الخ ، و الظاهر أن المتقلب مصدر ميمي بمعنى الانتقال من حال إلى حال ، و كذلك المشوى بمعنى الاستقرار و السكون ، والمراد أنه تعالى يعلم كل أحوالكم من متغير

و ثابت و حركة و سكون فأنبتوا على توحيدہ واطلبوا مغفرته ، و احذروا أن يطبع على قلوبكم و يترككم و أهواءكم .

و قيل : المراد بالمتقلب و المشوى التصرف في الحياة الدنيا و الاستقرار في الآخرة و قيل : المتقلب من الأصاب إلى الأرحام و المشوى السكون في الأرض .

و قيل : المتقلب التصرف في اليقظة و المشوى المنام ، و قيل : المتقلب التصرف في المعاش و المكاسب و المشوى الاستقرار في المنازل ، و ما قد مناه أظهر و أعم .

قوله تعالى : « و يقول الذين آمنوا لولا أنزلت سورة » إلى آخر الآية لولا تحضيض أي هلا أنزلت سورة يظهر بها الرغبة في نزول سورة جديدة تأتيهم بتكاليف جديدة يمثلونها ، و المراد بالسورة المحكمة المبينة التي لا تشابه فيها ، و المراد بذكر القتال الأمر به .

و المراد بالذين في قلوبهم مرض ، الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فإن الآية صريحة في أن الذين أظهروا الرغبة في نزولها هم الذين آمنوا ، ولا يعلم الذين آمنوا للمنافقين إلا على طريق المساهلة غير اللاتقة بكلام الله تعالى فالآية كقوله تعالى في فريق من المؤمنين : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة فلمّا كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » النساء : ٧٧ .

و المغشي عليه من الموت هو المحتضر يقال : غشيه غشاوة إذا ستره و غطاه و غشي على فلان - بالبناء للمفعول - إذا نابه ما غشي فهمه ، و نظر المغشي عليه من الموت إشخاصه ببصره إليك من غير أن يطرف .

و قوله : « فأولى لهم » لعلمه خبر لمبتدأ محذوف و التقدير أولى لهم ذلك أي حري بهم أن ينظروا كذلك أي أن يحتضروا فيموتوا ، و عن الأصمعي أن قولهم : « أولى لك » كلمة تهديد معناه وليك و قارك ما تكره ، و الآية نظيرة قوله تعالى : « أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » القيامة : ٣٣ .

و معنى الآية و يقول الذين آمنوا هلا أنزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة

لا تشابه فيها و أمروا فيها بالقتال والجهاد رأيت الضعفاء الإيمان منهم ينظرون إليك من شدة الخشية نظر المحتضر فأولى لهم ذلك .

قوله تعالى : « طاعة و قول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » عزم الأمر أي جدّ و تنجز .

و قوله : « طاعة و قول معروف » كأنّه خبر لمبتدأ محذوف و التقدير أمرنا - أو أمرهم وشأنهم - أي إيمانهم بنا طاعة واثقونا عليها و قول معروف غير منكر قالوا لنا وهو إظهار السمع والطاعة كما يحكيه تعالى عنهم بقوله : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون - إلى أن قال - و قالوا سمعنا و أطعنا » البقرة : ٢٨٥ .

و على هذا يتصل قوله بعده : « فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » بما قبله اتصالاً بيّناً، والمعنى أن الأمر هو ما واثقوا الله عليه من قولهم : سمعنا وأطعنا فلو أنّهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا و أطعوه فيما يأمر به و منه أمر القتال لكان خيراً لهم .

و يحتمل أن يكون قوله : « طاعة » الخ خبراً لضمير عائد إلى القتال المذكور و التقدير القتال المذكور في السورة طاعة منهم و قول معروف فلو أنّهم حين عزم الأمر صدقوا الله في إيمانهم و أطعوه به لكان خيراً لهم . أمّا كونه طاعة منهم فظاهر ، و أمّا كونه قولاً معروفاً فلا نّ إيجاب القتال والأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لا ببطال كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل والعقلاء .

و قيل : إن قوله : « طاعة » الخ مبتدأ محذوف الخبر و التقدير طاعة و قول معروف خير لهم و أمثل ، و قيل : مبتدأ خبره « فأولى لهم » في الآية السابقة فالآية من تمام الآية السابقة ؛ و هو قول رديّ ، و أردء منه ما قيل : إن « طاعة » الخ صفة لسورة في قوله : « فاذا أنزلت سورة » و قيل غير ذلك .

قوله تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » الخطاب للذين في قلوبهم مرض المتشاقلين في أمر الجهاد في سبيل الله ، و قد التفت إليهم بالخطاب لزيادة التوبيخ والتفريع ، والاستفهام للتقرير ، والتوكلي الإعراض والمراد به

الإعراض عن كتاب الله والعمل بما فيه والعود إلى الشرك ورفض الدين .
 والمعنى فهل يتوقع منكم إن أعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه ومنه الجهاد
 في سبيل الله أن تفسدوا في الأرض و تقطعوا أرحامكم بسفك الدماء و نهب الأموال و
 هتك الأعراس تكالفاً على جيفة الدنيا أي إن توليتم كان المتوقع منكم ذلك .
 و قد ظهر بذلك أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : « لكان خيراً
 لهم » و لذا صدر بالفاء .

و قيل : المراد بالتوكلي التصدي للحكم والولاية والمعنى هل يتوقع منكم إن
 جعلتم ولاية أن تفسدوا في الأرض و تقطعوا أرحامكم بسفك الدم الحرام و أخذ الرشاء
 والجور في الحكم هذا ، و هو معنى بعيد عن السياق .

قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » الإشارة إلى
 المفسدين في الأرض المقطعين للأرحام و قد وصفهم الله بأنه لعنهم فأصمهم و أذهب
 بسمعهم فلا يسمعون القول الحق و أعمى أبصارهم فلا يرون الرأي الحق فإنها لا
 تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التي في الصدور .

قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » الاستفهام للتوبيخ
 و ضمير الجمع راجع إلى المذكورين في الآية السابقة ، و تنكير « قلوب » كما قيل
 للدلالة على أن المراد قلوب هؤلاء و أمثالهم .

قال في مجمع البيان : و في هذا دلالة على بطلان قول من قال : لا يجوز تفسير
 شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر و سمع . انتهى

قوله تعالى : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى
 الشيطان سول لهم وأملى لهم » الارتداد على الأدبار الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال
 و هو استعادة أريد بها الترك بعد الأخذ ، والتسويل تزيين ما تحرص النفس عليه و
 تصوير القبيح لها في صورة الحسن ؛ والمراد بالإملاء الإمداد أو تطويل الآمال .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض

الأمر والله يعلم إسرارهم» الإشارة بذلك إلى تسويل الشيطان وإملائه وبالجملة تسلطه عليهم، والمراد «بالذين كرهوا ما نزل الله» هم الذين كفروا كما تقدم في قوله: «والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله» الآية ٩ من السورة.

وقوله: «سنطيعكم في بعض الأمر» مقول قولهم و وعد منهم للكفار بالطاعة وهو كما يلوح من تقييد الطاعة ببعض الأمر على نحو الإجمال كلام من لا يقدر على التظاهر بطاعة من يريد طاعته في جميع الأمور لكونه على خطر من التظاهر بالطاعة المطلقة فيسر إلى من بعده أنه سيطيعه في بعض الأمر وفيما تيسر له ذلك ثم يكتم ذلك ويقعد متربصاً للدوائر.

و يستفاد من ذلك أن هؤلاء كانوا قوماً من المنافقين أسروا إلى الكفار ما حاكه تعالى عنهم و وعدوهم الطاعة لهم مهما تيسر لهم ذلك، ويؤيد ذلك قوله تعالى بعد: «والله يعلم إسرارهم».

واختلفوا في هؤلاء من هم؟ فقيل: هم اليهود قالوا للمنافقين: إن أعلنتم الكفر نصرناكم؛ وقيل: هم اليهود أو اليهود والمنافقون قالوا ذلك للمشركين. ويرد على الوجهين جميعاً أن موضوع الكلام في الآية المرتدون بعد إيمانهم واليهود لم يؤمنوا حتى يرتدوا.

وقيل: هم المنافقون وعدوا اليهود النصر كما قال تعالى: «ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم» الحشر: ١١.

وفيه أن الآية تقبل الانطباق على ذلك كما تقبل الانطباق على اليهود في وعدهم النصر للمشركين على تكلف في صدق الارتداد على كفرهم برسول الله ﷺ بعد تبين رسالته لهم لكن لا دليل من طريق لفظ الآية على ذلك فلعلهم قوم من المنافقين غيرهم.

قوله تعالى: «فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم»

متفرّع على ما قبله ، والمعنى هذا حالهم اليوم يرتدون بعد تبيين الهدى لهم فيفعلون ما يشاؤون فكيف حالهم إذا توفقتهم الملائكة وهم يضربون وجوههم وأدبارهم .
قوله تعالى : « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم » الظاهر أن المراد بما أسخط الله أهواء النفس و تسويات الشيطان المستتعبة للمعاصي والذنوب الموبقة كما قال تعالى : « واتبعوا أهواءهم » وقال : « الشيطان سول لهم وأملى لهم » .

والسخط والرضا من صفاته تعالى الفعلية والمراد بهما العقاب والثواب .
 والإشارة في قوله : « ذلك » إلى ما ذكر في الآية السابقة من عذاب الملائكة لهم عند توفيتهم أي سبب عقابهم أن أعمالهم حابطة لاتباعهم ما أسخط الله و كراحتهم رضوانه ، و إذ لا عمل لهم صالحاً يشقون بالعذاب .

قوله تعالى : « أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم »
 قال الراغب : الضغن - بكسر الضاد - والضغن - بضمها - الحقد الشديد وجمعه أضغان انتهى والمراد بالذين في قلوبهم مرض الضعفاء الإيمان و لعلمهم الذين آمنوا أو لا على ضعف في إيمانهم ثم مالوا إلى النفاق و ارتدوا بعد الإيمان فالتدبر الدقيق في تاريخ صدر الإسلام يوضح أن قوماً ممن آمن بالنبي ﷺ كانوا على هذه الصفة كما أن قوماً منهم آخريين كانوا منافقين من أول يوم آمنوا إلى آخر عمرهم ، و على هذا فعدّهم من المؤمنين فيما تقدّم بملاحظة بادئ أمرهم .

والمعنى بل ظن هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله و لن يظهر أحقادهم للدين و أهله .

قوله تعالى : « و لو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنهم في لحن القول و الله يعلم أعمالكم » السيماء العلامة والمعنى و لو نشاء لأريناك أولئك المرضى القلوب فلعرفتهم بعلامتهم التي أعلمناهم بها .

و قوله : « و لتعرفنهم في لحن القول » قال الراغب : اللحن صرف الكلام عن سننه الجاري عليه : إمّا بإزالة الإعراب أو التصحيف و هو المذموم ، و ذلك أكثر

استعمالاً ، وإما بإزالتها عن التصريح و صرفه إلى تعريض و فحوى ، و هو محمود عند أكثر الأدباء من حيث البلاغة . انتهى .

فالمعنى و لتعرفنهم من جنس قولهم بما يشتمل عليه من الكناية والتعريض ، و في جعل لحن القول ظرفاً للمعرفة نوع من العناية المجازية .

و قوله : « والله يعلم أعمالكم » أي يعلم حقائقها و أنها من أي القصد والنيات صدرت فيجازي المؤمنين بصالح أعمالهم و غيرهم بغيرها ففيه وعد للمؤمنين و وعيد لغيرهم .

قوله تعالى : « ولنبلونكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » البلاء والابتلاء الامتحان والاختبار ، والآية بيان علة كتابة القتال على المؤمنين ، وهو الاختبار الإلهي ليمتاز به المجاهدون في سبيل الله الصابرون على مشاق التكاليف الإلهية .

و قوله : « و نبلو أخباركم » كأن المراد بالأخبار الأعمال من حيث إنها تصدر عن العاملين فيكون أخباراً لهم يخبر بها عنهم ، و اختبار الأعمال يمتاز به صالحها من طالحها كما أن اختبار النفوس يمتاز به النفوس الصالحة الخيرة و قد تقدم فيما تقدم أن المراد بالعلم الحاصل له تعالى من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلك ، وبنظر أدق هو علم فعلي له تعالى خارج عن الذات .

قوله تعالى : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيجذب أعمالهم » المراد بهؤلاء رؤساء الضلال من كفار مكة و من يلحق بهم لأنهم الذين صدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول وعادوه أشد المعاداة بعد ما تبين لهم الهدى .

وقوله : « لن يضروا الله شيئاً » لأن كيد الإنسان ومكره لا يرجع إلا إلى نفسه ولا يضر إلا إياه ، وقوله : « وسيجذب أعمالهم » أي مساعيتهم لهدم أساس الدين وما عملوه لإطفاء نور الله ، وقيل : المراد إحباط أعمالهم وإبطالها فلا يثابون في الآخرة

على شيء من أعمالهم ، والمعنى الأول أنسب للسياق لأن فيه تحريض المؤمنين وتشجيعهم على قتال المشركين وتطبيب نفوسهم أنهم هم الغالبون كما تفيد الآيات التالية .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك » الخ عن الأصمغ بن نباتة عن علي عليه السلام قال : إننا كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيخبرنا بالوحي فأعياه أنا ومن يعيه فإذا خرجنا قالوا : ماذا قال آنفاً .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى .

اقول : وروي هذا اللفظ عنه صلى الله عليه وآله وسلم بطرق أخرى عن أبي هريرة وسهل بن

مسعود .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً بارزاً للناس فأثاه رجل فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها .

إذا ولدت الأمة رببتها فذاك من أشراطها ، وإذا كانت الحفافة العرارة رعاء الشاء رؤس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها . وفي العلل بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث طويل يقول فيه لعبدالله بن سلام وقد سأله عن مسائل : أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .

اقول : ولعل المراد به غير ظاهره ، والأخبار في أشراط الساعة من طرق الشيعة وأهل السنة فوق حد الإحصاء ، وقد مررت في آخر الجزء الخامس من الكتاب رواية سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورواية سمران عن الصادق عليه السلام وهما روايتان جامعتان في الباب .

وفي المجمع قد صحَّ الحديث بالإسناد عن حذيفة بن اليمان قال : كنت رجلاً ذرب اللسان على أهلي فقلت : يا رسول الله إنني لأخشى أن يدخلني لساني النار فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : فأين أنت من الاستغفار؟ إنني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن الأغر المزني قال : قال رسول الله ﷺ : إنه ليغان على قلبي ، وإنني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة .

وفيه في قوله تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم » الآية أخرج البيهقي عن جابر ابن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرحم معلقة بالعرش لها لسان ذلق تقول : اللهم صل من وصلني ، واقطع من قطعني .

اقول: والروايات فيها وفي صلتها وقطعها كثيرة ، وقد مرَّ شرط منها في تفسير أول سورة النساء .

وفي المجمع في قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن » الآية أفلا يتدبرون القرآن فيقضوا ما عليهم من الحق عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام .

وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن عمار قال : سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلت له : يا ابن رسول الله أخبرني عن الله عز وجل هل له رضى وسخط؟ قال : نعم وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين ولكن غضب الله عقابه ورضاه ثوابه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » الآية عن أبي سعيد الخدري قال : لحن القول بغضهم علي بن أبي طالب . قال : كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ بيغضهم علي بن أبي طالب .

قال في المجمع : وروي مثل ذلك عن جابر بن عبد الله الأنصاري . وقال : وعن عبادة بن الصامت قال : كنا نبور أولادنا بحب علي بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحبّه علمنا أنه لغير رشدة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما كنا نعرف المنافقين
على عهد رسول الله ﷺ إلا ببعض علي بن أبي طالب .
وفي أمالي الطوسي بإسناده إلى علي بن أبي طالب أنه قال : قلت أربعاً أنزل الله تعالى
تصديقي بها في كتابه : قلت « المرء مخبوء تحت لسانه فاذا تكلم ظهر » فأنزل الله « و
لتعرفنهم في لحن القول » .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا
 أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا
 وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى
 السَّلَامِ وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِن تَوَمَّنُوا وَ تَتَّقُوا يَأْتِكُمْ أَجُورُكُمْ وَ لَا يُسْئَلُكُمْ
 أَمْوَالُكُمْ (٣٦) إِنْ يُسْئَلُكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَ يُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ (٣٧)
 هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَ مَنْ
 يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا
 يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) .

﴿بيان﴾

لما وصف حال الكفار و أضاف إليه وصف حال الذين في قلوبهم مرض و ثاقلهم
 في أمر القتال و حال من ارتد منهم بعد ، رجع يحذر المؤمنين أن يكونوا أمثالهم
 فيفاوضوا المشركين و يميلوا إليهم فيتبعوا ما أسخط الله و يكرهوا رضوانه فيبطل أعمالهم
 بالحبط ، و في الآيات موعظة لهم بالترغيب و الترهيب و التطميع و التخويف ، و بذلك
 تختتم السورة .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا
 أَعْمَالَكُمْ » الآية و إن كانت في نفسها مستقلة في مدلولها مطلقة في معناها حتى استدلت

الفقهاء بقوله فيها : « ولا تبطلوا أعمالكم » على حرمة إبطال الصلاة بعد الشروع فيها لكنسها من حيث وقوعها في سياق الآيات السابقة المتعوضة لأمر القتال ، وكذا الآيات اللاحقة الجارية على السياق وخاصة ما في ظاهر قوله : « إن الذين كفروا » إلخ من التعليل و ما في قوله : « فلا تهنوا و تدعوا إلى السلم » إلخ من التفريع وبالجملة الآية بالنظر إلى سياقها تدل على إيجاب طاعة الله سبحانه فيما أنزل من الكتاب و شرع من الحكم و إيجاب طاعة الرسول فيما بلغ عن الله سبحانه ، و فيما يُصدر من الأمر من حيث ولايته على المؤمنين في المجتمع الديني ، و على تحذير المؤمنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم كما ابتلي به أولئك الذين انجروا أمر بعضهم أن ارتدوا و ابعثوا ما تبين لهم الهدى .

فالمراد بحسب المورد من طاعة الله طاعته فيما شرع و أنزل من حكم القتال ، و من طاعة الرسول طاعته فيما بلغ منه و فيما أمر به منه و من مقدّماته بماله من الولاية فيه و بإبطال الأعمال التخلف عن حكم القتال كما تخلف المنافقون و أهل الردة .

وقيل : المراد بإبطال الأعمال إحباطها بمنتهى على الله و رسوله بإيمانهم كما في قوله تعالى : « يمتنون عليك أن أسلموا » و قيل : إبطالها بالرياء و السمعة ، و قيل : بالعجب ، و قيل بالكفر و النفاق ، و قيل : المراد إبطال الصدقات بالمن و الأذى كما قال : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن و الأذى » . البقرة : ٢٦٤ و قيل : إبطالها بالمعاصي و قيل : بخصوص الكبائر .

و يرد على هذه الأقوال جميعاً أن كل واحد منها على تقدير صحته و تسليمه مصادق من مصاديق الآية مع الغرض من وقوعها في السياق الذي تقدّمته الإشارة إليه و أمّا من حيث وقوعها في السياق فلا تشمل إلا القتال كما مر .

قوله تعالى : « إن الذين كفروا و صدّوا عن سبيل الله ثم ماتوا و هم كفّار فلن يغفر الله لهم » ظاهر السياق أنّه تعليل لمضمون الآية السابقة فيفيد أنّكم لو لم تطيعوا الله و رسوله و أبطلتم أعمالكم باتّباع ما أسخط الله و كراهة رضوانه أدّاكم ذلك إلى اللعوق بأهل الكفر و الصدّ و لا مغفرة لهم بعد موتهم كذلك أبداً .

والمراد بالصدق عن سبيل الله الإعراض عن الإيمان أو منع الناس أن يؤمنوا .
قوله تعالى : « فلا تهنوا و تدعوا إلى السلم و أنتم الأعلون والله معكم و لن يترككم أعمالكم » تفریع علی ما تقدم ، و قوله : « فلا تهنوا » من الوهن بمعنى الضعف والفتور ، و قوله : « و تدعوا إلى السلم » معطوف علی « تهنوا » واقع فی حینز النهی أي ولا تدعوا إلى السلم ، والسلم بفتح السين الصلح ، و قوله : « و أنتم الأعلون » جملة حالیة أي لا تفعلوا الصلح ، و قوله : « و أنتم الأعلون » جملة حالیة أي لا تفعلوا ذلك والحال أنکم الغالبون ، والمراد بالعلو الغلبة و هی استعادة مشهورة .

و قوله : « والله معكم » معطوف علی « و أنتم الأعلون » بیّن سبب علوهم و يعلمه فالمراد بمعینته تعالی لهم معیة النصر دون المعیة القیومیة الّتی یشیر إليها قوله تعالی : « و هو معكم أينما كنتم » الحديد : ٤ .

و قوله : « و لن يترككم أعمالكم » قال فی المجمع : يقال : وتره يتره وترأ إذا نقصه و منه الحديث ^(١) فكأنه وتر أهله و ماله ، و أصله القطع و منه الترة القطع بالقتل و منه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره انتهى .

فالمعنى لن ينقصكم أعمالكم أي يوقفي أجراها تاماً كاملاً ، و قيل : المعنى لن يضيع أعمالكم ، و قيل : ولن يظلمكم ، والمعاني متقاربة .

ومعنى الآية إذا كانت سبيل عدم طاعة الله ورسوله وإبطال أعمالكم هذا السبيل وكان مؤدباً إلى الحرمان من مغفرة الله أبداً فلا تضعفوا ولا تفتروا في أمر القتال ولا تدعوا المشركين إلى الصلح وترك القتال والحال أنكم أنتم الغالبون والله ناصركم عليهم ولن ينقصكم شيئاً من أجوركم بل يوقيكموها تامّة كاملة .

وفي الآية وعد المؤمنين بالغلبة والظفر إن أطاعوا الله ورسوله فهي كقوله : « فلا تهنوا ولا تحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » آل عمران : ١٣٩ .

قوله تعالى : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم

(١) و هو ما عن النبي صلى الله عليه و آله « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله و

ولا يسألكم أموالكم « ترغيب لهم في الآخرة وتزهيد لهم عن الدنيا ببيان حقيقتها وهي أنها لعب ولهو - وقد مرّ معنى كونها لعباً ولهواً - .

وقوله : « وإن تؤمنوا » الخ أي إن تؤمنوا و تتقوا بطاعته وطاعة رسوله يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم بإزاء ما أعطاكم وظاهر السياق أن المراد بالأموال جميع أموالهم ويؤيده أيضاً الآية التالية .

قوله تعالى : « إن يسألكمها فيحلفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » الإحفاء الإجهاد وتحميل المشقة ، والمراد بالبخل - كما قيل - الكفّ عن الإعطاء ، والأضغان الأحقاد .

والمعنى إن يسألكم جميع أموالكم فيجهدكم بطلب كلّها كفتّم عن الإعطاء لعبيتكم لها ويخرج أحقاد قلوبكم فضلتكم .

قوله تعالى : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل » إلى آخر الآية بمنزلة الاستشهاد في بيان الآية السابقة كأنه قيل : إنه إن يسأل الجميع فيحلفكم تبخلوا ويشهد بذلك أنكم أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله -- وهو بعض أموالكم -- فبعضكم يبخل فيظهر به أنه لو سأل الجميع جميعكم بخلتم . وقوله : « ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه » أي يمنع الخير عن نفسه فإن الله لا يسأل مالهم لينتفع هو به بل لينتفع به المنفقون فيما فيه خير دنياهم وآخرتهم فامتناعهم عن إنفاقه امتناع منهم عن خير أنفسهم ، وإليه يشير قوله بعده : « والله الغني وأنتم الفقراء » والقصران للقلب أي الله هو الغني دونكم وأنتم الفقراء دون الله .

وقوله : « وإن تولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » قيل : عطف على قوله : « وإن تؤمنوا وتتقوا » والمعنى إن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم وإن تولّوا وتعرضوا يستبدل قوماً غيركم بأن يوفّقهم للإيمان دونكم ثم لا يكونوا أمثالكم بل يؤمنون ويتّقون وينفقون في سبيل الله .

﴿ بحث روائى ﴾

في ثواب الأعمال عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من قال : سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنة .

فقال رجل من قریش : يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير . قال : نعم ولكن إياكم أن ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها ، وذلك أن الله عز وجل يقول : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » .

و في تفسير القمي « وإن جنحوا للسلم لكافة فاجنح لها » قال : هي منسوخة بقوله : « فلا تهنوا و تدعوا إلى السلم و أنتم الأعلون والله معكم » .

و في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و الترمذي و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الطبراني في الأوسط و البيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله هذه الآية « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فقالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ؟ ف ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله على منكب سلمان ثم قال : هذا و قومه ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس .

أقول : و روي بطرق أخر عن أبي هريرة مثله . و كذا عن ابن مردويه عن جابر مثله .

و في المجمع و روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : « إن تتولوا » يا معشر العرب « يستبدل قوماً غيركم » يعني الموالي .

و فيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قد والله أبدل خيراً منهم الموالي .

﴿سورة الفتح مدنية وهي تسع وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ
لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ
صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا (٣) هُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ
جُنُودَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيَدْخُلَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَ
يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ
السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ
عَزِيمًا حَكِيمًا (٧) .

﴿بيان﴾

مضامين آيات السورة بفصولها المختلفة ظاهرة الانطباق على قصة صلح الحديبية الواقعة في السنة السادسة من الهجرة وما وقع حولها من الوقائع كقصة تخلف الأعراب وصد المشركين ، وبيعة الشجرة على ما تفصله الآثار وسيجيء شطر منها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

فغرض السورة بيان ما امتنّ تعالى على رسوله ﷺ بما رزقه من الفتح المبين في هذه السفرة ، وعلى المؤمنين ممن معه ، ومدحهم البالغ ، والوعد الجميل للذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات ، والسورة مدنيّة .

قوله تعالى : «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، كلام واقع موقع الامتنان ، وتأكيده الجملة باين و نسبة الفتح إلى نون العظمة وتوصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذي يمتن به .

والمراد بهذا الفتح على ما تؤيدته قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيه ﷺ من الفتح في صلح الحديبية .

وذلك أن ما سيأتي في آيات السورة من الامتنان على النبي ﷺ والمؤمنين ، ومدحهم والرضا عن بيعتهم ووعدهم الجميل في الدنيا بمغانم عاجلة وآجلة وفي الآخرة بالجنة وذم المخلفين من الأعراب إذا استنفرهم رسول الله ﷺ فلم يخرجوا معه ، وذم المشركين في صدّهم النبي ﷺ ومن معه ، وذم المنافقين ، وتصديقه تعالى رؤيا نبيه ﷺ ، وقوله : « فعلم ما لم تعلموا وجعل من دون ذلك فتحة قريباً » - و كاد يكون صريحاً - كل ذلك معان مرتبطة بخروجه ﷺ إلى مكة للحج و انتهاء ذلك إلى صلح الحديبية .

و أما كون هذا الصلح فتحاً مبيناً رزقه الله نبيه ﷺ فظاهر بالتدبير في لحن آيات السورة في هذه القصة فقد كان خروج النبي ﷺ والمؤمنين إلى هذه البغية خروجاً على خطر عظيم لا يرجى معه رجوعهم إلى المدينة عادة كما يشير إليه قوله تعالى : « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً » والمشركون من صنديد قريش ومن يتبعهم على مالهم من الشوكة والقوة والعداوة مع النبي ﷺ والمؤمنين لم يتوسط بينهم منذ سنين إلا السيف و لم يجمعهم جامع غير معركة القتال كغزوة بدر و أحد والأحزاب ، و لم يخرج مع النبي ﷺ إلا شزيمة قليلون - ألف و أربعمائة - لا قدر لهم عند جموع المشركين و هم في عقر دارهم .

لكن الله سبحانه قلب الأمر للنبي ﷺ والمؤمنين على المشركين فرضوا بما لم

يكن مطموعا فيه متوقفاً منهم فسألوا النبي ﷺ أن يصالحهم على ترك القتال عشر سنين ، و على تأمين كل من القبيلين أتباع الآخر و من لحق به ، و على أن يرجع النبي ﷺ إلى المدينة عامه هذا ثم يقدم إلى مكة العام القابل فيخلوا له المسجد والكعبة ثلاثة أيام .

و هذا من أوضح الفتح رزقه الله نبيه ﷺ و كان من أمس الأسباب بفتح مكة سنة ثمان من الهجرة فقد آمن جمع كثير من المشركين في السنتين بين الصلح وفتح مكة ، و فتح في أوائل سنة سبع خيبر و ما والاه و قوي به المسلمون و اتسع الإسلام اتساعاً بيناً و كثر جمعهم و انتشر صيتهم و أشغلوا بلاداً كثيرة ، و خرج النبي ﷺ لفتح مكة في عشرة آلاف أو في اثني عشر ألفاً ، و قد كان خرج إلى حديبية في ألف و أربعمائة على ما تفصله الآثار .

و قيل : المراد بالفتح فتح مكة فالمراد بقوله : « إنا فتحنا لك » إنا قضينا لك فتح مكة ، و فيه أن القرائن لا تساعده .

و قيل : المراد به فتح خيبر ، و معناه - على تقدير نزول السورة عند مرجع النبي ﷺ من الحديبية إلى المدينة - إنا قضينا لك فتح خيبر ، و حال هذا القول أيضاً كسابقه .

وقيل : المراد به الفتح المعنوي وهو الظفر على الأعداء بالحجج البيّنة والمعجزات الباهرة التي غلب بها كلمة الحق على الباطل و ظهر الإسلام على الدين كله ، و هذا الوجه و إن كان في نفسه لا بأس به لكن سياق الآيات لا يلائمه .

قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر » و يتم نعمته عليك و يهديك صراطاً مستقيماً و ينصرك الله نصراً عزيزاً « اللام في قوله : « ليغفر » للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ فظاهره أن الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفرة ما تقدم من ذنبك و ما تأخر ، و من المعلوم أن لرابطة بين الفتح و بين مغفرة الذنب ولا معنى معقولا لتعليله بالمغفرة .

و قول بعضهم فرارا عن الإشكال : إن اللام المكسورة في « ليغفر » لام القسم

والأصل ليغفرن^١ حذف نون التأكيد وبقي ما قبلها مفتوحاً للدلالة على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال .

وكذا قول بعض آخر فراراً عن الإشكال : «إن العلة هو مجموع المغفرة وما عطف عليه من إتمام النعمة والهداية والنصر العزيز من حيث المجموع فلا ينافي عدم كون البعض أي مغفرة الذنب في نفسه علة للفتح» كلام سخي لا يغني طائلاً فإن مغفرة الذنب لا هي علة أو جزء علة للفتح ولا مرتبطة نوع ارتباط بما عطف عليها حتى يوجه دخولها في ضمن علة فلا مصحح لذكرها وحدها ولا مع العلة وفي ضمنها .

وبالجمله هذا الإشكال نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب في الآية هو الذنب المعروف وهو مخالفة التكليف الملوي^٢ ، ولا المراد بالمغفرة معناها المعروف وهو ترك العقاب على المخالفة المذكورة فالذنب في اللغة على ما يستفاد من موارد استعماله هو العمل الذي له تبعه سيئة كيفما كان ، والمغفرة هي الستر على الشيء ، وأما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظي الذنب والمغفرة إلى أذهاننا اليوم أعني مخالفة الأمر الملوي^٣ المستتبع للعقاب و ترك العقاب عليها فإنما لزمها بحسب عرف المتشرعين .

وقيام النبي ﷺ بالدعوة ونهضته على الكفر والوثنية فيما تقدم على الهجرة وإدامته ذلك وما وقع له من الحروب والمغازي مع الكفار والمشركين فيما تأخر عن الهجرة كان عملاً منه ﷺ ذا تبعه سيئة عند الكفار والمشركين وما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة ومقدرة ، وما كانوا لينسوا زهوق ملتهم وانهدام سنتهم وطريقتهم ، ولا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه وإمحاء اسمه وإعفاء رسمه غير أن الله سبحانه رزقه ﷺ هذا الفتح وهو فتح مكة أو فتح الحديبية المنتهي إلى فتح مكة فذهب بشوكتهم وأخمد نارهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه ﷺ من الذنب وآمنه منهم .

فالمراد بالذنب - والله أعلم - التبعة السيئة التي لدعوته ﷺ عند الكفار والمشركين وهو ذنب لهم عليه كما في قول موسى لربه : « و لهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون » الشعراء : ١٤ وما تقدم من ذنبه هو ما كان منه ﷺ بمكة قبل الهجرة ، و

ما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة ، و مغفرته تعالى لذنبه هي ستره عليه
بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم وهدم بنياتهم ، و يؤيد ذلك ما يتلوه من قوله : « ويتم
نعمته عليك - إلى أن قال - و ينصر الله نصراً عزيزاً » .

و للمفسرين في الآية مذاهب مختلفة أحر :

فمن ذلك أن المراد بذنبه والتكذيب ما صدر عنه من المعصية ، والمراد بما تقدم
منه و ما تأخر ما صدر عنه قبل النبوة و بعدها ، و قيل : ما صدر قبل الفتح و ما
صدر بعده .

وفيه أنه مبني على جواز صدور المعصية عن الأنبياء والتكذيب وهو خلاف ما يقطع
به الكتاب والسنة والعقل من عصمتهم والتكذيب وقد تقدم البحث عنه في الجزء الثاني من
الكتاب وغيره .

على أن إشكال عدم الارتباط بين الفتح والمغفرة على حاله .

و من ذلك أن المراد بمغفرة ما تقدم من ذنبه و ما تأخر مغفرة ما وقع من
معصيته و ما لم يقع بمعنى الوعد بمغفرة ما سيقع منه إذا وقع لثلاً يرد الإشكال بأن
مغفرة ما لم يتحقق من المعصية لا معنى له .

وفيه مضافاً إلى ورود ما ورد على سابقه عليه أن مغفرة ما سيقع من المعصية
قبل وقوعه تلازم ارتفاع التكليف عنه والتكليف عامة ، و يدفعه نص كلامه تعالى في آيات
كثيرة كقوله تعالى : « إننا أنزلنا عليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين »
الزمر : ٢ ، و قوله : « وأمرت أن أكون أول المسلمين » الزمر : ١٢ إلى غير ذلك
من الآيات التي تأتي بسياقها التخصيص .

على أن من الذنوب والمعاصي مثل الشرك بالله و افتراء الكذب على الله والاستهزاء
بآيات الله والإفساد في الأرض و هتك المحارم ، و إطلاق مغفرة الذنوب يشملها ولا
معنى لأن يبعث الله عبداً من عباده فيأمره أن يقيم دينه على ساق و يصلح به الأرض
فإنها فتح له و نصره و أظهره على ما يريد يجيز له مخالفة ما أمره و هدم ما بناه وإفساد
ما أصلحه بمغفرة كل مخالفة و معصية منه والعفو عن كل ما تقوا له و افتراء على الله ، و

فعله تبليغ كقوله ، وقد قال تعالى: «ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين
ثم لقطعنا منه الوتين» الحاقّة : ٤٦ .

و من ذلك قول بعضهم : إن المراد بمغفرة ما تقدّم من ذنبه مغفرة ما تقدّم
من ذنب أبيه آدم و حواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ببركته ﷺ والمراد بمغفرة ما تأخّر منه مغفرة
ذنوب أمته بدعائه .

و فيه ورود ما ورد على ما تقدّم عليه .

و من ذلك أن الكلام في معنى التقدير و إن كان في سياق التحقيق والمعنى
ليغفر لك الله قديم ذنبك و حديثه لو كان لك ذنب .

و فيه أنه أخذ بخلاف الظاهر من غير دليل .

و من ذلك أن القول خارج مخرج التعظيم و حسن الخطاب والمعنى غفر الله
لك كما في قوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » التوبة : ٤٣ .

و فيه أن العادة جرت في هذا النوع من الخطاب أن يورد بلفظ الدعاء .

كما قيل .

و من ذلك أن المراد بالذنب في حقه ﷺ ترك الأولى وهو مخالفة الأمر
الإرشادية دون التمرد عن امتثال التكليف الملويّة ، والأ نبياء على ما هم عليه من
درجات القرب يؤاخذون على ترك ما هو أولى كما يؤاخذ غيرهم على المعاصي والمعروفة
كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقرّبين .

و من ذلك ما ارتضاه جمع من أصحابنا من أن المراد بمغفرة ما تقدّم من ذنبه وما
تأخّر مغفرة ما تقدّم من ذنوب أمته وما تأخّر منها بشفاعته ﷺ ، ولا ضير في إضافة
ذنوب أمته ﷺ إليه للاتصال والسبب بينه و بين أمته .

و هذا الوجه والوجه السابق عليه سليمان عن عامّة الإشكالات لكن إشكال عدم
الارتباط بين الفتح والمغفرة على حاله .

و من ذلك ما عن علم الهدى رحمه الله أن الذنب مصدر ، والمصدر يجوز إضافته
إلى الفاعل والمفعول معاً فيكون هنا مضافاً إلى المفعول ، والمراد ما تقدّم من ذنبهم

إليك في منعهم إيتاك من مكة وصدّهم لك عن المسجد الحرام ، ويكون معنى المغفرة على هذا الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين أي يزيل الله تعالى ذلك عنك ويستر عليك تلك الوصمة بما يفتح لك من مكّة فتدخلها فيما بعد .

وهذا الوجه قريب المأخذ مما قدّمناه من الوجه ، ولا بأس به لو لم يكن فيه بعض المخالفة لظاهر الآية .

وفي قوله : « ليغفر لك الله » النخ بعد قوله : « إنّنا فتحنا لك » التفات من التكلم إلى الغيبة ولعلّ الوجه فيه أن محصل السورة امتنانه تعالى على النبي ﷺ والمؤمنين بما رزق من الفتح وإنزال السكينة والنصر وسائر ما وعدهم فيها فناسب أن يكون السياق الجاري في السورة سياق الغيبة ويذكر تعالى فيها باسمه وينسب إليه النصر بما يعبدونه نبيّه والمؤمنون وحده قبال ما لا يعبدونه المشركون وإنّما يعبدون آلهة من دونه طمعاً في نصرهم ولا ينصرونهم .

وأما سياق التكلم مع الغير المشعر بالعظمة في الآية الأولى فلمناسبتة ذكر الفتح فيها ويجري الكلام في قوله تعالى الآتي : « إنّنا أرسلناك شاهداً » الآية .

وقوله : « ويتم نعمته عليك » قيل : أي يتمّها عليك في الدنيا بإظهارك على عدوك وإعلاء أمرك وتمكين دينك ، وفي الآخرة برفع درجتك ، وقيل : أي يتمّها عليك بفتح خبير ومكّة والطائف .

وقوله : « ويهديك صراطاً مستقيماً » قيل : أي ويثبتك على صراط يؤدّي بسالكه إلى الجنّة ، وقيل : أي ويهديك إلى مستقيم الصراط في تبليغ الأحكام وإجراء الحدود .

وقوله : « وينصرك الله نصراً عزيزاً » قيل : النصر العزيز هو ما يمتنع به من كلّ جبار عنيد وعات مرید وقد فعل نبيّه ﷺ ذلك إن جعل دينه أعزّ الأديان وسلطاناه أعظم السلطان ، وقيل : المراد بالنصر العزيز ما هو نادر الوجود قليل النصر أو عديمه ونصره تعالى لنبيّه ﷺ كذلك كما يظهر بقياس حاله في أوّل بعثته إلى حاله في آخر أيام دعوته .

والتدبر في سياق الآيتين بالبناء على ما تقدم من معنى قوله : « إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » يعطى أن يكون المراد بقوله : « ويتم نعمته عليك » هو تمهيدته تعالى له ﷺ لتمام الكلمة وتصفيته الجو لنصره نصراً عزيزاً بعد رفع الموانع بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وبقوله : « ويهديك صراطاً مستقيماً » هدايته ﷺ بعد تصفية الجو له إلى الطريق الموصل إلى الغاية الذي سلكه بعد الرجوع من الحديبية من فتح خيبر وبسط سلطة الدين في أقطار الجزيرة حتى انتهى إلى فتح مكة والطائف .

وبقوله : « وينصرك الله نصراً عزيزاً » نصره له ﷺ ذاك النصر الظاهر الباهر الذي فلماً يوجد - أولاً يوجد - له نظير إن فتح له مكة والطائف وانبسط الإسلام في أرض الجزيرة وانقلع الشرك وذل اليهود وخضع له نصارى الجزيرة والمجوس القاطنون بها ، وأكمل تعالى للناس دينهم وأنتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً .

قوله تعالى : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » الخ الظاهر أن المراد بالسكينة سكون النفس وثباتها واطمئنانها إلى ما آمنت به ، ولذا عكّل إنزالها فيها بقوله : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » وقد تقدم البحث عن السكينة في ذيل قوله تعالى : « أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم » البقرة : ٢٤٨ في الجزء الثاني من الكتاب وذكرنا هناك أنها تنطبق على روح الإيمان المذكور في قوله تعالى : « وأيدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ .

وقيل : السكينة هي الرحمة ، وقيل : العقل ، وقيل : الوفاق والعصمة لله ولرسوله وقيل : الميل إلى ما جاء به الرسول ﷺ ، وقيل : ملك يسكن قلب المؤمن ، وقيل : شيء له رأس كرأس الهرّة وهذه أقاويل لا دليل على شيء منها .

والمراد بإنزال السكينة في قلوبهم إيجادها فيها بعد عدمها فكثيراً ما يعبر في القرآن عن الخلق والإيجاد بالإنزال كقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ ، وقوله : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ ، وقوله : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ . وإنما عبر عن الخلق

والإيجاد بالإيزال للإشارة إلى علو مبدئه .

وقيل : المراد بالإيزال الإسكان والإقرار من قولهم : نزل في مكان كذا أي حط رحله فيه وأنزلته فيه أي حططت رحله فيه هذا .

وهو معنى غير معهود في كلامه تعالى مع كثرة وروده فيه ، ولعل الباعث لهم على اختيار هذا المعنى تعديته في الآية بلفظة « في » إذ قال : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » لكنّه عناية كلامية لوحظ فيها تعلق السكينة بالقلوب تعلق الاستقرار فيها كما لوحظ تعلقها تعلق الوقوع عليها من علو في قوله الآتي : « فأنزل السكينة عليهم » الآية وقوله : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الآية .

والمراد بزيادة الإيمان اشتداده فإن الإيمان بشيء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتب عليه آثاره العملية ، ومن المعلوم أن كلاً من العلم والالتزام المذكورين مما يشدد ويضعف فالإيمان الذي هو العلم المتلبس بالإلتزام يشدد ويضعف .

فمعنى الآية الله الذي أوجد الثبات والاطمئنان الذي هو لازم مرتبة من مراتب الروح في قلوب المؤمنين ليشتد به الإيمان الذي كان لهم قبل نزول السكينة فيصير أكمل مما كان قبل .

﴿ كلام في الإيمان وازدياده ﴾

الإيمان بالشيء ليس مجرد العلم الحاصل به كما يستفاد من أمثال قوله تعالى : « إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى » سورة محمد : ٢٥ ، وقوله : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى » سورة محمد : ٣٢ ، وقوله : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ ، وقوله : « و أضله الله على علم » الجاثية : ٢٣ فالآيات - كما ترى - تثبت الارتداد والكفر والجحود والضلال مع العلم .

فمجرد العلم بالشيء والجزم بكونه حقاً لا يكفي في حصول الإيمان واتصاف

من حصل له به ، بل لا بد من الالتزام بمقتضاه وعقد القلب على مؤداه بحيث يترتب عليه آثاره العملية ولو في الجملة ، فالذي حصل له العلم بأن الله تعالى إله لا إله غيره فالتزم بمقتضاه وهو عبوديته وعبادته وحده كان مؤمناً ولو علم به ولم يلتزم فإم يأت بشيء من الأعمال المظهرة للعبودية كان عالماً وليس بمؤمن .

ومن هنا يظهر بطلان ما قيل : إن الإيمان هو مجرد العلم والتصديق وذلك لما مر أن العلم ربمما يجامع الكفر .

ومن هنا يظهر أيضاً بطلان ما قيل : إن الإيمان هو العمل ، وذلك لأن العمل يجامع النفاق فالمنافق له عمل وربمما كان ممن ظهر له الحق ظهوراً علمياً ولا إيمان له على أي حال .

وإن كان الإيمان هو العلم بالشيء مع الالتزام به بحيث يترتب عليه آثاره العملية ، وكل من العلم والالتزام مما يزداد وينقص ويشتد ويضعف كان الإيمان المؤلّف منهما قابلاً للزيادة والنقيصة والشدة والضعف باختلاف المراتب وتفاوت الدرجات من الضروريات التي لا يشك فيها قط .

هذا ما ذهب إليه الأكثر وهو الحق ويدل عليه من النقل قوله تعالى : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » وغيره من الآيات ، وما ورد من أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام الدالة على أن الإيمان ذو مراتب .

وذهب جمع منهم أبو حنيفة وإمام الحرمين وغيرهما إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، واحتجوا عليه بأن الإيمان اسم للتصديق البالغ حد الجزم والقطع وهو مما لا يتصور فيه الزيادة والنقصان فالصدق إذا ضم إلى تصديقه الطاعات أوضم إليه المعاصي فتصديقه بحاله لم يتغير أصلاً .

وأولوا ما دل من الآيات على قبوله الزيادة والنقصان بأن الإيمان عرض لا يبقى بشخصه بل بتجدد الأمثال فهو بحسب انطباقه على الزمان بأمثاله المتجددة يزيد وينقص كوقوعه للنبي ﷺ مثلاً على التوالي من غير فترة متخللة وفي غيره بفترات

قليلة أو كثيرة فالمراد بزيادة الإيمان توالي أجزاء الإيمان من غير فترة أصلاً أو بفترات قليلة .

وأيضاً للإيمان كثرة بكثرة ما يؤمن به ، وشرائع الدين لما كانت تنزل تدريجاً والمؤمنون يؤمنون بما ينزل منها وكان يزيد عدد الأحكام حيناً بعد حين كان إيمانهم أيضاً يزيد تدريجاً ، وبالجملة المراد بزيادة الإيمان كثرته عدداً .

وهو يبين الضعف ، أما الحجّة ففيها أو لا أن قولهم : الإيمان اسم للتصديق الجازم ممنوع بل هو اسم للتصديق الجازم الذي معه الالتزام كما تقدم بيانه اللهم إلا أن يكون مرادهم بالتصديق العلم مع الالتزام .

و ثانياً أن قولهم : إن هذا التصديق لا يختلف بالزيادة والنقصان دعوى بلا دليل بل مصادرة على المطلوب و بناؤه على كون الإيمان عرضاً و بقاء الأعراض على نحو تجدّد الأمثال لا ينفعهم شيئاً فإن من الإيمان ما لا تحركه العواصف و منه ما يزول بأدنى سبب يعترض و أوهن شبهة تطرأ ، وهذا ممّا لا يعكّل بتجدّد الأمثال و قلة الفترات و كثرتها بل لا بدّ من استناده إلى قوّة الإيمان و ضعفه سواء قلنا بتجدّد الأمثال أم لا .

مضافاً إلى بطلان تجدّد الأمثال على ما بيّن في محله .

و قولهم : إن المصدق إذا ضمّ إليه الطاعات أو ضمّ إليه المعاصي لم يتغيّر حاله أصلاً ممنوع فقوّة الإيمان بمزاولة الطاعات و ضعفها بارتكاب المعاصي ممّا لا ينبغي الارتباب فيه ، و قوّة الأثر و ضعفه كاشفة عن قوّة مبدء الأثر و ضعفه قال تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه » فاطر : ١٠ . و قال : « ثمّ كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله و كانوا يستهزؤن » الروم : ١٠

و أمّا ما ذكروه من التأويل فأوّل التأويلين يوجب كون من لم يستكمل الإيمان و هو الذي في قلبه فترات خالية من أجزاء الإيمان على ما ذكره مؤمننا و كافرناً حقيقة و هذا ممّا لا يساعده ولا يشعر به شيء من كلامه تعالى .

وأما قوله تعالى : « ولا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ فهو إلى الدلالة على كون الإيمان ممّا يزيد وينقص أقرب منه إلى الدلالة على نفيه فإنّ مدلوله أنّهم مؤمنون في حال أنّهم مشركون فإنّ إيمانهم بالنسبة إلى الشرك المحض وشرك بالنسبة إلى الإيمان المحض ، وهذا معنى قبول الإيمان للزيادة والنقصان .

و ثاني التّأويلين تفيد أنّ الزيادة في الإيمان وكثرته إنّما هي بكثرة ما تعلق به وهو الأحكام والشرائع المنزلة من عند الله فهي صفة للإيمان بحال متعلّقه والسبب في اتّصافه بها هو متعلّقه ، ولو كان هذه الزيادة هي المرادة من قوله : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » كان الأنسب أن تجعل زيادة الإيمان في الآية غاية لتشريع الأحكام الكثيرة وإنزالها لا تزال السكينة في قلوب المؤمنين هذا .

و حمل بعضهم زيادة الإيمان في الآية على زيادة أثره وهو النور المشرق منه على القلب .

وفيه أنّ زيادة الأثر وقوته فرع زيادة المؤثر وقوته فالمعنى لاختصاص أحد الأمرين المتساويين من جميع الجهات بأثر يزيد على أثر الآخر .

و ذكر بعضهم أنّ الإيمان الذي هو مدخول مع في قوله : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » الإيمان الفطريّ والإيمان المذكور قبله هو الإيمان الاستدلاليّ والمعنى ليزدادوا إيماناً استدلالياً على إيمانهم الفطريّ .

وفيه أنّه دعوى من غير دليل يدلّ عليه . على أنّ الإيمان الفطريّ أيضاً استدلاليّ فمتعلّق العلم والإيمان على أيّ حال أمر نظريّ لا بديهيّ .

وقال بعضهم كالإمام الرازيّ : إنّ النزاع في قبول الإيمان للزيادة والنقص وعدم قبوله نزاع لفظيّ فمراد النافين عدم قبول أصل الإيمان وهو التصديق ذلك وهو كذلك لعدم قبوله الزيادة والنقصان ، و مراد المبتئين قبول ما به كمال الإيمان وهو الأعمال للزيادة والنقصان وهو كذلك بلا شك .

و فيه أو لا أن فيه خلطاً بين التصديق والإيمان فالإيمان تصديق مع الالتزام
و ليس مجرد التصديق فقط كما تقدم بيانه .

و ثانياً أن نسبة نفى الزيادة في أصل الإيمان إلى المثبتين غير صحيحة فهم إنما
يثبتون الزيادة في أصل الإيمان ، و يرون أن كلاً من العلم والالتزام المؤلّف منهما
الإيمان يقبل القوة والضعف .

و ثالثاً أن إدخال الأعمال في محل النزاع غير صحيح لأن النزاع في شيء غير
النزاع في أثره الذي به كماله ولا نزاع لأحد في أن الأعمال والطاعات تقبل العدم
و تقل و تكثر بحسب تكرّر الواحد .



و قوله : « والله جنود السماوات والأرض » الجند هو الجمع الغليظ من الناس
إذا جمعهم غرض يعملون لأجله و لذا أطلق على العسكر المجتمعين على إجراء ما يأمر
به أميرهم ، والسياف يشهد أن المراد بجنود السماوات والأرض الأسباب الموجودة في
العالم مما يرى ولا يرى من الخلق فهي وسائط متخلّلة بينه تعالى وبين ما يريد من شيء
تطيعه ولا تعصاه .

و إيراد الجملة أعني قوله : « والله جنود » الخ بعد قوله : « هو الذي أنزل
السكينة » الخ للدلالة على أن له جميع الأسباب والعلل التي في الوجود فله أن يبلغ
إلى ما يشاء بما يشاء ولا يغلبه شيء في ذلك ، وقد نسبت إلى زيادة إيمان المؤمنين بانزال
السكينة في قلوبهم .

و قوله : « و كان الله عزيزاً حكيماً » أي منيعاً جانبه لا يغلبه شيء متقناً في فعله
لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته والجملة بيان تعليلي لقوله : « والله جنود » الخ كما أنه
بيان تعليلي لقوله : « هو الذي أنزل السكينة » الخ كأنه قيل : أنزل السكينة لكذا
و له ذلك لأن له جميع الجنود والأسباب لأنه العزيز على الإطلاق والحكيم على
الإطلاق .

قوله تعالى : « ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار » إلى آخر الآية ، تعليل آخر لقوله : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » على المعنى كما أن قوله : « ليزدادوا إيماناً » تعليل له بحسب اللفظ كأنه قيل : خص المؤمنين بانزال السكينة وحرّم على غيرهم ذلك ليزداد إيمان هؤلاء مع إيمانهم وحققة ذلك أن يدخل هؤلاء الجنة و يعذب أولئك فيكون قوله : « ليدخل » بدلا أو عطف بيان من قوله : « ليزدادوا » الخ .

و في متعلق لام « ليدخل » الخ أقوال أخر كالقول بتعلقها بقوله : « فتحنا » أو قوله : « يزدادوا » أو بجميع ما تقدم إلى غير ذلك مما لا جدوى ليراده .
و ضمّ المؤمنات إلى المؤمنين في الآية لدفع توهم اختصاص الجنة و تكفير السيئات بالذكر لوقوع الآية في سياق الكلام في الجهاد ، والجهاد والفتح واقعان على أيديهم فصرّح باسم المؤمنات لدفع التوهم كما قيل .
و ضمير « خالدين » و « يكفر عنهم سيئاتهم » للمؤمنين والمؤمنات جميعاً على التغليب .

و قوله : « و كان ذلك عند الله فوزاً عظيماً » بيان لكون ذلك سعادة حقيقية لا ريب فيها لكونه عند الله كذلك و هو يقول الحق .

قوله تعالى : « و يعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات » إلى آخر الآية معطوف على قوله : « يدخل » بالمعنى الذي تقدم ، وتقديم المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات في الآية لكونهم أضرب على المسلمين من أهل الشرك ولأنّ عذاب أهل النفاق أشدّ قال تعالى : « إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار » .

وقوله : « الظانين بالله ظنّ سوء » السوء بالفتح فالسكون مصدر بمعنى القبح والسوء بالضم اسم مصدر ، و ظنّ سوء هو ظنّهم أنّ الله لا ينصر رسوله وقيل : المراد بظنّ سوء ما يعم ذلك و سائر ظنونهم السيئة من الشرك والكفر .

و قوله : « عليهم دائرة السوء » دعاء عليهم أو قضاء عليهم أي ليستضرّوا بدائرة السوء التي تدور لتصيب من تصيب من الهلاك والعذاب .

و قوله : « و غضب الله عليهم و لعنهم و أعد لهم جهنم » معطوف على قوله :
« عليهم دائرة » النخ ، و قوله : « و ساءت مصيراً » بيان مسأمة مصيرهم كما أن قوله :
« و كان عند الله فوزاً عظيماً » بيان لحسن مصير أهل الإيمان .
قوله تعالى : « و لله جنود السماوات والأرض » تقدّم معناه والظاهر أنه بيان
تعليقيّ للآيتين أعني قوله : « ليدخل المؤمنون والمؤمنات - إلى قوله - و أعد لهم
جهنم » على حدّ ما كان مثله فيما تقدّم بياناً تعليلياً لقوله : « أنزل السكينة في قلوب
المؤمنين » النخ .
وقيل : إن مضمونه متعلّق بالآية الأخيرة فهو تهديد لهم أنّهم في قبضة قدرته
فينتقم منهم ، والوجه الأوّل أظهر .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « إنّنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » حدّثني أبي عن ابن
أبي عمير عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان سبب نزول هذه الآية و هذا الفتح
أنّ الله جلّ و عزّ أمر رسوله صلى الله عليه وآله في النوم أن يدخل المسجد الحرام و يطوف و
يحلق مع المحلّقين فأخبر أصحابه و أمرهم بالخروج فخرجوا .
فلما نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة و ساقوا البدن و ساق رسول الله صلى الله عليه وآله
و ستين بدنة و أحرموا من ذي الحليفة ملبّين بالعمرة و قد ساق من ساق منهم الهدى
معرّات مجلّلات .

فلما بلغ قريشا بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً يستقبل رسول الله
صلى الله عليه و آله فكان يعارضه على الجبال فلما كان في بعض الطريق حضرت صلاة
الظهر فأذن بلال فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالناس فقال خالد بن الوليد : لو كنّا حملنا
عليهم و هم في الصلاة لأصنأهم لأنهم لا يقطعون صلاتهم ولكن تجبىء الآن لهم صلاة
أخرى أحبّ إليهم من ضياء أبقارهم فاذا دخاوا في الصلاة أغرنا عليهم فنزل جبرئيل

على رسول الله ﷺ بصلاة الخوف في قوله عز وجل : « فإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة » الآية .

قال : فلما كان في اليوم الثاني نزل رسول الله ﷺ الحديبية ، وكان رسول الله ﷺ يستنفر الأعراب في طريقه فلم يتبعه أحد ويقولون : أيطمع محمد وأصحابه أن يدخلوا الحرم وقد غزتهم قريش في عقربارهم فقتلوهم ، إنه لا يرجع محمد وأصحابه إلى المدينة أبداً . الحديث .

وفي المجمع : قال ابن عباس : إن رسول الله ﷺ خرج يريد مكة فلما بلغ الحديبية وقفت ناقته فزجرها فلم تنزجر و بركت الناقة فقال أصحابه خلأت الناقة فقال ما هذا لها عادة ولكن حبسها حابس الفيل .

ودعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة ليأذنوا له بأن يدخل مكة ويحل من عمرته وينحر هديه فقال : يا رسول الله مالي بها حميم وإنني أخاف قريشا لشدة عداوتي إياها ولكن أدلك على رجل هو أعز بها مني عثمان بن عفان فقال : صدقت .

فدعا رسول الله ﷺ عثمان فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمة فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل . فقال ﷺ : لا تبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فقام رسول الله ﷺ إلى الشجرة واستند إليها وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفرّوا . قال عبدالله بن مغفل : كنت قائماً على رأس رسول الله ﷺ ذلك اليوم ويدي غصن من السمرة أذب عنه وهو يبايع الناس فلم يبايعهم على الموت وإنما يبايعهم على أن لا يفرّوا .

وروى الزهري وعروة بن الزبير والمسور بن مخرمة قالوا : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة في بضع عشرة مائة من أصحابه حتى إذا كانوا بذى الحليفة قلده رسول الله ﷺ الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش .

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط قريبا من عسفان أتاه عينه الخزاعي فقال : إنني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش وجمعوا جموعا وهم قاتلوك أو مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال ﷺ : روحوا فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ : إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين .

فسار حتى إذا كان بالثنية بركت راحلته فقال ﷺ : ما خلأت القصواء ولكن حبسها حابس الفيل . ثم قال : والله لا يسألوني خطبة يعظّمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت به .

قال : فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمذ قليل الماء وإنما يتبرّضه الناس تبرّضاً فشكوا إليه العطش فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه في الماء فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه .

فبيناهم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إنني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال رسول الله ﷺ : إننا لم نجىء لقتال أحد وإننا جننا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم فإن شاؤا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، وإن شاؤا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالقتي أو لينفذ الله تعالى أمره ، فقال بديل : سأبلغهم ما تقول .

فانطلق حتى أتى قريشا فقال : إننا قد جئناكم من عند هذا الرجل وإنه يقول : كذا وكذا فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال : إنّه قد عرض عليكم خطبة رشد فاقبلوها ودعوني آتة فقالوا : آتته فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ نحواً من قوله لبديل .

فقال عروة عند ذلك : أي تجد رأيت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فوالله إنني لأرى وجوهاً وأرى اشابا

من الناس خلقاء أن يفرّوا و يدعوك فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات أنحن نفر
عنه وندعه؟ فقال : من ذا؟ قال : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده لو لا يد
كانت لك عندي لم أجرك بها لأجبتك .

قال : وجعل يكلم النبي ﷺ وكلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم
على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر فكلماه أهوى عروة بيده إلى لحية
رسول الله ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال : آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ
قبل أن لا ترجع إليك ، فقال : من هذا؟ قال : المغيرة بن شعبة . قال : أي غدّر
أولست أسعى في غدرك .

قال : وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم . ثم جاء
فأسلم فقال النبي ﷺ : أما الإسلام فقد قبلنا وأما المال فإنه مال غدرا لا حاجة
لنا فيه .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ إذا أمرهم رسول الله ﷺ
ابتدروا أمره ، وإذا توضعوا ثاروا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم
عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له .

قال : فرجع عروة إلى أصحابه وقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك
ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط يعظّمه أصحابه ما يعظّم
أصحاب محمد إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضعوا كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا
تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له ، وإنه قد عرض
عليكم خطبة رشداً فاقبلوها .

فقال رجل من بني كنانة . دعوني آتة فقالوا : ائنه فلما أشرف عليهم قال
رسول الله ﷺ : هذا فلان وهو من قوم يعظّمون البدن فابعثوها فبعثت له واستقبله
القوم يلبسون فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت .
فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال : دعوني آتة فقالوا : ائنه فلما أشرف
عليهم قال النبي ﷺ : هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما

هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ قد سهل عليكم أمركم فقال : اكتب بيننا وبينك كتابا .

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال له رسول الله ﷺ : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم فقال المسلمون : والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي صلى الله عليه وآله : اكتب باسمك اللهم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال سهيل : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولاقاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال رسول الله ﷺ : إنني لرسول الله وإن كذبتموني ثم قال لعلي امح رسول الله فقال : يا رسول الله إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة فأخذ رسول الله ﷺ فمحاها . ثم قال : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا أو معتمرا أو يتبغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، و من قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو إلى الشام فهو آمن على دمه وماله ، وأن بيننا (١) عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغالل ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، و من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهده دخل فيه .

فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، و تواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .

فقال رسول الله ﷺ : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف فقال سهيل : والله ما تتحدث العرب أننا أخذنا ضغطة و لكن ذلك من العام المقبل . فكتب فقال سهيل : على أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا و من جاءنا ممن معك لم نردّه عليك فقال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء

(١) أى يكون بيننا صدر نقى من الغل والخداع .

مسلمًا؟ فقال رسول الله ﷺ: من جاءهم منّا فأبعده الله، ومن جاءنا منهم رددناه إليهم فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجًا.

فقال سهيل: وعلى أنّك يرجع عنّا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا ولا تدخلها بالسلاح إلاّ السيف في القراب^(١) وسلاح الراكب، وعلى أنّ هذا الهدى حيث ما حبسناه محله لا تقدمه علينا فقال: نحن نسوق وأنتم تردون.

فبيناهم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف^(٢) في قيوده وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أوّل ما أقاضيك عليه أن تردّه فقال النبي ﷺ: إنّنا لم نقض بالكتاب بعد. قال: والله إنّ لا أصالحك على شيء أبداً فقال النبي ﷺ: فأجره لي فقال: ما أنا بمجيره لك قال: بلى فافعل، قال ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجرناه، قال أبو جندل بن سهيل: معاشر المسلمين أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا ألا ترون ما قد لقيت؟ - وكان قد عذب عذاباً شديداً - .

فقال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلاّ يومئذ فأتيته النبي ﷺ فقلت: أأنت نبي الله؟ فقال: بلى. قلت: ألسنا على الحقّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فليمنّ نعطي الدينيّة في ديننا إنّنا؟ قال: إنّني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرني قلت: أولست كنت تحدّثنا أنّنا سنأتي البيت ونطوف حقاً؟ قال: بلى فأخبرت أنّ نأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنّك تأتيه وتطوف به فنجر رسول الله ﷺ بدنة فدعا بحالقه فحلّق شعره ثمّ جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا إنّ جاءكم المؤمنات مهاجرات» الآية.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: وحدثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب أنّ

(١) القراب جمع قرربة بمعنى الغمد.

(٢) رسف إذا مشى المشى المعقيد.

كتب رسول الله ﷺ في هذا الصلح كان علي بن أبي طالب فقال له رسول الله ﷺ :
 اكتب « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو » فجعل علي يتلکأ و يأبى
 أن يكتب إلا محمد، رسول الله فقال رسول الله ﷺ فان لك مثلها تعطيها و أنت مضطهد فكتب
 ما قالوا .

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش و هو مسلم
 فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى
 بلغاذا الحليفة فنزلا يأكلان من تمر لهم قال أبو بصير لأحد الرجلين : و إنني لأرى
 سيفك جيّدا جدا فاستكته فقال : أجل إنه لجيّد وجرّبت به ثم جرّبت فقال أبو بصير:
 أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد و فرّ الآخر حتى بلغ المدينة فدخل
 المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه لقد رأيت هذا ذعرا ، فلما انتهى إلى
 النبي ﷺ قال : قتل والله صاحبي و إنني لمقتول .

قال : فجاء أبو بصير فقال : يا رسول الله قد أوفى الله ذمتك و رددتني إليهم ثم
 أنجاني الله منهم فقال النبي ﷺ : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد ، فلما سمع
 ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر .

و انفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فلا يخرج من قريش رجل
 قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت عليه عصابة . قال : فوالله لا يسمعون بعير
 لقريش قد خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم و أخذوا أموالهم فأرسلت قريش
 إلى النبي ﷺ تناشده الله و الرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل
 صلى الله عليه وآله إليهم فأتوه .

و في تفسير القمي في حديث طويل أوردنا صدره في أول البحث قال : و قال
 رسول الله ﷺ لأصحابه - بعد ما كتب الكتاب - انحروا بدنكم و احلقوا رؤسكم
 فامتنعوا و قالوا : كيف ننحرو و نحلق ولم نطف بالبيت ولم نسع بين الصفا و المروة فاعتم
 رسول الله ﷺ و شك ذلك إلى أم سلمة فقالت : يا رسول الله انحرو أنت و احلق فنحرو
 رسول الله و حلق فنحرو القوم على حيث يقين و شك و ارتياب .

اقول : وهو مروى في روايات أخر من طرق الشيعة وأهل السنة . وهذا الذي رواه الطبرسي مأخوذ مع تلخيص ما عمداً رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن مروان والمسور .

وفي الدر المنثور أخرج البيهقي عن عروة قال : أقبل رسول الله ﷺ من الحديدية راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصدت هدينا وعكف رسول الله ﷺ بالحديدية وردد رجلين من المسلمين خرجا . فبلغ رسول الله ﷺ عليه وسلم قول رجال من أصحابه : إن هذا ليس بفتح فقال رسول الله ﷺ : بش الكلام . هذا أعظم الفتح لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب وقد كرهوا منكم ما كرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم ورددكم سالمين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح . أنسيتم يوم أحد إن تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إن جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟

قال المسلمون : صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبالأمر منا فأنزل الله سورة الفتح .

أقول : والأحاديث في قصة الحديدية كثيرة وما أوردناه طرف منها .

و في تفسير القمي بإسناده إلى عمر بن يزيد بياع السابري قال : قلت لأبي عبد الله ﷺ قول الله في كتابه : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » قال : ما كان له ذنب ولا هم بذنب ولكن الله حملة ذنوب شيعته ثم غفر لها .

و في العيون في مجلس الرضا مع المأمون بإسناده إلى ابن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا ﷺ فقال المأمون : يا بن رسول الله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى ، - إلى أن قال - قال : فأخبرني عن قول الله عز وجل : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

قال الرضا ﷺ : لم يكن أحد عند مشركي مكة أعظم ذنباً من رسول الله ﷺ

لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم ، وقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق المملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملكة الآخرة إن هذا إلا اختلاق فلما فتح الله على نبيه ﷺ مكة قال: يا محمد إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر عند مشركي مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر لأن مشركي مكة أسلم بعضهم ، وخرج بعضهم عن مكة ، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذا دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم . فقال المؤمنون : لله درك يا أبا الحسن . وفي تفسير العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما ترك رسول الله ﷺ « إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام .

أقول : وهذا المعنى مروى من طرق أهل السنة أيضاً ، والحديث لا يخلو من شيء لأنه مبني على كون المراد بالذنب في الآية هو المعصية المنافية للعصمة . وفي الكافي بإسناده إلى جميل قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » قال : الإيمان قال عز من قائل : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » .

أقول : ظاهر الرواية أنه عليه السلام أخذ قوله تعالى في الآية : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » تفسيراً للسكينة ، وفي معنى الرواية روايات أخرى . وفيه بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : أيها العالم أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله ؟ قال : ما لا يقبل الله شيئاً إلا به . قلت : وما هو ؟ قال : الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظاً .

قال : قلت : ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو وعمل أم قول بلا عمل ؟ قال : الإيمان عمل كله والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله يبين في كتابه واضح نور ثابتة

حجته يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه . قال : قلت : صف لي جعلت فداك حتى أفهمه
قال : الإيمان حالات ودرجات وصفات ومنازل فمنه التام المنتهى تمامه ومنه الناقص
المبين نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه .

قلت : إن الإيمان ل يتم وينقص ويزيد ؟ قال : نعم . قلت : كيف ذلك ؟ قال :
لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها
فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها فمن
لقى الله عز وجل حافظاً لجوارحه موفياً كل جارحة من جوارحه ما فرض الله عز وجل
عليها لقي الله مستكماً لا يمانه وهو من أهل الجنة ، ومن خان في شيء منها أو تعدى
ما أمر الله عز وجل فيها لقي الله عز وجل ناقص الإيمان .

قلت : قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته ؟ فقال : قول الله
عز وجل : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أئبكم زادته هذه إيماناً فأما الذين
آمَنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى
رجسهم » ، وقال : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم
هدى » .

و لو كان كلاً واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر
ولا ستوت النعم فيه ، ولا ستوى الناس وبطل التفضيل ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون
الجنة ، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله و بالنقصان دخل
المفرتون النار .





إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِيُتَّقِمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) .

﴿ بيان ﴾

فصل ثان من آيات السورة يعرف سبحانه فيه نبيه ﷺ تعريف إكبار وإعظام بأنه أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً طاعته طاعة الله وبيعته بيعة الله ، وقد كان الفصل الأول امتناناً منه تعالى على نبيه بالفتح والمغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر وعلى المؤمنين بإزالة السكينة في قلوبهم وإدخال الجنة وعيد المشركين والمنافقين بال غضب واللعن والنار .

قوله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » المراد بشهادته ﷺ شهادته على الأعمال من إيمان وكفر وعمل صالح أو طالح ، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر شهادته ﷺ ، وتقدم استيفاء الكلام في معنى هذه الشهادة ، وهي شهادة حمل في الدنيا ، وأداء في الآخرة .

و كونه مبشراً تبشيره لمن آمن واتقى بالقرب من الله وجزيل ثوابه ، وكونه نذيراً إنذاره وتخويفه لمن كفروا وتولوا بأليم عذابه .

قوله تعالى : « لِيُتَّقِمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » القراءة المشهورة بقاء الخطاب في الأفعال الأربعة ، وقراء ابن كثير وأبو عمرو بقاء الغيبة في الجميع وقراءتهما أرجح بالنظر إلى السياق .

و كيف كان فاللام في « لتؤمنوا » للتعليل أي أرسلناك كذا و كذا لتؤمنوا بالله و رسوله .

والتعزيز - على ما قيل - النصر و التوقير التعظيم كما قال تعالى : « مالكم لا ترجون لله وقارا » نوح : ١٣ و الظاهر أن الضمائر في « تعزروه و توقروه و تسبحوه » جميعاً لله تعالى و المعنى إننا أرسلناك كذا و كذا ليؤمنوا بالله و رسوله و ينصروه تعالى بأيديهم و ألسنتهم و يعظموه و يسبحوه - و هو الصلاة - بكره و أصيلاً أي غداً و عشياً .

وقيل : الضميران في « تعزروه و توقروه » للرسول ﷺ ، و ضمير « تسبحوه » لله تعالى و يوهنه لزوم اختلاف الضمائر المتسقة .

قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » إلى آخر الآية . البيعة نوع من الميثاق يبذل الطاعة قال في المفردات : و بايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضى له انتهى ، و الكلمة مأخوذة من البيع بمعناه المعروف فقد كان من دأبهم أنهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البايع يده للمشتري فكأنهم كانوا يمثلون بذلك نقل الملك بنقل التصرفات التي يتحقق معظمها باليد إلى المشتري بالتصفيق ، و بذلك سمى التصفيق عند بذل الطاعة بيعة و مبايعة ، و حقيقة معناه إعطاء المبايع يده للسلطان مثلاً ليعمل به ما يشاء .

فقوله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » تنزيل ببعته ﷺ منزلة ببعته تعالى بدعوى أنها هي فما يواجهونه ﷺ به من بذل الطاعة لا يواجهون به إلا الله سبحانه لأن طاعته طاعة الله ثم قرره زيادة تقرير و تأكيد بقوله : « يد الله فوق أيديهم » حيث جعل يده ﷺ يد الله كما جعل رمية عليه ﷺ رمية نفسه في قوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » الأ نفال : ١٧ .

وفي نسبة ماله ﷺ من الشأن إلى نفسه تعالى آيات كثيرة كقوله تعالى : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » النساء : ٨ ، و قوله : « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » الأ نعام : ٣٣ ، و قوله : « ليس لك من الأمر شيء »

آل عمران : ١٢٨ .

وقوله : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » النكث نقض العهد والبيعة ،
والجملة تفرع على قوله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » والمعنى فإنما
كان بيعتك بيعة الله فالناكث الناقض لها ناقض لبيعة الله ولا يتضرر بذلك إلا نفسه كما
لا ينتفع بالإيفاء إلا نفسه لأن الله غني عن العالمين .

وقوله : « ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتیه أجرا عظيما » وعد جميل على
حفظ العهد والإيفاء به .

والآية لا تخلو من إيماء إلى أن النبي ﷺ كان عند البيعة يضع يده على
أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس .

وللمفسرين في قوله : « يد الله فوق أيديهم » أقوال أخر .

ف قيل : إنه من الاستعارة التخيلية والاستعارة بالكناية جيء به لتأكيد ما تقدمه
وتقرير أن مبايعة الرسول ﷺ كمبايعة الله من غير تفاوت فخيّل أنه سبحانه كأحد
المبايعين من الناس فأثبتت له يد تقع فوق أيدي المبايعين للرسول ﷺ مكان يد
الرسول وفيه أنه غير مناسب لساحة قدسه تعالى أن يخيّل على وجه هو منزّه عنه .
وقيل : المراد باليد القوة والنصرة أي قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم أي
ثق بنصرة الله لا بنصرتهم .

وفيه أن المقام مقام إعظام بيعة النبي ﷺ وأن مبايعتهم له مبايعة لله ، والوثوق
بالله ونصرته وإن كان حسناً في كل حال لكنّه أجنبي عن المقام .

وقيل : المراد باليد العطية والنعمة أي نعمة الله عليهم بالثواب أو بتوفيقهم
لمبايعتك فوق نعمتهم عليك بالمبايعة ، وقيل : نعمته عليهم بالهداية أعظم من نعمتهم عليك
بالطاعة إلى غير ذلك من الوجوه التي أوردوها ولا طائل تحتها .



﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية « و تعزروه » قال النبي ﷺ لأصحابه : ما ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : لتنصروه .

و في العيون باسناده عن عبد الله بن صالح الهروي قال : قلت لعلي بن موسى الرضا عليه السلام : يا ابن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يرويه أهل الحديث : أن المؤمنين يزورون ربهم من منازلهم في الجنة ؟ فقال : يا أبا الصلت إن الله تعالى فضل نبيه محمداً على جميع خلقه من النبيين والملائكة ، وجعل طاعته طاعته ، ومبايعته مبايعته وزيارته في الدنيا والآخرة زيارته فقال عز وجل : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » وقال : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » وقال النبي صلى الله عليه وآله : من زارني في حياتي أو بعد موتي فقد زار الله .

و درجته في الجنة أعلى الدرجات ، و من زاره في درجته في الجنة من منزله فقد زار الله تبارك و تعالی .

و في إرشاد المفيد في حديث بيعة الرضا عليه السلام قال : و جلس المأمون و وضع للرضا عليه السلام و سادتين عظيمتين حتى لحق بمجلسه و فرشه ، و أجلس الرضا عليه السلام في الحضرة و عليه عمامة و سيف . ثم أمر ابنه العباس بن المأمون أن يبايع له في أوّل الناس فرفع الرضا عليه السلام يده فتلقت بها وجهه و بيطنها وجوههم فقال له المأمون : ابسط يدك للبيعة فقال الرضا عليه السلام : إن رسول الله ﷺ هكذا كان يبايع فبايعه الناس و يده فوق أيديهم .



سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا
فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ
مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبيراً (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ
زُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ
يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعيراً (١٣) وَ لِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا
ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ
قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا
قَلِيلًا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَ
إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ
عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَ
مَنْ يَطْعِ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَنْ
يَتَوَلَّ يَعْذِبهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) .

﴿بيان﴾

فصل ثالث من الآيات متعرض لحال الأعراب الذين قعدوا عن رسول الله ﷺ في سفره الحديدية ولم ينفروا إذا استنفرهم وهم على ما قيل أعراب حول المدينة من قبائل جهينة ومزينة وغفار وأشجع وأسلم ودئل فتخلفوا عن النبي ﷺ ولم يصاحبوه قائلين : إن محمداً ومن معه يذهبون إلى قوم غزوههم بالأمس في عقر دارهم فقتلوهم قتلاً ذريعاً ، وإنهم لن يرجعوا من هذه السفرة ولن ينقلبوا إلى ديارهم وأهليهم أبداً .

فأخبر الله سبحانه لنبيه ﷺ في هذه الآيات أنهم سيلقونك ويعتكون في قعودهم باشتغالهم بالأموال والأهلين ويسألونك أن تستغفر الله لهم ، وكذبهم الله فيما قالوا وذكر أن السبب في قعودهم غير ذلك وهو ظنهم السوء ، وأخبر أنهم سيسألونك اللحوق وليس لهم ذلك غير أنهم سيُدعون إلى قتال قوم آخرين فإن أطاعوا كان لهم الأجر الجزيل وإن تولوا فأليم العذاب .

قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » إلى آخر الآية قال في المجمع : المخلف هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد ، وهو مشتق من الخلف و ضدّه المقدم . انتهى والأعراب على ما قالوا - الجماعة من عرب البادية ولا يطلق على عرب الحاضرة ، وهو اسم جمع لا مفرد له من لفظه .

وقوله : « سيقول لك المخلفون من الأعراب » إخبار عما سيأتي من قولهم للنبي ﷺ ، وفي اللفظ دلالة ما على نزول الآيات في رجوعه ﷺ من الحديدية إلى المدينة ولما يردّها .

وقوله : « شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » أي كان الشاغل المانع لنا عن صحابتك والخروج معك هو أموالنا وأهلونا حيث لم يكن هنا من يقوم بأمرنا فخففنا

ضيعتها فلزمنها فاستغفر لنا الله تعالى يغفر لنا تخلفنا عنك ، و في سؤال الاستغفار دليل على أنهم كانوا يرون التخلف ذنباً فتعلقهم بأنه شغلهم الأموال والأهلون ليس اعتذاراً للتبري عن الذنب بل ذكراً للسبب الموقع في الذنب .

و قوله : « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » تكذيب لهم في جميع ما أخبروا به وسألوه فلا أن الشاغل لهم هو شغل الأموال والأهلين ، ولا أنهم يهتمون باستغفاره صلى الله عليه وآله ، وإنما سألوه ليكون ذلك جنّة يصفون بها العتاب والتوبيخ عن أنفسهم .

و قوله : « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً » جواب حكلي عمماً اعتذروا به من شغل الأموال والأهلين محصله أن الله سبحانه له الخلق والأمر وهو المالك المدبّر لكل شيء لا ربّ سواه فلا ضرر ولا نفع إلا بإرادته ومشيئته لا يملك أحد منه تعالى شيئاً حتى يقهره على ترك الضر أو فعل الخير إن أراد الضر أو على ترك الخير إن أراد ما لا يريد هذا القاهر من الخير ، وإذا كان كذلك فانصرفكم عن الخروج مع النبي ﷺ نصرته للدين و اشتغالكم بما اعتلتم به من حفظ الأموال والأهلين لا يغني من الله شيئاً لا يدفع الضر إن أراد الله بكم ضراً ولا يعين على جلب الخير ولا يعجزه إن أراد بكم خيراً .

فقوله : « قل فمن يملك لكم » الخ جواب عن تعللهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه ، ملخصه أن تعلقكم في دفع الضر وجلب الخير بظاهر الأسباب ومنها تدبيركم والقعود بذلك عن مشروع ديني لا يغنيكم شيئاً في ضرر أو نفع بل الأمر تابع لما أراد الله سبحانه فالآية في معنى قوله تعالى : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .
والتمسك بالأسباب وعدم إلغائها وإن كان مشروعاً مأموراً به لكنّه فيما لا يعارض ما هو أهم منه كالدفاع عن الحق وإن كان فيه بعض المكروه المحتملة اللهم إلا إذا تعقّب خطراً قطعياً لا أثر معه للدفاع والسعي .

و قوله : « بل كان الله بما تعملون خبيراً » تعريض لهم فيه إشارة إلى كذبهم في قولهم : « شغلنا أموالنا وأهلونا » .

قوله تعالى : « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً و زين ذلك في قلوبكم » الخ بيان لما يشير إليه قوله : « بل كان الله بما تعملون خبيراً » من كذبهم في اعتذارهم ، والمعنى ما تخلفتكم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال والأهلين بل ظننتم أن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا إلى أهلهم أبداً وأن الخارجين سيقتلون بأيدي قريش بما لهم من الجموع والبأس الشديد والشوكة والقدرة و لذلك تخلفتكم .

وقوله : « و زين ذلك في قلوبكم » أي زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فأخذتم بما يقتضيه ذلك الظن المزين وهو أن تتخلفوا ولا تخرجوا حذراً من أن تهلكوا وتبيدوا .

وقوله : « و ظننتم ظن السوء و كنتم قوماً بوراً » البور - على ما قيل - مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك أريد به معنى الفاعل أي كنتم قوماً فاسدين أو هالكين .
قيل : المراد بظن السوء ظنهم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ولا يبعد أن يكون المراد به ظنهم أن الله لا ينصر رسوله ولا يظهر دينه كما مر في قوله في الآية السادسة من السورة : « الظانين بالله ظن السوء » بل هو أظهر .

قوله تعالى : « و من لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعدنا للكافرين سعيراً » الجمع في هذه الآيات بين الإيمان بالله ورسوله للدلالة على أن الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر بالله ، وفي الآية لحن تهديد .

وقوله : « فإننا أعدنا للكافرين سعيراً » كان مقتضى الظاهر أن يقال : أعدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى علة الحكم بتعليقه على المشتق والمعنى أعدنا و هيئنا لهم لكفرهم سعيراً أي ناراً مسعرة مشتعلة ، و تنكير سعيراً للتوبيخ .

قوله تعالى : « و لله ملك السماوات و الأرض يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء و كان الله غفوراً رحيماً » معنى الآية ظاهر و فيها تأكيد لما تقدم ، و في تذييل الملك المطلق بالإسمين : الغفور الرحيم إشارة إلى سبق الرحمة الغضب وحث على الاستغفار و الاسترحام .

قوله تعالى : « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم » إلى آخر الآية إخبار عن أن المؤمنين سيغزون غزوة فيرزقون الفتح ويصيبون مغانم ويسألهم المخلفون أن يتركوهم يتبعونهم طمعاً في الغنيمة ، وتلك غزوة خيبر اجتاز النبي ﷺ والمؤمنون إليه ففتحوه وأخذوا الغنائم وخصها الله تعالى بمن كان مع النبي ﷺ في سفرة الحديبية لم يشرك معهم غيرهم .
والمعنى أنكم ستنتقلون إلى غزوة فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلفون : اتركونا نتبعكم .

وقوله : « يريدون أن يبدلوا كلام الله » قيل : المراد به وعده تعالى أهل الحديبية أن يخصصهم بغنائم خيبر بعد فتحه كما سيجيء من قوله : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه » الآية ، ويشير إليه في هذه الآية بقوله : « إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها » .

وقوله : « قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل » أمر منه تعالى للنبي ﷺ أن يمنعهم عن اتباعهم استناداً إلى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتباع .
وقوله : « فسيقولون بل تحسدوننا » أي سيقول المخلفون بعد ما منعوا عما سألوهم من الاتباع : « بل تحسدوننا » وقوله : « بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً » جواب عن قولهم : « بل تحسدوننا » لم يوجه الخطاب إليهم أنفسهم لأن المدعى أنهم لا يفقهون الحديث ولذلك وجه الخطاب بالجواب إلى النبي ﷺ وقال : « بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً » .

وذلك أن قولهم : « بل تحسدوننا » إضراب عن قول النبي ﷺ لهم بأمر الله : « لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل » فمعنى قولهم إن منعنا من الاتباع ليس عن أمر من قبل الله بل إننا تمنعنا أنت ومن معك من المؤمنين أهل الحديبية أن تشارككم في الغنائم وتريدون أن تختص بكم .

وهذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل وتمييز رسول الله ﷺ المعصوم الذي لا يرد ولا يصدر في شأن إلا بأمر من الله اللهم إلا أن يكون من بساطة العقل وبلاذة

الفهم فهذا القول الذي واجهوا به النبي ﷺ وهم مدعون للإيمان والإسلام أول دليل على ضعف تعقلهم وقلة فقههم .

ومن هنا يظهر أن المراد بعدم فقههم إلا قليلا بساطة عقولهم وضعف فقههم للقول لا أنهم يفقهون بعض القول ولا يفقهون بعضه وهو الكثير ولا أن بعضهم يفقه القول وعلمهم لا يفقهونه كما فسره به بعضهم .

قوله تعالى : « قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » الخ اختلفوا في هذا القوم من هم ؟ فقيل : المراد به هوازن ، وقيل : ثقيف ، وقيل : هوازن و ثقيف ، وقيل : هم الروم في غزاة مودة وتبوك ، وقيل : هم أهل الردة قاتلهم أبو بكر بعد الرحلة ، وقيل : هم الفارس ، وقيل : أعراب الفارس وأكرادهم .

وظاهر قوله : « استدعون » أنهم بعض الأقوام الذين قاتلهم النبي ﷺ بعد فتح خيبر من هوازن و ثقيف والروم في مودة ، وقوله تعالى سابقاً : « قل لن تتبعونا » ناظر إلى نفي اتباعهم في غزوة خيبر على ما يفيدته السياق .

وقوله : « تقاتلونهم أو يسلمون » استئناف يدل على التنويع أي إما تقاتلون أو يسلمون أي أنهم مشركون لا تقبل منهم جزية كما تقبل من أهل الكتاب بل إما أن يقاتلوا أو يسلموا .

ولا يصح أخذ « تقاتلونهم » صفة لقوم لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا إلى قتال قوم يقاتلونهم ، وكذا لا يصح أخذه حالا من نائب فاعل « استدعون » لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا أنهم يدعون إليهم حال قتالهم ، كذا قيل .

ثم تمس سبحانه الكلام بالوعد والوعيد على الطاعة والمعصية فقال : « فإن طيعوا » أي بالخروج إليهم « يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا » أي بالمعصية وعدم الخروج « كما توليتم من قبل » ولم تخرجوا في سفرة الحديبية « يعذبكم عذابا أليما » أي في الدنيا كما هو ظاهر المقام أو في الدنيا والآخرة معا .

قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » رفع للحكم بوجود الجهاد عن نوي العاهة الذين يشق عليهم الجهاد برفع لازمه وهو الحرج .

ثم تمم الآية أيضاً بإعادة نظير ذيل الآية السابقة فقال : ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّ يعذّب به عذاباً أليماً .





لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا
 فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ
 كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ
 كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ
 آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا
 عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَ
 لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا
 نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
 تَبْدِيلًا (٢٣) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ
 مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)
 هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهَدْيِ مَعْكُوفًا
 أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ
 أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عَلَمٍ لِيَدْخُلِ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ
 يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا وَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) .

﴿ بيان ﴾

فصل رابع من الآيات يذكر تعالى فيه المؤمنين ممن كان مع النبي ﷺ في خروجه إلى الحديبية فيذكر رضاه عنهم إذ بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة ثم يمتن عليهم بانزال السكينة وإثابة فتح قريب و مغانم كثيرة يأخذونها .

و يخبرهم - وهو بشرى - أن المشركين لو قاتلوهم لانهمزوا و ولوا الأذبار وأن الرؤيا التي رآها النبي ﷺ رؤيا صادقة سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلّقين رؤسهم لا يخافون فإنه تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله و لو كره المشركون .

قوله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » الرضا هيئة تطرأ على النفس من تلقى ما يلائمها و تقبله من غير دفع ، و يقابله السخط ، و إذا نسب إلى الله سبحانه كان المراد الإثابة و الجزاء الحسن دون الهيئة الطارئة والصفة العارضة الحادثة لاستحالة ذلك عليه تعالى : فراضه سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات .

والرضا - كما قيل - يستعمل متعدياً إلى المفعول بنفسه و متعدياً بعن ومتعدياً بالباء فإذا عدّي بنفسه جاز دخوله على الذات نحو رضيت زيدا وعلى المعنى نحو رضيت أمارة زيد قال تعالى : « ورضيت لكم الإسلام ديناً » المائدة ٣ و إذا عدّي بعن دخل على الذات كقوله : « رضي الله عنهم ورضوا عنه » البينة : ٨ و إذا عدّي بالباء دخل على المعنى كقوله تعالى : « أرضيتهم بالحياة الدنيا من الآخرة » .

ولما كان الرضا المنسوب إليه تعالى صفة فعل له بمعنى الإثابة والجزاء ، والجزاء إنما يكون بإزاء العمل دون الذات ففيما نسب من رضاه تعالى إلى الذات و عدّي بعن كما في الآية « لقد رضي الله عن المؤمنين » نوع عناية استدعى عدّ الرضا و هو متعلق بالعمل متعلقاً بالذات و هو أخذ بيعتهم التي هي متعلقة الرضا ظرفاً للرضى فلم يسع إلا أن يكون الرضا متعلقاً بهم أنفسهم .

فقوله : « لقد رضي الله عن المؤمنين إني ببايعونك تحت الشجرة » إخبار عن إثابته تعالى لهم بإزاء بيعتهم له ﷺ تحت الشجرة .

و قد كانت البيعة يوم الحديبية تحت شجرة سمرة بها بايعه ﷺ من معه من المؤمنين و قد ظهر به أن الظرف في قوله : « إني ببايعونك » متعلق بقوله : « لقد رضي » واللام للقسم .

قوله تعالى : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم و أنا بهم قريباً و مغانم كثيرة يأخذونها و كان الله عزيزاً حكيماً » تفریع على قوله : « لقد رضي الله » النخ والمراد بما في قلوبهم حسن النية و صدقها في مبايعتهم فإن العمل إنما يكون مرضياً عند الله لا بصورته و هيئته بل بصدق النية و إخلاصها .

فالمعنى فعلم ما في قلوبهم من صدق النية و إخلاصها في مبايعتهم لك .

و قيل : المراد بما في قلوبهم الإيمان و صحته و حب الدين و الحرص عليه ، و قيل : الهمم والأنفقة من لين الجانب للمشركين و صلحهم . والسياق لا يساعد على شيء من هذين الوجهين كما لا يخفى .

فان قلت : المراد بما في قلوبهم ليس مطلق ما فيها بل نيتهم الصادقة المخلصة

في المبايعة كما ذكر ، و علمه تعالى بنيتهم الموصوفة بالصدق والإخلاص سبب يتفرع عليه رضاه تعالى عنهم لامسبب متفرع على الرضا ، ولازم ذلك تفريع الرضا على العلم بأن يقال : لقد علم ما في قلوبهم فرضي عنهم لا تفريع العلم على الرضا كما في الآية . قلت : كما أن للمسبب تفرعا على السبب من حيث التحقق والوجود كذلك للسبب - سواء كان تاما أو ناقصا - تفرعا على المسبب من حيث الانكشاف والظهور، والرضا كما تقدم صفة فعل له تعالى منتزع عن مجموع علمه تعالى بالعمل الصالح و ما يشب به و يجزي صاحب العمل ، والذي انتزع عنه الرضا في المقام هو مجموع علمه تعالى بما في قلوبهم و إنزاله السكينة عليهم و إنابتهم فتحا قريبا و مغانم كثيرة يأخذونها .

فقوله : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة » الخ تفرع على قوله : « لقد رضي الله عن المؤمنين » للدلالة على حقيقة هذا الرضا والكشف عن مجموع الأمور التي بتحققها يتحقق معنى الرضا .

ثم قوله : « فأنزل السكينة عليهم متفرع على قوله : « فعلم ما في قلوبهم » و كذا ما عطف عليه من قوله : « و أنابهم فتحا قريبا » الخ . و المراد بالفتح القريب فتح خيبر على ما يفيد السياق و كذا المراد بمغانم كثيرة يأخذونها ، غنائم خيبر ، و قيل : المراد بالفتح القريب فتح مكة ، والسياق لا يساعد عليه .

وقوله : « و كان الله عزيزا حكيما » أي غالبا فيما أراد متقنا لفعله غير مجازف فيه .

قوله تعالى : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه » الخ المراد بهذه المغانم الكثيرة المغانم التي سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحديبية أعم من مغانم خيبر و غيرها فتكون الإشارة بقوله : « فعجل لكم هذه » إلى المغانم المذكورة في الآية السابقة و هي مغانم خيبر نزلت منزلة الحاضرة لاقترب وقوعها .

هذا على تقدير نزول الآية مع الآيات السابقة ، وأما على ما قيل : إن الآية نزلت بعد فتح خيبر فأمر الإشارة في قوله : « فعجل لكم هذه » ظاهر لكن المعروف نزول السورة

بتمامها في مرجع النبي ﷺ من الحديبية بينها وبين المدينة .

وقيل : الإشارة بهذه إلى البيعة التي بايعوها تحت الشجرة وهو كما ترى .
وقوله : « وكف أيدي الناس عنكم » قيل : المراد بالناس قبيلتنا أسد وغطفان
هموا بعد مسير النبي ﷺ إلى خيبر أن يغيروا على أموال المسلمين و عيالهم بالمدينة
فقدف الله في قلوبهم الرعب وكف أيديهم .

وقيل : المراد مالك بن عوف و عيينة بن حصين مع بني أسد و غطفان جاؤا
لنصرة يهود خيبر فقدف الله في قلوبهم الرعب فرجعوا ، و قيل : المراد بالناس أهل مكة
و من والأها حيث لم يقاتلوه وَاللَّيْثِيَّةُ و رضوا بالصلح .

وقوله : « وتكون آية للمؤمنين » عطف على مقدر أي وعدهم الله بهذه
الإثابة إنابة الفتح والغنائم الكثيرة المعجّلة والمؤجّلة لمصالح كذا وكذا وتكون آية
للمؤمنين أي علامة وأمارة تدلهم على أنهم على الحق وأن ربهم صادق في وعده و
نبيهم ﷺ صادق في إنبائه .

وقد اشتملت السورة على عدة من أنباء الغيب فيها هدى للمتقين كقوله :
« سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا » الخ ، وقوله : « سيقول المخلفون إذا
انطلقتم » الخ ، وقوله : « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون » الخ ، وما في هذه
الآيات من وعد الفتح والمغانم ، وقوله بعد : « وأخرى لم تقدروا عليها » الخ ، و
قوله بعد : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » الخ .

وقوله : « ويهديكم صراطا مستقيما » عطف على « تكون » أي وليهديكم
صراطا مستقيما وهو الطريق الموصل إلى إعلاء كلمة الحق و بسط الدين ، وقيل :
هو الثقة بالله والتوكل عليه في كل ما تأتون و تذرون ، وما ذكرناه أو فوق للسياق .
قوله تعالى : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل
شيء قديرا » أي وغنائم أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها إحاطة قدرة وكان
الله على كل شيء قديرا .

فقوله : « أخرى » مبتدء و « لم تقدروا عليها » صفته وقوله : « قد أحاط الله

بها « خبره الثاني وخبره الأول محذوف و تقدير الكلام و تمت غنائم أخرى قد أحاط الله بها .

وقيل : قوله : « أخرى » في موضع نصب بالعطف على قوله : « هذه » والتقدير وعجّل لكم غنائم أخرى ، وقيل : في موضع نصب بفعل محذوف والتقدير و قضى غنائم أخرى ، وقيل : في موضع جرّ بتقدير ربّ والتقدير وربّ غنائم أخرى ، وهذه وجوه لا يخلو شيء منها من وهن .

والمراد بالأخرى في الآية على ما قيل غنائم هوازن ، وقيل : المراد غنائم فارس والروم ، وقيل : المراد فتح مكة والموصوف محذوف والتقدير وقرية أخرى لم تقدرُوا عليها أي على فتحها ، و أول الوجوه أقربها .

قوله تعالى : « ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً » خبر آخر ينبئهم الله سبحانه ضعف الكفار عن قتال المؤمنين بأنفسهم وأن ليس لهم ولي يتولى أمرهم ولا نصير ينصرهم ، ويتخلص في أنهم لا يقوون في أنفسهم على قتالكم ولا نصير لهم من الأعراب ينصرهم ، وهذا في نفسه بشرى للمؤمنين .

قوله تعالى : « سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » « سنة الله » مفعول مطلق لفعل مقدّر أي سنّ سنة الله أي هذه سنة قديمة له سبحانه أن يظهر أنبياءه والمؤمنين بهم إذا صدقوا في إيمانهم وأخلصوا نيّاتهم على أعدائهم من الذين كفروا ولن تجد لسنة الله تبديلاً كما قال تعالى : « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي » المجادلة : ٣١ . ولم يصب المسلمون في شيء من غزواتهم إلا بما خالفوا الله ورسوله بعض المخالفة .

قوله تعالى : « وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » الخ الظاهر أن المراد بكفّ أيدي كلّ من الطائفتين عن الأخرى ما وقع من الصلح بين الفئتين بالحديبية وهي بطن مكة لقربها منها واتصالها بها حتّى قيل إنّ بعض أراضيها من الحرم وذلك أن كلّاً من الفئتين كانت أعدى عدوً للأخرى وقد اهتمت قريش بجمع الجموع من أنفسهم ومن الأحابيش ، وبايع

المؤمنون النبي ﷺ على أن يقاتلوا ، وعزم النبي ﷺ على أن يناجز القوم ، وقد أظفر الله النبي ﷺ والذين آمنوا على الكفار حيث دخلوا أرضهم وركزوا أقدامهم في عقر دارهم فلم يكن ليتوهم بينهم إلا القتال لكن الله سبحانه كف أيدي الكفار عن المؤمنين وأيدي المؤمنين عن الكفار بعد إظفار المؤمنين عليهم وكان الله بما يعملون بصيرا .

قوله تعالى : « هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوبا أن يبلغ محله » العكوف على أمر هو الإقامة عليه والمعكوف - كما في المجمع - الممنوع من الذهاب إلى جهة بالإقامة في مكانه ومنه الاعتكاف وهو الإقامة في المسجد للعبادة .

والمعنى المشركون مشركوا مكة هم الذين كفروا ومنعوكم عن المسجد الحرام ومنعوا الهدى - الذي سقتموه - حالكونه محبوسا من أن يبلغ محله أي الموضع الذي ينحر أو يذبح فيه وهو مكة التي ينحر أو يذبح فيها هدي العمرة كما أن هدي الحج ينحر أو يذبح في منى ، وقد كان النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين محرمين للعمرة ساقوا هديا لذلك .

قوله تعالى : « ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم » الوطء الدوس ، والمعرة المكروه ، وقوله : « أن تطؤهم » بدل اشتغال من مدخول لولا ، وجواب لولا محذوف والتقدير ما كف أيديكم عنهم . والمعنى ولولا أن تدوسوا رجلا مؤمنا ونساء مؤمنات بمكة وأنتم جاهلون بهم لا تعلمون فتصيبكم من قتلهم وإهلاكهم مكروه لما كف الله أيديكم عنهم .

وقوله : « ليدخل الله في رحمته من يشاء » اللام متعلق بمحذوف والتقدير ولكن كيف أيديكم عنهم ليدخل في رحمته أولئك المؤمنين والمؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل وإيّاكم بحفظكم من إصابة المعرة .

وقيل : المعنى ليدخل في رحمته من أسلم من الكفار بعد الصلح .

وقوله : « لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما » التزيّل التفرّق وضمير « تزيّلوا » لجميع من تقدّم ذكره من المؤمنين والكفّار من أهل مكة أي لو تفرّقوا بأن يمتاز المؤمنون من الكفّار لعذبنا الذين كفروا من أهل مكة عذاباً أليماً لكن لم نعذبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين .

قوله تعالى : « إن جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » إلى آخر الآية قال الراغب : وعبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية فيقال : حميت على فلان أي غضبت عليه قال تعالى : « حمية الجاهلية » وعن ذلك استعير قولهم : حميت المكان حمى انتهى .

والظرف في قوله : « إن جعل » متعلق بقوله سابقاً : « وصدّوكم » وقيل : متعلق بقوله : « لعذبنا » وقيل : متعلق بأذكر المقدر ، والجعل بمعنى الإلقاء و « الذين كفروا » فاعله والحمية مفعوله و « حمية الجاهلية » بيان للحمية والجاهلية وصف موضوع في موضع الموصوف والتقدير الملة الجاهلية .

ولو كان « جعل » بمعنى صيّر كان مفعوله الثاني مقدّراً والتقدير إن جعل الذين كفروا الحمية راسخة في قلوبهم ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله : « جعل الذين كفروا » للدلالة على سبب الحكم .

ومعنى الآية هم الذين كفروا وصدّوكم إن ألقوا في قلوبهم الحمية حمية الملة الجاهلية .

وقوله : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » تفرّيع على قوله : « جعل الذين كفروا » ويفيد نوعاً من المقابلة كأنه قيل : جعلوا في قلوبهم الحمية فقابله الله سبحانه بإزالة السكينة على رسوله وعلى المؤمنين فاطمأنت قلوبهم ولم يستخفهم الطيش وأظهروا السكينة والوقار من غير أن يستفزهم الجهالة .

وقوله : « وألزمهم كلمة التقوى » أي جعلها معهم لا تنفك عنهم ، وهي على ما اختاره جمهور المفسرين كلمة التوحيد وقيل : المراد الثبات على العهد والوفاء به وقيل : المراد بها السكينة وقيل : قولهم : بلى في عالم الذر ، وهو أسخف الأقوال .

ولا يبعد أن يراد بها روح الإيمان التي تأمر بالتقوى كما قال تعالى : « وأولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ وقد أطلق الله الكلمة على الروح في قوله : « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » النساء : ١٧١ .

وقوله : « وكانوا أحقّ بها وأهلها » أمّا كونهم أحقّ بها فلتمام استعدادهم لتلقّي هذه العطية الإلهية بما عملوا من الصالحات فهم أحقّ بها من غيرهم ، وأمّا كونهم أهلها فلاّ أنهم مختصّون بها لا توجد في غيرهم وأهل الشيء خاصّته .

وقيل : المراد وكانوا أحقّ بالسكينة وأهلها ، وقيل : إنّ في الكلام تقديماً وتأخيراً والأصل وكانوا أهلها وأحقّ بها وهو كما ترى .

وقوله : « وكان الله بكلّ شيء عليمًا » تذييل لقوله : « وكانوا أحقّ بها وأهلها » أو لجميع ما تقدّم ، والمعنى على الوجهين ظاهر .

قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون » الخ قيل : إنّ صدق وكذب مخفّفين يتعدّيان إلى مفعولين يقال : صدقت زيداً الحديث وكذبت حديثه ، وإلى المفعول الثاني بفي يقال : صدقته في الحديث وكذبت فيه ، ومثقلين يتعدّيان إلى مفعول واحد يقال : صدقته في حديثه وكذبت به في حديثه .

و اللّام في « لقد صدق الله » للقسم ، وقوله : « لتدخلنّ المسجد الحرام » جواب القسم .

وقوله : « بالحقّ » حال من الرؤيا والباء فيه للملازمة ، والتعليق بالمشية في قوله : « إنّ شاء الله » لتعليم العباد والمعنى أقسم لقد صدق الله رسوله في الرؤيا التي أراه لتدخلنّ أيّها المؤمنون المسجد الحرام إنّ شاء الله حال كونكم آمنين من شرّ المشركين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون المشركين .

وقوله : « فعلم ما لم تعلموا وجعل من دون ذلك فتحة قريباً » ذلك إشارة إلى ما تقدّم من دخولهم المسجد الحرام آمنين ، والمراد بقوله : « من دون ذلك » أقرب من ذلك والمعنى فعلم تعالى من المصلحة في دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه

و لم تعلموه ، و لذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحا قريبا ليتيسر لكم الدخول كذلك .

و من هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب في هذه الآية فتح الحديبية فهو الذي سوي للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمين و يسر لهم ذلك و لو لا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا بالقتال و سفك الدماء و لا عمرة مع ذلك لكن صلح الحديبية و ما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين في العام القابل .

و من هنا تعرف أن قول بعضهم : إن المراد بالفتح القريب في الآية فتح خيبر بعيد من السياق ، و أما القول بأنه فتح مكة فأبعد .

و سياق الآية يعطي أن المراد بها إزالة الريب عن بعض من كان مع النبي ﷺ فإن المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبي ﷺ من دخولهم المسجد آمين محلقين رؤسهم و مقصرين ، أنهم سيدخلونه كذلك في عامهم ذلك فلما خرجوا قاصدين مكة معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبية و صدوهم عن المسجد الحرام إرتاب بعضهم في الرؤيا فأزال الله ريبهم بما في الآية .

و محصله أن الرؤيا حقّة أراها الله نبيّه ﷺ و قد صدق تعالى في ذلك ، و ستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمين محلقين رؤسكم و مقصرين لا تخافون لكنّه تعالى أخبره و قدّم عليه هذا الفتح و هو صلح الحديبية ليتيسر لكم دخوله لعلمه تعالى بأنه لا يمكن لكم دخوله آمين محلقين رؤسكم و مقصرين لا تخافون إلا بهذا الطريق .

قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دین الحق ليظهره على الدين كله » الخ تقدّم تفسيره في سورة التوبة الآية ٣٣ ، و قوله : « و كفى بالله شهيدا » أي شاهداً على صدق نبوته و الوعد أن دينه سيظهر على الدين كله أو على أن رؤياه صادقة فالجملة تذييل ناظر إلى نفس الآية أو الآية السابقة .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور في قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين » الآية أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال : بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ : أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فثرنا إلى رسول الله ﷺ و هو تحت شجرة سمرة فبايعناه فذلك قول الله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » فبايع عثمان إحدى يديه على الأخرى فقال الناس هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت و نحن ههنا . فقال رسول الله ﷺ : لو مكث كذا و كذا سنة ما طاف حتى أطوف .

و فيه أخرج عبد بن حميد و مسلم و ابن مردويه عن مغفل بن يسار قال : لقد رأيتني يوم الشجرة و النبي ﷺ يبايع الناس و أنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه و نحن أربع عشرة مائة و لم نبايعه على الموت و لكن بايعناه على أن لا نفر .

أقول : كون المؤمنين يومئذ أربع عشرة مائة مروى في روايات أخرى ، و في بعض الروايات ألف و ثلاثمائة و في بعضها إلى ألف و ثمان مائة ، و كذا كون البيعة على أن لا يفروا و في بعضها على الموت .

و فيه أخرج أحمد عن جابر و مسلم عن أم بشر عنه عن النبي ﷺ قال : لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » قال : إنما نزلت السكينة على من علم منه الوفاء .

أقول : و الرواية تخصص ما تقدم عليها و يدل عليه قوله تعالى فيما تقدم « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتیه أجراً عظيماً » فاشترط في الأجر - و يلازمه الاشتراط في الرضا - الوفاء و عدم النكث ، و قد أورد القمي هذا المعنى في تفسيره و كأنه رواية .

وفي الدر المنثور أيضاً في قوله تعالى : « إذ جعل الذين كفروا » الآية أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين : اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية نرجىء الصلح الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين ولو نرى قتالاً لقاتلنا .

فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتالنا في الجنة وقاتلهم في النار ؟ قال : بلى . قال : فقيم نعطي الدنيا في ديننا ؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : يا ابن الخطاب إنني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا .

فرجع متغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبابكر فقال : يا أبابكر ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتالنا في الجنة وقاتلهم في النار ؟ قال : بلى . قال : فلم نعطي الدنيا في ديننا ؟ قال : يا ابن الخطاب إنني رسول الله ولن يضيعه الله أبدا فنزلت سورة الفتح فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إياها فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : نعم .

وفي كمال الدين باسناده عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « لو تزيَّلوا لعدت بنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » قال : لو أخرج الله ما في أصلاب المؤمنين من الكافرين وما في أصلاب الكافرين من المؤمنين لعدت بنا الذين كفروا .

أقول : وهذا المعنى مروى في روايات أخر .

وفي الكافي باسناده عن جميل قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى : « و ألزمهم كلمة التقوى » قال : هو الإيمان .

وفي الدر المنثور أخرج الترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ابن كعب عن النبي ﷺ « و ألزمهم كلمة التقوى » قال : لا إله إلا الله .

أقول : وروى هذا المعنى أيضا بطرق أخرى عن عليّ وسلمة بن الأكوع و
أبي هريرة ، وروى أيضاً من طرق الشيعة كما في العلل باسناده عن الحسن بن عبد الله
عن آبائه عن جده الحسن بن عليّ عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث يفسر فيه «سبحان
الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» قال عليه السلام : وقوله : لا إله إلا الله يعني وحدانيته
لا يقبل الله الأعمال إلا بها ، وهي كلمة التقوى ينقل الله بها الموازين يوم القيامة .
وفي المجمع في قصة فتح خيبر قال : ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة من
الحديبية مكث بها عشرين ليلة ثم خرج منها غادياً إلى خيبر .

ذكر ابن إسحاق باسناده إلى أبي مروان الأسلمي عن أبيه عن جده قال :
خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى خيبر حتى إذا كنا قريباً منها وأشرنا عليها قال رسول
الله صلى الله عليه وآله : قفوا فوق الناس فقال اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب
الأرضين السبع وما أظللن ورب الشياطين وما أضللن إننا نسألك خير هذه القرية
وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها .
اقدموا بسم الله .

وعن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى خيبر فسرنا ليلاً
فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهانك و كان عامر رجلاً شاعراً
فجعل يقول :

لاهم لو لا أنت ما حجيننا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتنينا	و ثبت الأقدام إن لاقينا
و أنزلن سكينتنا علينا	إننا إذا صبح بنا أتينا

و بالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر . قال : يرحمه الله . قال
عمر وهو على جمل له وجيب^(١) : يا رسول الله لو لا أمتعتنا به ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) وجب البعير أعبي ، ووجب برك و ضرب بنفسه الأرض .

ما استغفر لرجل قط يخصصه إلا استشهد .

قالوا : فلما جدَّ الحرب وتضافَّ القوم خرج يهوديٌ وهو يقول :
قد علمت خبيراً نبيَّ مرحبٍ شاكي السلاح بطل مجربٍ
إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه عامر وهو يقول :

قد علمت خبيراً نبيَّ عامرٍ شاكي السلاح بطل مغامرٍ

فاختلفا ضربتین فوق سيف اليهودي في ترس عامر و كان سيف عامر فيه قصر فتناول به ساق اليهودي ليضربه فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه .
قال سلمة : فاذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : بطل عمل عامر قتل نفسه . قال : فأتيت النبي ﷺ و أنا أبكي فقلت : قالوا : إن عامراً بطل عمله فقال : من قال ذلك ؟ قلت : نفر من أصحابك ، فقال : كذب أولئك بل أوتي من الأجر مرتين .

قال : فحاصرناهم حتى أصابنا مخمصة شديدة ثم إن الله فتحها علينا ، و ذلك أن النبي ﷺ أعطى اللواء عمر بن الخطاب و نهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر فانكشف عمر و أصحابه فرجعوا إلى رسول الله ﷺ يحببته أصحابه و يحببتهم ، و كان رسول الله ﷺ أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فقال حين أفاق من وجعه : ما فعل الناس بخيبر ؟ فأخبر فقال : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله و رسوله و يحببه الله و رسوله كراماً غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه .

و روى البخاري و مسلم عن قتيبة بن سعيد قال : حدثنا يعقوب عن عبد الرحمن الإسكندراني عن أبي حازم قال : أخبرني سعد بن سهل أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله و رسوله و يحببه الله و رسوله . قال : فبات الناس يدوكون بجملتهم أنهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها .

فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه . قال :

فأرسلوا إليه فأتى به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه فبرء كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال عليّ: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . قال : انفذ عليّ رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام و أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم .

قال سلمة : فبرز مرحب و هو يقول : قد علمت خبير أني مرحب الأبيات فبرز له عليّ و هو يقول :

أنا الذي سمّيتني أمي حيدرته كليلث غابات كريبه المنظره

أوفيهيم بالصاع كيل السندره

فضرب مرحباً ففلق رأسه فقتله و كان الفتح عليّ يده .

أورده مسلم في صحيحه .

و روى أبو عبد الله العافظ بإسناده عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال : خرجنا مع عليّ حين بعثه رسول الله ﷺ فلما دنى من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده فتناول عليّ باب الحصن فترس به عن نفسه فلم يزل في يده و هو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده فلقد رأيتني في نفر مع سبعة أنا ثامنهم نجهد عليّ أن نقلب ذلك الباب فما استطعنا أن نقبله .

و بإسناده عن ليث بن أبي سليم عن أبي جعفر محمد بن عليّ قال : حدثني جابر ابن عبد الله أن عليّاً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه فاقتحموها ، وأنه حرك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً .

قال : و روي من وجه آخر عن جابر : ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب .

و بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كان عليّ يلبس في الحرّ والشتاء القباء المحشو الثخين وما يبالي بالحرّ فأتاني أصحابي فقالوا : إننا رأينا من أمير المؤمنين شيئاً فهل رأيت ؟ فقلت : وما هو ؟ قالوا : رأينا يخرج علينا في الحرّ الشديد في القباء

المحشو. الثخين وما يبالي الحر ، و يخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين
و ما يبالي البرد فهل سمعت في ذلك شيئاً ؟ فقلت : لا فقالوا : فسل لنا أباك عن ذلك فإنه
يسمر معه فسألته فقال : ما سمعت في ذلك شيئاً .

فدخل على علي فسمر معه ثم سأله عن ذلك فقال : أو ما شهدت خيبر ؟ قلت :
بلى . قال : أفما رأيت رسول الله حين دعا أبابكر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق
فلقى القوم ثم جاء بالناس و قد هزم ثم بعث إلى عمر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق
فلقى القوم فقاتلهم ثم رجع و قد هزم .

فقال رسول الله ﷺ : لأعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله و رسوله و يحبه
الله و رسوله يفتح الله على يديه كراً غير فرار فدعاني و أعطاني الراية ثم قال :
اللهم اكفه الحر و البرد فما وجدت بعد ذلك حرّاً ولا برداً ، و هذا كله منقول من
كتاب دلائل النبوة للإمام أبي بكر البيهقي .

قال الطبرسي : ثم لم يزل رسول الله ﷺ يفتح الحصون حصناً حصناً و يحوز
الأموال حتى انتهوا إلى حصن الوطيح و الساللم و كان آخر حصون خيبر افتتح ، و
حاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة .

قال ابن إسحاق : و لما افتتح القموص حصن أبي الحقيق أتى رسول الله ﷺ
بصفية بنت حيي بن أخطب و بأخرى معها فمر بهما بلال - و هو الذي جاء بهما -
على قتلى من قتلى يهود فلما رأتهم أتى معها صفية صاحت و صكت وجهها و حثت
التراب على رأسها فلما رآها رسول الله ﷺ قال : اعزبوا عني هذه الشيطانة ، و أمر
بصفية فحيزت خلفه و ألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه ، و قال
بلال لما رأى من تلك اليهودية ما رأى : أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمر بامرأتين
على قتلى رجالهما ؟

و كانت صفية قد رأت في المنام - و هي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق -
أن قمراً وقع في حجرها فعرضت رؤياها على زوجها فقال : ما هذا إلا أنك تتمنين

ملك الحجاز محمداً ولطم وجهها لطمه اخضرت عينها منها فأتى بها رسول الله ﷺ وبها أثر منها فسألها رسول الله ﷺ ما هو؟ فأخبرته .

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ أنزل فأكلتمك؟ قال : نعم . فنزل وصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذرايرهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض على الصفراء والبيضاء والكراع^(١) والخلفة وعلى البز^(٢) إلا ثوباً على ظهر إنسان ، وقال رسول الله ﷺ فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتم موافقون شيئاً فصالحوه على ذلك .

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيرهم ويحقن دماءهم ويخلون بينه وبين الأموال ففعل وكان ممن مشى بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك محبيصة بن مسعود أحد بني حارثة .

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألو رسول الله ﷺ أن يعاملهم الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأمر لها فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف على أننا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم ، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت أموال خيبر فينا بين المسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب .

ولما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم وهي ابنة أخي مرحب شاة مصلية ، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ فقيل لها : الذراع فأكثرت فيها السم وسمت سائر الشاة ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فأخذها ولاك منها مضغة وانتهش منها ومعه بشر بن البراء بن معرور فتناول عظما فانتهش منه فقال رسول الله ﷺ : ارفعوا أيديكم فإن

(١) الكراع بضم الكاف مطلق الماشية والخلفة بالكسر فالسكون الاثنا والبز

الثوب .

كتف هذه الشاة يخبرني أنّها مسمومة ثمّ دعاها فاعترفت فقال : ما حملك على ذلك ؟
فقال : بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت : إن كان نبيّاً فسيخبر وإن كان ملكا
استرحت منه فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل .
قال : ودخلت أمّ بشر بن البراء على رسول الله ﷺ يعود في مرضه الذي
توفي فيه فقال ﷺ : يا أمّ بشر ما زالت أكلة خيبر التي أكلت بخيبر مع ابنك
تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري ، وكان المسلمون يرون أنّ رسول الله ﷺ مات شهيداً
مع ما أكرمه الله به من النبوة .





مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ
تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مِثْلَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ
كَزَّرِعٍ أَخْرَجَ شَطْنُهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ
لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩).

﴿ بيان ﴾

الآية خاتمة السورة تصف النبي ﷺ وتصف الذين معه بما وصفهم به في التوراة والإنجيل وتعد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وعدا جميلا ، والآية اتصال بما قبلها حيث أخبر فيه أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق .

قوله تعالى : « محمد رسول الله » إلى آخر الآية الظاهر أنه مبتدئ وخبر فهو كلام تام ، وقيل : « محمد » خبر مبتدئ محذوف وهو ضمير عائد إلى الرسول في الآية السابقة والتقدير هو محمد ، « ورسول الله » عطف بيان أو صفة أو بدل ، وقيل : « محمد » مبتدئ و « رسول الله » عطف بيان أو صفة أو بدل و « الذين معه » معطوف على المبتدئ و « أشداء على الكفار » النخ خبر المبتدئ .

وقوله : « والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » مبتدئ وخبر فالكلام مسوق لتوصيف الذين معه والشدة والرحمة المذكورتان من نعوتهم .

وتعقيب قوله : « أشدّاء على الكفّار » بقوله : « رحماء بينهم » لدفع ما يمكن أن يتوهّم أن كونهم أشدّاء على الكفّار يستوجب بعض الشدّة فيما بينهم فدفع ذلك بقوله : « رحماء بينهم » وأفادت الجملتان أن سيرتهم مع الكفّار الشدّة ومع المؤمنين فيما بينهم الرحمة .

وقوله : « تراهم ركعاً سجّداً » الركع والسجد جمعاً راعع وساجد ، والمراد بكونهم ركعاً سجّداً إقامتهم للصلاة ، و « تراهم » يفيد الاستمرار والمحصّل أنّهم مستمرّون على الصلاة ، والجمله خبر بعد خبر للذين معه .

وقوله : « يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » الابتغاء الطلب ، والفضل العطيّة وهو الثواب ، والرضوان أبلغ من الرضا .

والجمله إن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الركوع والسجود كان لا نسب أن تكون حالاً من ضمير المفعول في « تراهم » وإن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الحياة مطلقاً كما هو الظاهر كانت خبراً بعد خبر للذين معه .

وقوله : « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » سيما العلامة و « سيماهم في وجوههم » مبتدء وخبر و « من أثر السجود » حال من الضمير المستكن في الخبر أو بيان للسيما أي إن سجودهم لله تذلاً وتخشعاً أثر في وجوههم أثراً وهو سيما الخشوع لله يعرفهم به من رآهم ويقرب من هذا المعنى ما عن الصادق عليه السلام أنه السهر في الصلاة ^(١) .

وقيل : المراد أثر التراب في جباههم لأنهم كانوا إنّما يسجدون على التراب لا على الأثواب .

وقيل : المراد سيماهم يوم القيامة فيكون موضع سجودهم يومئذ مشرقاً مستنيراً .

(١) رواه الصدوق في الفقيه والمفيد في روضة الواعظين مرسلًا عن عبدالله بن سنان

وقوله : « ذلك مثلهم في التوراة و مثلهم في الإنجيل » المثل هو الصفة أي الذي وصفناهم به من أنهم أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم النخ وصفهم الذي وصفناهم به في الكتابين التوراة والإنجيل .

فقوله : « و مثلهم في الإنجيل » معطوف على قوله : « مثلهم في التوراة » و قيل : إن قوله : « و مثلهم في الإنجيل » النخ استئناف منقطع عمّا قبله ، وهو مبتدأ خبره قوله : « كزرع أخرج شطأه النخ فيكون وصفهم في التوراة هو أنهم أشدّاء على الكفّار إلى قوله : « من أثر السجود » ، و وصفهم في الإنجيل هو أنهم كزرع أخرج شطأه النخ .
وقوله : « كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع » شطؤ النبات أفرأخه التي تتولد منه و تنبت حوله ، والإيزار الإياعة ، والاستغلاظ الأخذ في الغلظة ، والسوق جمع ساق ، والزراع جمع زارع .
والمعنى هم كزرع أخرج أفرأخه فأعانها فقويت و غلظت و قام على سوقه يعجب الزراعين بجودة رشده .

وفيه إشارة إلى أخذ المؤمنين في الزيادة والعدّة والقوّة يوماً فيوماً و لذلك عقبه بقوله : « ليغيظ بهم الكفّار » .

وقوله : « وعد الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً » ضمير « منهم » للذين معه ، و « من » للتبعيض على ما هو الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم و يفيد الكلام اشتراط المغفرة والأجر العظيم بالإيمان حدوداً و بقاء و عمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلاً كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير إليه قوله تعالى : « و من أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » التوبة : ١٠١ أو آمن أو لا ثم أشرك و كفر كما في قوله : « إن الذين ارتدوا على أذارهم من بعد ما تبين لهم الهدى - إلى أن قال - و لو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم » سورة محمد : ٣٠ .

أو آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك^(١) و آية التبيين في

(١) فمن أهل الإفك من هو صحابي بدرى وقد قال تعالى : « ان الذين يرمون ←

نبأ الفاسق و أمثال ذلك لم يشملهم وعد المغفرة والأجر العظيم .

ونظير هذا الاشتراط ما تقدم في قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتاه أجرا عظيما » ، و يؤيده أيضا ما فهمه ابن عباس من قوله تعالى : « فاعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » حيث فسره بقوله : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء ، و قد تقدمت الرواية .

و نظير الآية أيضا في الاشتراط قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض - إلى أن قال - و من كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » النور : ٥٥ .

وقيل : إن « من » في الآية بيانية لا تبعيضية فتفيد شمول الوعد لجميع الذين معه .

و هو مدفوع - كما قيل - بأن « من » البيانية لا تدخل على الضمير مطلقا في كلامهم ، والاستشهاد لذلك بقوله تعالى : « لو تزيَّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم » مبني على إرجاع ضمير « تزيَّلوا » إلى المؤمنين و ضمير « منهم » للذين كفروا ، و قد تقدم في تفسير الآية أن الضميرين جميعا راجعان إلى مجموع المؤمنين والكافرين من أهل مكة فتكون « من » تبعيضية لا بيانية .

و بعد ذلك كله لو كانت العدة بالمغفرة أو نفس المغفرة شملتهم شمولاً مطلقاً من غير اشتراط بالإيمان والعمل الصالح و كانوا مغفورين - آمنوا أو أشركوا و أصلحوا أو فسقوا - لزمته لزوماً بيئناً لغوية جميع التكليف الدينية في حقهم و ارتفاعها عنهم و هذا مما يدفعه الكتاب والسنة فهذا الاشتراط ثابت في نفسه و إن لم يتعرض له في اللفظ ، و قد قال تعالى في أنبيائه : « و لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون »

→ المحصات النافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والاخرة ولهم عذاب عظيم ، النور : ٢٣ و من نزل فيه : « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » الحجرات : ٦ و هو الوليد بن عقبة صحابي و قد سماه الله فاسقا و قد قال تعالى : فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ، التوبة : ٩٦ .

الأ نعام : ٨٨ فأثبتته في أنبيائه و هم معصومون فكيف فيمن هو دونهم .
 فان قيل : اشتراط الوعد بالمغفرة والأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح
 اشتراط عقلي كما ذكر ولا سبيل إلى إنكاره لكن سياق قوله : « وعد الله الذين آمنوا
 و عملوا الصالحات منهم » يشهد باتصافهم بالإيمان و عمل الصالحات و أنهم واجدون
 للشرط .

و خاصة بالنظر إلى تأخير « منهم » عن قوله : « الذين آمنوا و عملوا الصالحات »
 حيث يدل على أن عمل الصالحات لا ينفك عنهم بخلاف قوله في آية النور : « وعد الله
 الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم » النور : ٥٥ كما ذكره بعضهم ، و
 يؤيده أيضاً قوله في مدحهم « تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله و رضواناً » حيث
 يدل على الاستمرار .

قلنا : أما تأخير « منهم » في الآية فليس للدلالة على كون العمل الصالح لا ينفك
 عنهم بل لأن موضوع الحكم هو مجموع « الذين آمنوا و عملوا الصالحات » ولا يترتب
 على مجرد الإيمان من دون العمل الصالح أثر المغفرة والأجر ثم قوله : « منهم »
 متعلق بمجموع الموضوع فمن حقه أن يذكر بعد تمام الموضوع و هو « الذين آمنوا
 و عملوا الصالحات » ، و أما تقدم الضمير في قوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا
 الصالحات ليستخلفنهم » فلا أنه مسوق سوق البشري للمؤمنين والأنسب لها التسريع
 في خطاب من بشر بها لينشط بذلك و ينبسط لتلقي البشري .

و أما دلالة قوله : « تراهم ركعاً سجداً » الخ على الاستمرار فإنما يدل عليه
 في ما مضى إلى ينتهي إلى الحال ، و أما في المستقبل فلا و مصب إشكال لغوية الأحكام
 إنما هو المستقبل دون الماضي إذ مغفرة الذنوب الماضية لا تراحم تعلق التكليف بل
 تؤكد بخلاف تعلق المغفرة المطلقة بما سيأتي فإنه لا يجمع بقاء التكليف الملوي
 على اعتباره فيرفع بذلك التكليف و هو مقطوع البطالان . على أن ارتفاع التكليف
 يستلزم ارتفاع المعصية و يرتفع بارتفاعها موضوع المغفرة فوجود المغفرة كذلك يستلزم
 عدمها .

﴿سورة الحجرات مدنية وهي ثمان عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ
يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ
بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)
إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ
مِنْ وَّرَاءِ الْحِجْرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى
تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ
فَتُصِيبُوهَا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ
لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ
وَ زِينَةً فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ
هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّ مِنْ اللَّهِ وَ نِعْمَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)
وَ إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ أَحَدُهُمَا
عَلَى الْأُخْرَى فَمَا تَلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠).

﴿ بيان ﴾

تضمنت السورة مسائل من شرائع الدين بهاتمت الحياة السعيدة للفرد و يستقر النظام الصالح الطيب في المجتمع منها ما هو أدب جميل للعبد مع الله سبحانه و مع رسوله كما في الآيات الخمس في مفتتح السورة ، و منها ما يتعلق بالإنسان مع أمثاله من حيث وقوعهم في المجتمع الحيوي ، و منها ما يتعلق بتفاضل الأفراد و هو من أهم ما ينتظم به الاجتماع المدني و يهدي الإنسان إلى الحياة السعيدة والعيش الطيب الهنيء و يتميز به دين الحق من غيره من السنن الاجتماعية القانونية و غيرها و تختتم السورة بالإشارة إلى حقيقة الإيمان والإسلام و امتنانه تعالى بما يفيضه من نور الإيمان .

و السورة مدنية بشهادة مضمين آياتها سوى ما قيل في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى » الآية و سيجيء .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدوا بين يدي الله و رسوله و اتقوا الله إن الله سميع عليم » بين يدي الشيء أمامه و هو استعمال شائع مجازي أو استعاري و إضافته إلى الله و رسوله معاً لا إلى الرسول دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى و بين رسوله و هو مقام الحكم الذي يختص بالله سبحانه و برسوله باذنه كما قال تعالى : « إن الحكم إلا لله » يوسف : ٤ ، و قال : « و ما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » النساء : ٦٤ .

و من الشاهد على ذلك تصدير النهي بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » و تذييله بقوله : « و اتقوا الله إن الله سميع عليم » الظاهر في أن المراد بما بين يدي الله و رسوله

هو المقام الذي يربط المؤمنين المتقين بالله ورسوله و هو مقام الحكم الذي يأخذون منه أحكامهم الاعتقادية والعملية .

و بذلك يظهر أن المراد بقوله : « لا تقدّموا » تقديم شيء ما من الحكم قبل حكم الله ورسوله إما بالاستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله ورسوله أو إلى فعل قبل أن يتلقوا الأمر به من الله ورسوله لكن تذييله تعالى النهي بقوله : « إن الله سميع عليم » يناسب تقديم القول دون تقديم الفعل ودون الأعمّ الشامل للقول والفعل وإلا ل قيل : إن الله سميع بصير ليحاذي بالسميع القول والبصير الفعل كما يأتي تعالى في كثير من موارد الفعل بمثل قوله : « والله بما تعملون بصير » الحديد : ٤ ، فمحصّل المعنى أن لا تحكموا فيما لله ورسوله فيه حكم إلا بعد حكم الله ورسوله أي لا تحكموا إلا بحكم الله ورسوله و لتكن عليكم سمة الاتباع والافتقار .

لكن بالنظر إلى أن كل فعل وترك من الإنسان لا يخلو من حكم له فيه وكذلك العزم والإرادة إلى فعل أو ترك يدخل الأفعال والتروك وكذا إرادتها والعزم عليها في حكم الاتباع ، ويفيد النهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله النهي عن المبادرة والإقدام إلى قول لم يسمع من الله ورسوله ، وإلى فعل أو ترك أو عزم وإرادة بالنسبة إلى شيء منهما قبل تلقي الحكم من الله ورسوله فتكون الآية قريبة المعنى من قوله تعالى في صفة الملائكة : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ .

وهذا الاتباع المنسوب إليه بقوله : « لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله » هو الدخول في ولاية الله والوقوف في موقف العبودية والسير في مسيرها بجعل العبد مشيته تابعة لمشيته الله في مرحلة التشريع كما أنها تابعة لها في مرحلة التكوين قال تعالى : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » الإنسان : ٢٠ ، وقال : « والله وليّ المؤمنين » آل عمران : ٦٨ ، وقال : « والله وليّ المتقين » الجاثية : ١٩ .

وللقوم في قوله تعالى : « لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله » وجوه :
منها : أن التقديم بمعنى التقدم فهو لازم ومعنى « لا تقدّموا بين يدي الله

ورسوله « لا تعجلوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ولا تقطعوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ، وربما قيل : إن التقديم في الآية بمعناه المعروف لكنّه مستعمل بالإعراض عن متعلقاته كقوله : « يحيي ويميت » الحديد : ٢ فيؤل المعنى إلى مجرد كون شيء قدّم شيء فيرجع إلى معنى التقدّم .

واللفظ مطلق يشمل التقدّم في قول أو فعل حتّى التقدّم على النبي ﷺ في المشية والجلسة ، والتقدّم بالطاعات الموقّنة قبل وقتها وغير ذلك .

ومنها : أن المراد النهي عن التكلم قبل رسول الله ﷺ أي إذا كنتم في مجلسه وسئل عن شيء فلا تسبقوه بالجواب حتّى يجيب هو أو لا .

ومنها أن المعنى لا تسبقوه بقول أو فعل حتّى يأمركم به .

ومنها أن المعنى لا تقدّموا أقوالكم وأفعالكم على قول النبي ﷺ وفعله ولا تمكّنوا أحدا يمشي أمامه .

والظاهر أن تفسير « لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله » بالنهي عن التقديم بين يدي رسول الله ﷺ فقط في هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة مبني على حملهم ذكر الله تعالى مع رسوله في الآية على نوع من التشرّيف كقوله : أعجبنى زيد وكرمه فيكون ذكره تعالى للإشارة إلى أن السبقة على النبي ﷺ على أي حال في معنى السبقة على الله سبحانه .

ولعلّ التأمل فيما قدّمناه من الوجه يكفيك في المنع عن المصير إلى شيء من هذه الوجوه .

وقوله : « واتقوا الله إن الله سميع عليم » أمر بالتقوى في موقف الاتّباع والعبوديّة ولا ظرف للإنسان إلّا ظرف العبوديّة ولذلك أطلق التقوى .

وفي قوله : « إن الله سميع عليم » تعليل للنهي والتقوى فيه أي اتّقوه بالانتهاء عن هذا النهي فلا تقدّموا قولاً بلسانكم ولا في سرّكم لأنّ الله سميع يسمع أقوالكم عليم يعلم ظاهركم وباطنكم وعلا نيتكم وسرّكم .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي »

الخ وذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته وتكليمه ﷺ أرفع من صوته وأجهر لأنّ في ذلك كما قيل أحد شيئين إمّا نوع استخفاف به وهو الكفر ، وإمّا إساءة الأدب بالنسبة إلى مقامه وهو خلاف التعظيم والتوقير المأمور به .

وقوله : « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » فإنّ من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه فمطلق الجهر بالخاطب فاقدم لمعنى التعظيم فخاطب العظماء بالجهر فيه كخاطب عامة الناس لا يخلو من إساءة الأدب والوقاحة .

وقوله : « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » أي لثلا تحبط أو كراهة أن تحبط أعمالكم ، وهو متعلق بالنبيين جميعا أي إنّما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض لثلا تبطل أعمالكم بذلك من حيث لا تشعرون فإنّ فيهما الحبط ، وقد تقدّم القول في الحبط في الجزء الثاني من الكتاب .

وجوز بعضهم كون « أن تحبط » الخ تعليلا للمنهى عنه وهو الرفع والجهر والمعنى فعلكم ذلك لأجل الحبوط منهى عنه ، والفرق بين تعليله للنهي وتعليله للمنهى عنه أن الفعل المنهى عنه معلق على الأوتل والفعل المعلق منهى عنه على الثاني ، وفيه تكلف ظاهر .

وظاهر الآية أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط فيكون من المعاصي غير الكفر ما يوجب الحبط .

وقد توجه الآية بأن المراد بالحبط فقدان نفس العمل للثواب لا إبطال العمل ثواب سائر الأعمال كما في الكفر قال في مجمع البيان : وقال أصحابنا : إنّ المعنى في قوله : « أن تحبط أعمالكم » أنّه ينحبط ثواب ذلك العمل لأنّهم لو أوقعوه على وجه تعظيم النبي ﷺ وتوقيره لاستحقوا الثواب فلما أوقعوه على خلاف ذلك الوجه استحقوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب فانحبط عملهم فلا تعلق لأهل الوعيد بهذه الآية . ولا أنّه تعالى علق الإحباط في هذه الآية بنفس العمل وهم يعلقونه بالمستحق على العمل وذلك خلاف الظاهر . انتهى .

و فيه أن الحبط المتعلق بالكفر الذي لا ريب في تعلقه بثواب الأعمال أيضاً متعلق في كلامه بنفس الأعمال كما في هذه الآية فلتحمل هذه على ما حملت عليه ذلك من غير فرق ، و كونه خلاف الظاهر ممنوع فإن بطلان العمل بطلان أثره المترتب عليه .

وقد توجه الآية أيضاً بالبناء على اختصاص الحبط بالكفر بأن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ و الجهر له بالقول ليسا بمحبتين من حيث أنفسهما بل من حيث إحداهما أحياناً إلى إيدائه ﷺ و إيدأؤه كفر و الكفر محبط للعمل .

قال بعضهم : المراد في الآية النهي عن رفع الصوت مطلقاً و معلوم أن ملاك التحذير مما يتوقع فيه من إيداء النبي ﷺ الذي هو كفر محبط للعمل بالاتفاق . فورد النهي عمماً هو مظنة أذاه - سواء وجد هذا المعنى أولاً - حماية للحرمة وحسماً للمادة . ثم لما كان هذا المنهي عنه منقسماً إلى ما يبلغ حد الكفر و هو المونزي له عليه الصلاة و السلام و إلى ما لا يبلغ ذلك المبلغ ، و لا دليل يميز أحد القسمين من الآخر و لو فرض وجوده لم يلتفت إليه في كثير من الأحيان ، لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً مخافة أن يقع فيما هو محبط للعمل و هو البالغ حد الأذى .

و إلى التباس أحد القسمين بالآخر الإشارة بقوله تعالى : « أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشعرون » و إلا فلو كان رفع الصوت و الجهر بالقول منهيّاً عنهما مطلقاً سواء بلغا حد الأذى أو لم يبلغا لم يكن موقع لقوله تعالى : « و أنتم لا تشعرون » إن الأمر منحصر بين أن يكون رفع الصوت أو الجهر بالقول بالغا حد الأذى فيكون كفراً محبطاً قطعاً أو غير بالغ فيكون أيضاً ذنباً محبطاً قطعاً فلا حباط محقق على أي تقدير فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور مع أن الشعور ثابت مطلقاً للعلم به بعد النهي انتهى ملخصاً .

و فيه أن ظهور قوله : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » و لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض في النهي النفسي دون النهي المقدمي أخذاً بالاحتياط مما لا ريب فيه لكن كلاً من الفعلين مما يدرك كونه عملاً شيئاً عقلاً قبل ورود النهي الشرعي عنه كالاقتراء و الإفك ، و كان الذين يأتون بهما المؤمنين كما صدر النهي بقوله : « يا

أيها الذين آمنوا» وهم وإن أمكن أن يسامحوا في بعض السيئات بحسبانه هيناً لكنهم لا يرضون ببطلان إيمانهم وأعمالهم الصالحة من أصله .

فنبه سبحانه بقوله : « أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشعرون » على أنكم لا تشعرون بما لذلك من الأثر الهائل العظيم فإنما هو إحباط الأعمال فلا تقربوا شيئاً منهما أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشعرون .

فقوله : « و أنتم لا تشعرون » ناظر إلى حالهم قبل النهي حيث كانوا يشعرون بكون الفعل سيئة لكنهم ما كانوا يعلمون بعظمة مساءته لهذا الحد ، وأما بعد صدور البيان الإلهي فهم شاعرون بالإحباط .

فالآية من وجه نظيرة قوله تعالى في آيات الإفك : « و تحسبونه هيناً و هو عند الله عظيم » النور : ١٥ ، و قوله في آيات القيامة : « و بدلهم من الله ما لم يكونوا يحسبون » الزمر : ٤٧ .

قوله تعالى : « إن الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » الخ غض الصوت خلاف رفعه ، ومعنى الامتحان الابتلاء و الاختبار و إنما يكون لتحصيل العلم بحال الشيء المجهول قبل ذلك ، و إن يستحيل ذلك في حقه تعالى فالمراد به هنا التمرين و التعويد - كما قيل - أو حمل المحنة و المشقة على القلب ليعتاد بالتقوى .

و الآية مسوقة للوعد الجميل على غض الصوت عند رسول الله ﷺ بعد توصيفهم بأن قلوبهم ممتحنة للتقوى و الذي امتحنهم لذلك هو الله سبحانه ، و فيه تأكيد و تقوية لمضمون الآية السابقة و تشويق للانتهاء بما فيها من النهي .

و في التعبير عنه ﷺ في هذه الآية برسول الله بعد التعبير عنه في الآية السابقة بالنبي إشارة إلى ملاك الحكم فإن الرسول بما هو رسول ليس له من الأمر شيء فماله فلمرسله ، و تعظيمه و توقيره تعظيم لمرسله و توقير له فغض الصوت عند رسول الله تعظيم و تكبير لله سبحانه ، و المداومة و الاستمرار على ذلك - كما يستفاد من قوله : « يعضون » المفيد للاستمرار - كاشف عن تخلفهم بالتقوى و امتحانه تعالى قلوبهم للتقوى .

وقوله : « لهم مغفرة وأجر عظيم » وعد جميل لهم بإزاء ما في قلوبهم من تقوى الله ، والعاقبة للتقوى .

قوله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » سياق الآية يؤدّي أنه واقع وأنهم كانوا قوما من الجفاة ينادونه عَلَيْهِمْ سُبْحَانَ اللَّهِ من وراء حجرات بيته من غير رعاية لمقتضى الأدب وواجب التعظيم والتوقير فذمهم الله سبحانه حيث وصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون كالبهائم من الحيوان .

قوله تعالى : « و لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم » أي ولو أنهم صبروا عن نداءك فلم ينادوك حتى تخرج إليهم لكان خيراً لمافيهم من حسن الأدب ورعاية التعظيم والتوقير لمقام الرسالة ، و كان ذلك مقرباً لهم إلى مغفرة الله ورحمته لأنه غفور رحيم .

فقوله : « والله غفور رحيم » كالناظر إلى ما ذكر من الصبر و يمكن أن يكون ناظراً إلى كون أكثرهم لا يعقلون والمعنى أن ما صدر عنهم من الجهالة و سوء الأدب مغفور عنه لأنه لم يكن عن تعقل و فهم منهم بل عن قصور في ذلك والله غفور رحيم .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق ببناء فتنبئوا » الخ الفاسق - كما قيل - الخارج عن الطاعة إلى المعصية ، والنبأ الخبر العظيم الشأن ، والتبيين والاستبانة والإبانة - على ما في الصحاح - بمعنى واحد وهي تتعدى ولا تتعدى فإذا تعدت كانت بمعنى الايضاح والإظهار يقال : تبينت الأمر و استبينته وأبنته أي أوضحتها وأظهرته ، وإذا لزم كانت بمعنى الاتضاح والظهور يقال : أبان الأمر و استبان و تبين أي اتضح و ظهر .

و معنى الآية يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر ذي شأن فتنبئوا خبره بالبحث والفحص للوقوف على حقيقته حذر أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيروا نادمين على ما فعلتم بهم .

و قد أمضى الله سبحانه في هذه الآية أصل العمل بالخبر و هو من الأصول العقلانية التي يبتني عليه أساس الحياة الاجتماعية الإنسانية ، و أمر بالتبيين في خبر

الفاسق و هو في معنى النهي عن العمل بخبره ، وحقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجتيته وهذا أيضاً كالأضياء لما بني عليه العقلاء من عدم حجتيته الخبر الذي لا يوثق بمن يخبر به و عدم ترتيب الأثر على خبره .

بيان ذلك أن حياة الإنسان حياة علمية يبني فيها سلوكه طريق الحياة على ما يشاهده من الخير والشر والنافع والضار والرأي الذي يأخذ به فيه ، ولا يتيسر له ذلك إلا فيما هو برأى منه و مشهد ، و ما غاب عنه مما تتعلق به حياته و معاشه أكثر مما يحضره و أكثر فاضطر إلى تميم ما عنده من العلم بما هو عند غيره من العلم الحاصل بالمشاهدة والنظر ، ولا طريق إليه إلا السمع و هو الخبر .

فالركون إلى الخبر بمعنى ترتيب الأثر عليه عملاً و معاملة مضمونه معاملة العلم الحاصل للإنسان من طريق المشاهدة والنظر في الجملة مما يتوقف عليه حياة الإنسان الاجتماعية توقفاً ابتدائياً ، و عليه بناء العقلاء و مدار العمل .

فالخبر إن كان متواتراً أو محفوظاً بقرائن قطعية توجب قطعاً مضمونه كان حجة معتبرة من غير توقف فيها فإن لم يكن متواتراً ولا محفوظاً بما يفيد قطعاً مضمونه و هو المسمى بخبر الواحد اصطلاحاً كان المعتبر منه عندهم ما هو الموثوق به بحسب نوعه و إن لم يفده بحسب شخصه ، و كل ذلك لأنهم لا يعملون إلا بما يرونه علماً و هو العلم الحقيقي أو الوثوق والظن الاطمئنان الممدود علماً عادة .

إذا تمهد هذا فقوله تعالى في تعليل الأمر بالتيين في خبر الفاسق : « أن تصيبوا قوماً بجهالة » الخ يفيد أن المأمور به هو رفع الجهالة و حصول العلم بمضمون الخبر عند ما يراد العمل به و ترتيب الأثر عليه ففي الآية إثبات ما أثبتته العقلاء و نفي ما نفوه في هذا الباب ، و هو إضفاء لا تأسيس .

قوله تعالى : « و اعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » الخ العنت الإثم والهلاك ، والطوع والطاعة الانقياد لكن أكثر ما يقال الطاعة في الائتمار لما أمر والارتسام لما رسم على ما ذكره الراغب لكن ربما يعكس الأمر فيسمى جري المتبوع على ما يريده التابع و يهواه طاعة من المتبوع للتابع و منه قوله

تعالى في الآية : « لو يطيعكم » حيث سمى عمل الرسول على ما يراه و يهواه المؤمنون طاعة منه لهم .

والآية على ما يفيد السياق من تتمّة الكلام في الآية السابقة تعمّم ما فيها من الحكم و تؤكّد ما فيها من التعليل فمضمون الآية السابقة الحكم بوجود التبيين في خبر الفاسق و تعليله بوجود التحرّز عن بناء العمل على الجهالة ، و مضمون هذه الآية تنبيه المؤمنين على أن الله سبحانه أورد لهم شرع الرشد و لذلك حبّب إليهم الايمان و زينته في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان فعليهم أن لا يغفلوا عن أن فيهم رسول الله و هو مؤيد من عند الله و على بيّنة من ربه لا يسلك إلا سبيل الرشد دون الغي فعليهم أن يطيعوا الرسول ﷺ فيما يأمرهم به و يريدوا ما أراه و يختاروا ما اختاره ، ولا يصرّوا على أن يطيعهم في آرائهم و أهوائهم فانه لو يطيعهم في كثير من الأمر جهدوا و هلكوا .

فقوله : « و اعلموا أن فيكم رسول الله » عطف على قوله في الآية السابقة : « فتبيّنوا » و تقديم الخبر للدلالة على الحصر ، و الإشارة إلى ما هو لازمه فإن اختصاصهم بكون رسول الله ﷺ فيهم لازمه أن يتعلّقوا بالرشد و يتجنبوا الغي و يرجعوا الأمور إليه و يطيعوه و يتبعوا أثره و لا يتعلّقوا بما تستدعيه منهم أهوائهم .

فالمنعنى و لا تنسوا أن فيكم رسول الله ، و هو كناية عن أنه يجب عليهم أن يرجعوا الأمور و يسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يراه و يأمر به من غير أن يتبعوا أهواء أنفسهم .

و قوله : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » أي جهدتم و هلكتم ، و الجملة كالجواب لسؤال مقدّر كأن سائلا يسأل فيقول : لما ذا نرجع إليه و لا يرجع إلينا و لا يوافقنا ؟ فأجيب بأنه « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » .

و قوله : « ولكن الله حبّب إليكم الايمان و زينته في قلوبكم » استدراك عمّا يدل عليه الجملة السابقة : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » من أنهم مشرفون بالطبع على الهلاك و الغي فاستدرك أن الله سبحانه أصاح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب

الإيمان و تكريه الكفر والفسوق والعصيان .

والمراد بتحبب الإيمان إليهم جعله محبوباً عندهم و بتزيينه في قلوبهم تحليته بجمال يجذب قلوبهم إلى نفسه فيتعلقون به و يعرضون عما يلهيهم عنه .

وقوله : « وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان » عطف على «حبب» و تكريه الكفر وما يتبعه إليهم جعلها مكروهة عندهم تنفر عنها نفوسهم ، والفرق بين الفسوق والعصيان - على ما قيل - أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة إلى المعصية ، والعصيان نفس المعصية و إن شئت فقل : جميع المعاصي ، و قيل : المراد بالفسوق الكذب بقرينة الآية السابقة والعصيان سائر المعاصي .

و قوله : « أولئك هم الراشدون » بيان أن حب الإيمان والانجذاب إليه و كراهة الكفر والفسوق والعصيان هو سبب الرشد الذي يطلبه الإنسان بفطرته و يتنفر عن الغي الذي يقابله فعلى المؤمنين أن يلزموا الإيمان و يتجنبوا الكفر والفسوق والعصيان حتى يرشدوا و يتبعوا الرسول ولا يتبعوا أهواءهم .

ولما كان حب الإيمان والانجذاب إليه و كراهة الكفر ونحوه صفة بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرح به الآية السابقة ، وقد وصف بذلك جماعتهم تحفظاً على وحدتهم و تشويقاً لمن لم يتصف بذلك منهم غير السياق والتفت عن خطابهم إلى خطاب النبي ﷺ فقال : « أولئك هم الراشدون » والإشارة إلى من اتصف بحب الإيمان و كراهة الكفر والفسوق والعصيان ، ليكون مدحاً للمتصفين بذلك وتشويقاً لغيرهم .

واعلم أن في قوله : « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتكم » إشعاراً بأن قوماً من المؤمنين كانوا مصرين على قبول نبي الفاسق الذي تشير إليه الآية السابقة ، وهو الوليد بن عقبة أرسله النبي ﷺ إلى بني المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء إليهم فلما رأهم هابهم ورجع إلى المدينة وأخبر النبي ﷺ أنهم ارتدوا و فزع النبي ﷺ على قتالهم فنزلت الآية فانصرف وفي القوم بعض من يصر على أن يغزوهم . وسيجيء القصة في البحث الروائي التالي .

قوله تعالى : « فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم » تعليل لما تقدم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الإيمان وتزيينه وتكريبه الكفر والفسوق والعصيان أي إن ذلك منه تعالى مجرد عطية ونعمة لا إلى بدل يصل إليه منهم لكن ليس فعلاً جزافياً فإنه تعالى عليم بمورد عطيته ونعمته حكيم لا يفعل ما يفعل جزافاً كما قال : « وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليمًا » الفتح : ٢٦ .

قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى آخر

الآية الاقتتال والتقاتل بمعنى واحد كالاستباق والتسابق ، ورجوع ضمير الجمع في « اقتتلوا » إلى الطائفتين باعتبار المعنى فإن كلاً من الطائفتين جماعة ومجموعهما جماعة كما أن رجوع ضمير التثنية إليهما باعتبار المعنى .

ونقل عن بعضهم في وجه التفرقة بين الضميرين : أنهم أولاً في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم ، وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا نثى الضمير .

وقوله : « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » البغي الظلم والتعدّي بغير حق ، والفیء الرجوع ، والمراد بأمر الله ما أمر به الله ، والمعنى فإن تعدت إحدى الطائفتين على الأخرى بغير حق فقاتلوا الطائفة المتعدية حتى تخرج إلى ما أمر به الله وتنقاد لحكمه .

وقوله : « فإن فاعت فأصلحوا بينهما بالعدل » أي فإن رجعت الطائفة المتعدية إلى أمر الله فأصلحوا بينهما لكن لا إصلاحاً بوضع السلاح وترك القتال فحسب بل إصلاحاً متلبساً بالعدل باجراء أحكام الله فيما تعدت به المتعدية من دم أو عرض أو مال أو أي حق آخر ضيعته .

وقوله : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » الإقساط إعطاء كل ما يستحقه من القسط والسهم وهو العدل فعطف قوله : « وأقسطوا » على قوله : « أصلحوا بينهما بالعدل » من عطف المطلق على المقيد للتأكيد ، وقوله : « إن الله يحب المقسطين » تعليل يفيد تأكيداً على تأكيد كأنه قيل : أصلحوا بينهما بالعدل واعدلوا دائماً وفي

جميع الأمور لأن الله يحبّ العادلين لعدالتهم .

قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » استئناف مؤكّد لما تقدّم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين ، وقصر النسبة بين المؤمنين في نسبة الأخوة مقدّمة ممهّدة لتعليل ما في قوله : « فأصلحوا بين أخويكم » من حكم الصلح فيفيد أنّ الطائفتين المتقاتلتين لوجود الأخوة بينهما يجب أن يستقرّ بينهما الصلح ، والمصلحون لكونهم إخوة للمتقاتلتين يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما .
وقوله : « فأصلحوا بين أخويكم » ولم يقل : فأصلحوا بين الأخوين من أوجز الكلام وألطفه حيث يفيد أنّ المتقاتلتين بينهما أخوة فمن الواجب أن يستقرّ بينهما الصلح وسائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين فيجب عليهم أن يسعوا في الإصلاح بينهما .
وقوله : « واتقوا الله لعلكم ترحمون » موعظة للمتقاتلتين والمصلحين جميعاً .

﴿ كلام في معنى الاخوة ﴾

واعلم أنّ قوله : « إنما المؤمنون إخوة » جعل تشريعيّاً لنسبة الأخوة بين المؤمنين لها آثار شرعيّة وحقوق مجعولة ، وقد تقدّم في بعض المباحث المتقدّمة أنّ من الأبوة والبنوة والأخوة وسائر أنواع القرابة ما هو اعتباريّ مجعول يعتبره الشرائع والقوانين لترتيب آثار خاصّة عليه كالوراثة والإفناق وحرمة الأزواج وغير ذلك ، ومنها ما هو طبيعيّ بالانتهاء إلى صلب واحد أو رحم واحدة أو هما .

والاعتباري من القرابة غير الطبيعي منها فربّما يجتمعان كالأخوين المتولّدين بين الرجل والمرأة عن نكاح مشروع ، وربّما يختلفان كالولد الطبيعيّ المتولّد من زنا فإنّه ليس ولداً في الإسلام ولا يلحق بمولده وإن كان ولداً طبيعياً ، وكالدعيّ الذي هو ولد في بعض القوانين وليس بولد طبيعيّ .

واعتبار المعنى الاعتباريّ وإن كان لغرض ترتيب آثار حقيقته عليه كما يؤخذ أحد القوم رأساً لهم ليكون نسبته إليهم نسبة الرأس إلى البدن فيدبّر أمر المجتمع و يحكم بينهم وفيهم كما يحكم الرأس على البدن .

لكن لما كان الاعتبار لمصلحة مقتضية كان تابعاً للمصلحة فإن اقتضت ترتيب جميع آثار الحقيقة ترتبت عليه جميعاً وإن اقتضت بعضها كان المترتب على الموضوع الاعتباري ذلك البعض كما أن القراءة مثلاً جزء من الصلاة والجزء الحقيقي ينتفي بانتفائه الكل مطلقاً لكن القراءة لا ينتفي بانتفائها الصلاة إذا كان ذلك سهواً وإنما تبطل الصلاة إذا تركت عمداً .

و لذلك أيضاً ربّما اختلفت آثار معنى اعتباري بحسب الموارد المختلفة كجزئية الركوع حيث تبطل الصلاة بزيادته و نقيضه عمداً و سهواً بخلاف جزئية القراءة كما تقدم فمن الجائز أن يختلف الآثار المترتبة على معنى اعتباري بحسب الموارد المختلفة لكن لا ترتب الآثار الاعتبارية إلا على موضوع اعتباري كالإنسان يتصرف في ماله لكن لا بما أنه إنسان بل بما أنه مالك والأخ يرث أخاه في الإسلام لا لأنه أخ طبيعي يشارك الميت في الوالد أو الوالدة أو فيهما - فولد الزنا كذلك ولا يرث أخاه الطبيعي - بل يرثه لأنه أخ في الشريعة الإسلامية .

والأخوة من هذا القبيل فمنها أخوة طبيعية لا أثر لها في الشرائع والقوانين وهي اشتراك إنسانين في أب أو أم أو فيهما ، ومنها أخوة اعتبارية لها آثار اعتبارية وهي في الإسلام أخوة نسبية لها آثار في النكاح والإرث ، وأخوة رضاعية لها آثار في النكاح دون الإرث وأخوة دينية لها آثار اجتماعية ولا أثر لها في النكاح والإرث وسيجيء قول الصادق عليه السلام : المؤمن أخو المؤمن ، عينه و دليله ، لا يخونه ، ولا يظلمه ولا يغشه ، ولا يعده عدة فيخلفه .

و قد خفي هذا المعنى على بعض المفسرين فأخذ إطلاق الأخوة في كلامه تعالى على المؤمنين إطلاقاً مجازياً من باب الاستعارة بتشبيه الاشتراك في الإيمان بالمشاركة في أصل التوالد لأن كلا منهما أصل للبقاء إذ التوالد منشأ الحياة ، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان ، و قيل : هو من باب التشبيه البليغ من حيث انسابهم إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للبقاء الأبدي .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » روى زرارة عن أبي جعفر - عليه السلام : أنه قال : ما سكت السيوف ، ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف ، ولا جهر بأذان ، ولا أنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا » حتى أسلم أبناء قبيلة الأوس والخزرج .

أقول : وعن ابن عباس أيضاً ما نزل يا أيها الذين آمنوا إلا بالمدينة ، ولا « يا أيها الناس » إلا بمكة الخبر . وتوقف بعضهم في عموم ذيله ، واعلم أن هناك روايات في الدر المنثور وتفسير القمي في سبب نزول قوله : « لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله » الآية لا تنطبق على الآية ذاك الانطباق تركناها من أراد الوقوف عليها فليراجعهما .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو يعلى والبخاري في معجم الصحابة وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال : لما نزلت « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » - إلى قوله - وأنتم لا تشعرون » وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ حبط عملي أنا من أهل النار ، وجلس في بيته حزينا . ففقد رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : فقدك رسول الله ﷺ مالك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول حبط عملي وأنا من أهل النار ، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بذلك فقال : لا بل هو من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة قتل .

أقول : قوله : « فلما كان يوم اليمامة قتل » من كلام الراوي يريد أنه استشهد يوم اليمامة فكان ذلك تصديق قول النبي ﷺ ، والرواية مروية بطرق مختلفة أخرى باختلاف يسير .

وفيه أخرج البخاري في الأدب وابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل معشّى من خارج بمسوح الشعر وأظنّ عرض الباب

من باب الحجر إلى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع وأحزر^(١) البيت الداخل عشرة أذرع ، وأظن سمكه بين الثمان والسبع .

أقول : وروى مثل صدره عن ابن سعد عن عطاء الخراساني قال : أدركت حجر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود . الحديث .

وفيه أخرج أحمد و ابن أبي حاتم والطبراني و ابن منده و ابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها . قلت : يا رسول الله أرجع إلى قومي فأدعهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي و ترسل إلي يا رسول الله رسولاً إبّان كذا وكذا لتأتيك ما جمعت من الزكاة .

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له و بلغ الإبّان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله و رسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتاً يرسل إلي رسولاً ليقبض ما كان عندي من الزكاة و ليس من رسول الله ﷺ الخلف ولا أرى حبس رسولاً إلا من سخطة فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ .

و بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث . فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث و فصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث فلماً غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله . قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتاني .

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رأني و ما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول

(١) كذا في الأصل ولعله جمع خربير بالخاء المعجمة و هو المكان المظلمن .

رسول الله ﷺ خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله فنزل « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا - إلى قوله - حكيم » .

أقول : نزول الآية في قصة الوليد بن عقبة مستفيض من طرق أهل السنة والشيعه وقال ابن عبد البر في الاستيعاب : ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز وجل : « إن جاءكم فاسق بنبأ » نزلت في الوليد بن عقبة .

وفي المحاسن بإسناده عن زياد الحداء عن أبي جعفر عليه السلام في حديث له قال : يا زياد ويحك وهل الدين إلا الحب ؟ ألا ترى إلى قول الله « إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ؟ أو لا ترون إلى قول الله لمحمد عليه السلام : « حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم » ؟ قال : « يحبون من هاجر إليهم » وقال : الحب هو الدين والدين هو الحب .

أقول : وروى في الكافي بإسناده عن فضيل بن يسار عن الصادق عليه السلام ما في معناه ولفظه : وهل الإيمان إلا الحب والبغض ؟ ثم تلا هذه الآية : « حبب إليكم الإيمان » إلى آخر الآية .

و في المجمع وقيل : الفسوق هو الكذب عن ابن عباس وابن زيد وهو المراد عن أبي جعفر عليه السلام .

أقول : وفي هذا المعنى بعض روايات أخر .

وفي الكافي بإسناده عن علي بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشيه ولا يعده عدة فيخلفه .

أقول : وفي معناه روايات أخر عنه عليه السلام وفي بعضها المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يغتابه .

وفي المحاسن بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمه وذلك أن الله تبارك وتعالى خلق المؤمن من طينة جنات السموات ، وأجرى فيهم من ريح روحه فلذلك هو أخوه لأبيه وأمه .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن

مردويه و البيهقي في سننه عن أنس قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أبي فانطلق وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة فلما انطلق إليهم قال : إليك عنِّي فوالله لقد آذاني ريح حمارك .

فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك فغضب لعبد الله رجال من قومه فغضب لكل منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فأنزل فيهم « و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » .

اقول : وفي بعض الروايات كما في المجمع أن الذي قال ذلك لعبد الله بن أبي بن سلول هو عبد الله بن رواحة وأن التضارب وقع بين رهطه من الأوس و رهط عبد الله بن أبي من الخزرج وفي انطباق الآية بموضوعها وحكمها على هذه الروايات خفاء .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا
 خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا
 أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ
 لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا
 كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم
 بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ
 وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ
 اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ
 قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا
 الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا
 بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ
 اتَّعَلَّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا

عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) .

﴿ بيان ﴾

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » الخ السخرية الاستهزاء و هو ذكر ما يستحقر و يستهان به الإنسان بقول أو إشارة أو فعل تقليداً بحيث يضحك منه بالطبع ، والقوم الجماعة وهو في الأصل الرجال دون النساء لقيامهم بالأعمال المهمة دونهن ، وهذا المعنى هو المراد بالقوم في الآية بما قوبل بالنساء .
وقوله : « عسى أن يكونوا خيراً منهم » و « عسى أن يكن خيراً منهن » ، حكمة النهي .

والمستفاد من السياق أن الملاك رجاء كون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر سواء كان الساخر رجلاً أو امرأة و كذا المسخور منه فتخصيص النهي في اللفظ بسخرية القوم من القوم و سخرية النساء من النساء لمكان الغلبة عادة .

وقوله : « ولا تلمزوا أنفسكم » اللمز - على ما قيل - التنبه على المعايير ، وتعليق اللمز بقوله : « أنفسكم » للإشارة إلى أنهم مجتمع واحد بعضهم من بعض فلمز الواحد منهم غيره في الحقيقة لمز نفسه فليجتنب من أن يلمز غيره كما يكره أن يلمزه غيره ففي قوله : « أنفسكم » إشارة إلى حكمة النهي .

وقوله : « ولا تنازروا بالألقاب بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان » النبز بالتحريك هو اللقب ، ويختص - على ما قيل - بما يدل على ذم فالتنازير بالألقاب ذكر بعضهم بعضاً بلقب السوء مما يكرهه كالفاسق والسفيه ونحو ذلك .

والمراد بالاسم في « بئس الاسم الفسوق » الذكر كما يقال : شاع اسم فلان بالسخاء والجدود ، وعلى هذا فالمعنى بئس الذكر ذكر الناس - بعد إيمانهم - بالفسوق فإنّ الحريّ بالمؤمن بما هو مؤمن أن يذكر بالخير ولا يطعن فيه بما يسوؤه نحو يامن أبوه كان كذا ويا من أمّه كانت كذا .

ويمكن أن يكون المراد بالاسم السمة والعلامة والمعنى ببئست السمة أن يوسم الإنسان بعد الإيمان بالفسوق بأن يذكر بسمة السوء كأن يقال لمن اقترف معصية ثمّ تاب : يا صاحب المعصية الفلانية ، أو المعنى ببئس الاسم أن يسم الإنسان نفسه بالفسوق بذكر الناس بما يسوؤهم من الألقاب ، وعلى أيّ معنى كان ففي الجملة إشارة إلى حكمة النهي .

وقوله : « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » أي ومن لم يتب عن هذه المعاصي التي يقترفها بعد ورود النهي فلم يندم عليها ولم يرجع إلى الله سبحانه بتركها فأولئك ظالمون حقاً فإنهم لا يرون بها بأساً وقد عدّها الله معاصي ونهى عنها .
وفي الجملة أعني قوله : « ومن لم يتب » الخ إشعار بأنّ هناك من كان يقترف هذه المعاصي من المؤمنين .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم » إلى آخر الآية المراد بالظنّ المأمور بالاجتناب عنه ظنّ السوء فإنّ ظنّ الخير مندوب إليه كما يستفاد من قوله تعالى : « لو لا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً » النور : ١٢ .

والمراد بالاجتناب عن الظنّ الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كأن يظنّ بأخيه المؤمن سوء فيرميه به ويذكره لغيره ويترتب عليه سائر آثاره ، وأمّا نفس الظنّ بما هو نوع من الإدراك النفسانيّ فهو أمر يفاجيء النفس لا عن اختيار فلا يتعلّق به النهي اللّهمّ إلا إذا كان بعض مقدّماته اختيارياً .

وعلى هذا فكون بعض الظنّ إثمّاً من حيث كون ما يترتب عليه من الأثر إثمّاً كإهانة المظنون به وقذفه وغير ذلك من الآثار السيئة المحرّمة ، والمراد بكثير

من الظن - وقد جيء به نكرة ليدل على كثرته في نفسه لا بالقياس إلى سائر أفراد الظن - هو بعض الظن الذي هو إثم فهو كثير في نفسه وبعض من مطلق الظن ، ولو أريد بكثير من الظن أعم من ذلك كأن يراد ما يعلم أن فيه إثمًا وما لا يعلم منه ذلك كان الأمر بالاجتناب عنه أمراً احتياطياً توقيحاً من الوقوع في الإثم .

وقوله : « ولا تجسسوا » التجسس بالجيم تتبع ما استتر من أمور الناس للاطلاع عليها ، ومثله التجسس بالحاء المهملة إلا أن التجسس بالجيم يستعمل في الشر والتجسس بالحاء يستعمل في الخير ، ولذا قيل : معنى الآية لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوا الأمور التي سترها أهلها .

وقوله : « ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » الغيبة على ما في مجمع البيان ذكر العيب بظهر الغيب على وجه يمنع الحكمة منه ، وقد فسرت بتفاسير مختلفة حسب الاختلاف في مصاديقها سعة وضيقاً في الفقه ، ويؤمل إلى أن يذكر من الإنسان في ظهر الغيب ما يسوؤه لو ذكر به ولذا لم يعدوا من الغيبة ذكر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به .

والغيبة تفسد أجزاء المجتمع واحداً بعد واحد فتسقطها عن صلاحية التأثير الصالح المرجو من الاجتماع وهو أن يخالط كل صاحبه ويمارجه في أمن وسلامة بأن يعرفه إنساناً عدلاً سويّاً يأنس به ولا يكرهه ولا يستفد منه ، وأما إذ عرفه بما يكرهه ويعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك وضعفت رابطة الاجتماع فهي كالأكلة التي تأكل جثمان من ابتلي بها عضواً بعد عضو حتى تنتهي إلى بطلان الحياة .

والإنسان إنما يعقد المجتمع ليعيش فيه بهويته الاجتماعية أعني بمنزلة اجتماعية صالحة لأن يخالطه ويمارجه فيفيد ويستفاد منه ، وغيبته بذكر عيبه لغيره تسقطه عن هذه المنزلة وتبطل منه هذه الهوية ، وفيه تنقيص واحد من عدد المجتمع الصالح ولا يزال ينتقص بشيوع الغيبة حتى يأتي على آخره فيتبدل الصلاح فساداً و يذهب الأنا والامن والاعتماد و ينقلب الدواء داء .

فهي في الحقيقة إبطال هوية اجتماعية على حين غفلة من صاحبها و من حيث

لا يشعر به ، و لو علم بذلك على ما فيه من المخاطرة لتحرز منه و توقى انهبك ستره و هو الستر ألقاه الله سبحانه على عيوب الانسان و نواقصه ليتم به ما أراده من طريق الفطرة من تألف أفراد الانسان وتجمعهم وتعاونهم و تعاضدهم ، وأين الانسان والنزاهة من كل عيب .

و إلى هذه الحقيقة أشار تعالى فيما ذكره من التمثيل بقوله : « أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » و قد أتى بالاستفهام الانكاري و نسب الحب المنفي إلى أحدكم ولم يقل : بعضكم ونحو ذلك ليكون النفي أوضح استيعابا و شمولاً و لذا أكد بقوله بعد : « فكرهتموه » فنسب الكراهة إلى الجميع ولم يقل : فكرهه .

و بالجملة محصله أن اغتياب المؤمن بمنزلة أن يأكل الانسان لحم أخيه حال كونه ميتاً ، وإنما كان لحم أخيه لأنه من أفراد المجتمع الاسلامي المؤلف من المؤمنين وإنما المؤمنون إخوة ، وإنما كان ميتاً لأنه لغيبته غافل لا يشعر بما يقال فيه .

و في قوله : « فكرهتموه » ولم يقل : فتكرهونه إشعار بأن الكراهة أمر ثابت محقق منكم في أن تأكلوا إنساناً هو أخوكم وهو ميت فكما أن هذا مكروه لكم فليكن مكروهاً لكم اغتياب أخيك المؤمن بظهور الغيب فإنه في معنى أكل أحدكم أخاه ميتاً . و اعلم أن ما في قوله : « أوجب أحدكم أن يأكل » النخ من التعليل جار في التجسس أيضاً كالغيبية ، وإنما الفرق أن الغيبة هو إظهار عيب الغير للغير أو التوصل إلى الظهور عليه من طريق نقل الغير ، والتجسس هو التوصل إلى العلم بعيب الغير من طريق تتبع آثاره و لذلك لم يبعد أن يكون الجملة أعني قوله : « أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » النخ تعليلاً لكل من الجملتين أعني « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً » .

و اعلم أن في الكلام إشعاراً أودلالة على اقتصار الحرمة في غيبة المسلمين ، ومن القرينة عليه قوله في التعليل : « لحم أخيه » فالأخوة إنما هي بين المؤمنين .

وقوله : « واتقوا الله إن الله توأب رحيم » ظاهره أنه عطف على قوله : « اجتنبوا كثيراً من الظن » إن كان المراد بالتقوى هو التجنب عن هذه الذنوب التي كانوا

يقترفونها بالتوبة إلى الله سبحانه فالمراد بقوله: «إن الله تواب رحيم» أن الله كثير القبول للتوبة رحيم بعباده التائبين إليه اللائذين به .

وإن كان هو التجنب عنها و التورع فيها وإن لم يكونوا يقترفونها فالمراد بقوله: «إن الله تواب رحيم» أن الله كثير الرجوع إلى عباده المتقين بالهداية والتوفيق والحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوة رحيم بهم .

وذلك أن التوبة من الله توبتان توبة قبل توبة العبد بالرجوع إليه بالتوفيق للتوبة كما قال تعالى: «ثم تاب عليهم ليتوبوا» التوبة: ١١٨ ، و توبة بعد توبة العبد بالرجوع إليه بالمغفرة وقبول التوبة كما في قوله: «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه» المائدة: ٣٩ .

قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» الخ الشعوب جمع شعب بالكسر فالسكون و هو على ما في المجمع الحى العظيم من الناس كربيعة و مضر ، و القبائل جمع قبيلة و هى دون الشعب كتميم من مضر .

و قيل: الشعوب دون القبائل و سميت بها لتشعبها قال الراغب: الشعب القبيلة المنشعبة من حى واحد ، و جمعه شعوب قال تعالى: «شعوبا و قبائل» والشعب من الوادي ما اجتمع منه طرف و تفرق طرف فإذا نظرت إليه من الجانب الذى تفرق أخذت في وهمك واحداً يتفرق ، و إذا نظرت من جانب الاجتماع أخذت في وهمك اثنين اجتماعاً فلذلك قيل: شعبت إذا جمعت ، و شعبت إذا فرقت . انتهى .

و قيل: الشعوب العجم و القبائل العرب ، والظاهر أن مآله إلى أحد القولين السابقين ، و سيجيء تمام الكلام فيه (١) .

ذكر المفسرون أن الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب ، وعليه فالمراد بقوله: «من ذكر و أنثى» آدم و حوا ، والمعنى أنا خلقناكم من أب و أم تشتركون جميعاً فيهما من غير فرق بين الأبيض والأسود والعربي والعجمي وجعلناكم شعوبا و قبائل

(١) فى البحث الروائى الاتى .

مختلفة لا لكرامة لبعضكم على بعض بل لأن تتعارفوا فيعرف بعضكم بعضاً ويتم بذلك أمر اجتماعكم فيستقيم مواصلاتكم و معاملاتكم فلو فرض ارتفاع المعرفة من بين أفراد المجتمع انضم عقد الاجتماع و بادت الإنسانية فهذا هو الغرض من جعل الشعوب والقبائل لا أن تتفاخروا بالأنسب و تتباهوا بالأبواء والأمهات .

وقيل : المراد بالذكر والأنثى مطلق الرجل والمرأة ، والآية مسوقة لإلغاء مطلق التفاضل بالطبقات كالأبيض والأسود والعرب والعجم والغني والفقير والمولى والعبد والرجل والمرأة ، والمعنى يا أيها الناس إننا خلقناكم من رجل وامرأة فكل واحد منكم إنسان مولود من إنسانين لا تفرقون من هذه الجهة ، و الاختلاف الحاصل بالشعوب والقبائل - و هو اختلاف راجع إلى الجعل الإلهي - ليس لكرامة و فضيلة وإنما هو لأن تتعارفوا فيتم بذلك اجتماعكم .

و اعترض عليه بأن الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنسب و ذمه كما يدل عليه قوله : « وجعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا » و ترتب هذا الغرض على هذا الوجه غير ظاهر ، و يمكن أن يناقش فيه أن الاختلاف في الأنساب من مصاديق الاختلاف الطبقاتي و بناء هذا الوجه على كون الآية مسوقة لنفي مطلق الاختلاف الطبقاتي و كما يمكن نفي التفاخر بالأنسب و ذمه استناداً إلى أن الأنساب تنتهي إلى آدم و حواء و الناس جميعاً مشتركون فيهما ، كذلك يمكن نفيه و ذمه استناداً إلى أن كل إنسان مولود من إنسانين و الناس جميعاً مشتركون في ذلك .

والحق أن قوله : « وجعلناكم شعوباً و قبائل » إن كان ظاهراً في ذم التفاخر بالأنسب فأول الوجهين أوجه ، و إلا فالثاني لكونه أعم و أشمل .

و قوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » استئناف مبين لما فيه الكرامة عند الله سبحانه ، و ذلك أنه نبههم في صدر الآية على أن الناس بما هم ناس يساوي بعضهم بعضاً لا اختلاف بينهم و لا فضل لأحدهم على غيره ، وأن الاختلاف المترئى في الخلقة من حيث الشعوب و القبائل إنما هو للتوصل به إلى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتم الائتلاف و لا تعاون و تعاضد من غير تعارف فهذا هو غرض الخلقة

من الاختلاف المجهول لا أن تتفاخروا بالأُنساب و تتفاضلوا بأمثال البياض والسواد فيستعبد بذلك بعضهم بعضاً و يستخدم إنسان إنساناً و يستعلي قوم على قوم فينجر إلى ظهور الفساد في البرّ و البحر و هلاك الحرث و النسل فينقلب الدواء داء .

ثم نبّه سبحانه في ذيل الآية بهذه الجملة أعني قوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » على ما فيه الكرامة عنده ، و هي حقيقة الكرامة .

و ذلك أن الإنسان مجبول على طلب ما يتميز به من غيره و يختص به من بين أقرانه من شرف و كرامة ، و عامة الناس لتعلقهم بالحياة الدنيا يرون الشرف و الكرامة في مزايا الحياة المادية من مال و جمال و نسب و حسب و غير ذلك فيبدلون جلّ جهدهم في طلبها و اقتنائها ليتفاخروا بها و يستعلوا على غيرهم .

و هذه مزايا وهمية لا تجلب لهم شيئاً من الشرف و الكرامة دون أن توقعهم في مهابط الهلكة و الشقوة ، و الشرف الحقيقي هو الذي يؤدي الإنسان إلى سعادته الحقيقية و هو الحياة الطيبة الأبدية في جوار ربّ العزة و هذا الشرف و الكرامة هو بتقوى الله سبحانه و هي الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدار الآخرة ، و تتبعها سعادة الدنيا قال تعالى : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » الأنفال : ٦٧ ، و قال : « و تزودوا فإن خير الزاد التقوى » البقرة : ١٩٧ و إذا كانت الكرامة بالتقوى فأكرم الناس عند الله أتقاهم كما قال تعالى .

و هذه البغية و الغاية التي اختارها الله بعلمه غاية للناس لا تراحم فيها و لاتدافع بين المتلبسين بها على خلاف الغايات و الكرامات التي يتخذها الناس بحسب أو هامهم غايات يتوجهون إليها و يتباهون بها كالغنى و الرئاسة و الجمال و انتشار الصيت و كذا الأُنساب و غيرها .

و قوله : « إن الله عليم خبير » فيه تأكيد لمضمون الآية و تلويح إلى أن الذي اختاره الله كرامة للناس كرامة حقيقية اختارها الله بعلمه و خبرته بخلاف ما اختاره الناس كرامة و شرفاً لأنفسهم فإنها وهمية باطلة فإنها جميعاً من زينة الحياة الدنيا قال تعالى : « و ما هذه الحياة الدنيا إلا لهو و لعب و إن الدار الآخرة لهي الحيوان

لو كانوا يعلمون « العنكبوت : ٦٤ .

و في الآية دلالة على أن من الواجب على الناس أن يتبعوا في غايات الحياة أمر ربهم و يختاروا ما يختاره و يهدي إليه و قد اختار لهم التقوى كما أن من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياة ما يختاره لهم من الدين .

قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لمّا يدخل الإيمان في قلوبكم » الخ الآية و ما يليها إلى آخر السورة متعرّضة لحال الأعراب في دعواهم الإيمان و منهم على النبي ﷺ بإيمانهم ، و سياق نقل قولهم و أمر النبي ﷺ أن يجيبهم بقوله : « لم تؤمنوا » يدل على أن المراد بالأعراب بعض الأعراب البادين دون جميعهم ، و يؤيده قوله : « و من الأعراب من يؤمن بالله و اليوم الآخر » التوبة : ٩٩ .

و قوله : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا » أي قالوا لك آمنا و ادّعوا الإيمان قل لم تؤمنوا و كذبهم في دعواهم و قوله : « و لكن قولوا أسلمنا » استدراك ممّا يدل عليه سابق الكلام و التقدير فلا تقولوا آمنا و لكن قولوا : أسلمنا .

و قوله : « و لمّا يدخل الإيمان في قلوبكم » لنفي دخول الإيمان في قلوبهم مع انتظار دخوله ، و لذلك لم يكن تكراراً لنفي الإيمان المدلول عليه بقوله : « لم تؤمنوا » . و قد نفى في الآية الإيمان عنهم و أوضحه بأنّه لم يدخل في قلوبهم بعد و أثبت لهم الإسلام ، و يظهر به الفرق بين الإيمان و الإسلام بأن الإيمان معنى قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد ، و الإسلام أمر قائم باللسان و الجوارح فإنّه الاستسلام و الخضوع لسانا بالشهادة على التوحيد و النبوة و عملاً بالمتابعة العملية ظاهر أسوأ قارن الاعتقاد بحقيته ما شهد عليه و عمل به أو لم يقارن ، و بظاهر الشهادتين تحقن الدماء و عليه تجري المناكح و الموارث .

و قوله : « و إن تطيعوا الله و رسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً » اللبّيت النقص يقال : لاته يلبّته ليتا إذا نقصه ، و المراد بالإطاعة الإخلاص فيها بموافقة الباطن للظاهر من غير نفاق ، و طاعة الله استجابة مادعى إليه من اعتقاد و عمل ، و طاعة رسوله تصديقه

و اتباعه فيما يأمر به فيما له الولاية عليه من أمور الأمة ، والمراد بالأعمال جزاؤها أو المراد بنقص الأعمال نقص جزائها .

والمعنى وإن تطيعوا الله فيما يأمركم به من اتباع دينه اعتقاداً ، وتطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا ينقص من أجور أعمالكم شيئاً ، وقوله : « إن الله غفور رحيم » تعليل لعدم نقصه تعالى أعمالهم إن أطاعوه ورسوله .

قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » تعريف تفصيلي للمؤمنين بعد ما عرفوا إجمالاً بأنهم الذين دخل الإيمان في قلوبهم كما هو لازم قوله : « لم تؤمنوا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم » .

فقوله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله » فيه قصر المؤمنين في الذين آمنوا بالله ورسوله الخ ، فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفاً جامعاً ما نعا فمن اتصف بها مؤمن حقاً كما أن من فقد شيئاً منها ليس بمؤمن حقاً .

والإيمان بالله ورسوله عقد القلب على توحيدته تعالى وحقيقته ما أرسل به رسوله وعلى صحة الرسالة واتباع الرسول فيما يأمر به .

وقوله : « ثم لم يرتابوا » أي لم يشكوا في حقيقته ما آمنوا به و كان إيمانهم ثابتاً مستقرّاً لا يزلله شك ، والتعبير بـ « ثم » دون الواو - كما قيل - للدلالة على انتفاء عروض الريب حيناً بعد حين كأنه طري جديد دائماً فيفيد ثبوت الإيمان على استحكامه الأوّلي ولو قيل : ولم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أو لا مقارناً لعدم الارتباب مع السكوت عمّا بعد .

وقوله : « وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » المجاهدة بذل الجهد والطاقة وسبيل الله دينه ، والمراد بالمجاهدة بالأموال والأففس العمل بما تسعه الاستطاعة و تبلغه الطاقة في التكاليف الماليّة كالزكاة وغير ذلك من الإنفاقات الواجبة ، والتكاليف البدنيّة كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك .

والمعنى ويجدون با تيان التكاليف الماليّة والبدنيّة حال كونهم أو حال كون

عملهم في دين الله و سبيله .

وقوله : « أولئك هم الصادقون » تصديق في إيمانهم إذا كانوا على الصفات المذكورة .

قوله تعالى : « قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم » توبيخ للأعراب حيث قالوا : آمناً و لازمه دعوى الصدق في قولهم والإصرار على ذلك ، وقيل : لما نزلت الآية السابقة حلفت الأعراب أنهم مؤمنون صادقون في قولهم : آمناً ، فنزل : « قل أتعلمون الله بدينكم » الآية ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « يمتنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » أي يمتنون عليك بأن أسلموا و قد أخطأوا في منتهم هذا من وجهين أحدهما أن حقيقة النعمة التي فيها المن هو الإيمان الذي هو مفتاح سعادة الدنيا والآخرة دون الإسلام الذي له فوائد صورية من حقن الدماء وجواز المناكح والموارث ، وثانيهما أن ليس للنبي ﷺ من أمر الدين إلا أنه رسول مأمور بالتبليغ فلا من عليه لأحد ممن أسلم .

فلو كان هناك من كان لهم على الله سبحانه لأن الدين دينه لكن لا من لأحد على الله لأن المنتفع بالدين في الدنيا والآخرة هم المؤمنون دون الله الغني على الإطلاق فالمن لله عليهم أن هداهم له .

و قد بدل ثانيا الإسلام من الإيمان للإشارة إلى أن المن إنما هو بالإيمان دون الإسلام الذي إنما ينفعهم في الظاهر فقط .

فقد تضمن قوله : « قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن » الخ الإشارة إلى خطاهم من الجهتين جميعا :

إحداهما خطأهم من جهة توجيه المن إلى النبي ﷺ وهو رسول ليس له من الأمر شيء ، وإليه الإشارة بقوله : « لا تمنوا على إسلامكم » .

وثانيهما أن المن - لو كان هناك من - إنما هو بالإيمان دون الإسلام ، وإليه

الإشارة بقبديل الإسلام من الإيمان .

قوله تعالى : « إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون » ختم للسورة وتأكيد يعكس ويؤكد به جميع ما تقدم في السورة من النواهي والأوامر وما بين فيها من الحقائق وما أخبر فيها عن إيمان قوم وعدم إيمان آخرين فالآية تعكس بمضمونها جميع ذلك .

والمراد بغيب السماوات والأرض ما فيها من الغيب أو الأعم مما فيهما و من الخارج منهما .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم » قال : نزلت في قوم من بني تميم استهزؤا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة .

وفي المجمع : نزل قوله : « لا يسخر قوم من قوم » في ثابت بن قيس بن شماس و كان في أذنه و قر و كان إذا دخل المسجد تفسحوا له حتى يقعد عند النبي ﷺ فيسمع ما يقول .

فدخل المسجد يوماً والناس قد فرغوا من الصلاة وأخذوا مكانهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول : تفسحوا تفسحوا حتى انتهى إلى رجل فقال له : أصبت مجلساً فاجلس فجلس خلفه مغضباً فلما انجلت الظلمة قال : من هذا ؟ قال الرجل : أنا فلان فقال ثابت : ابن فلانة ذكر أمماً له كان يعير بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآية . عن ابن عباس .

وفيه : وقوله : « ولا نساء من نساء » نزل في نساء النبي ﷺ سخرن من أم سلمة . عن أنس . وذلك أنها ربطت حقوبها بسبيبة وهي ثوب أبيض وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرّه فقالت عائشة لحفصة : انظري ما ذا تجر خلفها كأنه لسان كلب

فهذه كانت سخريتهما ، وقيل : إنها غيرتها بالقصر ، وأشارت بيدها أنها قصيرة .
عن الحسن .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والبغوي في معجمه وابن حبان والشيرازي في الألقاب والطبراني وابن السني في عمل اليوم والليلة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جبيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت في بني سلمة « ولا تنازروا بالألقاب » قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعى أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يكره هذا الاسم فأنزل الله « ولا تنازروا بالألقاب » .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما وأن سلمان نام نوما فطلبه صاحبه فلم يجدها ف ضربا الخبء وقال ما يريد سلمان شيئا غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود وخبء مضروب فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداما فانطلق فاتاه فقال : يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدمهم إن كان عندك . قال : ما يصنع أصحابك بالأدم ؟ قد اتدموا .

فرجع سلمان فخبّرهما فانطلقا فاتيا رسول الله ﷺ فقالا : والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا . قال : إنكما قد اتدمتما سلمان بقولكما . فنزلت « أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » .

وفيه أخرج الضياء المقدسي عن أنس قال : كانت العرب يخدم بعضها بعضاً في الأسفار وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما فناما واستيقظا ولم يهتئء لهما طعاما فقالا : إن هذا لتؤوم فأيقظاه فقالا : ائت رسول الله ﷺ فقل له : إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام ويستأدما نك فقال : إنهما اتدما ، فجاء آه فقالا يا رسول الله بأي شيء اتدما ؟ قال : بلحم أخيكما والذي نفسي بيده إنني لأرى لحمه بين ثناياكما فقالا : استغفر لنا يا رسول الله . قال : مرأه فليستغفر لكما .

أقول : الظاهر أن القصة الموردة في الروایتين واحدة والرجلان المذكوران في الرواية الأولى أبوبكر وعمر والرجل المذكور في الثانية هو سلمان ، و يؤيد هذا ما عن جوامع الجامع قال : وروي أن أبابكر وعمر بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ ليأتي لهما بطعام فبعثه إلى أسامة بن زيد وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله فقال : ما عندي شيء فعاد إليهما فقالا : بخل أسامة و لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها .
ثم انطلقا إلى رسول الله ﷺ فقال لهما : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما قال : يا رسول الله ماتناولنا اليوم لحماً . قال : ظلمت تأكلون لحم سلمان و أسامة فنزلت .

وفي العيون بإسناده عن محمد بن يحيى بن أبي عباد عن عمه قال : سمعت الرضا عليه السلام يوماً ينشد و قليلاً ما كان ينشد شعراً :

كلنا نأمل مدأ في الأجل والمنايا هن آفات الأمل
لا يغرّك أباطيل المنى والزم القصدود عنك العلل
إنما الدنيا كظل زائل حل فيه راكب ثم رحل

فقلت : لمن هذا أعز الله الأمير؟ فقال : لعراقي لكم قلت : أنشدنيها بوالعناهيّة^(١) لنفسه فقال : هات اسمه ودع هذا ، إن الله سبحانه يقول : « ولا تنازروا بالألقاب » و لعل الرجل يكره هذا .

وفي الكافي بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبدالله ﷺ قال : قال أمير المؤمنين ﷺ في كلام له : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقبلك منه ، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوء وأنت تجد لها في الخير محملاً .

وفي نهج البلاغة وقال ﷺ : إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ، ثم أساء رجل الظن برجل لم يظهر منه حوبة فقد ظلم ، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله ثم أحسن رجل الظن برجل فقد غرر .

أقول : والروايتان غير متعارضتين فالثانية ناظرة إلى نفس الظن والأولى إلى

(١) العناهيّة بمعنى نقصان العقل .

ترتيب الأثر عليه عملاً .

وفي الخصال عن أسباط بن محمد بإسناده إلى النبي ﷺ أنه قال : الغيبة أشد من الزنا ، فقيل : يا رسول الله ولم ذلك ؟ قال : صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه وصاحب الغيبة يتوب فلا يتوب الله عليه حتى يكون صاحبه الذي يحلّه .

اقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وجابر عنه ﷺ ، ولفظه قال رسول الله ﷺ : الغيبة أشد من الزنا . قالوا : يا رسول الله وكيف الغيبة أشد من الزنا ؟ قال : إن الرجل يزني فيتوب فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه .

وفي الكافي بإسناده إلى السكوني عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه .

وفيه بإسناده عن حفص بن عمر عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سئل النبي ﷺ ما كفارة الاغتياب قال : تستغفر الله لمن اغتبتك كما ذكرته .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » قال : الشعوب العجم والقبائل العرب .

اقول : ونسبه في مجمع البيان إلى الصادق عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبدالله قال : خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ؛ ألا إن أباكم واحد ؛ ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمري ولا لأحمري على أسود إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إن رسول الله ﷺ زوج مقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب . إنما زوجها لتضع المناكح ، وليتأسوا برسول الله ﷺ ، وليعلموا أن أكرمهم عند الله أتقاهم .

وفي روضة الكافي بإسناده عن جميل بن دراج قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام :
فما الكرم ؟ قال : التقوى .

وفي الكافي بإسناده عن يونس بن يعقوب عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال :
إن الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون وعليه يتناكحون والإيمان عليه يثابون .
وفي الخصال عن الأعمش عن جعفر بن محمد عليه السلام في حديث : والإسلام غير
الإيمان ، وكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمننا .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « قالت الأعراب آمناً » أخرج ابن جرير
عن قتادة في قوله : « قالت الأعراب آمناً » قال : نزلت في بني أسد .
اقول : وهو مروى أيضاً عن مجاهد وغيره .

وفيه أخرج ابن ماجه وابن مردويه والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان
عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الإيمان معرفة بالقلب وإقرار
باللسان وعمل بالأركان .

وفيه أخرج النسائي والبخاري وابن مردويه عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد
إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : يا رسول الله أسلمنا وقاتلك العرب ولم نقاتلك فنزلت
هذه الآية « يمتنون عليك أن أسلموا » .

اقول : وفي هذا المعنى روايات أخر .



﴿سورة ق مكيّة وهي خمس وأربعون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ
جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا
كِتَابٌ حَفِيفٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)
أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ
فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨)
وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩)
وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً
مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ
وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْآيَةِ
وَ قَوْمٌ تَبِعُوا كُلَّ كَذَّابٍ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤).

﴿بيان﴾

السورة تذكر الدعوة و تشير إلى ما فيها من الإنذار بالمعاد و جحد المشركين به
و استعجابهم ذلك بأن الموت يستعقب بطلان الشخصية الإنسانية بصيرورته ترابا لا

يبقى معه أثر مما كان عليه فكيف يرجع ثانياً إلى ما كان عليه قبل الموت فتدفع ما أظهره من الاستعجاب والاستبعاد بأن العلم الإلهي محيط بهم وعنده الكتاب الحفيظ الذي لا يعزب عنه شيء مما دقّ وجلّ من أحوال خلقه ثم توعدهم بإصابة مثل ما أصاب الأمم الماضية الهالكة .

وتنبّه ثانياً على علمه وقدرته تعالى بالإشارة إلى ما جرى من تدييره تعالى في خلق السماوات وما زينها به من الكواكب والنجوم وغير ذلك ، وفي خلق الأرض من حيث مدّها وإلقاء الرواسي عليها وإنبات الأزواج النباتية فيها ثم بإنزال الماء وتهيئة أرزاق العباد وإحياء الأرض به .

ثم بيان حال الإنسان من أول ما خلق وأنه تحت المراقبة الشديدة الدقيقة حتى ما يلفظ به من لفظ وحتى ما يخطر بباله وتوسوس به نفسه ما دام حياً ثم إذا أدركه الموت ثم إذا بعث لفصل القضاء ثم إذا فرغ من حسابه فأدخل النار إن كان من المكذّبين أو الجنة المزلفة إن كان من المتقين .

و بالجملّة مصبّ الكلام في السورة هو المعاد ، ومن غرر الآيات فيها قوله : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ، وقوله : « يوم نقول لجهنّم هل امتلأت فنقول هل من مزيد » وقوله : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » . والسورة مكّية بشهادة سياق آياتها إلا ما قيل في قوله : « ولقد خلقنا السماوات والأرض » الآية أو الآيتين ، ولا شاهد عليه من اللفظ .

وما أوردناه من الآيات فيه إجمال الإشارة إلى المعاد واستبعادهم له ، وإجمال الجواب والتهديد أو لا ثم الإشارة إلى تفصيل الجواب والتهديد ثانياً .

قوله تعالى : « ق والقرآن المجيد » قال في المجمع : المجد في كلامهم الشرف الواسع يقال : مجدّ الرجل و مجدّد - بضمّ العين وفتحها - مجدداً إذا عظم وكرم ، و أصله من قولهم : مجدّت الأبل مجدوداً إذا عظمت بطونها من كثرة أكلها من كلاء الربيع . انتهى .

و قوله : « والقرآن المجيد » قسم و جوابه محذوف يدل عليه الجمل التالية والتقدير والقرآن المجيد إن البعث حق أو إنك لمن المندرين أو الإذارحق ، وقيل : جواب القسم مذكور و هو قوله : « بل عجبوا » الخ ، و قيل : هو قوله : « قد علمنا ما تنقص الخ ، وقيل : قوله : « ما يلفظ من قول » الخ ، وقيل : قوله : « إن في ذلك لذكرى » الخ ، وقيل : قوله « ما يبدل القول لدي » الخ ، وهذه أقوال سخيفة لا يصار إليها .
قوله تعالى : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب » إضراب عن مضمون جواب القسم المحذوف فكأنه قيل : إننا أرسلناك نذيراً فلم يؤمنوا بك بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، أو قيل إن البعث الذي أذرتهم به حق ولم يؤمنوا به بل عجبوا منه واستبعدوه .

و ضمير « منهم » في قوله : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » راجع إليهم بما هم بشر أي من جنسهم و ذلك أن الوثنيين ينكرون نبوة البشر كما تقدمت الإشارة إليه مراراً أو راجع إليهم بما هم عرب والمعنى بل عجبوا أن جاءهم منذر من قومهم و بلسانهم يبين لهم الحق . أوفى بيان فيكون أبلغ في تقريرهم .

و قوله : « فقال الكافرون هذا شيء عجيب » وصفهم بالكفر و لم يقل : و قال المشركون و نحو ذلك للدلالة على سترهم للحق لما جاءهم ، والإشارة في قولهم : « هذا شيء عجيب » إلى البعث والرجوع إلى الله كما يفسره قوله بعد : « إنا متنا و كنا تراباً » الخ .

قوله تعالى : « إنا متنا و كنا تراباً ذلك رجع بعيد » الرجوع والرجوع بمعنى والمراد بالبعد البعد عن العقل .

وجواب إذا في قولهم : « إنا متنا و كنا تراباً » محذوف يدل عليه قولهم : « ذلك رجع بعيد » والتقدير إذا متنا و كنا تراباً نبعث و نرجع ؟ والاستفهام للتعجب ، وإنما حذف للإشارة إلى أنه عجيب بحيث لا ينبغي أن تذكر ، إذ لا يقبله عقل ذي عقل والآية في مساق قوله : « وقالوا إنا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد » الم السجدة : ١٠ .

والمعنى إنهم يتعجبون ويقولون : إننا كنا وكننا ترابا - وبطلت ذواتنا بطلانا لا أثر معه منها - نبعث و نرجع ؟ ثم كأن قائلًا يقول لهم : مم تعجبون ؟ فقالوا : ذلك رجع بعيد يستبعده العقل ولا يسلمه .

قوله تعالى : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » رد منه تعالى لاستبعادهم البعث والرجوع مستنديين في ذلك إلى أنهم ستلاشى أبدانهم بالموت فتصير ترابا متشابه الأجزاء لا تمايز لجزء منها من جزء والجواب أننا نعلم بما تأكله الأرض من أبدانهم وتنقصه منها فلا يفوت علمنا جزء من أجزائهم حتى يتعسر علينا إرجاعه أو يتعذر بالجهل .

أو أننا نعلم من يموت منهم فيدفن في الأرض فتنقصه الأرض من جمعهم ، و«من» على على أول الوجهين تبعيضية وعلى الثاني تبينية .

وقوله : « وعندنا كتاب حفيظ » أي حافظ لكل شيء وآثاره وأحواله ، أو كتاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغيير والتحرير ، وهو اللوح المحفوظ الذي فيه كل ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة .

وقول بعضهم إن المراد به كتاب الأعمال غير سديد أو لا من جهة أن الله ذكره حفيظا لما تنقص الأرض منهم وهو غير الأعمال التي يحفظه كتاب الأعمال .

و ثانيا أنه سبحانه إنما وصف في كلامه بالحفظ اللوح المحفوظ دون كتب الأعمال فحمل الكتاب الحفيظ على كتاب الأعمال من غير شاهد .

ومحصل جواب الآية أنهم زعموا أن موتهم وصيرورتهم ترابا متلاشي الذرات غير متميز الأجزاء يصيرهم مجهولي الأجزاء عندنا فيمتنع علينا جمعها وإرجاعها لكنهم زعم باطل فإننا نعلم بمن مات منهم وما يتبدل إلى الأرض من أجزاء أبدانهم وكيف يتبدل وإلى أين يصير ؟ وعندنا كتاب حفيظ فيه كل شيء وهو اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : « بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج » المريج الاختلاط والالتباس ، وفي الآية إضراب عما تلوح إليه الآية السابقة فإن اللائح منها أنهم إنما

تعجبوا من أمر البعث والرجوع واستبعدوه لجهلهم بأن الله سبحانه عليم لا يعزب عنه شيء من أحوال خلقه وآثارهم وأن جميع ذلك مستطر في اللوح المحفوظ عند الله بحيث لا يشذ عنه شيء .

فأضرب في هذه الآية أن ذلك ليس من جهلهم وإن تجاهلوا بل كذبوا بالحق لما جاءهم فاستبان لهم أنه حق فهم جاحدون للحق معاندون له و ليسوا بجاهلين به قاصرين عن إدراكه فهم في أمر مريخ مختلط غير منتظم يدركون الحق و يكذبون به مع أن لازم العلم بشيء تصديقه والإيمان به .

وقيل : المراد بكونهم في أمر مريخ أنهم متحيرون بعد إنكار الحق لا يدرون ما يقولون فتارة يقولون : افتراء على الله ، وتارة : سحر ، وتارة : شعر ، وتارة : كهانة وتارة : زجر .

ولذلك عقب الكلام بذكر آيات علمه وقدرته توبيخاً لهم ثم بالإشارة إلى تكذيب الأمم الماضية الهالكة الذي ساقهم إلى عذاب الاستئصال ، تهديداً لهم .
قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » الفروج جمع فرجة الشقوق والفتوق ، و تقييد السماء بكونها فوقهم للدلالة على أنها برئى منهم لا تغيب عن أنظارهم ، والمراد بتزيينها خلق النجوم اللامعة فيها بمالها من الجمال البديع فبناء هذا الخلق البديع بمالها من الجمال الرائع من غير شقوق و فتوق أصدق شاهد على قدرته القاهرة و علمه المحيط بما خلق .

قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » مد الأرض بسطها لتلائم عيشة الإنسان ، والرواسي جمع الراسية بمعنى الثابتة صفة محذوفة الموصوف وهو الجبال ، والمراد جعل الجبال الثابتة على ظهرها ، والبهيج من البهجة قال في المجمع : البهجة الحسن الذي له روعة عند الرؤية كالزهرة والأشجار النضرة والرياض الخضرة انتهى وقيل : المراد بالبهيج الذي من رآه بهيج و سر به فهو بمعنى المبهوج به .

والمراد بإنبات كل زوج بهيج إنبات كل صنف حسن المنظر من النبات .

فخلق الأرض وما جرى فيها من التدبير الإلهي العجيب أحسن دليل يدل العقل على كمال القدرة والعلم .

قوله تعالى : « تبصرة و ذكرى لكل عبد منيب » مفعول له أي فعلنا ما فعلنا من بناء السماء ومد الأرض وعجائب التدبير التي أجريناها فيهما ليكون تبصرة يتبصر بها و ذكرى يتذكر بها كل عبد راجع إلى الله سبحانه .

قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » السماء جهة العلو والماء المبارك المطر، وصف بالمباركة لكثرة خيراته العائدة إلى الأرض وأهلها، وحب الحصيد المحصود من الحب وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « والنخل باسقات لها طلع نضيد » الباسقات جمع باسقة وهي الطويلة العالية، والطلع أول ما يطلع من ثمر النخل، والنضيد بمعنى المنضود بعضه على بعض، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » الرزق ما يمد به البقاء، و « رزقاً للعباد » مفعول له أي أنبتنا هذه الجنات وحب الحصيد والنخل باسقات بمائها من الطلع النضيد ليكون رزقاً للعباد فمن خلق هذه النباتات ليرزق به العباد بما في ذلك من التدبير الواسع الذي يدهش اللب ويحير العقل هو ذو علم لا يتناهى وقدرة لا تعيب لا يشق عليه إحياء الإنسان بعد موته وإن تلاشت ذرات جسمه وضلت في الأرض أجزاء بدنه .

وقوله : « و أحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » برهان آخر على البعث غير ما تقدم استنتج من طي الكلام فإن البيان السابق في رد استبعادهم للبعث مستندين إلى صيرورتهم ترابا غير متمايز الأجزاء كان برهانا من مسلك إثبات علمه بكل شيء وقدرته على كل شيء وهذا البرهان الذي يتضمنه قوله : « وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » من مسلك إثبات إمكان الشيء بوقوع مثله فليس الخروج من القبور بالإحياء بعد الموت إلا مثل خروج النبات الميت من الأرض بعد موتها و وقوف قواه عن النماء والنشوء .

وقد قررنا هذا البرهان في ذيل الآيات المستدلة بإحياء الأرض بعد موتها على البعث غير مرة فيما تقدم من أجزاء الكتاب .

قوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح - إلى قوله - كل كذب الرسل فحوق وعيد » تهديد وإنذار لهم بما كذبوا بالحق لما جاءهم و تبين لهم عناداً كما أشرنا إليه قبل .

وقد تقدم ذكر أصحاب الرس في تفسير سورة الفرقان ، و ذكر أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب في سورة الحجر و الشعراء وص ، و ذكر قوم تبّع في سورة الدخان . وفي قوله : « كل كذب الرسل فحوق وعيد » إشارة إلى أن هناك وعيداً بالهلاك ينجز عند تكذيب الرسل قال تعالى : « فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » النحل : ٣٦ .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له : ق السماء الدنيا متر فرقة عليه ، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها ، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له ق السماء الثانية متر فرقة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سماوات . قال : وذلك قوله : « والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر » .

وفيه أخرج ابن المنذر وابن مردويه و أبو الشيخ و الحاكم عن عبد الله بن بريدة في قوله تعالى : « ق » قال : جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنف السماء .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات و أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : خلق الله جبلاً يقال له ق محيط بالعالم و عروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها فمن ثم تحرك القرية دون القرية .

أقول : وروى القمي بإسناده عن يحيى بن ميسرة الخثعمي عن الباقر عليه السلام مثل ما مر عن عبدالله بن بريدة ، وروى ما في معناه مراسلاً ومضمراً ولفظه : قال : جبل محيط بالدينيا وراء يأجوج ومأجوج .

وكيفما كان لاتعويل على هذه الروايات ، و بطلان ما فيها يكاد يلحق اليوم بالبداهيات أو هو منها .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فقال الكافرون هذا شيء عجيب » قال : نزلت في أبي بن خلف قال لأبي جهل : تعال إلي أعجبك من محمد ثم أخذ عظماً ففتته ثم قال : يا محمد تزعم أن هذا يحيا؟ فقال الله : بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج .





أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)
 وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
 مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) اذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشَّمَالِ
 قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَ جَاءَتْ
 سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَ نُفِخَ فِي
 الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَ جَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ
 شَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
 الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ (٢٣) أَلْقِيَا فِي
 جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مُنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي
 جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ
 رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتَهُ وَ لَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا
 لَدَىٰ وَاكْفَرْتُمْ أَلَيْسَ لَكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَا أَنَا
 بِظُلَامٍ لَلْبَعِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ نَقُولُ هَلْ مِنْ
 مَزِيدٍ (٣٠) وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ
 لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)

ادخلوها بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ مَا كُنَّا مِنْ نَاجِبِينَ (٣٨) .

﴿بيان﴾

الآية الأولى متممة لما أورده في الآيات السابقة من الحجّة على علمه وقدرته بما خلق السماء والأرض وما فيهما من خلق ودبر ذلك أكمل التدبير وأتمه و ذلك كله هو الخلق الأوّل والنشأة الأولى . فتمم ذلك بقوله : «أفعمينا بالخلق الأوّل» واستنتج منه أن القادر على الخلق الأوّل العالم به قادر على خلق جديد ونشأة ثانية و عالم به لأنّهما مثلان إذا جازله خلق أحدهما جاز خلق الآخر وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن .

ثمّ أضرب عنه أنّهم في التباس من خلق جديد مع مماثلة الخلقين ثمّ أشار إلى نشأة الإنسان أوّل مرّة وهو يعلم منه حتّى خطرات قلبه و عليه رقباؤه يراقبونه أدقّ المراقبة ثمّ يجيئه سكرة الموت بالحقّ ثمّ البعث ثمّ دخول الجنة أو النار ثمّ أشار ثانياً إلى ما حلّ بالقرون الماضية المكذّبة من السخط الإلهي و عذاب الاستئصال وهم أشدّ بطشاً من هؤلاء فمن جازاهم بالهلاك قادر على أن يجازي هؤلاء .

قوله تعالى : «أفعمينا بالخلق الأوّل بل هم في لبس من خلق جديد» العي عجز يلحق من توكلي الأمر والكلام كذا قال الراغب يقال : أعيانى كذا و عييت بكذا أي عجزت عنه والخلق الأوّل خلق هذه النشأة الطبيعيّة بنظامها الطبيعيّ الجاري ومنها الإنسان في حياته الدنيا فلا وجه لقصر الخلق الأوّل في خلق السماء والأرض

فقط كما مال إليه الرازي في التفسير الكبير ولا تقصره في خلق الإنسان كما مال إليه بعضهم وذلك لأن الخلق الجديد يشمل السماء والأرض والإنسان جميعاً كما قال تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » إبراهيم : ٤٨ . و الخلق الجديد خلق النشأة الثانية وهي النشأة الآخرة ، والاستفهام للإنكار .

والمعنى أعجزنا عن الخلق الأول حتى نعجز عن الخلق الجديد ؟ أي لم نعجز عن الخلق الأول وهو إبداءه فلان نعجز عن الخلق الجديد وهو إعادته .

ولو أخذ العي بمعنى التعب كما مال إليه بعضهم كان المعنى هل تعبنا بسبب الخلق الأول حتى يتعذر أو يتعسر علينا الخلق الجديد ؟ وذلك كما أن الإنسان وسائر الحيوان إذا أتى بشيء من الفعل وأكثر منه انتهى به إلى التعب البدني فيكفّه ذلك عن الفعل بعد ، فمالم يأت به من الفعل لكونه تعبان مثل ما أتى لكونه لا يؤتى به لأن الفاعل لا يستطيعه لتعبه وإن كان الفعل جائزاً متشابه الأمثال .

وهذا معنى لا بأس به لكن قيل : إن استعمال العي بمعنى العجز أفصح . على أن سوق الحجّة من طريق العجز يفيد استحالة الإتيان ونفيها هو المطلوب بخلاف سوقها من طريق التعب فإنه يفيد تعسره دون استحالة الإتيان ومراد النافين للمعاد استحالاته دون تعسره هذا .

وقوله : « بل هم في لبس من خلق جديد » اللبس هو الالتباس ، والمراد بالخلق الجديد تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة أخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعي الحاكم في الدنيا فإن في النشأة الأخرى وهي الخلق الجديد بقاء من غير فناء وحياة من غير موت ثم إن كان الإنسان من أهل السعادة فله نعمة من غير نقمة وإن كان من أهل الشقاء ففي نقمة لانهمة معها ، والنشأة الأولى وهي الخلق الأول والنظام الحاكم فيها على خلاف ذلك .

والمعنى إذا كنا خلقنا العالم بسمائه وأرضه وما فيهما ودبرناه أحسن تدبير لأول مرة بقدرتنا وعلمنا ولم نعجز عن ذلك علماً وقدرة فنحن غير عاجزين عن تجديد خلقه وهو تبديله خلقاً جديداً فلا ريب في قدرتنا ولا التباس بل هم في التباس

لا سبيل لهم مع ذلك إلى الإيمان بخلق جديد .

قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » قال الراغب : الوسوسة الخطرة الرديئة وأصله من الوسواس وهو صوت الحلى والهمس الخفى . انتهى .

والمراد بخلق الإنسان وجوده المتدرج المتحول خلقاً بعد خلق لأول تكوينه إنساناً وإن عبر عنه بالماضى إذ قال : « ولقد خلقنا الإنسان » إذ الإنسان - وكذا كل مخلوق له حظ من البقاء - كما يحتاج إلى عطية ربه في أول وجوده كذلك يحتاج إليه في بقائه .

ولما ذكر من النكتة عطف قوله : « ونعلم ما توسوس به نفسه » وهو فعل مضارع مسوق للدلالة على الاستمرار على قوله : « ولقد خلقنا الإنسان » وهو فعل ماضٍ لكنّه مستمر المعنى ، وكذا قوله : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » مفيد للثبوت والدوام والاستمرار باستمرار وجود الإنسان .

وللآية اتصال بما تقدم من الاحتجاج على علمه وقدرته تعالى في الخلق الأول بقوله : « أفلم ينظروا إلى السماء » واتصال أيضاً بقوله تعالى في الآية السابقة : « بل هم في لبس من خلق جديد » فهي في سياق يذكر قدرته على الإنسان بخلقه ، وعلمه به بلا واسطة وبواسطة الملائكة الحفظة الكتبية .

فقوله : « ولقد خلقنا الإنسان » - واللام للقسم - دال على القدرة عليه بإثبات الخلق .

وقوله : « ونعلم ما توسوس به نفسه » في ذكر أخفى أصناف العلم وهو العلم بالخطور النفساني الخفى إشارة إلى استيعاب العلم له كأنه قيل : ونعلم ظاهره وباطنه حتى ما توسوس به نفسه ومما توسوس به الشبهة في أمر المعاد : كيف يبعث الإنسان وقد صار بعد الموت تراباً متلاشي الأجزاء غير متميز بعضها من بعض .

وقد بان أن « ما » في « ما توسوس به » موصولة وضمير « به » عائد إليه والباء للآلة أو للسببية ، ونسب الوسوسة إلى النفس دون الشيطان وإن كانت منسوبة إليه

أيضاً لأنّ الكلام في إحاطة العلم بالإنسان حتّى بما في زوايا نفسه من هاجس ووسوسة. وقوله: « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » الوريد عرق متفرّق في البدن فيه مجاري الدم، وقيل: هو العرق الذي في الحلق، وكيف كان فتسميته حبلًا لتشبيهه به، وإضافة حبل الوريد بيانيّة.

والمعنى نحن أقرب إلى الإنسان من حبل وريده المخالط لأعضائه المستقرّ في داخل بدنه فكيف لا نعلم به وبما في نفسه؟

وهذا تقريب للمقصود بجملته ساذجة يسهل تلقّيها لعامة الأّفهام وإلا فأمر قريبه تعالى إليه أعظم من ذلك وأعظم فهو سبحانه الذي جعلها نفساً ورتّب عليها آثارها فهو الواسطة بينها وبين نفسها وبينها وبين آثارها وأفعالها فهو أقرب إلى الإنسان من كلّ أمر مفروض حتّى من نفسه، ولكون هذا المعنى دقيقاً يشقّ تصوّره على أكثر الأّفهام عدل سبحانه إلى بيانه بنحو قوله: « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وقريب منه بوجه قوله: « إن الله يحول بين المرء وقلبه ».

ولهم في معنى الآية وجوه كثيرة أخر لاجدوى في نقلها والبحث عنها من أَرادها فليراجع كتبهم.

قوله تعالى: « إن يتلقّى المتلقّين عن اليمين وعن الشمال قعيد » التلقّي الأخذ والتلقن، والمراد بالمتلقّين على ما يفيدُه السياق الملكان الموكّلان على الإنسان اللذان يتلقّيان عمله فيحفظانه بالكتابة.

وقوله: « عن اليمين وعن الشمال قعيد » تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، والمراد باليمين والشمال يمين الإنسان وشماله، والقعيد القاعد.

والظرف في قوله: « إن يتلقّى المتلقّين » الظاهر أنّه متعلّق بمحذوف والتقدير اذكر إن يتلقّى المتلقّين، والمراد به الإشارة إلى علمه تعالى بأعمال الإنسان من طريق كتاب الأعمال من الملائكة وراء علمه تعالى بذاته من غير توسط الوسائط.

وقيل: الظرف متعلّق بقوله في الآية السابقة: « أقرب » والمعنى نحن أقرب إليه من حبل الوريد في حين يتلقّى الملكان الموكّلان عليه أعماله ليكتبها.

ولعلّ الوجه السابق أوفق للسياق فإنّ بناء هذا الوجه على كون العمدة في الغرض بيان أقربيته تعالى إليه و علمه به والباقي مقصود لأجله ، و ظاهر السياق وخاصة بالنظر إلى الآية التالية كون كلّ من العلم من طريق القرب و من طريق تلقّي الملكين مقصوداً بالاستقلال .

وقيل : « إنّ » تعليلية تعلل علمه تعالى المدلول عليه بقوله : « و نحن أقرب إليه » الخ بمفاد مدخولها .

و فيه أنّ من البعيد من مذاق القرآن أن يستدلّ على علمه تعالى بعلم الملائكة أو بحفظهم و كتابتهم .

وقوله : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » تمثيل لموقعهما من الإنسان ، واليمين والشمال جانبا الخير والشرّ ينتسب إليهما الحسنه والسيئة .

قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد » اللفظ الرمي سميّ به التكلم بنوع من التشبيه ، والرقيب المحافظ ، والعتيد المعدّ المهيأ للزوم الأمر .
والآية تذكر مراقبة الكتبة للإنسان فيما يتكلم به من كلام ، و هي بعد قوله : « إنّ يتلقّى المتلقّيان » الخ من ذكر الخاصّ بعد العامّ لمزيد العناية به .

قوله تعالى : « و جاءت سكرة الموت بالحقّ » ذلك ما كنت منه تحيد » الحيد العدول والميل على سبيل الهرب ، والمراد بسكرة الموت ما يعرض الإنسان حال النزاع إن يشتغل بنفسه و ينقطع عن الناس كالسكران الذي لا يدري ما يقول ولا ما يقال له .
و في تقييد مجيء سكرة الموت بالحقّ إشارة إلى أنّ الموت داخل في القضاء الإلهي مراد في نفسه في نظام الكون كما يستفاد من قوله تعالى : « كلّ نفس ذائقة الموت و نبلوكم بالشرّ والخير فتنة و إلينا ترجعون » الأنبياء : ٣٥ و قد مرّ تفسيره فالموت - و هو الانتقال من هذه الدار إلى دار بعدها - حقّ كما أنّ البعث حقّ والجنّة حقّ والنار حقّ ، وفي معنى كون الموت بالحقّ أقوال أخر لاجدوى في نقلها والتعرض لها .
و في قوله : « ذلك ما كنت منه تحيد » إشارة إلى أنّ الإنسان يكره الموت بالطبع و ذلك أنّ الله سبحانه زينّ الحياة الدنيا والتعلّق بزخارفها للإنسان ابتلاء و

امتحانا قال تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
وإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا » الكهف : ٨ .

قوله تعالى : « و نفخ في الصور ذلك يوم الوعيد » هذه نقلة ثانية إلى عالم
الخلود بنفخ الصور بعد النقلة الأولى ، والمراد بنفخ الصور النفخة الثانية المقيمة
للساعة أو مجموع النفختين بإرادة مطلق النفخ .
والمراد بيوم الوعيد يوم القيامة الذي ينجز الله تعالى فيه وعيده على المجرمين
من عباده .

قوله تعالى : « و جاءت كل نفس معها سائق وشهيد » السياقة حث المشية
على المسير من خلفها بعكس القيادة فهي جلبها من أمامها .
فقوله : « و جاءت كل نفس » أي جاءت إلى الله و حضرت عنده لفصل القضاء
والدليل عليه قوله تعالى : « إلى ربك يومئذ المساق » القيامة : ٣٠ .

والمعنى و حضرت عنده تعالى كل نفس معها سائق يسوقها و شاهد يشهد بأعمالها
ولم يصرح تعالى بكونهما من الملائكة أو بكونهما هما الكاتبين أو من غير الملائكة
غير أن السابق إلى الذهن من سياق الآيات أنهما من الملائكة ، و سيجيء الروايات
في ذلك .

و كذا لاتصريح بكون الشهادة منحصرة في هذا الشاهد المذكور في الآية بل
الآيات الواردة في شهداء يوم القيامة تقضي بعدم الانحصار ، و كذا الآيات التالية
الذاكرة لاختصاص الإنسان و قرينه دالة على أن مع الإنسان يومئذ غير السائق والشهيد .

قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم
حديد » وقوع الآية في سياق آيات القيامة واحتفافها بها يقضي بكونها من خطابات
يوم القيامة ، والمخاطب بها هو الله سبحانه ، والذي خوطب بها هو الإنسان المذكور
في قوله : « و جاءت كل نفس » ، وعليه فالخطاب عام متوجه إلى كل إنسان إلا أن
التوبيخ والتفريع اللائح من سياق الآية ربما استدعى اختصاص الخطاب بمنكري
المعاد ، أضف إلى ذلك ، كون الآيات مسوقة لرد منكري المعاد في قولهم : « إذا

متنا وكننا تراباً ذلك رجع بعيد .

والإشارة بقوله : « هذا » إلى ما يشاهده يومئذ ويعاينه من تقطع الأسباب وبوار الأشياء ورجوع الكل إلى الله الواحد القهار ، وقد كان تعلق الإنسان في الدنيا بالأسباب الظاهريّة وركونه إليها أغفله عن ذلك حتى إذا كشف الله عنه حجاب الغفلة فبدت له حقيقة الأمر فشاهد ذلك مشاهدة عيان لا علماً فكرياً .

ولذا خوطب بقوله : « لقد كنت » في الدنيا « في غفلة » أحاطت بك « من هذا » الذي تشاهده وتعاينه وإن كان في الدنيا نصب عينيك لا يغيب لكن تعلقك بذيل الأسباب أذهلك وأغفلك عنه « فكشفنا عنك غطاءك » اليوم « فبصرك » وهو البصيرة وعين القلب « اليوم » وهو يوم القيامة « حديد » أي نافذ يبصر ما لم يكن يبصره في الدنيا .

ويتبيّن بالآية أو لا أن معرف يوم القيامة أنه يوم ينكشف فيه غطاء الغفلة عن الإنسان فيشاهد حقيقة الأمر ، وفي هذا المعنى وما يقرب منه آيات كثيرة كقوله تعالى : « والأمر يومئذ لله » الانفطار : ١٩ ، وقوله : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » المؤمن : ١٦ إلى غير ذلك من الآيات .

وثانياً أن ما يشاهده الإنسان يوم القيامة موجود مهيباً له وهو في الدنيا غير أنه في غفلة منه ، وخاصة يوم القيامة أنه يوم انكشاف الغطاء ومعاينة ما وراءه ، وذلك لأن الغفلة إنّما يتصور فيما يكون هناك أمر موجود منقول عنه ، والغطاء يستلزم أمراً وراءه وهو يغطيه ويستتره ، وعدم حدة البصر إنّما ينفع فيما إذا كان هناك مبصر دقيق لا ينفذ فيه البصر .

ومن أسخف القول ما قيل : إن الآية خطاب منه تعالى لنبيه ﷺ ، والمعنى لقد كنت قبل الرسالة في غفلة من هذا الذي نوحى إليك فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد يدرك الوحي أو يبصر ملك الوحي فيتلقى الوحي ، وذلك لأن السياق لا يساعده ولا لفظ الآية ينطبق عليه .

قوله تعالى : « وقال قرينه هذا ما لدى عتيد » لا يخلو السياق من ظهور في

أن المراد بهذا القرين الملك الموكل به فإن كان هو السائق كان معنى قوله : « هذا ما لدي عتيد » هذا الإنسان الذي هو عندي حاضر ، وإن كان هو الشهيد كان المعنى هذا - وهو يشير إلى أعماله التي حمل الشهادة عليها - ما عندي من أعماله حاضر مهيباً .
وقيل : المراد بالقرين الشيطان الذي يصاحبه ويغويه ، ومعنى كلامه على هذا هذا الإنسان هو الذي توليت أمره وملكته حاضر مهيباً لدخول جهنم .

قوله تعالى : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب » الكفار اسم مبالغة من الكفر ، والعنيد المعاند للحق المستمر على عناده ، والمعتدي المتجاوز عن الحد المتخطيء للحق ، والمريب الشاك أو المشكك في أمر البعث .
وبين هذه الصفات المعدودة شبه الاستلزام فإن كثرة الكفر برد الإنسان كل حق يواجهه تنتج العناد مع الحق والإصرار عليه ، والإصرار على العناد يوجب المنع عن أكثر الخيرات إذ لا خير إلا في الحق ومن ناحيته ، وهو يستلزم الخروج عن حد الحق إلى الباطل وتجاوز الإنسان عن حد العبودية إلى الاستكبار والطغيان ويستلزم تشكيك الناس في ما يرومونه من دين الحق .

والخطاب في الآية منه تعالى ، وظاهر سياق الآيات أن المخاطب به هما الملكان الموكلان السائق والشهيد ، واحتمل بعضهم أن يكون الخطاب إلى ملكين من ملائكة النار وخزنتها .

قوله تعالى : « الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلقياه في العذاب الشديد » العدول في ذكر صفة الشرك عن الإيجاز إلى الإطناب حيث لم يقل : مشرك وقال : « الذي جعل » الخ للإشارة إلى أن هذه الصفة أعظم المعاصي وأهم الجرائم التي أتى بها والصفات الرذيلة التي عدت له من الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء والإرابة .
وقوله : « فآلقياه في العذاب الشديد » تأكيد لما تقدم من الأمر بقوله : « ألقيا » الخ ، ويلوِّح إلى تشديد الأمر من جهة الشرك ، ولذا عقبه بقوله : « في العذاب الشديد » .

قوله تعالى : « قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد » المراد بهذا

القرين قرينه من الشياطين بلا شك، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر القرين من الشيطان وهو الذي يلزم الانسان ويوحى إليه ما يوحى من الغواية والضلال قال تعالى: «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين» الزخرف: ٣٨.

فقوله: «قال قرينه» أي شيطانه الذي يصاحبه و يغويه «ربنا» أضاف الرب إلى نفسه والاي انسان الذي هو قرينه لأنهما في مقام الاختصاص «ما أطيغته» أي ما أجبرته على الطغيان «و لكن كان في ضلال بعيد» أي متبهاً مستعداً لقبول ما ألقىته إليه تلقاه باختياره فما أنا بمسؤول عن ذنبه في طغيانه.

وقد تقدم في سورة الصافات تفصيل اختصاص الظالمين وأزواجهم في قوله: «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم» الصافات: ٢٢ إلى آخر الآيات.

قوله تعالى: «قال لا تختصموا لدي» وقد قدمت إليكم بالوعيد» القائل هو الله سبحانه يخاطبهم وكأنه خطاب واحد لعامة المشركين الطاغين وقرنائهم ينحل إلى خطابات جزئية لكل إنسان و قرينه بمثل قولنا: لا تختصموا لدي الخ.

وقوله: «وقد قدمت إليكم بالوعيد» حال من فاعل «لا تختصموا» و«بالوعيد» مفعول «قدمت» والباء للوصلة.

والمعنى لا تختصموا لدي فلا نفع لكم فيه بعد ما أبلغتكم وعيدي لمن أشرك و ظلم، والوعيد الذي قدمه إليهم مثل قوله تعالى لا بليس: «أذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا» أسرى: ٦٣، وقوله: «فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين» ص: ٨٥. أو قوله: «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» السجدة: ١٣.

قوله تعالى: «ما يبدل القول لدي» وما أنا بظلام للعبيد» الذي يعطيه السياق أن تكون الآية استثناءً بمنزلة الجواب عن سؤال مقدر كأن قائلًا يقول: هب إنك قد قدمت فهلاً غيرته وعفوت؟ فأجيب بقوله: «ما يبدل القول لدي» والمراد بالقول

مطلق القضاء المحتوم الذي قضى به الله ، و قد قضى لمن مات على الكفر بدخول جهنم و ينطبق بحسب المورد على الوعيد الذي أوعده الله لا بأس و من تبعه .
فقد بان أن الجملة مستأنفة ، والمراد بتبديل القول تغيير القضاء المحتوم ، و « لدي » متعلق بالتبديل، هذا ما يعطيه السياق ، وقد ذكر بعضهم في هذه الجملة وإعراب مفرداتها و معنى تبديل القول وجوهاً و احتمالات كثيرة بعيدة عن الفهم لا تزيد في الكلام إلا تعقيداً فأغمضنا عن إيرادها .

و قوله : « و ما أنا بظلام للعبيد » متمم لمعنى الجملة السابقة أي لا يبدل قولي فأنتم معدن بون لا محالة و لست أظلم عبيدي في عذابهم على طبق ما قدمت إليهم بالوعيد لأنهم مستحقون لذلك بعد إتمام الحجّة .

و من وجه آخر لا ظلم في مجازاتهم بالعذاب فإنهم إنما يجزون بأعمالهم التي قدموها فهي أعمالهم ردت إليهم كما هو ظاهر قوله تعالى : « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » التحريم : ٧ .

و ما في قوله : « و أنا بظلام » من نفى الظلم الكبير لا يستوجب جواز الظلم اليسير فإنه تعالى لو ظلم في شيء من الجزاء كان ظلماً كثيراً لكثرة أمثاله فإن الخطاب لكل إنسان مشرك ظالم مع قرينه ، وهم كثيرون فهو سبحانه لو ظلم في شيء من الجزاء لكان ظلماً ما .

قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت و تقول هل من مزيد » خطاب منه تعالى لجهنم و جواب منها ، و قد اختلف في حقيقة هذا التكليم و التكلم فقيل : الخطاب و الجواب بلسان الحال و يردّه أنه لو كان بلسان الحال لم يختص به تعالى بل كان لكل من يشاهدها على تلك الحال أن يسألها عن امتلائها فتجيبه بقولها : هل من مزيد ؟ فليس لتخصيص الخطاب به تعالى نكته ظاهرة .

و قيل : حقيقة الخطاب لخزنة جهنم و الجواب منهم و إن كانا نسبا إلى جهنم و فيه أنه خلاف الظاهر لا يصار إليه إلا بدليل .

و قيل : الخطاب و الجواب على ظاهره ، و لا دليل يدل على عدم الجواز ، و قد

أخبر الله سبحانه عن تكليم الأيدي والأرجل والجلود وغيرها ، وهو الوجه وقد تقدم في تفسير سورة فصلت أن العلم والشعور سار في جميع الموجودات .

وقوله : « هل امتلأت » استفهام تقريرى ، وكذا قوله حكاية عنها : « هل من مزيد » ولعل إيراد هذا السؤال والجواب للإشارة إلى أن قهره وعذابه لا يقصر عن الإحاطة بالمجرمين وإيفاء ما يستحقونه من الجزاء قال تعالى : « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » التوبة : ٤٩ .

واستشكل بأنه مناف لصريح قوله تعالى : « لا ملأن جهنم » الآية وأجيب بأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو شيء من طبقاتها من السكنة كما يقال : البلد ممتلىء بأهله . على أنه يمكن أن يكون هذا القول منها قبل دخول جميع أهل النار فيها .

وقيل : الاستفهام في قوله : « هل من مزيد » للإيثار والمعنى لا مزيد أى لا يمكن في مزيد على من ألقى في من المجرمين فقد امتلأت فيكون إشارة إلى ما قضى به في قوله : « لا ملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » السجدة : ١٣ ، وقوله : « هل امتلأت » في معنى أن يقال : « هل حق القول منسى لا ملأن جهنم » ، وقوله : « هل من مزيد » تقرير وتصديق له .

وربما أيد هذا الوجه قوله تعالى قبل : « ما يبذل القول لذي » على تقدير أن يراد بالقول قوله تعالى : « لا ملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .
قوله تعالى : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد » شروع في وصف حال المتقين يوم القيامة ، والإزلاف التقريب ، و« غير بعيد » على ما قيل صفة لظرف محذوف والتقدير في مكان غير بعيد .

والمعنى وقربت الجنة يومئذ للمتقين حال كونها في مكان غير بعيد أي هي بين أيديهم لا تكلف لهم في دخولها .

قوله تعالى : « هذا ما توعدون لكل أوأب حفيظ » الإشارة إلى ما تقدم من الثواب الموعود ، والأوأب من الأوب بمعنى الرجوع ، والمراد كثرة الرجوع إلى الله

بالتوبة والطاعة ، والحفيظ هو الذي يدوم على حفظ ما عهد الله إليه من أن يترك فيضيع
وقوله : « لكلّ أوّاب حفيظ » خبر بعد خبر لهذا أو حال .

قوله تعالى : « من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » بيان لكلّ أوّاب
والخشية بالغيب الخوف من عذاب الله حالكونه غائباً غير مرئي له ، والإناابة هو
الرجوع ، والمجيء إلى ربه بقلب منيب أن يتمّ عمره بالإناابة فيأتي ربه بقلب متلبس
بالإناابة .

قوله تعالى : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » خطاب للمتقين أي يقال لهم:
ادخلوا بسلام أي بسلامة وأمن من كلّ مكروه وسوء ، أو بسلام من الله و ملائكته
عليكم ، وقوله : « ذلك يوم الخلود » بشرى يبشرون بها .

قوله تعالى : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » يمكن أن يكون « فيها »
متعلقاً بيشاؤون أو بمحذوف هو حال من الموصول والتقدير حالكون ما يشاؤون فيها أو
من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول والتقدير ما يشاؤنه حالكونه فيها ، والأوّل
أوفق لسعة كرامتهم عند الله سبحانه .

والمحصل أن أهل الجنة وهم في الجنة يملكون كلّ ما تعلقت به مشيئتهم و
إرادتهم كأننا ما كان من غير تقييد واستثناء فلهم كلّ ما أمكن أن يتعلق به الإرادة
والمشيئة لو تعلقت .

وقوله : « ولدينا مزيد » أي ولهم عندنا ما يزيد على ذلك - على ما يفيد السياق -
وإن كان لهم كلّ ما أمكن أن تتعلق به مشيئتهم ممّا يتعلق به علمهم من المطالب والمقاصد
فالمزيد على ذلك أمر أعظم ممّا تتعلق به مشيئتهم لكونه فوق ما يتعلق به علمهم من
الكمال .

وقيل : المراد بالمزيد الزيادة على ما يشاؤون من جنس ما يشتهون فإذا شاؤا
رزقاً أعطوا منه أكثر ممّا شاؤا وأفضل وأعجب كما ورد عن بعضهم أنّه تمرّ بهم السحابة
فتقول : ماذا تريدون فأمطره عليكم فلا يريدون شيئاً إلاّ أمطرته عليهم .

و فيه أنّه تقييد لإطلاق الكلام من غير متميّد فإنّ ظاهر قوله : « لهم ما يشاؤون

فيها « أنتم يملكون كل ما يمكنهم أن يشاؤا لا تملكهم ما شاؤه بالفعل فاملزيدو راء ما يمكن أن تتعلق به مشيتهم .

وقيل : المراد أنه يضاعف لهم الحسنه بعشر أمثالها وفيه ما في سابقه .

قوله تعالى : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص » التنقيب السير ، المحيص المحيد والمنجا .

وفي الآية تذييل الاحتجاج بخلق الإنسان والعلم به وبيان سيره إلى الله بالتخويف والإنذار نظير ماجرى عليه الكلام في صدر السورة من الاحتجاج على المعاد وتذييله بالتخويف والإنذار في قوله : « كذبتم قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس و ثمود » الخ . والمعنى وكثيراً ما أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قرن هم أي أهل ذلك القرن أشد بطشاً منهم أي من هؤلاء المشركين فساروا ببطشهم في البلاد ففتحوها وتحكموا عليها هل من محيد و منجا من إهلاك الله و عذابه ؟

قوله تعالى : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » القلب ما يعقل به الإنسان فيميز الحق من الباطل والخير من الشر والنافع من الضار فإذا لم يعقل ولم يميز فوجوده بمنزلة عدمه إن ما لا أثر له فوجوده وعدمه سواء ، وإلقاء السمع هو الاستماع كأن السمع شيء يلقي إلى المسموع فينال به ويدركه والشهيد الحاضر المشاهد .

والمعنى إن فيما أخبرنا به من الحقائق وأشرنا إليه من قصص الأمم الهالكة لذكرى يتذكر بها من كان يتعقل فيدرك الحق ويختار ما فيه خيره ونفعه أو استمع إلى حق القول ولم يشتغل عنه بغيره والحال أنه شاهد حاضريعي ما يسمعه .

والترديد بين من كان له قلب و من استمع شهيداً لمكان أن المؤمن بالحق أحد رجلين إما رجل ذو عقل يمكنه أن يتناول الحق فيتفكر فيه ويرى ما هو الحق فيذعن به ، وإما رجل لا يقوى على التفكر حتى يميز الحق والخير والنافع فعليه أن يستمع القول فيتبعه ، وأما من لا قلب له يعقل به ولا يسمع شهيداً على ما يقال له و يلقي إليه من الرسالة والإنذار فجاهل متعمت لا قلب له ولا سمع قال تعالى : « وقالوا

لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير « المملك : ١٠ .
قوله تعالى : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما
مسنا من لغوب » اللغوب التعب والنصب ، والمعنى ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في التوحيد بإسناده إلى عمرو بن عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد قال : سألت أبا جعفر
عليه السلام عن قول الله عز وجل : « أفعيينا بالخلق الأول بلهم في لبس من خلق جديد »
قال : يا جابر تأويل ذلك أن الله عز وجل إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وسكن
أهل الجنة والنار جدّد الله عالماً غير هذا العالم وجدّد خلقاً من غير
فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحّدونه وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحمّلهم ، وسما
غير هذه السماء تظلمهم .

لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد أو ترى أن الله لم يخلق بشراً
غيركم والله لقد خلق ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك
الآدميين .

أقول : وروي في الخصال الشطر الأول من الحديث بإسناده عن محمد بن مسلم
عنه عليه السلام ، و لعل المراد بكون ما ذكر تأويل الآية أنه ممّا ينطبق عليه .

و عن جوامع الجامع عن النبي صلى الله عليه وآله : كاتب الحسنات على يمين الرجل و
كاتب السيئات على شماله ، وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال فإذا عمل حسنة
كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع
ساعات لعله يسبّح أو يستغفر .

أقول : وفي معناها روايات أخرى ، وروي ست ساعات بدل سبع ساعات .
وفي نهج البلاغة « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » سائق يسوقها إلى محشرها
و شاهد يشهد عليها بعملها .

وفي المجمع وروى أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن الأعمش قال : حدثنا أبو المتوكل التاجر عن أبي السعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كان يوم القيامة يقول الله لي و لعلني : ألقيا في النار من أبغضكما ، و أدخلنا في الجنة من أحببنا ، و ذلك قوله : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد » .

أقول : ورواه شيخ الطائفة في أماليه بإسناده عن أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وآله .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت و ابن أبي حاتم و أبو نعيم في الحلية عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن ابن آدم لفي غفلة مما خلق له إن الله إذا أراد خلقه قال للملك : اكتب رزقه . اكتب أثره . اكتب أجله شقيماً أم سعيداً ثم يرتفع ذلك الملك و يبعث الله ملكاً فيحفظه حتى يدرك ثم يرتفع ذلك الملك .

ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته و سيئاته فإذا حضره الموت ارتفع ذلك الملكان وجاء ملك الموت ليقبض روحه فإذا أدخل قبره رد الروح في جسده و جاء ملك القبر فامتحناه ثم يرتفعان .

فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات و ملك السيئات فبسطا كتاباً معقوداً في عنقه ثم حضرا معه و أحداً سائقاً و آخر شهيداً . ثم قال رسول الله ﷺ : إن قد أمكم لأمرأ عظيماً لا تقدرونه فاستعينوا بالله العظيم .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت و تقول هل من مزيد » قال : هو استفهام لأن الله وعد النار أن يملأها فتمتلئ النار ثم يقول لها : هل امتلأت ؟ و تقول : هل من مزيد ؟ على حد الاستفهام أي ليس في مزيد .

أقول : بناؤه على كون الاستفهام إنكارياً .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد و البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي و ابن جرير و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزال جهنم يلقى فيها و تقول : هل من مزيد ؟ حتى تضع رب العزة فيها قدمه فينزوي

بعضها إلى بعض و تقول : قط قط وعزّ تك و كرمك .
ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في قصور الجنة .
أقول : وضع القدم على النار وقولها : قط قط مروى في روايات كثيرة من طرق
أهل السنة .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « لهم ما يشاؤون فيها و لدينامزيد » قال : النظر
إلى رحمة الله .

و في الدر المنثور أخرج البزّاز و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه
واللالكائي في السنة والبيهقي في البعث والنشور عن أنس في قوله تعالى : « و لدينامزيد »
قال : يتجلى لهم الرب عزّ و جل .

و في الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال : قال لي أبو الحسن
موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام إن الله يقول في كتابه : « إن في ذلك لذكرى لمن كان
له قلب » يعني عقل .

و في الدر المنثور أخرج الخطيب في تاريخه عن العوام بن حوشب قال : سألت
أبا مجلز عن الرجل يجلس فيضع إحدى رجله على الأخرى فقال : لا بأس به إنما
كره ذلك اليهود زعموا أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم
السبت فجلس تلك الجلسة فأنزل الله « و لقد خلقنا السماوات والأرض و ما بينهما في
ستة أيام و ما مستنا من لغوب » .

أقول : و روي هذا المعنى عن الضحاك و قتادة ، و روى هذا المعنى المفيد في
روضة الواعظين في رواية ضعيفة ، و أصل تقسيم خلق الأشياء إلى ستة من أيام الأسبوع
واقع في التوراة ، و القرآن و إن كرّر ذكر خلق الأشياء في ستة أيام لكنّه لم يذكر
كون هذه الأيام هي أيام الأسبوع و لا لوائح إليه .

و على هذه الروايات اعتمد من قال : إن الآية مدنيّة ، و لا دلالة في ردّها قول
اليهود أن تكون نازلة بالمدينة ، و في الآيات المكيّة ما تعرّض سبحانه فيه لشأن اليهود
كما في سورة الأعراف و غيرها .



فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ
 قَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَ
 اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ
 بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَبَيْنَنَا
 الْمَمِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
 يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ
 بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) .

﴿ بيان ﴾

خاتمة السورة يأمر النبي ﷺ فيها أن يصبر على ما يقولون مما يرمونه بنحو
 السحر والجنون والشعر ، وما يتعننون به باستهزاء المعاد والرجوع إلى الله تعالى
 فيأمره ﷺ بالصبر وأن يعبد ربه بتسبيحه وأن يتوقع البعث بانتظار الصيحة ، وأن
 يذكر بالقرآن من يخاف الله بالغيب .

قوله تعالى : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و
 قبل الغروب » تفريع على جميع ما تقدم من إنكار المشركين للبعث ، ومن تفصيل القول في
 البعث والحجة عليه ، ومن وعيد المنكرين له المكذبين للنبي ﷺ وتهديدهم
 بمثل ما جرى على المكذبين من الأمم الماضية .

وقوله : « وسبح بحمد ربك » الخ أمر بتزييه تعالى عما يقولون مصاحباً للحمد
 ومحصله إثبات جميل الفعل له ونفي كل نقص وشين عنه تعالى ، والتسبيح قبل طلوع

الشمس يقبل الانطباع على صلاة الصبح ، والتسبيح قبل الغروب يقبل الانطباع على صلاة العصر أو عليها وعلى صلاة الظهر .

قوله تعالى : « ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » أي ومن الليل فسبحه فيه ، ويقبل الانطباع على صلاتي المغرب والعشاء .

وقوله : « وأدبار السجود » الأدبار جمع دبر وهو ما ينتهي إليه الشيء وبعده ، وكأن المراد بأدبار السجود بعد الصلوات فإن السجود آخر الركعة من الصلاة فينطبق على التعقيب بعد الصلوات ، وقيل : المراد به النوافل بعد الفرائض ، وقيل : المراد به الركعتان أو الركعات بعد المغرب وقيل : ركعة الوتر في آخر الليل .

قوله تعالى : « واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب » فسروا الاستماع بمعان مختلفة والأقرب أن يكون مضمناً معنى الانتظار و « يوم يناد المناد » مفعوله والمعنى وانتظر يوماً ينادي فيه المنادي ملقياً سمعك لاستماع ندائه ، والمراد بندااء المنادي نفخ صاحب الصور في الصور على ما تفيد الآية التالية .

وكون النداء من مكان قريب لإحاطته بهم فيقع في سمعهم على نسبة سواء لا تختلف بالقرب والبعد فإنما هو نداء البعث وكلمة الحياة .

قوله تعالى : « يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج » بيان ليوم ينادي المنادي ، وكون الصيحة بالحق لأنها مقضية قضاء محتوماً كما مر في قوله : « وجاءت سكرة الموت بالحق » الآية .

وقوله : « ذلك يوم الخروج » أي يوم الخروج من القبور كما قال تعالى : « يوم يخرجون من الأجداث سراعا » المعارج : ٤٣ .

قوله تعالى : « إننا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير » المراد بالإحياء إفاضة الحياة على الأجساد الميتة في الدنيا ، وبالإماتة الإماتة في الدنيا وهي النقل إلى عالم القبر ، وبقوله : « وإلينا المصير » الإحياء بالبعث في الآخرة على ما يفيد السياق .

قوله تعالى : « يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير » أصل « تشقق » تشقق أي تصدع عنهم فيخرجون منها مسارعين إلى الداعي .

وقوله : « ذلك حشر علينا يسير » أي ما ذكرنا من خروجهم من القبور المنشققة عنهم سراعاً جمع لهم علينا يسير .

قوله تعالى : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » في مقام التعليل لقوله : « فاصبر على ما يقولون » الآية ، والجبار المتسلط الذي يجبر الناس على ما يريد .

والمعنى فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك وانتظر البعث فنحن أعلم بما يقولون سنجزبهم بما عملوا ولست أنت بمتسلط جبار عليهم حتى تجبرهم على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر وإذا كانت حالهم هذه الحال فذكر بالقرآن من يخاف وعيدي .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل الغروب صلاة العصر .

وفي المجمع روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن قوله : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » فقال : تقول حين تصبح وحين تمشي عشر مرات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

اقول : هو مأخوذ من إطلاق التسيب في الآية وإن كان خصوص مورده صلاتي الصبح والعصر فلا منافاة .

وفي الكافي بإسناده عن حرير عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت : « وأدبار السجود » قال : ركعات بعد المغرب .

اقول : ورواه القمي في تفسيره بإسناده عن ابن أبي نصر عن الرضا عليه السلام ولفظه قال : أربع ركعات بعد المغرب .

وفي الدر المنثور أخرج مسدّد في مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب قال : سألت رسول الله ﷺ عن أدبار النجوم والسجود فقال : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الغداة .

اقول : وروى مثله عن ابن عباس وعمر عنه ﷺ ، وأسنده في مجمع البيان إلى الحسن بن عليّ عليه السلام أيضاً عن النبي ﷺ .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد » قال : ذكّر يا محمد ما وعدناه من العذاب .



﴿سورة الذاريات مكيّة وهي ستون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (١) فَالْحَامِلَاتِ
 وَِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ
 لَصَادِقٍ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ
 لِنَفْسٍ قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ (٩) قَتَلَ الْخِرَاصُونَ (١٠)
 الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ
 هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
 تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا
 آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ
 مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ
 لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) .

﴿بيان﴾

كانت الدعوة النبويّة تدعو الوثنيّة إلى توحيد الربوبيّة وأن الله تعالى هو
 ربهم ورب كل شيء ، وكانت الدعوة من طريق الإنذار والتبشير وخاصة بالإنذار
 وكان الإنذار بعذاب الله في الدنيا للمكذّبين عذاب الاستئصال ، وفي الآخرة بالعذاب
 الخالد يوم القيامة وهو العمدة في نجاح الدعوة إذ لو لا الحساب والجزاء يوم القيامة
 كان الإيمان بالوحدانيّة والنبوّة لغى لا أثر له .

والمشركون باتخاذهم آلهة دون الله سبحانه شديداً لا ينكرون لأصول التوحيد والنبوة والمعاد، وكانوا يتعنتون بإنكار المعاد والإصرار على نفيه والاستهزاء به من أي طريق ممكن لما يرون أن في بطلانه بطلان الأئمة الآخرين .

والسورة تذكر المعاد وإنكارهم له فتبدء به وتختتم عليه لكن لا من حيث نفسه كما جرى عليه الكلام في مواضع من كلامه بل من حيث إنته يوم الجزاء وأن الله الذي وعدهم به هو ربهم وهو الذي وعدهم به ووعدده صدق لا ريب فيه .

ولذلك لما انساق الكلام إلى الاحتجاج عليه احتججت بأدلة التوحيد من آيات الأرض والسماء والأفئس وما عاقب الله به الأمم الماخذين إثر دعوتهم إلى التوحيد وتكذيبهم لرسله ، وليس إلا ليثبت بها التوحيد فيثبت به يوم الجزاء الذي وعده الله والله لا يخلف الميعاد وأخبرت به الدعوة النبوية فيندفع بذلك إنكارهم للجزاء وقد توسلوا بذلك إلى إبطال دين التوحيد ورسالة الرسول لصيرورة الإيمان به لغوا لا أثر له كما تقدمت الإشارة إليه .

والسورة مكية لشهادة سياق آياتها عليه ولم يختلف في ذلك أحد ، ومن غرر آياتها قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » .

والفصل الذي أوردناه من الآيات مفتتح الكلام يذكر فيه أن الجزاء الذي وعده صدق وإنكارهم له وتعنتهم بذلك تخرس ثم يصف يوم الجزاء وحال المتقين والمنكرين فيه .

قوله تعالى : « والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالملقسات أمرا » الذاريات جمع الذارية من قولهم : ذرت الريح التراب تذروه ذرواً إذا أطارته والوقر بالكسر فالسكون ثقل الحمل في الظهر أو في البطن .

وفي الآيات إقسام بعد إقسام يفيد التأكيد بعد التأكيد للمقسم عليه وهو الجزاء على الأعمال فقوله : « والذاريات ذرواً » إقسام بالرياح المثيرة للتراب ، وقوله : « فالحاملات وقراً » بالفاء المفيدة للتأخير والترتيب معطوف على الذاريات وإقسام بالسحب الحاملة لثقل الماء ، وقوله : « فالجاريات يسراً » عطف عليه وإقسام بالسفن

الجارية في البحار يبسر وسهولة .

وقوله : « فالمقسّمات أمراً » عطف على ما سبقه وإقسام بالملائكة الذين يعملون بأمره فيقسمونه باختلاف مقاماتهم فإن أمر ذي العرش بالخلق والتدبير واحد فإذا حمله طائفة من الملائكة على اختلاف أعمالهم انشعب الأمر وتقسّم بتقسّمهم ثم إذا حمله طائفة هي دون الطائفة الأولى تقسّم ثانياً بتقسّمهم وهكذا حتى يفتهى إلى الملائكة المباشرين للحوادث الكونية الجزئية فينقسم بانقسامها ويتكثّر بتكثّرها . والآيات الأربع - كما ترى - تشير إلى عمارة التدبير حيث ذكرت أنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في البرّ وهو الذاريات ذرواً ، وأنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في البحر وهو الجاريات يسراً وأنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في الجوّ وهو الحاملات وقرأ ، وتمّم الجميع بالملائكة الذين هم وسائط التدبير وهم المقسّمات أمراً .

فآيات في معنى أن يقال : أقسم بعامة الأسباب التي يتمم بها أمر التدبير في العالم إن كذا كذا ، وقد ورد من طرق الخاصة والعامة عن علي عليه أفضل السلام تفسير الآيات الأربع بما تقدّم .

و عن الفخر الرازي في التفسير الكبير أن الأقرب حمل الآيات الأربع جميعاً على الرياح فإنها كما تذرو التراب ذرواً تحمل السحب الثقال وتجري في الجوّ يبسر وتقسّم السحب على الأقطار من الأرض .

والحق أن ما استقر به بعيد ، وما تقدّم من المعنى أبلغ ممّا ذكره .

قوله تعالى : « إن ما توعدون لصادق وإن الدين لواقع » « ما » موصولة ، والضمير العائد إليها محذوف أي الذين توعدون ، أو مصدرية ، و « توعدون » من الوعد كما يؤيدّه قوله : « وإن الدين لواقع » الشامل لمطلق الجزاء ، وقيل : من الإبعاد كما يؤيدّه قوله : « فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد » ق : ٤٥ .

و عدّ الوعد صادقاً من المجاز في النسبة كما في قوله : « في عيشة راضية » الحاقة : ٢١ أو الصادق بمعنى ذو صدق كما قيل بمثله في قوله : « في عيشة راضية » والدين الجزاء . وكيف كان فقوله : « إن ما توعدون لصادق » جواب القسم ، وقوله : « وإن »

الدين لواقع « معطوف عليه بمنزلة التفسير ، والمعنى أقسم بكذا وكذا أن الذي توعده - وهو الذي يعدهم القرآن أو النبي ﷺ بما أنزل إليه - من يوم البعث وأن الله سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً لصادق ، وإن الجزاء لواقع .

قوله تعالى : « والسماء ذات الحجب » الحجب بمعنى الحسن والزينة ، وبمعنى الخلق المستوي ، ويأتي جمعاً لحبيكة أو حباك بمعنى الطريقة كالطرائق التي تظهر على الماء إذا تثنى و تكسّر من مرور الرياح عليه .

والمعنى على الأول : أقسم بالسماء ذات الحسن والزينة نظير قوله تعالى : « إننا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب » الصافات : ٦ ، وعلى الثاني : أقسم بالسماء ذات الخلق المستوي نظير قوله : « والسماء بنيناها بأيدينا » الآية ٤٧ من السورة وعلى الثالث أقسم بالسماء ذات الطرائق نظير قوله : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » المؤمنون : ١٧ . ولعل المعنى الثالث أظهر لمناسبته لجواب القسم الذي هو اختلاف الناس وتشتت طرائقهم كما أن الأقسام السابقة : « والذاريات ذرواً » الخ كانت مشتركة في معنى الجري والسير مناسبة لجوابها : « إنتما توعدون » الخ المتضمن لمعنى الرجوع إلى الله والسير إليه .

قوله تعالى : « إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك » القول المختلف ما يتناقض و يدفع بعضه بعضاً و حيث إن الكلام في إثبات صدق القرآن أو الدعوة أو النبي ﷺ فيما وعدهم من أمر البعث والجزاء فالمراد بالقول المختلف - على الأقرب - قولهم المختلف في أمر القرآن لغرض إنكار ما يشبهه فتارة يقولون : إنه سحر والجائي به ساحر ، و تارة يقولون : زجر والجائي به مجنون ، و تارة يقولون : إلقاء شياطين الجن والجائي به كاهن ، و تارة يقولون : شعر والجائي به شاعر ، و تارة إنه افتراء ، و تارة يقولون إنتما يعلمه بشر و تارة يقولون : أساطير الأولين اكتتبها .

و قوله : « يؤفك عنه من أفك » الإفك الصرف ، و ضمير « عنه » إلى الكتاب من حيث اشتماله على وعد البعث والجزاء ، والمعنى يصرف عن القرآن من صرف ، و

قيل : الضمير للنبي ﷺ والمعنى يُصرف عن الإيمان به من صرف ، وقد عرفت أن المعنى السابق أوفق للسياق وإن كان مآل المعنيين واحداً .

و حكى عن بعضهم أن ضمير « عنه » لما توعدون أولادهم أقسم تعالى أو لا بالذاريات وغيرها على أن البعث والجزاء حق . ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه فمنهم شك ومنهم جاحد ثم قال تعالى : يؤفك عن الأقرار بأمر البعث والجزاء من هو مأفوك . وهذا الوجه قريب من الوجه السابق .

و عن بعضهم أن الضمير لقول مختلف و « عن » للتعليل كما في قوله تعالى : وما نحن بتاركي آل إلهنا عن قولك ، هود : ٥٣ فيكون الجملة صفة لقول والمعنى إنكم لفي قول مختلف يؤفك بسببه من أفك ، وهو وجه حسن .

وقيل : الضمير في « إنكم » للمسلم والكافر جميعاً فيكون المراد بالقول المختلف قول المسلمين بوقوع البعث والجزاء وقول الكفار بعدم الوقوع . ولعل السياق لا يلائمه وقيل : بعض وجوه أخر رديئة لا جدوى في التعرض له .

قوله تعالى : « قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون يسألون أين يوم الدين » أصل الخرص القول بالظن والتخمين من غير علم ، و لكون القول بغير علم في خطر من الكذب يسمى الكذاب خراساً ، والأشبه أن يكون المراد بالخراسين في الآية القواسم من غير علم و دليل وهم الخائضون في أمر البعث والجزاء المنكرون له بغير علم .

و في قوله : « قتل الخراصون » دعاء عليهم بالقتل وهو كناية عن نوع من الطرد والحرمان من الفلاح وإليه يؤل قول من فسره باللعن .

و قوله : « الذين هم في غمرة ساهون » الغمرة - كما ذكر الراغب - معظم الماء الساتر لمقرها ، وجعل مثلاً للجهالة التي تغمر صاحبها ، والمراد بالساهو - كما قيل - مطلق الغفلة .

و معنى الآية وهي تصف الخراسين : الذين هم في جهالة أحاطت بهم غافلون عن حقيقة ما أخبروا به .

و قوله : « يسألون أيّان يوم الدين » ضمير الجمع للخراصين قول قالوه على طريق الاستعجال استهزاء كقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » يس : ٤٨ .
والسؤال بأيّان - الموضوعه للسؤال عن زمان مدخولها - عن يوم الدين و هو ظاهر في الزمان إنّما هو بعناية أنّ يوم الدين لكونه موعوداً ملحق بالزمانيات فيسأل عنه كما يسأل عن الزمانيات بأيّان ومتى كما يقال : متى يوم العيد لكونه ذاشاناً ملحقاً لذلك بالزمانيات كذا قيل .

ويمكن أن يكون من التوسّع في معنى الظرفيّة بأن يعدّ أوصاف الظرف الخاصّة به ظرفاً توسّعاً فيكون السؤال عن زمان الزمان سؤالاً عن أنّه بعد أيّ زمان أو قبل أيّ زمان ؟ كما يقال : متى يوم العيد ؟ فيجاب بأنّه بعد عشرة أيّام مثلاً أو قبل يوم كذا ، و هو توسّع جار في العرف غير مختصّ بكلام العرب ، و في القرآن منه شيء كثير .

قوله تعالى : « يوم هم على النار يفتنون » ضمير الجمع للخراصين ، والفتن في الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثمّ استعمل في مطلق الإحراق والتعذيب ، والظرف متعلق بفعل محذوف أو مبتدء ، والآية جواب عن سؤالهم عدل فيه عن بيان وقت يوم الدين إلى بيان صفته والإشارة إلى حالهم فيه لما أنّ وقته من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله قال تعالى : « لا يجليها لوقتها إلا هو » .

و تقدير الآية و معناها : يقع يوم الدين أو هو واقع يوم هم أي الخراصون في النار يعدّون أو يحرقون .

قوله تعالى : « ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون » حكاية خطاب منه تعالى أو من الملكة بأمره للخراصين و هم يفتنون على النار يومئذ .

والمعنى يقال لهم ذوقوا العذاب الذي يخصّكم . هذا العذاب هو الذي كنتم تستعجلون به إذ تقولون استعجالاً و استهزاءً : أيّان يوم الدين .

قوله تعالى : « إنّ المتّقين في جنّات و عيون » بيان لحال المتّقين يوم الدين بعد وصف حال أولئك الخراصين .

و تنكير جنات و عيون للإشارة إلى عظم قدرها كأنها بحيث لا يقدر الواصفون على وصفها ، و قد ألحقت العيون بالجنات في ظرفيتها توسعاً .

قوله تعالى : « آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » أي قابلين ما أعطاهم ربهم الرؤف بهم راضين عنه و بما أعطاهم كما يفيدده خصوص التعبير بالأخذ والابتاء و نسبة الابتاء إلى ربهم .

و قوله : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » تعليل لما تقدمه أي إن حالهم تلك الحال لأنهم كانوا قبل ذلك أي في الدنيا ذوي إحسان في أعمالهم أي ذوي أعمال حسنة .
قوله تعالى : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » الآيات تفسير لإحسانهم ، و الهجوع النوم في الليل و قيل : النوم القليل .

و يمكن أن تكون : ما زائدة و « يهجعون » خبر كانوا ، و « قليلاً » ظرفاً متعلقاً به أي في زمان قليل أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي هجوعاً قليلاً « و من الليل » متعلقاً بقليل والمعنى كانوا ينامون في زمان قليل من الليل أو ينامون الليل نوماً قليلاً .
وأن تكون موصولة والضمير العائد إليها محذوفاً و « قليلاً » خبر كانوا والموصول فاعله والمعنى كانوا قليلاً من الليل الذي يهجعون فيه .

و أن تكون مصدرية والمصدر المسبوك منها و من مدخولها فاعلاً لقوله : « قليلاً » و هو خبر « كانوا » .

و على أي حال فالقليل من الليل إما مأخوذ بالقياس إلى مجموع زمان كل ليلة يفيد أنهم يهجعون كل ليلة زماناً قليلاً منها و يصلون أكثرها ، و إما مأخوذ بالقياس إلى مجموع الليالي يفيد أنهم يهجعون في قليل من الليالي و يقومون للصلاة في أكثرها أي لا يفوتهم صلاة الليل إلا في قليل من الليالي .

قوله تعالى : « و بالأسحارهم يستغفرون » أي يسألون الله المغفرة لذنوبهم ، و قيل : المراد بالاستغفار الصلاة و هو كما ترى .

قوله تعالى : « و في أموالهم حق للسائل و المحروم » الآيتان السابقتان تبيينان خاصة سيرتهم في جنب الله سبحانه و هي قيام الليل و الاستغفار بالأسحار و هذه الآية

تبيّن خاصّة سيرتهم في جنب الناس و هي إيتاء السائل و المحروم .
 و تخصيص حقّ السائل و المحروم بأنّه في أموالهم - مع أنّه لو ثبت فإنّما
 يثبت في كلّ مال - دليل على أنّ المراد أنّهم يرون بصفاء فطرتهم أنّ في أموالهم حقّاً
 لهما فيعملون بما يعملون نشرّاً للرحمة و إثارةً للحسنة .
 و السائل هو الذي يسأل العطيّة بإظهار الفاقة و المحروم هو الذي حرم الرزق
 فلم ينجح سعيه في طلبه و لا يسأل تعقفاً .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام في
 قوله تعالى : « و الذاريات ذرواً » فقال : إنّ ابن الكوا سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن
 « الذاريات ذرواً » قال : الريح ، و عن « فالحاملات و قرأ » فقال : هي السحاب ، و
 عن « فالجاريات يسرا » فقال : هي السفن ، و عن « فاطمستّ أمرا » فقال : الملائكة .
 أقول : و الحديث مروى من طرق أهل السنّة أيضاً كما في روح المعاني .
 و في الدرّ المنثور أخرج عبدالرزاق و الفاريابي و سعيد بن منصور و الحارث
 ابن أبي أسامة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن الأباري في المصاحف
 و الحاكم و صحّحه و البيهقي في شعب الإيمان من طرق عن عليّ بن أبي طالب في
 قوله : « و الذاريات ذرواً » قال : الرياح « فالحاملات و قرأ » قال : السحاب « فالجاريات
 يسرا » قال : السفن « فاطمستّ أمرا » قال : الملائكة .
 و في المجمع قال أبو جعفر و أبو عبد الله عليهما السلام : لا يجوز لأحد أن يقسم إلاّ بالله
 تعالى ، و الله يقسم بما شاء من خلقه .
 و في الدرّ المنثور أخرج ابن منيع عن عليّ بن أبي طالب أنّه سئل عن قوله :
 « و السماء ذات الجبك » قال : ذات الخلق الحسن .
 أقول : و روى مثله في المجمع و لفظه : وقيل : ذات الحسن و الزينة عن عليّ

عليه السلام ، وفي جوامع الجامع و لفظه : و عن علي عليه السلام حسنها وزينتها .
و في بعض الأخبار في قوله تعالى : « إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك »
تطبيقه على الولاية .

و في المجمع في قوله تعالى : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » و قيل معناه :
كانوا أقل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها و هو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام .
و فيه في قوله تعالى : « و في الأسحارهم يستغفرون » و قال أبو عبدالله عليه السلام :
كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مرة في السحر .

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله :
« إن آخر الليل في التهجد أحب إلي من أوله لأن الله يقول : « و بالأسحارهم
يستغفرون » .

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله : « و بالأسحارهم
يستغفرون » قال : يصلون .

اقول : لعل تفسير الاستغفار بالصلاة من جهة اشتمال الوتر عليه كإرادة الصلاة
من القرآن في قوله : « و قرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » أسرى : ٧٨ .
و في تفسير القمي في قوله تعالى : « و في أموالهم حق للسائل والمحروم » قال :
السائل الذي يسأل ، والمحروم الذي قد منع كده .

و في التهذيب باسناده عن صفوان الجمال عن أبي عبدالله عليه السلام في الآية قال :
المحروم المحارف الذي قد حرم كده في الشراء والبيع .

قال : و في رواية أخرى عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليه السلام قال : المحروم الرجل
ليس بعقله بأس ولا يبسط له في الرزق وهو محارف .



وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)
 وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ
 لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ
 الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذِ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ
 مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ
 قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشْرُوهُ
 بَغْلَامٌ عَلِيمٌ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
 عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ
 فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ
 مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
 لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا
 فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) وَفِي مُوسَى إِذِ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ
 مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ
 وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذِ أَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ
كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا
مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ
فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠)
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى عدّة من آيات الله الدالّة على وحدانيّته في الربوبية ورجوع
أمر التدبير في الأرض والسماء والناس وأرزاقهم إليه ، ولازمه إمكان نزول الدين
الإلهي من طريق الرسالة بل وجوبه ، ولازمه صدق الدعوة النبوية فيما تضمنته من
وعد البعث والجزاء وأنّ ما يوعدون لصادق وأنّ الدين لواقع ، وقد مرّت إشارة إلى
خصوصية سلوك السورة في احتجاجها في البيان السابق .

قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين » الاستنتاج الآتي في آخر هذه
الآيات في قوله : « ففروا إلى الله - إلى أن قال - ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر »
الآية يشهد على أنّ سوق هذه الآيات والدلائل لإثبات وحدانيّته تعالى في الربوبية
لا لإثبات أصل وجوده أو انتهاء الخلق إليه ونحو ذلك .

و في الآية إشارة إلى ما تضمنته الأرض من عجائب الآيات الدالة على وحدة التدبير القائمة بوحداية مدبره من بر وبحر و جبال و تلال و عيون و أنهار و معادن و منافعها المتصلة بعضها ببعض الملائمة بعضها لبعض ينتفع بهاماعليها من النبات والحيوان في نظام واحد مستمر من غير اتفاق و صدفة ، لائح عليها آثار القدرة والعلم والحكمة دال على أن خلقها و تدبير أمرها ينتهي إلى خالق مدبر قادر عليم حكيم .
فأي جانب قصد من جوانبها وأية وجهة ولت من جهات التدبير العام الجاري فيها كانت آية بيينة و برهاناً ساطعاً على وحداية ربها لا شريك له ينجلي فيه الحق لأهل اليقين ففيها آيات للموقنين .

قوله تعالى : « و في أنفسكم أفلا تبصرون » معطوف على قوله : « في الأرض » أي و في أنفسكم آيات ظاهرة لمن أبصر إليها و ركز النظر فيها أفلا تبصرون .
والآيات التي في النفوس منها ماهي في تركيب الأبدان من أعضائها و أعضاء أعضائها حتى ينتهي إلى البسائط و مالها من عجائب الأفعال والآثار المتحددة في عين تكثرها المدبرة جميعاً لمدبر واحد ، و ما يعرضها من مختلف الأحوال كالجنينية والطفولية والرهاق والشباب والشيب .

و منها ماهي من حيث تعلق النفوس أعني الأرواح بها كالحواس من البصر والسمع والذوق والشم واللمس التي هي الطرق الأولية لاطلاع النفوس على الخارج لتميز بذلك الخير من الشر والنافع من الضار لتسعى إلى ما فيه كمالها و تهرب مما لا يلائمها ، و في كل منها نظام وسيع جار فيه منفصل بذاته عن غيره كالبصر لاخبر عنده عما يعمله السمع بنظامه الجاري فيه و هكذا ، والجميع مع هذا الانفصال والتقطع مؤتلفة تعمل تحت تدبير مدبر واحد هو النفس المدبرة والله من ورائهم محيط .

و من هذا القبيل سائر القوى المنبعثة عن النفوس في الأبدان كالقوة الغضبية والقوة الشهوية و مالها من اللواحق والفروع فانها على ما للواحد منها بالنسبة إلى غيره من البيئونة و انفصال النظام الجاري فيه عن غيره واقعة تحت تدبير مدبر واحد تتعاقد جميع شعبها و تأتلف لخدمته .

و نظام التدبير الذي لكل من هذه المدبّرات إنّما وجد له حينما وجد وأول ما ظهر من غير فصل فليس ممّا عملت فيه خيرته وأوجده هو لنفسه عن فكر وروية أو غيره فنظام تدبيره كمنفسه من صانع صنعه و ألزمه نظامه بتدبيره .

ومنها الآيات الروحانية الواقعة في عالم النفوس الظاهرة لمن رجع إليها وراقب الله سبحانه فيها من آيات الله التي لا يسعها وصف الواصفين وينفتح بها باب اليقين وتدرج المتطلّع عليها في زمرة الموقنين فيرى ملكوت السماوات والأرض كما قال تعالى : « و كذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض و ليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ .

قوله تعالى : « و في السماء رزقكم و ما توعدون » قيل : المراد بالسماء جهة العلو فإنّ كل ما علاك و أظلك فهو سماء لغة ، والمراد بالرزق المطر الذي ينزل له الله على الأرض فيخرج به أنواع ما يقتاتونه و يلبسونه و ينتفعون به و قد قال تعالى : « و ما أنزل الله من السماء من رزق فأحياه الأرض بعد موتها » الجاثية : ٥ فسمى المطر رزقا فالمراد بالرزق سببه أو بتقدير مضاف أي سبب رزقكم .

وقيل : المراد أسباب الرزق السماوية من الشمس والقمر والكواكب واختلاف المطالع والمغارب الراسمة للفصول الأربعة و توالي الليل والنهار و هي جميعا أسباب الرزق فالكلام على تقدير مضاف أي أسباب رزقكم أو فيه تجوز بدعوى أنّ وجود الأسباب فيها وجود ذوات الأسباب .

وقيل : المراد بكون الرزق فيها كون تقديره فيها ، أو أنّ الأرزاق مكتوبة في اللوح المحفوظ فيها .

و يمكن أن يكون المراد به عالم الغيب فإنّ الأشياء ومنها الأرزاق تنزل من عند الله سبحانه و قد صرح بذلك في أشياء كقوله تعالى : « و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ و قوله : « و أنزلنا الحديد فيه بأس شديد » الحديد : ٢١ ، و قوله على نحو العموم : « و إن من شيء إلّا عندنا خزائنه و ما ننزله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢٥ والمراد بالرزق كل ما ينتفع به الإنسان في بقائه من مأكّل و مشرب و ملبس و مسكن و ولد و علم و قوّة و غير ذلك .

وقوله : « وما توعدون » عطف على « رزقكم » الظاهر أن المراد به الجنة لقوله تعالى : « عندها جنة المأوى » النجم : ١٥ ، و قول بعضهم : إن المراد به الجنة والنار أو الثواب والعقاب لا يلائمه قوله تعالى : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » الأعراف : ٤٠ .

نعم تكرر في القرآن نسبة نزول العذاب الدنيوي إلى السماء كقوله : « فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء » البقرة : ٥٩ و غير ذلك .

و عن بعضهم أن قوله : « وما توعدون » مبتدأ خبره قوله : « فرب السماء والأرض إنه لحق » والواو للاستئناف وهو معنى بعيد عن الفهم .

قوله تعالى : « فرب السماء والأرض إنه لحق » مثل ما أنكم تنطقون » النطق التكلم وضمير « إنه » راجع إلى ما ذكر من كون الرزق وما توعدون في السماء والحق هو الثابت المحتوم في القضاء الإلهي دون أن يكون أمراً تبعياً أو اتفاقياً . والمعنى أقسم برب السماء والأرض إن ما ذكرناه من كون رزقكم وما توعدونه من الجنة - وهو أيضاً من الرزق فقد تكرر في القرآن تسمية الجنة رزقاً كقوله : « لهم مغفرة ورزق كريم » الأفعال : ٧٤ وغير ذلك - في السماء لثابت مقضي مثل نطقكم وتكلمكم الذي هو حق لا ترتابون فيه .

وجوز بعضهم أن يكون ضمير « إنه » راجعاً إلى « ما توعدون » فقط أو إلى الرزق فقط أو إلى النبي ﷺ أو إلى القرآن أو إلى الدين في قوله : « وإن الدين لواقع » أو إلى اليوم في قوله : « أيتان يوم الدين » أو إلى جميع ما تقدم من أول السورة إلى هنا ، ولعل الأوجه رجوعه إلى ما ذكر في قوله : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » كما قد منا .

﴿ كلام في تكافؤ الرزق والمرزوق ﴾

الرزق بمعنى ما يرتزق به هو ما يمدّ شيئاً آخر في بقائه بانضمامه إليه أولحوقه به بأي معنى كان كالأغذاء الذي يمدّ الإنسان في حياته وبقائه بصيرورته جزءاً من بدنه وكالزوج يمدّ زوجته في إرضاء غريزته وبقاء نسله وعلى هذا القياس .

ومن البين أن الأشياء المادية يرتزق بعضها ببعض كالإنسان بالحيوان والنبات مثلاً فما يلحق المرزوق في بقائه من أطوار الكينونة ومختلف الأحوال كما أنها أطوار من الكون لاحقة به منسوبة إليه كذلك هي بعينها أطوار من الكون لاحقة بالرزق منسوبة إليه وإن كان ربّما تغيّرت الأسماء فكما أن الإنسان يصير بالتغذية ذا أجزاء جديدة في بدنه كذلك الغذاء يصير جزءاً جديداً من بدنه اسمه كذا .

ومن البين أيضاً أن القضاء محيط بالكون مستوعب للأشياء يتعيّن به ما يجري على كل شيء في نفسه وأطوار وجوده ، وبعبارة أخرى سلسلة الحوادث بمالها من النظام الجاري مؤلفة من علل تامّة ومعلولات ضرورية .

ومن هنا يظهر أن الرزق والمرزوق متلازمان لا يتفارقان فلامعنى لموجود يطرء عليه طور جديد في وجوده بانضمام شيء أولحوقه إلا مع وجود الشيء المنضم أو اللاحق المشترك معه في طوره ذلك فلا معنى لمرزوق مستمدّ في بقائه ولا رزق له ، ولا معنى لرزق متحقّق ولا مرزوق له كما لا معنى لزيادته الرزق على ما يحتاج إليه المرزوق ، وكذا لبقاء مرزوق من غير رزق فالرزق داخل في القضاء الإلهي دخولا أوّلياً لا بالعرض ولا بالتبع وهو المعنى بكون الرزق حقاً .



قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » إشارة إلى قصة دخول الملائكة المكرمين على إبراهيم عليه السلام وتبشيرهم له ولزوجه ثم إهلاكهم قوم لوط ، وفيها آية على وحدانية الربوبية كما تقدّمت الإشارة إليه .

وفي قوله : « هل أتاك حديث » تفخيم لأمر القصة و « المكرمين » - وهم الملائكة الداخلون على إبراهيم - صفة « ضيف » وإفراده لكونه في الأصل مصدراً لا يثنى ولا يجمع .

قوله تعالى : « إن دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون » الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة : « حديث » و « سلاماً » مقول القول والعامل فيه محذوف أي قالوا : نسلم عليك سلاماً .

وقوله : « قال سلام » قول ومقول و « سلام » مبتدأ محذوف الخبر والتقدير سلام عليكم ، وفي إتيانه بالجواب جملة اسمية دالة على الثبوت تحية منه ﷺ بما هو أحسن من تحيتهم بقولهم : سلاماً فإنه جملة فعلية دالة على الحدث .

وقوله : « قوم منكرون » الظاهر أنه حكاية قول إبراهيم في نفسه ، ومعناه أنه لما رآهم استنكرهم وحدث نفسه أن هؤلاء قوم منكرون ، ولا ينافي ذلك ما وقع في قوله تعالى : « فلما رأى أيديهم لاتصل إليه تكرههم » هود : ٧٠ حيث ذكر تكره بعد تقرب العجل الحنيد إليهم فإن ما في هذه السورة حديث نفسه به وما في سورة هود ظهوره في وجهه بحيث يشاهد منه ذلك .

وهذا المعنى أوجه من قول جمع من المفسرين : إنه حكاية قوله ﷺ لهم و التقدير أنتم قوم منكرون .

قوله تعالى : « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » الروغ الذهاب على سبيل الاحتيال على ما قاله الراغب و قال غيره : هو الذهاب إلى الشيء في خفية ، والمعنى الأوّل يرجع إلى الثاني .

و المراد بالعجل السمين المشوي منه بدليل قوله : « فقرّ به إليهم » أو الفاء فصيحة والتقدير فجاء بعجل سمين فذبحه وشواه وقرّ به إليهم .

قوله تعالى : « فقرّ به إليهم فقال ألا تأكلون » عرض الأكل على الملائكة وهو يحسبهم بشراً .

قوله تعالى : « فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف الخ » الفاء فصيحة والتقدير

فلم يمدوا إليه أيديهم فلما رأى ذلك نكروهم وأوجس منهم خيفة ، والإيجاس الإحساس في الضمير والخيفة بناء نوع من الخوف أي أضمر منهم في نفسه نوعاً من الخوف .

وقوله : « قالوا لا تخف » جيء بالفصل لا بالعطف لأنه في معنى جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فما ذا كان بعد إيجاس الخيفة ف قيل : قالوا : لا تخف و بشره بغلام عليم فبدلوا خوفه أمانة و سرورا و المراد بغلام عليم إسماعيل أو إسحاق وقد تقدم الخلاف فيه .

قوله تعالى : « فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » في المجمع الصرة شدة الصياح وهو من صرير الباب و يقال للجماعة صرة أيضاً . قال : والصك الضرب باعتماد شديد انتهى .

و المعنى فأقبلت امرأة إبراهيم عليه السلام - لما سمعت البشارة - في ضجّة و صياح فلطمت وجهها و قالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ أو المعنى هل عجوز عقيم تلد غلاماً ؟

وقيل : المراد بالصرة الجماعة و أنها جاءت إليهم في جماعة فصكت وجهها و قالت ما قالت ، والمعنى الأوّل أوفق للسياق .

قوله تعالى : « قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم » الإشارة بذلك إلى ما بشرها به بما لها ولزوجها من حاضر الوضع هي عجوز عقيم وبعلمها شيخ مسن الكبر فربها حكيم لا يريد ما يريد إلا بحكمة ، عليم لا يخفى عليه وجه الأمر .

قوله تعالى : « قال فما خطبكم أيها المرسلون - إلى قوله - للمسرّفين » الخطب الأمر الخطير الهام ، والحجارة من الطين الطين المتحجر ، والتسويم تعليم الشيء بمعنى جعله ذا علامة من السومة بمعنى العلامة .

والمعنى « قال » إبراهيم عليه السلام « فما خطبكم » والشأن الخطير الذي لكم « أيها المرسلون » من الملائكة « قالوا » أي الملائكة لإبراهيم « إننا أرسلنا إلى قوم مجرمين » وعم قوم لوط « لنرسل عليهم حجارة من طين » طيناً متحجراً سمّاه الله سبحانه سجّيلاً « مسومة »

معلمة « عند ربك للمسرفين » تختص بهم لإهلاكهم ، والظاهر أن اللام في المسرفين للعهد .

قوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين - إلى قوله - العذاب الأليم »
الفاء فصيحة وقد أوجز بحذف ما في القصة من ذهاب الملائكة إلى لوط وورودهم عليه وهم القوم بهم حتى إذا أخرجوا آل لوط من القرية ، وقد فصلت القصة في غير موضع من كلامه تعالى .

فقوله : « فأخرجنا » الخ بيان إهلاكهم بمقدّمته ، وضمير « فيها » للقرية المفهومة من السياق ، و « بيت من المسلمين » بيت لوط ، وقوله : « وتركنا فيها آية » إشارة إلى إهلاكهم وجعل أرضهم عاليها سافلها ، والمراد بالترك الإبقاء كناية وقد بينت هذه الخصوصيات في سائر كلامه تعالى .

والمعنى : فلما ذهبوا إلى لوط وكان من أمرهم ما كان « أخرجنا من كان فيها » في القرية « من المؤمنين فما وجدنا غير بيت » واحد « من المسلمين » وهم آل لوط « و تركنا فيها » في أرضهم بقلبها وإهلاكهم « آية » دالة على ربوبيتنا وبطلان الشركاء « للذين يخافون العذاب الأليم » من الناس .

قوله تعالى : « وفي موسى إن أرسلناه إلى فرعون بسُلطان مبین » عطف على قوله : « و تركنا فيها آية » والتقدير و في موسى آية ، والمراد بسُلطان مبین الحجج الباهرة التي كانت معه من الآيات المعجزة .

قوله تعالى : « فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون » التوكلي الإعراض والباء في قوله بركنه للمصاحبة ، والمراد بركنه جنوده كما يؤيده الآية التالية ، والمعنى أعرض مع جنوده ، وقيل : الباء للتعدية والمعنى جعل ركنه متولّي معرضين .

وقوله : « وقال ساحر أو مجنون » أي قال تارة هو مجنون كقوله : « إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون » الشعراء : ٢٧ ، وقال أخرى : هو ساحر كقوله : « إن هذا لساحر عليم » الشعراء : ٣٤ .

قوله تعالى : « فأخذناه و جنوده فنبدناهم في اليم » و هو مليم « النبذ طرح الشيء

من غير أن يعتد به ، و اليم البحر ، و المليم الآتي بما يلام عليه من الأَمَ بمعنى أتى بما يلام عليه كأغرب إذا أتى بأمر غريب .

و الملعنى فأخذناه و جنوده و هم ركنه و طرحناهم في البحر و الحال أنه أتى من الكفر و الجحود و الطغيان بما يلام عليه ، و إنما خص فرعون بالملامة مع أن الجميع يشاركونه فيها لأنه إمامهم الذي قادهم إلى الهلاك قال تعالى : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار » هود : ٩٨ .

و في الكلام من الإيماء إلى عظمة القدرة و هول الأخذ و هوان أمر فرعون و جنوده ما لا يخفى .

قوله تعالى : « و في عاد إن أرسلنا عليهم الريح العقيم » عطف على ما تقدمه أي و في عاد أيضا آية إن أرسلنا عليهم أي أطلقنا عليهم الريح العقيم .

و الريح العقيم هي الريح التي عقت و امتنعت من أن يأتي بفائدة مطلوبة من فوائد الرياح كتنشئة سحاب أو تلقيح شجر أو تذرية طعام أو نفع حيوان أو تصفية هواء كما قيل و إنما أثرها الإهلاك كما تشير إليه الآية التالية .

قوله تعالى : « ما نذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » « ما نذر » أي ما ترك ، و الرميم الشيء الهالك البالي كالعظم البالي السحيق ، و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « و في ثمود إن قيل لهم تمتعوا حتى حين - إلى قوله - منتصرين » عطف على ما تقدمه أي و في ثمود أيضا آية إن قيل لهم : تمتعوا حتى حين ، و القائل نبيهم صالح عليه السلام إن قال لهم : « تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب » هود : ٦٥ قال لهم ذلك لما عقروا الناقة فأمهلهم ثلاثة أيام ليرجعوا فيها عن كفرهم وعتوتهم لكن لم ينفعهم ذلك و حق عليهم كلمة العذاب .

و قوله : « فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة و هم ينظرون » العتو - على ما ذكره الراغب - النبوة عن الطاعة فينطبق على التمرد ، و المراد بهذا العتو العتو عن الأمر و الرجوع إلى الله أيام المهلة فلا يستشكل بأن عتوتهم عن أمر الله كان مقدماً على تمتعهم - كما يظهر من تفصيل القصة - و الآية تدل على العكس .

و قوله : « فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » هذا لا ينافي ما في موضع آخر من ذكر الصيحة بدل الصاعقة كقوله : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » هود : ٦٧ لجواز تحققهما معافي عذابهم .

و قوله : « فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين » لا يبعد أن يكون « استطاعوا » مضمناً معنى تمكنوا ، و « من قيام » مفعوله أي ما تمكنوا من قيام من مجلسهم ليفرّوا من عذاب الله و هو كناية عن أنهم لم يمهلوا حتى بمقدار أن يقوموا من مجلسهم .

و قوله : « وما كانوا منتصرين » عطف على « ما استطاعوا » أي ما كانوا منتصرين بنصرة غيرهم ليدفعوا بها العذاب عن أنفسهم ، ومحصل الجملة أنهم لم يقدرُوا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم .

قوله تعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين » عطف على القصص السابقة ، و « قوم نوح » منصوب بفعل محذوف والتقدير وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود إنهم كانوا فاسقين عن أمر الله .

فهناك أمر ونهى كلف الناس بهما من قبل الله سبحانه وهو ربهم ورب كل شيء دعاهم إلى الدين الحق بلسان رسله فما جاء به الأنبياء عليهم السلام حق من عند الله ومما جاؤا به الوعد بالبعث والجزاء .

قوله تعالى : « والسماء بئيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون » رجوع إلى السياق السابق في قوله : « وفي الأرض آيات للموقنين » الخ ، والأيد القدرة والنعمة ، وعلى كل من المعنيين يتعين لقوله : « وإنّا لموسعون » ما يناسبه من المعنى .

فالمعنى على الأوّل : والسماء بئيناها بقدرة لا يوصف قدرها وإنّا لذو واسعة في القدرة لا يعجزها شيء ، وعلى الثاني : والسماء بئيناها مقارنا بناؤها لنعمة لا تقدر بقدر وإنّا لذو واسعة وغنى لا تنفذ خزائنا بالإعطاء والرزق نرزق من السماء من نشاء فنوسع الرزق كيف نشاء .

ومن المحتمل أن يكون « موسعون » من أوسع في النفقة أي كثرها فيكون

المراد توسعة خلق السماء كما تميل إليه الأبحاث الرياضية اليوم .

قوله تعالى : « والأرض فرشناها فنعم الماهدون » الفرش البسط وكذا المهيد أي والأرض بسطانها وسطحناها لتستقر^{وا} عليها وتسكنوها فنعم الباسطون نحن ، وهذا الفرش والبسط لا ينافي كريمة الأرض .

قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » الزوجان المتقابلان يتم أحدهما بالآخر : فاعل ومنفعل كالذكر والأنثى ، وقيل : المراد مطلق المتقابلات كالذكر والأنثى والسماء والأرض والليل والنهار والبر والبحر والإنس والجن وقيل : الذكر والأنثى .

وقوله : « لعلكم تذكرون » أي تتذكرون أن خالقها منزّه عن الزوج والشريك واحد موحد .

قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله إنني لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنني لكم منه نذير مبين » في الآيتين تفرّيع على ما تقدّم من الحجج على وحدانيته في الربوبية والألوهية ، وفيها قصص عدّة من الأمم الماضية كفروا بالله ورسله فأنتهى بهم ذلك إلى عذاب الاستئصال .

فالمراد بالفرار إلى الله الانقطاع إليه من الكفر والعقاب الذي يستتبعه ، بالإيمان به تعالى وحده واتخاذهم إلهاً معبوداً لا شريك له .

وقوله : « ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر » كالتفسير لقوله : « ففرّوا إلى الله » أي المراد بالإيمان به الإيمان به وحده لا شريك له في الألوهية والمعبودية .

وقد كرّر قوله : « إنني لكم منه نذير مبين » لتأكيد الإنذار ، والآيتان محكيستان عن لسان النبي ﷺ .



﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمى في قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » قال : خلقك سميعاً بصيراً ، تغضب مرة وترضى مرة ، وتجوع مرة وتشبع مرة ، وذلك كله من آيات الله .

اقول : ونسبه في المجمع إلى الصادق عليه السلام .

وفي التوحيد بإسناده إلى هشام بن سالم قال : سئل أبو عبدالله عليه السلام فقيل له : بما عرفت ربك ؟ قال : بفسخ العزم ونقض الهمم عزمت ففسخ عزمي ، وهممت فنقض همتي .

اقول : ورواه في الخصال عنه عن أبيه عن جدّه عن أمير المؤمنين عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج الخرائطي في مساوي الأَخلاق عن علي بن أبي طالب « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » قال : سبيل الغائط والبول .

اقول : الرواية كالروايتين السابقتين مسوقة لبيان بعض المصاديق من طرق المعرفة .

وفيه أخرج ابن النور والديلمي عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » قال : المطر .

اقول : وروى نحوه من القمى في تفسيره رسالاً ومضمراً .

وفي إرشاد المفيد عن علي عليه السلام في حديث : اطلبوا الرزق فإنه مضمون لطالبه .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي البخري قال : حدثني جعفر بن محمد عن أبيه

عن جدّه عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : يا علي إن اليقين أن لا ترضى أحداً على سخط الله ، ولا تحمدن أحداً على ما آتاك الله ، ولا تدمن أحداً على ما لم يؤتك الله فإن الرزق لا يجره حرص حريص ، ولا يصرفه كره كاره .

الحديث . .

وفي المجمع « فأقبلت امرأته في صرّة » وقيل : في جماعة . عن الصادق عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج الفارياي " وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال :
الريح العقيم النكباء .

وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن مسلم قال : سألت أبا جعفر عليه السلام فقلت : قول
الله عز وجل « يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » ؟ فقال : اليد في كلام
العرب القوة والنعمة قال الله : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد » وقال : « والسماء بنيناها
بأيدي أي بقوة وقال : « وأيديهم بروح منه » أي بقوة ويقال : لفلان عندي يد بيضاء
أي نعمة .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام خطبة طويلة وفيها : بتشعيره
المشاعر عرف أن لا مشعر له ، وبتهجير الجواهر عرف أن لا جوهر له ، وبمضادته
بين الأشياء عرف أن لا ضد له ، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له ، ضد
النور بالظلمة ، واليس بالبلل ، والخشن باللين ، والصد بالحرور ، مؤكفاً بين
متعادياتها ، مفرقا بين متدانياتها ، دالة بتفريقها على مفرقتها ، وبتأليفها على مؤلفها
وذلك قوله : « ومن كل شيء جعلنا زوجين لعلكم تذكرون » .

ففرق بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد له ، شاهدة بغرائزها أن لا
غريزة لمغريزها ، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقتها ، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن
لا حجاب بينه وبين خلقه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » وقيل : معناه حجّوا . عن
الصادق عليه السلام .

اقول : ورواه في الكافي وفي المعاني بالإسناد عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام
ولعله من التطبيق .



كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ
 مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ
 فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَ ذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)
 وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ
 رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يَبْعُدُونِي (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ
 الْمَتِينِ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا
 يَسْتَعِجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) .

﴿ بيان ﴾

مختتم السورة و فيه إرجاع الكلام إلى ما في مفتحتها من إنكارهم للبعث الموعود
 و مقابلتهم الرسالة بقول مختلف ثم إيعادهم باليوم الموعود .

قوله تعالى : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو
 مجنون » أي الأمر كذلك فقوله : « كذلك » كالتلخيص لما تقدم من إنكارهم واختلافهم
 في القول .

و قوله : « ما أتى الذين من قبلهم » الخ بيان للمشبه .

قوله تعالى : « أتواصوا به بل هم قوم طاغون » التواصي إيحاء القوم بعضهم بعضاً
 بأمر ، و ضمير « به » للقول ، والاستفهام للتعجيب ، والمعنى هل وصى بعض هذه الأمم
 بعضاً - هل السابق وصى اللاحق ؟ - على هذا القول ؟ لا بل هم قوم طاغون يدعوهم

إلى هذا القول طغيانهم .

قوله تعالى : « فتولّ عنهم فما أنت بملوم » تفرّيع على طغيانهم و استكبارهم و إصرارهم على العناد واللجاج فالمعنى فإذا كان كذلك ولم يجيبوك إلا بمثل قولهم ساحر أو مجنون ولم يزدهم دعوتك إلا عناداً فأعرض عنهم ولا تجادلهم على الحقّ فما أنت بملوم فقد أريت المحجّة و أتممت الحجّة .

قوله تعالى : « وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين » تفرّيع على الأمر بالتولّي عنهم فهو أمر بالتذكير بعد النهي عن الجدل معهم ، و المعنى و استمرّ على التذكير و العظة فذكّر كما كنت تذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين بخلاف الاحتجاج و الجدل مع أولئك الطاغين فإنّه لا ينفعهم شيئاً ولا يزيدهم إلا طغياناً و كفراً .

قوله تعالى : « و ما خلقت الجنّ و الإنس إلا ليعبدون » فيه التفات من سياق التكلّم بالغير إلى التكلّم وحده لأنّ الأفعال المذكورة سابقا المنسوبة إليه تعالى كالخلق و إرسال الرسل و إنزال العذاب كلّ ذلك ممّا يقبل توسط الوسائط كالملائكة و سائر الأسباب بخلاف الغرض من الخلق و الإيجاد فإنّه أمر يختصّ بالله سبحانه لا يشاركه فيه أحد

و قوله : « إلا ليعبدون » استثناء من النفي لاريب في ظهوره في أنّ للخلقة غرضاً و أنّ الغرض العبادة بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبوداً فقد قال : ليعبدون و لم يقل : لأعبد أولاً كون معبوداً لهم .

على أنّ الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض و يرتفع به حاجته والله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتّى يستكمل به و يرتفع به حاجته ، و من جهة أخرى الفعل الذي لا ينتهي إلى غرض لفاعله لغو سفهيه و يستنتج منه أنّ له سبحانه في فعله غرضاً هو ذاته لا غرض خارج منه ، و أنّ لفعله غرضاً يعود إلى نفس الفعل (١) و هو كمال للفعل لا لفاعله ، فالعبادة غرض لخلقة الإنسان و كمال عائذ إليه هي و ما

(١) فالله تعالى خلق الإنسان ليثيبه و الثواب عائذ إلى الإنسان وهو المنفع به والله غني

عنه ، و اما غرضه تعالى فهو ذاته المتعالية و انما خلقه لانه الله عزاسمه . منه .

يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة وغير ذلك ، ولو كان للعبادة غرض كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضاً متوسطاً .

فان قلت : ما ذكرته من حمل اللام في « ليعبدون » على الغرض يعارضه قوله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » هود : ١١٩ ، وقوله : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس » الأعراف : ١٧٩ فإن ظاهر الآية الأولى كون الغرض من الخلق الاختلاف ، و ظاهر الثانية كون الغرض من خلق كثير من الجن والإنس دخول جهنم فلا محيص عن رفع اليد من حمل اللام على الغرض و حملها على الغاية .

قلت : أما الآية الأولى فالإشارة فيها إلى الرحمة دون الاختلاف ، و أما الآية الثانية فاللام فيها للغرض لكنّه غرض تبعي و بالقصد الثاني لا غرض أصلي و بالقصد الأوّل و قد تقدم إشباع الكلام في تفسير الآيتين .

فان قلت : لو كان اللام في « ليعبدون » للغرض كانت العبادة غرضه تعالى المراد من الخلق ، و من المحال أن يتخلف مراده تعالى عن إرادته لكن من المعلوم المشاهد عياناً أن كثيراً منهم لا يعبدونه تعالى و هذا نعم الدليل على أن اللام في الآية ليست للغرض أو أنها للغرض لكن المراد بالعبادة التكوينية كما في قوله : « و إن من شيء إلا يسبح بحمده » أسرى : ٤٤ .

أو أن المراد بخلقهم للعبادة خلقهم على وجه صالح لأن يعبدوا الله بجعلهم ذوي اختيار و عقل و استطاعة ، و تنزيل الصلاحية والاستعداد منزلة الفعلية مجاز شائع كما يقال : خلق البقر للحرث ، والدار للسكنى .

قلت : الإشكال مبنى على كون اللام في الجن والإنس للاستغراق فيكون تخلف الغرض في بعض الأفراد منافياً له وتختلفاً من الغرض ، والظاهر أن اللام فيهما للجنس دون الاستغراق فوجود العبادة في النوع في الجملة تحقق للغرض لا يضره تخلفه في بعض الأفراد نعم لو ارتفعت العبادة عن جميع الأفراد كان ذلك بطلاً للغرض ، والله سبحانه في النوع غرض كما أن له في الفرد غرضاً .

وأما حمل العبادة على العبادة التكوينية فيضعفه أنها شأن عامة المخلوقات لا موجب لتخصيصه بالجن والإنس مضافاً إلى أن السياق سياق توبيخ الكفار على ترك عبادة الله التشريعية وتهديدهم على إنكار البعث والحساب والجزاء وذلك متعلق بالعبادة التشريعية دون التكوينية .

وأما حمل العبادة على الصلوح والاستعداد بأن يكون الغرض من خلق الجن والإنس كونهما بحيث يصلحان للعبادة ويستعدان لها أو لتعلق الأمر والنهي العباديين فيضعفه أن من البين أن الصلوح والاستعداد إنما يتعلق به الطلب لأجل الفعلية التي تتعلق به الصلوح والاستعداد فلو كان الغرض المطلوب من خلقهما كونهما بحيث يصلحان للعبادة أو لتعلق الأمر والنهي العباديين فقد تعلق الغرض أولاً بفعلية عبادتهما ثم بالصلوح والاستعداد لمكان المقدّمية .

ففي حمل العبادة على الصلوح والاستعداد اعتراف بكون الغرض من الخلق أولاً وبالذات نفس العبادة ثم الصلوح والاستعداد فيعود الإشكال لو كان هناك إشكال .

فالحق أن اللام في «الجن والإنس» للجنس دون الاستغراق، والمراد بالعبادة نفسها دون الصلوح والاستعداد، ولو كان المراد هو الصلوح والاستعداد للعبادة لكان ذلك غرضاً أدنى مطلوباً لأجل غرض أعلى هو العبادة كما أن نفس العبادة بمعنى ما يأتي به العبد من الأعمال بالجوارح من قيام وركوع وسجود ونحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المثلوث بين يدي رب العالمين بذلة العبودية وفقر المملوكية المحضة قبل العزة المطلقة والغنى المحض كما ربّما استفيد من قوله تعالى: « قل ما يعبؤكم ربّي لولا دعاؤكم » الفرقان: ٧٧ . حيث بدّل العبادة دعاءً .

فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلة والعبودية وتوجيه وجهه إلى مقام ربّه، وهذا هو مراد من فسّر العبادة بالمعرفة يعني المعرفة الحاصلة بالعبادة .

فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة وهي أن ينقطع العبد عن نفسه وعن كل شيء ويذكر ربّه .

هذا ما يعطيه التدبر في قوله تعالى: « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »

ولعلّ تقديم الجنّ على الإنس لسبق خلق الإنس قال تعالى : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » الحجر : ٢٧ ، والعبادة هي غرض الفعل أي كمال عائذ إليه لا إلى الفاعل على ما تقدّم .

ويظهر من القصر في الآية بالنفي والاستثناء أن لا عناية لله بمن لا يعبد كما يفيد أيضاً قوله : « قل ما يعبوبكم ربّي لولا دعاؤكم » .

قوله تعالى : « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » الإطعام إعطاء الطعام ليطعم . وكلّ قال تعالى : « والذي هو يطعمني ويسقين » الشعراء : ٧٩ ، وقال : « الذي أطعمهم من جوع » الإبلان : ٤ فيكون ذكر الإطعام بعد الرزق من قبيل ذكر الخاص بعد العام لتعلّق عناية خاصّة به وهي أن التغذي أوسع حوائج الإنسان وغيره وأخسها لكونه مسبوqاً بالجوع وملحقاً بالدفع .

وقيل : المراد بالرزق رزق العباد والمعنى ما أريد منهم أن يرزقوا عبادي الذين أرزقهم وما أريد أن يطعموني نفسي .

وقيل : المراد بالإطعام تقديم الطعام إليه كما يقدر العبد الطعام إلى سيّده والخادم إلى مخدومه فيكون المراد بالرزق تحصيل أصل الرزق وبالإطعام تقديم ما حصلوه والمعنى ما أريد منهم رزقاً يحصلونه لي فأرتزق به وما أريد منهم أن يقدروا عليّ ما أرتزق به وأطعمه .

قوله تعالى : « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » تعليل لقوله : « ما أريد منهم من رزق » الخ والالتفات في الآية من التكلم وحده إلى الغيبة لا إنهاء التعليل إلى اسم الجلالة الذي منه يبتدىء كل شيء وإليه يرجع كأنه قال : ما أريد منهم رزقاً لأنّي أنا الرزاق لأنّي أنا الله تبارك اسمه .

والتعبير بالرزاق - اسم مبالغة - و كان الظاهر أن يقال : إن الله هو الرزاق للإشارة إلى أنه تعالى إذا كان رازقاً وحده كان رزاقاً لكثرة من يرزقه فالآية نظير قوله : « وما أنا بظلام للعبيد » .

و ذوالقوة من أسمائه تعالى بمعنى القوي لكنّه أبلغ من القوي ، والمتين أيضاً

من أسمائه تعالى بمعنى القوي .

والتعبير بالأسماء الثلاثة للدلالة على انحصار الرزق فيه تعالى وأنه لا يأخذه ضعف في إيصال الرزق إلى المرتزقين على كثرتهم .

قوله تعالى : « فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون »
الذنوب النصيب ، والاستعجال طلب العجلة والحث عليها ، والآية متفرقة على قوله :
« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » بلازم معناه .

والمعنى فإن كان هؤلاء الظالمون لا يعبدون الله ولا عناية له بهم ولا سعادة من قبله تشملهم فإن لهم نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم من الأمم الماضية الهالكة فلا يطلبوا مني أن أعجل لهم العذاب ولا يقولوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وأيمان يوم الدين .

وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلم وحده وهو في الحقيقة رجوع من سياق الغيبة الذي في قوله : « إن الله هو الرزاق » الخ إلى التكلم وحده الذي في قوله : « وما خلقت » الخ لتفريع الكلام عليه .

قوله تعالى : « فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون » تفريع على قوله :
« فإن للذين ظلموا ذنوباً » الخ وتنبيه على أن هذا الذنوب محقق لهم يوم القيامة وإن أمكن أن يعجل لهم بعضه ، وهو يوم ليس لهم فيه إلا الويل والهالك وهو يومهم الموعود .

وفي تعديل قوله في الآية السابقة للذين ظلموا من قوله في هذه الآية : « للذين كفروا » تنبيه على أن المراد بالظلم ظلم الكفر .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع وروي بالإسناد عن مجاهد قال : خرج علي بن أبي طالب معتمداً مشتتلاً في قميصه فقال : لمّا نزلت « فتول عنهم فما أنت بملوم » لم يبق أحد منا إلا أيقن بالهلكة حين قيل للنبي : « فتول عنهم » فلمّا نزل « وذكّر فإن الذكرى تنفع

المؤمنين « طابت نفوسنا ، ومعناه عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم عن الكلبي .

أقول : ورواه في الدر المنثور و روى أيضاً ما في معناه عن ابن راهويه و ابن مردويه عنه عليه السلام .

وفي التوحيد بإسناده عن ابن أبي عمير قال : قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؟ فقال : إن الله عز وجل خلق الجن والإنس ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه وذلك قوله عز وجل : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » فيسر كلاً لما خلق له فويل لمن استحب العمى على الهدى .

وفي العلل بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال : خرج الحسين بن علي عليه السلام على أصحابه فقال : إن الله عز وجل ما خلق العباد إلا ليعرفوه ، فإذا عرفوه عبدوه ، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه .

وفيه بإسناده إلى أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » قال : خلقهم ليأمرهم بالعبادة .

أقول : وروى القمي في تفسيره مثله رسالاً ومضمراً ، وقد مر في تفسير الآية ما يتضح به معنى هذه الروايات ، وأن هناك أغراضاً مترتبة : التكليف والعبادة والمعرفة .

وفي تفسير العياشي عن يعقوب بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن قول الله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » قال : خلقهم للعبادة . قال : قلت : قوله : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » ولذا خلقهم ، فقال : نزلت هذه بعد ذلك .

أقول : أي نزلت « ولا يزالون » الخ بعد « وما خلقت » الخ يريد النسخ ، وفي تفسير القمي : وفي حديث آخر هي منسوخة بقوله : « ولا يزالون مختلفين » والمراد بالنسخ البيان ورفع الإبهام دون النسخ المصطلح ، وكثيراً ما ورد بهذا المعنى في كلامهم

عليهم السلام كما أشرنا إليه في تفسير قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » الآية البقرة : ١٠٦ .

والمراد أن الغرض الأعلى هو الرحمة الخاصة المترتبة على العبادة وهي السعادة الخاصة بالمعرفة .

و في التهذيب بإسناده إلى سدير قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام أي شيء على الرجل في طلب الرزق ؟ فقال : إذا فتحت بابك وبسطت بساطك فقد قضيت ما عليك .

تم والحمد لله

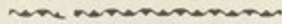


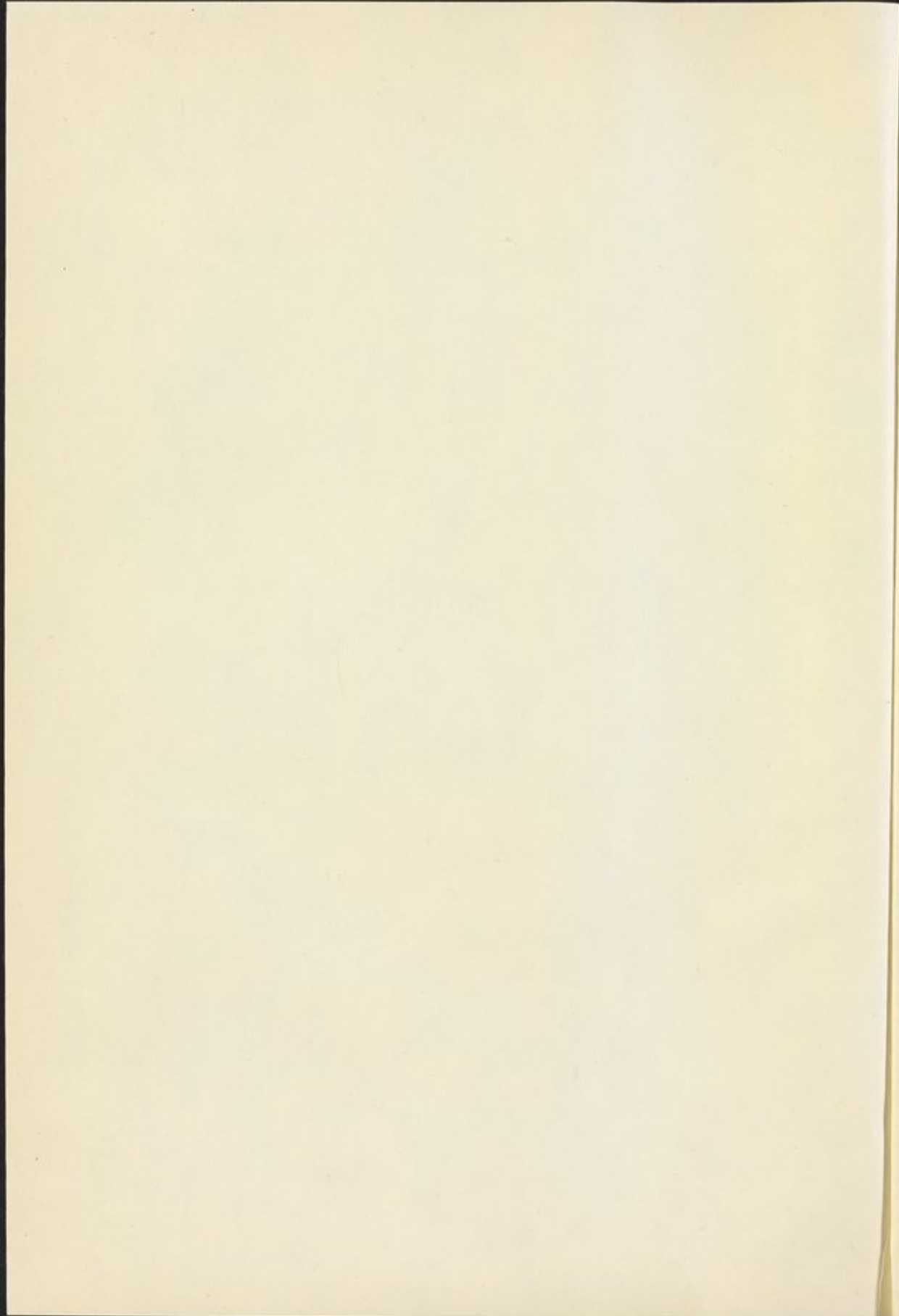
الصحيفة	نوع البحث	الموضوع	السورة
٢٠٧	فلسفي	بحث فلسفي و دفع شبهة	الاحقاف ١٤-١
٢٨١	قرآني وغيره	كلام في الايمان وازدياده	الفتح ٧-١
٣٤٣	قرآني واجتماعي	كلام في معنى الاخوة	الحجرات ١٠-١
٤٠٨	عقلي	كلام في تكافؤ الرزق والمرزوق	الذاريات ٥١-٢٠

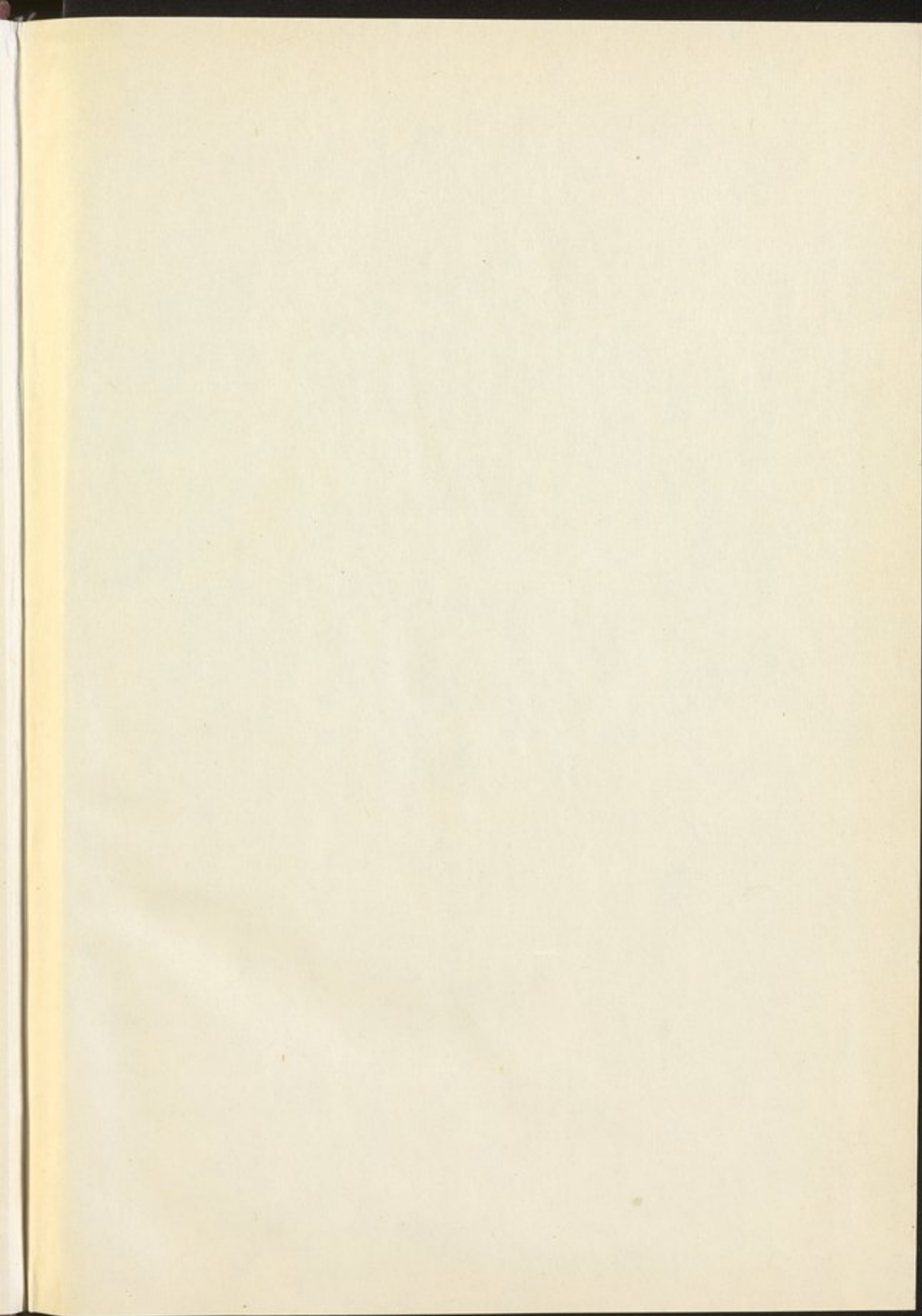
ص	س	الخطاء	الصواب	ص	س	الخطاء	الصواب
٧	٩	وهي واقعة	وهو واقع	٦٣	١٣	كان	كاف
١٧	٧	فريق في الجنة	فمنهم شقي و	٧٠	٢	فيها	فيهما
		وفريق في السعير	وسعيد	٧٣	١٣	المعصية	المصيبة
	١٠	يحترزوا	يتحرزوا		٢١	عنه ساعة	ساعة
٢١	١٩	١٤٧	٦٠	٧٨	٢٢	١٩٤	١٩٣
٢٦	٢	وما	والذي	٧٩	١٥	٨٣	٨٢
٢٧	١	»	»		١٦	اسرى	اسرى ٨٥
	١٠	»	»	٨٥	١	الزخرف	الزخرف مكينة
	١٦	»	»	٨٧	٨	٢	١
٢٨	٧	هناك	هناك غيرها	٢٠	٢	٢٠	٢٢
	١٣	شريعة	شريعة	٩٣	١١	الايات	الآية
٢٩	٢١	تدعوهم	ما تدعوهم	٩٨	١٣	(٢٦)	(٣٦)
٣٤	٣١	الحجة	المحجة	١٠٧	١٧	وقال	قال
٤٢	٢٣	النبي	زائد	١٠٨	١٧	تشاركوا	تشاركوا
٤٥	١٨	عامه	عامه	١٢٨	٩	يرتفع	يرفع
٤٨	٧	ابحاث	ايجاب	١٣٨	١٦	فرقناه	فرقناه
٥٢	١٦	تصلحوا	تصلوا		١٧	انزل	نزل
٥٣	٧	فال	قال	١٤٧	٩	١٤	٢٤
٥٧	٢	والله	الله	١٤٨	١٥	٢٦	٣٦
٥٨	١	بعباده	لعباده	١٥٠	٢٢	البقرة: ١٤٣	آل عمران: ١١٠
٥٨	١٢	سنة	سنة	١٥٦	٥	قيل	وقيل
٦٢	١٠	آية	آياته	١٥٨	٢٢	لا اظن	ما اظن

ص	س	الخطاء	الصواب	ص	س	الخطاء	الصواب
١٦٤	١	ست	سبع	٢٢٦	١٥	خصفة	حفصة
١٧٢	٢٠	السخرمة	السخرية	٢٣٠	٩	١٠٣	١٠٢
١٧٦	٢١	فذرني	وذرني	٢٣٧	٢	وما	والذي
١٧٦	٢٢	١٣	١٢	٢٤٣	٥	القتل	القتل بالسيف
١٧٨	١٥	فضلها	فضلوا	٢٤٤	٣	٤	٥
١٨٣	٣	الصالحين اهل	الطالحين اهل	٢٤٨	٦	شجاعه	شجاعة
١٨٥	١٤	معارك	من معارك	٢٥٥	١٥	وعلى	وهو على
١٨٦	٥	البيان	البيان يظهر	٢٥٥	١٦	ماخوذة	ماخوذ
١٨٧	٢	٦٠	٦١	٢٥٧	١١	٢٣	٢٤
١٩١	١٩	القيامة	يوم القيامة	٢٥٩	٤	المنتقلب	المنتقلب هو المنتقلب
١٩٩	٣	والارض	والارض وما بينهما	٢٣	٢٣	٣٢	٣٥
١٤	١٤	ارايتم	قل ارايتم	٢٦٩	٨	اولئك	اولئك الضعفاء الايمان
٢٠٣	٩	عن	من	المائلون الى النفاق			
٢٠٤	١٩	انزله عليك	انزل اليك	٢٧٠	١٦	هذا	هذه
٢٠٦	١٣	٢٩	٢٩	٢٠	٢٠	فلا	ولا
٢٠٧	٢١	محترم	محرم	٢٧٣	٦	عزيزا	عليما
٢١٠	١٧	كتمله	كتمله	٢٧٧	١٨	ان	لان
٢١٤	١٩	لا يخلو	لا تخلو	٢٧٩	٢٢	قليل النصر	قليل النظير
٢٢٣	٤	فتقول	وتقول	٢٨٤	٦	تفيد	يفيد
١٤	١٤	فتارة	وتارة	٢٨٧	١٢	الفتح	الفتح العظيم
١٥	٢٦	٢٦	٣٦	٢٩٢	٣	يرجع	ترجع
٢٢٦	٣	غناء	عناء	٢٩٨	٣	التعزيز	التعزيز

الصواب	الخطاء	ص	س	الصواب	الخطاء	ص	س
ويرتب	ويرتب	٢٠	٣٥٠	من	ومن	٢٣	٢٩٨
بسببية	بسببية	٢١	٣٦٠	٨٠	٨	٢٣	
يذكر	تذكر	٢٢	٣٦٧	عبدالسلام	عبدالله	٥	٣٠٠
سورة الحجر	سورة الحجر	٧	٣٧١	فلايمك	للايمك	١١	٣٠٣
مغفول	منقول	١٧	٣٨٠	ادل	اول	١	٣٠٦
وما انا	وانا	١٣	٣٨٣	٢١	٣١	١٨	٣١٣
بلى والله	والله	١٢	٣٨٧		وفي الكافي	٢٠	٣١٩
تذكرون	تذكرون	٧	٤٠٤	ان ينتهى	ينتهى	١٩	٣٢٠
٢٥	٢١	٢١	٤٠٦	٤٠	٤	١٨	٣٣٢
٢١	٢٥	٢٣		٣١	٢٠	٢١	٣٣٣
فقط او الى الله	فقط	١٨	٤٠٧	للحومة	للحرمة	٩	٣٣٦
				لادغام	لادغام	١٩	











Handwritten text in Arabic script, likely a title or author's name, located in the lower-middle section of the cover.

